

الأبله

فيودور دوستويفسكي

- ♦ المؤلف: فيودور دوستويفسكي
- ♦ Author : Fyodor Dostoevsky
- ♦ العنوان: الأبله
- ♦ Title: The Idiot
- ♦ ترجمة: حسين محمد القباني
- ♦ Translated by: Husein Al Kabany
- ♦ طبعة آفاق الأولى 2017
- ♦ Afaq's first edition: 2017
- ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- ♦ Cover Design by: Amr El Kafrawy
- ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
- ♦ Publishing Consultant: Sawsan Bashir
- ♦ المحرر العام: طارق هاشم
- ♦ General Editor: Tarek Hashim



رقم الإيداع:

٢٠١٦ / ٢٢٤١٢

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977-765 - 073 - 1

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-0111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة - من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ١١١١٦٠٢٧٨٧

فيودور دوستويفسكي

الأبله

ترجمة

حسين محمد القباني

مراجعة

علي أدهم

الجزء الأول

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

دوستويفسكي، فيودور.

فيودور دوستويفسكي : الأبله - ترجمة: حسين محمد القباني

ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2017

536 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 22412 / 2016

الترقيم الدولي 1 - 073 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء

2 - دوستويفسكي، فيودور

هذه ترجمة الجزء الأول من كتاب :

The Idiot

By

Fyodor Dostoevsky

القسم الأول

الفصل الأول

في نحو الساعة التاسعة من صباح يوم من أواخر شهر نوفمبر، وعبر رذاذ من الصقيع، كان ثمة قطار على خط سكة حديد وارسو- بطرسبرج يقترب من هذه المدينة النائية بكل سرعته. وكان الصباح قد بلغ من الرطوبة والضباب حدًا جعل ضوء النهار لا يُسفر إلا بمشقة بالغة. وكان من المستحيل أن تتبين أي شيء في مسافة تزيد على ياردات قليلة من نوافذ المركبة على جانبي القضبان الحديدية.

وبعض ركاب هذا القطار- بالذات- كانوا عائدين من الخارج، إلا أن مركبات الدرجة الثالثة كانت أكثر ازدحامًا بركاب معظمهم من العامة وصغار رجال الأعمال الذين استقلوا القطار من محطته الأخيرة. وكان الإرهاق يبدو على الجميع، وأمارات الشعور بالبرد والرغبة في النوم تلوح على معظمهم، بينما كانت وجوههم تبدو- بصفة عامة- كأنها استمدت لونها من الضباب في الخارج.

وعند إشراق شمس الصباح، وجد راكبان في الدرجة الثالثة، نفسيهما وجهاً لوجه.. وكان كلاهما في مرحلة الشباب، يرتديان ملابس تنم عن رقة الحال، ولوجه كل منهما طابع خاص مميز، ويلوح على كل منها

أنه مشوق إلى مبادرة الآخر بالحديث. ولو أنهما عرفا- في تلك اللحظة بالذات- ما يرين عليهما من غرابة وشذوذ، لخامرهما- بلا شك- العجب لهذه المصادفة الغريبة التي جمعت بينهما في إحدى مركبات الدرجة الثالثة بقطار شركة سكة حديد وارسو.

كان أحدهما شاباً يميل إلى القصر، في نحو السابعة والعشرين من عمره، له شعر أسود متجدد، وعينان صغيرتان رماديتان متقدتان، وأنف عريض مفرطح، ووجنتان بارزتان، وشفتان رفيفتان تلتويان دائماً بابتسامة وقحة ساخرة، من الممكن أن توصف بأنها شريرة حقودة. إلا أن جبينه كان مرتفعاً حسن التكوين يعوض الشيء الكثير من قبح الجزء الأدنى من وجهه. ولكن أبرز ما كان يميز ذلك الوجه صُفرة كصفرة الموتى، تضيء عليه سمة الإرهاق الشديد برغم نظراته المتقدمة. وفي الوقت نفسه، كان يلوح عليه نوع من الشعور بالألم النفسي العنيف الذي لم يكن يتناسب مع ابتسامته الوقحة الساخرة، ومظهره الدال على الرضى بالنفس. وكان يرتدي معطفاً كبيراً من فراء الاستراكان الأسود الذي زوده بالدفء طيلة الليل. هذا بينما اضطر زميله في السفر إلى احتمال برد روسيا في هذه الليلة من نوفمبر، بلا أدنى استعداد. ذلك أن رداءه الصوفي الواسع- الشبيه بالعباءة- ذا القلنسوة الكبيرة- وهو من النوع الذي يرتديه المسافرون شتاءً في ربوع سويسرا وشمالى إيطاليا- لم يكن ملائماً - بأية حال - لرحلة طويلة في جو روسيا البارد من مدينة أبكونين إلى بطرسبرج؛ وكان صاحب هذا الرداء شاباً- أيضاً- في نحو السادسة أو السابعة والعشرين من عمره، أطول قليلاً من المتوسط، له شعر أشقر غزير، ووجنتان غائرتان، ولحية رفيعة مدببة شهباء، وعينان واسعتان زرقاوان تطل من نظراتهما النفاذة تلك السمات التي تجعل الناس يعرفون أن

صاحبهما من المصابين بداء الصرع. وكان وجهه - رغم هذا - وسيماً تماماً، حساساً فاقد اللون أيضاً، إلا أنه - بسبب الحالة الجوية عندئذ - كان أزرق من فرط البرد. وكان يمسك بضرة متواضعة من قماش حريري حائل اللون يلوح عليها أنها تضم كل ملابسه التي يحملها في سفره. وكان يتنعل حذاءً غليظ النعل، له جرموق. وعلى الجملة كان سمته العام ينم بوضوح عن أنه ليس روسياً على الإطلاق Very un Russian.

لاحظ زميله الأسود الشعر هذه السمات كلها؛ لأنه لم يكن لديه ما يفعله خيراً من هذا، وأخيراً سأله وهو يستشعر هذا الإحساس من الغبطة الخبيثة التي تخامر عادة عامة الناس عند رؤيتهم متاعب الآخرين:

- برد؟

فأجاب زميله على الفور:

- جذاً. ومع هذا فهو رذاذ من الصقيع، فتصور لو كان جليداً قاسياً؟ لم يخطر ببالي قط أن البرد سيبلغ هذا الحد في أرض الوطن. يبدو أنني لم أعد آلفه.

- أظن أنك كنت خارج البلاد؟ أليس كذلك؟

- نعم عائد من سويسرا رأساً.

وهنا صقّر ذو الشعر الأسود وانفجر ضاحكاً.

- أوه، يا للسماء!

واستمرت المحادثة. وكان استعداد الشاب الأشقر ذي الرداء للإجابة عن جميع أسئلة زميله في السفر، باعثاً على الدهشة. وكان يبدو أنه لا يرتاب إطلاقاً فيما ينطوي عليه توجيه بعض هذه الأسئلة من سخرية ووقاحة وتبذل.

وبالإجابة عنها، جعل السائل يعرف أنه كان غائبًا عن روسيا مدة طويلة، أكثر من أربع سنوات. وأنه أرسل إلى الخارج للاستشفاء، وأنه كان يعاني من مرض عصبي غريب، نوع من الصرع ذي نوبات تشنجية، وقد ضحك زميله مرات عديدة لهذه الإجابات. وكان أشد ما أثار ضحكه إجابة المريض عن هذا السؤال:

- وهل شُفيت؟

- لا. إنهم لم يشفوني.

وهنا قال ذو الشعر الأسود في تهكم:

- ها! أهكذا؟ لقد ضيعت مالك في لا شيء. ومع ذلك فما زلنا هنا نؤمن بأطبائهم.

وهنا صاح راكب آخر رث الملابس في نحو الأربعين من عمره يبدو أنه أحد الكتبة الحكوميين، له أنف أحمر، ووجه منمَّش:

- صدقت وأيم الله، صدقت وأيم الله يا سيدي. إن كل ما يفعلونه هو الاستيلاء على نقودنا الروسية بلا مقابل دون أن يفعلوا شيئًا.

وقال المريض السويسري بهدوء:

- أوه، ولكنك مخطئ تمامًا في حالتي هذه الخاصة. وأنا بطبيعة الحال لا أستطيع مناقشة الموضوع بصفة عامة؛ لأنني لا أعرف إلا حالتي فقط. ولكن طبيبي أعطاني مالا- رغم قلة ما لديه من مال- لأدفع نفقات عودتي. هذا عدا إنفاقه عليّ من ماله الخاص في أثناء إقامتي هناك مدة عامين تقريبًا. وتساءل الشاب ذو الشعر الأسود قائلاً:

- عجبًا! ألم يكن هناك من يعولك غيره؟

- لا، بل كان المستر بافليشيف يعولني هناك وقد مات منذ عامين. وقد كتبت إلى زوجة الجنرال إيبانشين في ذلك الوقت - وهي تمت إليّ بقرابة بعيدة. ولكنها لم ترد على خطابي. ومن ثم رجعت أدراجي.

- وما الذي استقر عليه رأيك؟

- هل تعني أين سأحط رحالي؟ إنني - إنني في الواقع لا أعرف بعد. إنني..

وانفجر المستمعان إليه ضاحكين، ثم قال أولهما:

- أعتقد أن كل ما تملكه في هذه الصرة إذن؟

وقال الثاني، وهو الراكب ذو الأنف الأحمر في ارتياح تام:

- أراهن أن الأمر كما تقول تمامًا، وأنه لا يملك غير أقل القليل في مركبة البضاعة! هذا مع أن الفقر بطبيعة الحال ليس جريمة. ينبغي ألا ننسى هذه الحقيقة.

وبدا أن الأمر حقًا كما قالوا. فإن الشاب الأشقر بادر إلى الاعتراف بهذه الحقيقة بلا أدنى تردد.

وبعد أن ضحك الآخران ما شاء لهما الضحك، قال ذو الأنف الأحمر:

- إن صرتك على كل حال لها بعض الأهمية.

«والعجيب أن صاحب الصرة حين رآهما يضحكان، أخذ يشاركهما الضحك».

واستطرد الموظف الحكومي ذو الأنف الأحمر قائلاً:

- ورغم أنني على استعداد للمراهنة بأنها ليست محشوة بنقود ذهبية ألمانية أو فرنسية- أو حتى هولندية- لأن هذا واضح من حالة ملابسك وحذائك؛ إلا أنه إذا كان في مقدورك أن تضيف إلى صرتك هذه الصغيرة قريبة مهمة مثل زوجة الجنرال إيبانشين، فإنها تغدو شيئاً ذا أهمية فوراً، هذا إذا كنت- طبعاً- تمتّ بالقربى للمسز إيبانشين، أي إذا لم تكن قد أخطأت في هذا الأمر، عن طريق السهو الذي يُعتبر حالة شائعة بين بني البشر- أو، إذا شئت، عن طريق خيال جد خصيب.

فقال الشاب الأشقر:

- أوه. لقد أصبت الحقيقة مرة أخرى، لأنني في الواقع أكاد أكون مخطئاً في قلبي إنني قريب لها، فإنها لا تكاد تمتّ إليّ بوشائج قرى- والواقع أن صلة القرابة بيننا بعيدة إلى حد جعلني لا أدش عندما لم أتلّق ردّاً على خطابي. فقد كنت أتوقع هذا تماماً.

- هه! إذن فقد أنفقت ثمن طابع البريد سُدى! هه؟ وأنت على أية حال رجل طيب سليم الطوية. وهذا أمر خليق بالثناء جداً! هه؟ المسز إيبانشين- أي نعم! إنها شخصية مهمة جداً. فأنا أعرفها، أما عن المستر بافليشيف الذي عالكَ في سويسرا، فأنا أعرفه أيضاً، إذا كان هو حقاً نيكولاى أندريفتش بافليشيف! لأن هناك ابني عم بهذا الاسم؛ أحدهما لا يزال يعيش بالقرم، وأما الآخر، الراحل، المستر بافليشيف، فقد كان رجلاً وحيهاً واسع النفوذ إذ كان يعمل في مزارعه أربعة آلاف مزارع أجير.

فقال الشاب الأشقر في حماسة وهو يحملق باهتمام إلى السيد ذي الأنف الأحمر المُلم بكل شيء:

- نعم، نيكولاي أندريفتش... هكذا كان اسمه.

هذا النوع من الشخصيات «العالمين بكل شيء» كثيرًا ما يوجدون في طبقة معينة من الناس. إنهم أشخاص يعرفون كل إنسان. بمعنى أنهم يعرفون أين يشتغل رجل ما، وما هو مرتبه، ومن يعرف من الناس، وبِمَنْ تزوج، وكم تملك زوجته من مال، ومن هم أبناء عمومته الأقربين والأبعدين إلخ... إلخ.. وغير هذا أو ذاك من هذا القبيل، هؤلاء «العالمون بكل شيء» نرى أغلبهم في ملابس رثة، ولا يزيد مرتب الواحد منهم على خمسة عشر روبلاً في الشهر. وإن الناس الذين يعرف «هؤلاء العالمون بكل شيء» أدق أسرارهم الخاصة ليشق عليهم أن يتصوروا ما هي المقاصد الأساسية لهؤلاء الناس، والواقع أن «هؤلاء العالمين» ليجدون الشيء الكثير من الراحة المستمدة من هذه «المعرفة» التي تكاد تبلغ علمًا من العلوم. كما أنهم يستمدون منها إحساسًا بالاحترام الذاتي، بل وبالمتعة الروحية الكاملة. والواقع أن «معرفة» الأسرار علم يفتن أو يستهوي الكثيرين. فأنا أعرف علماء وأدباء وشعراء وساسة يجدون في هذا العلم راحة لعقولهم، وتحقيقًا لأسمى مطامحهم بل ويدينون له بأكبر الفضل في أعمالهم.

وكان الشاب ذو الشعر الأسود قد ناله الضجر خلال المرة الأخيرة من المحادثة، فراح يطل من النافذة متململاً، ويبدو عليه بوضوح أنه يهفو إلى نهاية الرحلة. وكان شارد الذهن جدًّا، يلوح كأنه ينصت دون أن يسمع شيئًا. وأحيانًا ينفجر فجأة بالضحك دون أن يعرف - كما يبدو - لماذا يضحك.

وفي شيء من المفاجأة قال الرجل ذو الأنف الأحمر للشاب صاحب الصرة:

- معذرة يا سيدي، إلى مَنْ أتشرف بالحديث؟

فقال الشاب بسرعة:

- إلى الأمير ليو نيكولايفيتش ميشكين.

فقال الموظف ذو الأنف الأحمر متسائلاً:

- الأمير ميشكين؟ ليو نيكولايفيتش؟ هه! إنني لا أدري يقيناً؟ ويمكنني أن أقول إنني لم أسمع بشخص كهذا؛ أو على الأقل بشخص يحمل هذا الاسم، وإن كنت أعترف أنه اسم تاريخي. فلا شك أن المؤرخ كارامزين قد ذكر في موسوعته التاريخية اسم هذه الأسرة طبعاً. ولكنني لم أسمع قط عن شخص يحمل هذا الاسم في الوقت الحاضر.

فأجاب الأمير قائلاً:

- طبعاً لا! فليس هناك من يحمل هذا الاسم غيري الآن. فأنا أعتقد أنني الوحيد والأخير الذي يحمله. أما آبائي وأجدادي فقد كانوا أحراراً فقراء. وقد كان أبي ضابطاً في الجيش برتبة ملازم ثان. ولست أدري كيف اتصلت المسز إيبانشين بأسرة ميشكين. ولكنها من نسل الأميرة ميشكين، وهي أيضاً الوحيدة والأخيرة التي تحمل هذا الاسم.

وهنا قال الشاب ذو الشعر الأسود:

- وهل درست العلوم وما إلى هذا مع أستاذك هناك؟

- أجل. درست بعض الشيء، ولكن..

- إنني لم أدرس شيئاً من أي نوع قط.

فأردف الأمير قائلاً وكأنما يعتذر إليه:

- أوه، ولكنني لم أدرس إلا الشيء اليسير أيضاً! إنهم لم يستطيعوا أن

يعلموني كثيرًا بسبب حالتي الصحية.

فسأله ذو الشعر الأسود قائلاً فجأة:

- هل تعرف آل روجوجين؟

- لا. لا أعرفهم إطلاقاً. إنني لا أكاد أعرف أحداً في روسيا. لماذا؟ هل

تحمل هذا الاسم؟

- نعم. إنني من آل روجوجين. بارفين روجوجين.

وهنا قال الموظف المدني، ذو الأنف الأحمر، بصوت ينم عن مزيد من الاحترام والاهتمام:

- بارفين روجوجين! يا الله. أأنت إذن أحد أفراد أسرة روجوجين؟!

فقاطعه روجوجين بسرعة وتململ وبشيء يسير من المجاملة:

- نعم، من نفس هذه الأسرة.

ويمكن القول إنه لم يحفل لحظة بالموظف ذي الأنف الأحمر، وإنما كان يوجه كل أحاديثه إلى الأمير مباشرة.

وقال الموظف وقد ارتسمت على وجهه أمارات الاحترام الشديد والخضوع، إن لم يكن الجزع التام:

- ويحي! أهذا ممكن؟ هل تعني يا سيدي أنك ابن سيميون روجوجين نفسه، ذلك المواطن سليل المجد والشرف الذي مات منذ شهر أو نحو ذلك تاركا مليونين ونصف مليون روبل!

فقاطعه الشاب ذو الشعر الأسود قائلاً في استعلاء دون أن يتنازل بمجرد النظر إليه:

- وكيف عرفت أنه ترك مليونين ونصف مليون روبل؟ على أية حال لقد مات أبي، حقًا، منذ شهر. وهانذا عائد من مدينة بزكوف، بعد شهر، وأنا أكاد أكون حافي القدمين. لقد عاملني أهلي كأني كلب. فقد كنت مريضًا بالحمى في بزكوف طيلة هذه المدة دون أن يكتبوا إليَّ سطرًا أو يرسلوا إليَّ شيئًا، وأعاني بهم أخي الدنيء وأمي.

وفرك الموظف المدني يديه وهتف قائلاً:

- ولكنك الآن سترث مليون روبل على الأقل، فيا قدرة الله!

فقال روجوجين وهو يشير إلى الموظف المدني في توفز عصبي وغضب:

- وما شأن هذا بالأمر؟ أخبرني! عجبًا! إنك لن تظفر مني بفلس ولو سرت أمامي مُكبًّا على رأسك.

- ولسوف أفعل يا سيدي! لسوف أمشي مُكبًّا على رأسي.

- أهكذا؟ هل تفعل هذا؟ إذن فاعلم أنني لن أمتحك شيئًا، أي شيء ولو رقصت حولي أسبوعًا كاملاً.

- إنني لا أطلب شيئًا، هذا ما أستحقه. وعليك ألا تعطيني شيئًا! ومع ذلك فسوف أرقص حولك. سأترك زوجتي وأبنائي الصغار لأرقص حولك. فمن الواجب أن أقدم فروض الولاء حيث ينبغي أن يكون التقدير.

فقال ذو الشعر الأسود في اشمئزاز:

- لتذهب إلى الجحيم.

ثم استطرد وهو يوجه الحديث إلى الأمير:

- كنت قبل خمسة أسابيع في مثل حالتك تمامًا. لا أملك شيئًا غير الملابس التي عليّ، وصرة في يدي. وكنت قد هربت من أبي وذهبت إلى بيت خالتي في مدينة بكوف حيث لزمّت - من فوري - الفراش مريضًا بالحمى. ومات أبي في أثناء غيابي. مات بالسكتة. ورغم أنني أتمنى لروحه الرحمة والغفران، إلا أنه كاد يقتلني يومذاك. صدقني أيها الأمير، أقسم لك أيها الأمير أن ما أقوله قد حدث. فلو لم أهرب منه عندئذ لقتضى عليّ.

فقال الأمير وهو ينظر إلى المليونير بنوع خاص من حب الاستطلاع:

- أعتقد أنك فعلت - ولا شك - ما أغضبه! أليس كذلك؟

ورغم أنه من الممكن أن يكون ثمة ما يشير الفضول حول رجل ورث مليون روبل، فقد كان هناك شيء آخر أكثر من هذا، أدهش الأمير وأثار اهتمامه. وبدا أن روجوجين، أيضًا، قد استغرق في الحديث بحماسة غير عادية. وكان من الواضح أنه لم يزل في حالة انفعال نفسي عنيف، إن لم يكن محمومًا تمامًا، وأنه أحوج ما يكون إلى شخص يتحدث إليه لمجرد الرغبة في الحديث الذي كان يعتبره صمام أمان لانفعالات نفسه.

أما عن جاره ذي الأنف الأحمر، فقد بدا - منذ عرف حقيقة أمر روجوجين - كأنه يعيش معلقًا على معسول حديثه وتنفس أنفه، ملتقطًا كل مقطع من كلامه كأنه حبة من اللؤلؤ الغالي الثمن.

وأجاب روجوجين عن سؤال الأمير:

- أوه، نعم. لقد أغضبته. أغضبته بكل تأكيد. ولكن الذي يشير حفيظتي الآن هو أخي. وبطبيعة الحال ليس في وسع أمي أن تفعل شيئًا، فهي عجوز تعيش على قراءة تاريخ حياة القديسين، وتقضي وقتها مع خادمتها العجائز.

وإن كل ما يقوله أخي سنكا يعتبر في نظرها قانونًا. فلماذا لم يبلغني الأمر؟ لقد قيل إنه أرسل برقية. فما جدوى هذه البرقية؟ لقد أفرغت خالتي مما جعلها تعيدها إلى المكتب دون أن تفضها. وهي لا تزال باقية هناك. إن الفضل في هذا فقط يرجع إلى كونييف الذي أخبرني بكل شيء. فقد كتب إليّ بجميع التفاصيل، وقال إن أخي قطع - ليلاً - الشراب الذهبية من كفن أبي؛ لأنها كما يقول: «تساوي مبلغًا كبيرًا من المال» إن في مقدوري إذا شئت - أن أبعث به إلى سيبيريا لهذا السبب وحده. فإن هذا انتهاك لحرمة الموتى..

ثم أردف قائلاً للموظف المدني الجالس بجانبه:

- أنت أيها الصعلوك العجوز ألا يعتبر هذا الفعل، بحكم القانون، انتهاكًا لحرمة الموتى أم لا؟!

فقال هذا فورًا:

- نعم، نعم، انتهاك لحرمة الموتى، بلا شك.

- وعقاب هذه الجريمة النفي إلى سيبيريا، أليس كذلك؟

- لا شك في هذا، سيبيريا طبعًا.

واستطرد روجوجين موجهاً الحديث إلى الأمير:

- لسوف يظنون أنني لم أزل مريضًا. ولكنني تسللت بهدوء - رغم حالتي المرضية - وركبت القطار للعودة. مهلاً أيها الأخ سنكا. لسوف تفتح أبوابك وتدخلني يا ولدي! وأنا أعلم أنه كان يمشي بالنسيمة بيني وبين أبي. نعم. أعرف هذا عن يقين، ولكنني في الحقيقة أثرت غضب أبي عليّ بسبب ناستاسيا فيليبوفنا. هذا ما فعلته حقًا وما أثار الاضطراب في حياتي.

فقال الموظف المدني وكأنه يحاول أن يتذكر شيئاً:

- ناستاسيا فيليوفنا!

فقال روجوجين في ضجر:

- ها! أتعرف عنها شيئاً؟

فقال الآخر في زهو:

- ولنفرض أنني أعرف شيئاً عنها!

- ويحك!! ما أكثر الفتيات المسميات بهذا الاسم. ويا لك من حيوان
وقح!

ثم أردف قائلاً في غضب:

- خطر لي أن بعض المخلوقات أمثالك سوف يتطفلون عليّ بمجرد
حصولي على أموال.

فقال الموظف بصوت ينم عن الانفعال الشديد:

- أوه. ولكن الذي حدث هو أنني أعرف! إنني - لبيديف - أعرف كل
شيء عنها. وإنك يا سيدي لمسرور بلومك إياي. ولكن كيف يكون الحال
إذا أثبتت أنني رغم كل شيء على صواب. إن اسم أسرة ناستاسيا فيليوفنا هو
باراشكوف، أترى أنني أعرف؟ وهي سيدة جد معروفة حقاً وتنحدر من أسرة
كريمة أيضاً. وهي تمت بالصلة لرجل يدعى توتسكي، واسع الثراء، ومدير
لشركات عديدة وما إلى هذا، وعدا هذا فهو صديق حميم للجنرال إيبانشين
الذي يشاركه الاهتمام بهذه الشؤون.

وهتف روجوجين دهشاً حقاً:

- ويحي! ليأخذ الشيطان هذا الرجل! كيف عرف هذا كله!

- ما وجه العجب! إنني أعرف كل شيء، نعم إن ليبيديف يعرف كل شيء، لقد أمضيت مع ألكسندر ليهاكوف نحو شهرين بعد وفاة أبيه؛ وكنت معه وهو يروح هنا وهناك- إنه الآن في سجن المدينين- نعم كنت معه. ولم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً بدون ليبيديف وعن هذا الطريق عرفت ناستاسيا وشخصيات كثيرة أخرى في ذلك الحين.

وهنا صاح روجوجين وقد امتقع لونه:

- ناستاسيا فيليبوفنا! عجباً! أتريد أن تقول إنها وليهاكوف...

فبادر ليبيديف قائلاً بسرعة:

- لا لا لا لا! لا شيء من هذا القبيل. أؤكد لك. أوه. لا يا عزيزي. مطلقاً! إن توتسكي هو الشخص الوحيد الذي متاح له الفرصة للاتصال بها. لقد استأجر لها ذات مساء مقصورة لمشاهدة مسرحية غنائية في الملهى الفرنسي. وكان المتفرجون والإداريون ينظرون إليها ويقولون: «بحق الله! هذه ناستاسيا فيليبوفنا المشهورة»، ولم يكن في وسع أحد أن يزيد؛ لأنه لم يكن ثمة ما يقال أكثر من هذا.

فقال روجوجين بوجه متجهم وجبين مقطب:

- نعم. هذا ما حدث تماماً. لقد أخبرني زاليشوف بهذا في حينه. أترى أيها الأمير، كنت أتمشى ذات يوم جميل في شارع نيفسكي مرتدياً معطف أبي القديم عندما رأيته فجأة تخرج من متجر وتستقل مركبتها. وأقسم لك أنني أخذت بجمالها. ثم لقيت زاليشوف، وكان يبدو كصبي حلاق أنيق- على النقيض مني تماماً- بينما كنت أبكو كسمكري. وفي بيت أبي، أخذنا

نتمشى بأحذيتنا البالية بعد أن تناولنا عشاء من حساء الكرنب فقط. حسنًا. وقد قال لي: «لا تغتر بنفسك يا ولدي؛ فإنها ليست لأمثالك. إنها أميرة. نعم، واسمها ناستاسيا فيليوفنا باراشكوف. وهي تقيم مع توتسكي الذي يريد أن يتخلص منها لأنه يقترب من الشيخوخة - الخامسة والخمسين أو نحو ذلك - ويرغب في الزواج بسيدة معينة، أجمل سيدة في مدينة «بترسبرج» ثم أخبرني أنني أستطيع رؤية ناستاسيا في مسرح الأوبرا ذلك المساء، ووصف لي مقصورتها. حسنًا. ولكن أبي ما كان يسمح لنا بالذهاب إلى المسارح. كان يؤثر أن يقتلنا على السماح لنا بالذهاب. إلا أنني، على أية حال، ذهبت وأمضيت نحو ساعة، ورأيت ناستاسيا فيليوفنا. ولم يغمض لي جفن طوال الليل بعد ذلك. وفي الصباح حدث أن أعطاني أبي سنيدين من قرض الحكومة لأبيعهما: كل سند يساوي نحو خمسة آلاف روبل، وقد قال لي: «بعهما، وامض بسبعة آلاف وخمسمائة روبل إلى المكتب، وسلم المبلغ للصراف، ثم عُدّ بباقي العشرة الآلاف روبل إليّ دون أن تتسكع لحظة في الطريق. وعليك أن تلزم الحذر الشديد، وسأكون في انتظارك» حسنًا. وبعث السندين، ولكنني لم أمض بالسبعة الآلاف روبل إلى المكتب، وإنما مضيت فورًا إلى متجر إنجليزي واشترت زوجًا من الأقراط، في كل قرط قطعة من الماس في حجم البندق، وقد زاد ثمنهما أربعمئة روبل على ما كان معي، فأعطيت اسمي لأصحاب المتجر الذين وثقوا بي، ومضيت بالقرطين فورًا إلى زليشوف وقلت له: «هلم إلى ناستاسيا فيليوفنا» وانطلقنا إليها بلا تردد. وأؤكد لك أنني لم أكن أدري ماذا دهاني وأذهلني عن كل شيء. وقصدنا رأسًا إلى غرفة الاستقبال بمنزلها، وأقبلت هي علينا، ولم أذكر لها - في بادئ الأمر - شيئًا عن نفسي، ولكن زليشوف قال لها: «هل تقبلين هذه من بارفين

روجو جين تخليدًا لذكرى لقائه لك ليلة أمس؟». وفتحت العلبة، ونظرت إلى القرطين وضحكت. وقالت: «شكرًا لك أيها الصديق روجو جين على هذه اللقطة الكريمة» ثم انحنت وانصرفت. أوه. لماذا لم أمت في مكاني عندئذ! لقد كان أسوأ ما في الأمر أن زاليشوف هو الذي فاز بالفضل كله. أما أنا فقد كنت قصيرًا رث الملابس، واقفًا أحملق في وجهها دون أن ألفظ بكلمة لأنني كنت خجولًا! بينما كان هو يرتدي آخر طراز من الملابس، أنيقًا، معطرًا، متزين بعناقة «كرافت» فاخرة، ويتصرف بلباقة وتهذيب. وأنا أراهن بأي شيء على أنها ظنته إياي طوال هذه المدة. وقد قلت له عندما انصرفنا: «اسمع الآن. إنني لا أريد بعد هذا أن تحشر نفسك بيني وبينها، أفهم؟» فضحك وقال: «وكيف تنوي أن تسوي الأمر بينك وبين أبيك؟» ودار بذهني أنه من الأفضل أن أغرق نفسي في نهر نيفا فورًا بدلًا من العودة إلى البيت. ولكنني أدركت أنني لن أستطيع هذا، مهما حاولت، ومن ثم عدت إلى البيت وأنا أشعر كالمحكوم عليه بالهلاك..

وارتعد الموظف ليبيديف وقال موجهاً الحديث للأمير:

- يا للسماء. إن أباه ما كان ليتردد في قتل أي إنسان يسرق منه عشرة روبلات فما بالك بعشرة آلاف!

وتأمل الأمير بفضول شديد وجه روجو جين وقد بدا أشد ما يكون امتقاعًا في تلك اللحظة. ولكن هذا صاحب قائلًا:

- وماذا تعرف عن هذا الموضوع! حسنًا! لقد عرف أبي كل ما حدث فورًا.

وعدا هذا أشاع زاليشوف الأمر في أنحاء المدينة. ومن ثم أخذني أبي

إلى غرفة بالطابق الأعلى، وحسبني، وظل يسبني ساعة، ثم قال: «هذه فقط عينة، انتظر قليلاً حتى يأتي المساء، ولسوف أعود لأتناقش معك» ثم ماذا تظنون قد حدث! لقد ذهب أبي رأساً إلى ناستاسيا فيليوفنا وقبل الأرض بين يديها وبدأ ينشج متوسلاً إليها وهو راکع على ركبتيه أمامها لتعيد إليه القرطين الثمينين. وأخيراً، بعد حين، أحضرت اللعبة وقذفته بها قائلة: «هذه هي، خذ قرطيك أيها العجوز التعس البخيل. خذهما برغم أنهما الآن في نظري أثمن عشر مرات بعد أن عرفت ما عاناه بارفين في سبيلهما. احمل إلى بارفين تحياتي، واشكره كثيراً» وكنت في خلال هذا قد اقترضت خمسة وعشرين روبلاً، وانطلقت إلى خالتي في بزكوف. وقد ظلت تلك العجوز تعنفني وتُلقي عليّ باللائمة حتى تركت البيت وأخذت أنتقل من حانة إلى أخرى. وكنت عند وصولي إلى بزكوف أعاني من حمى شديدة، فلما جن الليل، كنت ملقى أهذي في هذا المكان أو ذاك من شوارع المدينة.

وأرسل ليبيديف ضحكة بلهاء، وقال وهو يفرك يديه مرحاً:

- أوهو! لسوف نجعل ناستاسيا تترنم من أجلك بأغنية أخرى. هيا يا ولدي، لسوف نشري لها أقراطاً أخرى مناسبة.. أقراطاً ليس لها..

فصاح روجوجين وهو يمسك بذراع الموظف في عنف:

- اسمع يا هذا، اسمع.. لو أنك لفظت باسم ناستاسيا مرة أخرى لضربتك ضرباً قد يفضي بك إلى الموت.

- آها؟ أفعل هذا. فإنك إذ تجلدني لن تستطيع أن تصرفني عنك. إنك ستشدني إليك، بقربانك إلى الأبد. ها. ها. لقد وصلنا إلى المحطة أخيراً.

وكان القطار، في الواقع، يتوقف في المحطة عندئذ.

ورغم قول روجوجين إنه غادر بزكوف سرًا، إلا أن عددًا كبيرًا من الأصدقاء كانوا محتشدين لتحيته، وقد حيوه بحماسة وهم يهتفون ويلوحون بقبعاتهم.

وغمغم روجوجين وهو يتأمل هذا المنظر في زهو مع ابتسامة باردة:

- عجبًا! إن زاليشوف هنا أيضًا!

ثم استدار فجأة إلى الأمير وقال:

- إنني لا أدري أيها الأمير لماذا شعرت بالميل إليك. ربما لأنني قابلتك في مثل هذه الظروف. ولكن لا، لا يمكن أن يكون هذا هو السبب، فقد التقيت أيضًا بذلك الرجل.

ثم أومأ برأسه إلى لبيديف وأردف قائلاً:

- دون أن أميل إليه بأية حال. تعال لزيارتي أيها الأمير، ولسوف ننضو عنك جرمونك البالي، ونلبسك ثوبًا من الفراء الفاخر، من خير ما يمكن شراؤه. لسوف تكون لديك حُلة من أفخر نوع، وصدار أبيض، وكل ما تشتهي، وسوف تمتلئ جيوبك بالمال. تعال. ولسوف تذهب معي إلى بيت ناستاسيا فيليبوفنا. والآن، هل تأتي أم لا؟!

فقال لبيديف جادًا:

- وافق، وافق أيها الأمير ليو نيكولايفيتش! لا تدع هذه الفرصة تغفل منك، وافق بسرعة.

فنهض الأمير ليو ميشكين وبسط يده متلطفًا بينما أجاب قائلاً في مودة:

- لسوف آتي بكل سرور، وأشكرك كثيرًا على شعورك الودي نحوي.

ويمكنني القول إنني قد أستطيع زيارتك اليوم إذا أتيحت لي الفرصة لأنني بلا مرء، أحبك أيضًا كثيرًا. لقد أحبيتك خاصة عندما حدثتنا عن القرطين. ولكنني أحبيتك قبل ذلك أيضًا رغم أن لك وجهًا متجهماً دائماً. وأشكر لك كثيرًا ما ستقدمه لي من معطف فراء وملابس. لأنني في الواقع محتاج الآن إلى الاثنين: المعطف والملابس، أما عن المال، فإني لا أكاد أملك في هذه اللحظة شيئاً.

- لسوف يكون لديك مبالغ كبيرة من المال. ولن يأتي المساء إلا ويكون لديّ منه الكثير، ولهذا أرجو أن تأتي.

وقال ليبيديف متلطفًا:

- هذا صحيح، لسوف يكون لديه مال كثير في المساء.

وسأل روجوجين الأمير قائلاً في اكتئاب وتجهم:

- ولكن اسمع. هل أنت بارع مع النساء؟ يحسن أولاً أن أعرف هذا.

- أوه، لا. لا. إنني لا أستطيع؛ لأنني كما تعرف كنت مريضاً منذ طفولتي ومن ثمّ فليست لي أية خبرة بالنساء على الإطلاق.

وهنا صاح روجوجين قائلاً لليبيديف:

- هه. حسنًا. يمكنك أن تأتي معي إذا شئت.

وهكذا غادر الثلاثة المركبة.

ونال ليبيديف بغيته. ومضى مع الجمع الصاخب من أصدقاء روجوجين نحو شارع فوزنسكي بينما كان طريق الأمير يتجه نحو شارع لينيانيا. وكان الجو رطبًا ممتلئًا بالضباب. وسأل الأمير بعض المارة عن وجهته، فلما علم أنه يبعد عن غايته بميلين أو أكثر، قرر أن يستقل مركبة مستأجرة.

الفصل الثاني

كان الجنرال إيبانشين يقيم في بيته الخاص بالقرب من شارع لينيانيا. وعدا هذا المنزل الكبير الذي يؤجر خمسة أسداسه للسكنى والإقامة، فهو يمتلك منزلاً آخر ضخمًا في شارع سادوفايا يدرّ عليه دخلًا أكثر من الأول. وفضلاً عن هذين المنزلين، فقد كان يمتلك مزرعة جميلة خصبة على مسافة ميل أو ميلين من مدينة بطرسبرج، ومصنعًا في جانب آخر من المدينة. وكان الجنرال قبل ذلك بأعوام- كما يعرف الجميع- يحتكر بعض الأعمال الحكومية؛ وقد أصبح له صوت مسموع وأهمية كبيرة في كثير من الشركات العامة المختلفة الأنواع. وكان- في الواقع- مشهورًا بالثراء، وبأنه من رجال الأعمال ذوي الاتصالات العديدة والنفوذ الواسع. وقد استطاع أن يجعل من نفسه شخصية لا غناء عنها في جهات كثيرة، من بينها الإدارة الحكومية التي يعمل بها. ومع ذلك فقد كان من الحقائق المعروفة للجميع أن الجنرال فيدور إيفانوفيتش إيبانشين رجل بلا أي نوع من العلم والثقافة، وأنه ارتقى من مرتبة نفر بالجيش.

ولا تعني هذه الحقيقة الأخيرة شيئًا، طبعًا، أكثر من كونها ميزة في صالح الجنرال. ومع ذلك، ورغم أنه بلا أدنى شك رجل حصيف، فقد كانت

له نقاط ضعفه البسيطة المغتفرة بسهولة! ومنها كراهيته لأي تلميح إلى هذه الحقيقة السابق ذكرها، ولم يكن ثمة شك في أنه رجل بارع ذكي. فمثلاً كان من دأبه دائماً ألا يبرز نفسه إذا كان من الأفضل له أن يبقى في الصفوف الخلفية. وكانت النتيجة أن عدداً كبيراً من الشخصيات العظيمة أحبه لتواضعه وبساطته ولأنه «يعرف حدوده»! ولو أن هؤلاء الناس إذا استطاعوا فقط أن يختلسوا النظر إلى عقلية هذا الرجل الممتاز الذي «يعرف حدوده» تماماً! إذن لأدركوا أنه - رغم كل تجاربه العديدة وإمكانياته الممتازة - يحب دائماً أن يبدو في مظهر الرجل الذي يفضل الأخذ بأراء غيره على آرائه هو. وكذلك قلما كان الحظ يخلذه، حتى في لعب الورق الذي كان من فرط شغفه به لا يحاول إخفاء هذا الشغف عن أحد. وكان يلعب بمبالغ كبيرة مما أتاح له الاختلاط بطبقات مختلفة في المجتمع.

أما عن السن، فكان الجنرال في عنفوان الحياة، أي في نحو الخامسة والخمسين من عمره، وهو العمر الذي يتفتح فيه الشعور بالوجود، ويبدأ فيه الإحساس الحقيقي بمتع الحياة. أما عن الناحية الصحية، فكان متورد البشرة سليماً، رغم صفار أسنانه، متين الأسر، صلب العود، يبدو منكباً على أشغاله في ساعات العمل، لطيفاً مرحاً في أوقات اللعب مساءً. وفي هذا كله ما ينم عن النجاح في الحياة، وعن فرش طريقه بالزهور.

وكان الجنرال رب أسرة مزدهرة تتكون من زوجة وثلاث بنات شابات، ذلك أنه تزوج صغيراً عندما كان برتبة ملازم أول، وكانت زوجته فتاة في مثل سنه، عاطلة عن الجمال والعلم، ولم تقدم إليه أكثر من قطعة أرض يعمل عليها خمسون مزارعاً أجيراً. ولكن هذه المزرعة الصغيرة، على كل حال، كانت «الخميرة» لممتلكات أعظم وأوسع. ولم يخامر الجنرال الندم

قط على زواجه المبكر، ولم يعتبره يومًا نوعًا من طيش الشباب. وقد بلغ من احترامه وتوقيره لزوجته أنه غدا أقرب ما يكون إلى التدله بها. وكانت زوجته، المسز إيبانشين، تنحدر من أسرة الأمير ميشكين، وهي وإن لم تكن أسرة ألمعية، فقد كانت على أية حال عريقة المحتد بلا أدنى شك. وكانت هي فخورة إلى حد كبير بعراقة أصلها.

وقد عاش الزوجان حياتهما الزوجية الطويلة في سعادة غامرة بلا أية مشاكل، عدا بعض الخلافات البسيطة. وكانت الزوجة، وهي في صباها، قادرة على عقد وشائج الصداقة مع الطبقة الأرستقراطية، عن طريق أصلها العريق من جهة، وعن طريق براعتها وذكائها من جهة أخرى. أما بعد ذلك، فقد استطاعت أن تتخذ لها مكانًا بين أعلى طبقات المجتمع بفضل ثراء زوجها ومكانته في الجيش.

أما بنات الجنرال الثلاث: ألكسندرا، وأديليدا، وأجلايا، فقد بلغن مرحلة الصبا والشباب في خلال السنوات القليلة الأخيرة. وبطبيعة الحال كن يحملن اسم أبيهن إيبانشين، ولكن من المتوقع، بسبب عراقة أصل أمهن، أن يكون صداقهن مبلغًا كبيرًا من المال. وكان أبوهن يأمل في الوصول إلى مركز ممتاز جدًا في حكومة بلاده. وهذا كله كان مدعاة للغبطة والرضى. وكانت البنات الثلاث جميعًا جميلات، حتى كبراهن التي بلغت الخامسة والعشرين من عمرها. أما الوسطى فكانت في الثالثة والعشرين، بينما بلغت الصغرى «أجلايا» العشرين من عمرها، وكانت هذه على جانب كبير من الجمال، وقد بدأت من ثم في لفت نظر المجتمع الراقي إلى حد كبير. ولكن هذا لم يكن كل شيء؛ لأن ثلاثتهن كن بارعات، مثقفات، مهذبات.

وكان المعروف للجميع أن كل واحدة من هؤلاء الأخوات تحب

الأخريين، وتناصر كل منهن الأخرى في كل شيء. بل قيل إن الأختين الكبيرتين قامتا بتضحيات معينة من أجل قرّة عين البيت، أجلايا. ولم يكن في المجتمع يكرهن فقط حب الظهور، وإنما يفضلن أيضًا التواضع والبساطة. ورغم أنه لا يمكن لأحد أن يتهمهن بالتعالي والغطرسة، فإن الجميع كانوا يدركون تمامًا أنهن معتزات بأنفسهن فاهمات حقيقة وضعهن في الحياة. وكانت الكبرى مشغوفة بالموسيقى، والوسطى رُسامة بارعة، وهي حقيقة لم تُعرف عنها إلا أخيرًا. وعلى الجملة كان المجتمع يتحدث عنهن بالخير، وذلك رغم أنهن لم يكنّ بلا أعداء. وكثيرًا ما كان الناس يتحدثون- في فزع- عن عدد الكتب التي يقرّانها.

ولم يكنّ ملهوفات على الزواج. ورغم حبهن للاختلاط بالمجتمع الراقي، إلا أنهن لم يكنّ مهتمات به إلى حد كبير. وكان هذا كله في صالحهن؛ لأن الجميع كانوا يعرفون الآمال والأهداف التي تداعب والديهن.

كانت الساعة في نحو الحادية عشرة ظهرًا عندما دق الأمير جرس باب الجنرال إيبانشين. وكان هذا يسكن الطابق الثاني من منزله، في مسكن يتلاءم- رغم بساطته- مع مركزه في المجتمع. وفتح الباب خادم في ملابس التشريفة. واضطر الأمير إلى حديث طويل يقدم به نفسه لهذا السيد الذي نظر- في بادئ الأمر- إليه وإلى صرته، في ارتياب واضح. وأخيرًا وبعد أن أكد له أنه حقًا الأمير ميشكين، وأنه يريد مقابلة الجنرال لأمر مهم جدًا، مضى به التشريفاتي المدهوش إلى ردهة انتظار صغيرة، تؤدي إلى غرفة استقبال مجاورة لمكتب الجنرال، وهناك سلمه إلى تشريفاتي آخر مهمته البقاء في ردهة الانتظار طيلة فترة الصباح لتقديم الزوار إلى الجنرال. وكان هذا الخادم الثاني يرتدي بزة رسمية، وفي نحو الأربعين من عمره، ويعتبر الحاجب

الخاص لمكتب الجنرال، وكان شديد الاعتزاز بمنصبه.

وقال هذا الحاجب للأمير وهو يجلس في استرخاء على مقعد مريح بردهة الانتظار:

- انتظر من فضلك في الغرفة الأخرى واترك صرتك هنا.

ثم نظر إلى الأمير في دهشة وتجهم عندما جلس هذا في مقعد بجواره ووضع الصرة على ركبتيه:

- إنني أوتر الجلوس هنا معك، إذا لم يكن لديك مانع. إنني أفضل هذا المكان على الجلوس هناك.

- ولكنك لا تستطيع المكوث هنا؛ لأنك زائر - أو بتعبير آخر - ضيف. أهو الجنرال نفسه الذي تريد أن تقابله!

ويبدو أن الخادم لم يستطع أن يقنع نفسه بصواب السماح لرجل رث الملابس كهذا بالدخول، ومن ثم قرر أن يكرر عليه السؤال، وهنا قال الأمير:

- نعم.. إن لدي بعض الأعمال مع الجنرال.

- إنني لم أسألك أي نوع من الأعمال قد تكون بينك وبين الجنرال؛ إن كل مهمتي هي أن أعلن وجودك. ولن أستطيع أن أفعل هذا ما لم يحضر السكرتير.

ولاح أن ريبة الخادم كانت تزداد لحظة بعد أخرى، ذلك أن الأمير كان أبعد ما يكون مظهرًا عن الزوار اليوميين العاديين. ورغم أن الجنرال كان يستقبل أحيانًا، بسبب الأعمال، رجالًا من أنواع ومراكز مختلفة، إلا أن الخادم، رغم هذه الحقيقة، كان يشعر بالشك في أمر هذا الزائر بالذات. ولهذا رأى أن وجود السكرتير، في هذه الحالة، أمر ضروري.

وأخيراً سأله في شيء من الارتباك:

- هل جئت من الخارج، حقاً؟

ثم توقف عن الحديث لأنه كان في الواقع يريد أن يسأله:

«هل أنت حقاً الأمير ميشكين؟».

- نعم، جئت من المحطة رأساً. ألم تكن تريد أن تقول الآن «إنك بلا

ريب لست الأمير ميشكين» ولكنك امتنعت بمجاملة!

وهمهم الخادم المدهوش بكلمة مدغمة.

وقال الأمير:

- أؤكد لك أنني لا أخدعك. ولن تكون مسؤولاً عني، أما عن ارتدائي

هذه الملابس، وحملتي لهذه الصرة، فليس في هذا ما يدهش؛ لأن ظروفني ليست كما ينبغي في الوقت الحاضر.

- لا، ليس هذا ما يقلقني. فما عليّ إلا أن أعلن حضورك فقط، ولسوف

يأتي السكرتير حالاً. هذا إلا إذا كنت - وهذا هو سبب المشكل - وأرجو
المعذرة، قد جئت تلتمس إحساناً.

- أوه، لا، لا إطلاقاً. يمكنك أن تطمئن من هذه الناحية؛ فقد جئت

لسبب آخر مختلف.

- إنني آسف جداً يا سيدي، فإن مظهرك يدعو إلى الظن، ولكن عليك

فقط أن تنتظر السكرتير؛ فإن الجنرال مشغول الآن. ولكن السكرتير سوف
يخرج مؤكداً.

- أوه، حسناً. ولكن اسمع، إذا كنت سأنتظر بعض الوقت، فهل تسمح

وتخبرني أين يمكن أن أدخن! إن لديّ المتبغ والتبغ.

فقال الرجل مذهولاً في دهشة وتقزز وهو يطرف بعينه إلى الأمير كأنما لا يصدق سمعه:

- تدخن؟! لا يا سيدي إنك لا تستطيع أن تدخن هنا. وإني لأعجب كيف لا تحجل من طلب كهذا! ها ها، إنه طلب عجيب، هذا هو رأيي.

- أوه. إنني لا أعني في هذه الغرفة، فأنا أعرف أنني لا أستطيع التدخين هنا طبعاً. يمكنني الانتقال إلى غرفة أخرى أو حيثما تمضي بي. أترى، أنني أكثر التدخين عادة، ولم أنعم بتدخين ملء متبغ واحد منذ ثلاث ساعات. وعلى كل حال، فليكن لك ما تريد.

وهنا غمغم الخادم قائلاً:

- كيف بالله أعلن حضور رجل كهذا! فأنت، أولاً، لا حق لك في البقاء هنا إطلاقاً. إذ ينبغي أن تجلس في غرفة الاستقبال لأنك زائر، أو ضيف في الواقع، ولن أنجو من اللوم لهذا السبب.

ثم أردف قائلاً وهو يرمق صرة الأمير في قلق مرة أخرى:

- اسمع.. هل تنوي الإقامة معنا هنا؟

- لا.. لا أعتقد هذا.. لا أعتقد أنه ينبغي الإقامة هنا حتى لو دُعيت إليها.. إنني أتيت للتعرف بهم، ولا شيء غير هذا.

فقال الرجل متعجباً وقد عاوده الشك مضاعفاً:

- لتتعرف بهم؟ إذن لماذا قلت إن لديك مهمة ما مع الجنرال؟

- أوه! حسناً إنها مهمة بسيطة. إن هناك أمراً يسيراً، أو مشورة أريد

أن أعرف رأيها عنها. ولكن هدفي الأساسي، ببساطة، هو تعريفهم بي؛ لأنني الأمير ميشكين، ومدام إيبانشين هي الأخيرة في فرع أسرتها، وليس هناك أحد من أسرة ميشكين على قيد الحياة غيري وغيرها.

فسأله الخادم في تعجب بلغ حد الإحساس بالجزع:

- ماذا؟ إنك أحد الأقارب إذن؟ أليس كذلك؟

- حسنًا.. أكاد أكون، وإذا أنت توسعت في هذه النقطة، فإنني قريب لهم طبعًا. ولكنها قرابة بعيدة بحيث لا يستطيع الإنسان أن يعنى بها. لقد كتبت ذات مرة رسالة إلى سيدتك. وأنا في الخارج، ولكنها لم ترد عليّ. ومع ذلك فقد خطر لي أن من اللياقة التعرف بها عند وصولي. إنني أذكر لك هذا كله لأطمئنك؛ لأنني أراك أبعد ما تكون عن الاطمئنان من ناحيتي. إن كل ما عليك هو أن تعلن حضوري باسمي وبعد ذلك سيتوضح الغرض من زيارتي. فإذا رغبوا في استقبالي، فلا بأس، وإلا فلا بأس أيضًا، ولكن بالتأكيد سيستقبلونني، هذا ما أعتقد. فمن الطبيعي أن يدفع الفضول مدام إيبانشين لترى آخر من يمثل أسرتها، إنها شديدة الاعتزاز بعراقة أصلها، إذا صح ما قيل لي.

وكان حديث الأمير عاديًا إلى حد كبير. ومن ثم لم يسع الخادم إلا الشعور بأن مثل هذا الحديث من زائر إلى خادم عادي، لا يليق أبدًا. وكانت النتيجة التي وصل إليها لتفسير الموقف أحد أمرين: إما أن هذا الرجل دعويّ متسول، أو إن كان أميرًا حقًا، فهو أبله يحترم نفسه. لأن الأمير الرزين المهيب، لا يمكن أبدًا أن يجلس في ردهات الانتظار مع الخدم ويتحدث عن شئونه الخاصة على هذا النحو. وفي كلا الحالين كيف يعلن عن حضور هذا الزائر الفريد؟

وأخيراً قال بكل ما يستطيع من إلحاح:

- أعتقد أنه ينبغي عليّ أن ألتمس منك الانتقال إلى الغرفة المجاورة.
- لماذا؟ لو أنني كنت الآن جالساً فيها، لما أتيت لي الفرصة لأذكر كل هذا عن نفسي. وأنا أرى أنك ما زلت قلقاً من ناحيتي، ولا تكف عن النظر إلى معطفي وصرتي. ألا يمكن أن تعلن حضوري بنفسك دون انتظار للسكرتير؟

- لا.. لا، لا أستطيع إعلان حضور زائر مثلك بنفسي، وبدون السكرتير. وعدا هذا فقد طلب الجنرال ألا يزعجه أحد، إنه الآن مجتمع بالكلونيل ل- بافويلا، وأرداليونوفيتش يدخل بلا استئذان.

- ومن يكون هذا؟ موظف؟

- ماذا؟ أنقصد جافريلا أرداليونوفيتش؟ أوه لا. إنه أحد رجال الأعمال. اسمع. يحسن على أية حال أن تضع صرتك هنا.

- نعم. سأفعل هذا إن أمكن. وهل يمكن أن أنضو عني معطفي أيضاً؟

- طبعاً. إنك لن تستطيع أن تدخل به على كل حال.

ونفض الأمير وخلع معطفه، وبقي في حُلة لا بأس بها، جيدة التفصيل، رغم أنها بالية بعض الشيء. وكان يزين صدريته بسلسلة ساعة من الصلب تتدلى منها ساعة سويسرية من الفضة.

ورغم أن الأمير رجل أبله - كما قرر الخادم في نفسه - فقد بدأ له مع هذا أنه ليس من اللائق لخادم الجنرال أن يستمر في حديثه مع زائر. وذلك على الرغم من أنه لم يكن يملك نفسه من الميل بطريقته الخاصة إلى هذا الأمير بطبيعة الحال. ولكن إذا نظرنا إلى الموضوع من زاوية مختلفة، لوجدنا

الأمير قد أثار في نفسه أشد الاستنكار.

وقال الأمير وهو يعود للجلوس في موضعه السابق:

- وفي أي وقت من اليوم تستقبل السيدة الزوار؟

- ليس هذا، يا سيدي، في نطاق عملي! وأعتقد أنها تستقبل الضيوف في أوقات مختلفة. وهذا يتوقف على شخصية الضيف. فصانعة الثياب تزورها في الحادية عشرة صباحًا. وتستقبل المستر إيفولجين - جافريلا أرداليونوفيتش - في وقت مبكر عن غيره بكثير أيضًا. بل إنها أحيانًا تستقبله في موعد الغداء المبكر.

وقال الأمير على سبيل الملاحظة:

- إن الجو هنا، في هذه الغرفات، أدفأ كثيرًا منه في الخارج، في مثل هذا الفصل، ولكن الجو هناك، خارج البيوت أكثر دفئًا عنه هنا، أما داخل البيوت، فإن الرجل الروسي لا يستطيع الإقامة فيها شتاء ما لم يتعود عليها.

- ألا يدفئونها كلها هناك؟

- أجل. إنهم يدفئونها بعض الشيء. ولكن منازلهم ومدافئهم تختلف كثيرًا عن مثيلاتها هنا.

- آه فهمت! هل أمضيت في الخارج وقتًا طويلًا يا سيدي؟

- أربع سنوات. أمضيتها في مكان واحد تقريبًا، في قرية واحدة.

- إذن لا شك أنك نسيت روسيا، أليس كذلك؟

- نعم، حقًا إلى حد كبير. هل تصدق أنني كثيرًا ما أعجب لأنني لم أنس الحديث باللغة الروسية؟ حتى الآن، وأنا أتحدث إليك، أقول لنفسني

باستمرار «ما أحسن حديثي بها» ولعل هذا يفسر بعض السبب في كثرة حديثي هذا الصباح وأؤكد لك أنني، منذ أمس مساء، أحس بأشد الرغبة للاستمرار في الحديث باللغة الروسية بلا انقطاع.

- إه، نعم. هل كنت تعيش في بطرسبرج فيما مضى؟

وكان ذلك الرجل الجاف الطيب، رغم جميع وساوسه وشكوكه، لا يملك، في الواقع، نفسه من مواصلة مثل هذه المحادثة الرقيقة اللطيفة، أما الأمير فقد أجاب قائلاً:

- في بطرسبرج؟ أوه، لا لم أقم فيها مطلقاً فيما عدا مروري بها؛ وليست لديّ أية فكرة عما كان الحال فيها من قبل. ولقد قيل لي إن مظاهر كثيرة قد تغيرت بها حتى إن الذين عرفوها تماماً من قبل، مضطرون إلى أن يعيدوا معرفة ما كانوا يعرفون. وهم يتحدثون كثيراً عن قوانين المحاكم الجديدة، وعن التغييرات فيها، أليس كذلك؟

- أي، نعم. هذا صحيح إلى حد كبير. ولكن كيف حال القوانين هناك، هل هم أعدل منا في تطبيقها؟

- أوه، إنني لا أدري عن هذا شيئاً. ولكنني سمعت الكثير عن عدالة نظمنا القانونية، فمثلاً ليس هنا حكم بالإعدام.

- أهنك أحكام بالإعدام؟

- نعم. شاهدت تنفيذ حكم بالإعدام في فرنسا في مدينة ليون، لقد صبحني شنيدر إلى هناك للفرجة.

- ماذا؟ هل شنقوا المحكوم عليه؟

- لا، إنهم في فرنسا يقطعون رأسه.

- وماذا فعل ذلك الرجل.. هل صرخ؟

- أوه.. لا، إن الأمر يتم في لحظة. إنهم يضعون الرجل في إطار، ثم تهبط على عنقه سكين عريضة النصل بطريقة آلية. وهم يسمون الجهاز كله «الجيلوتين». إنه يهوي بقوة وثقل شديد. وتنفصل الرأس بأسرع من لمح البصر. ولكن أظفّع ما في الأمر هو التمهيد للتنفيذ. أي عندما يصدر الحكم، ويعدّون الجاني للإعدام، فيربطون يديه وقدميه، ويحملونه في مركبة مكشوفة إلى منصة الجيلوتين. هذا هو أظفّع جانب في الأمر كله. والناس هناك يحتشدون للفرجة، حتى النساء، وذلك رغم أنهم لا يحبون فرجة النساء.

- نعم، ليس هذا من شأن النساء.

- طبعًا، طبعًا. وكان الجاني رجلًا ذكيًا موفور الشجاعة، اسمه ليجروس ويمكنني أن أقول لك، شئت أن تصدق أو لم تشأ، إن هذا الرجل بكى وهو يصعد إلى منصة الإعدام. نعم، بكى حقًا. وكان شاحب الوجه كالورقة البيضاء. أليس من الفظاعة أن يضطر إلى البكاء.. البكاء! هل سمع أحد من قبل عن رجل يبكي من فرط الخوف؟ إنه لم يكن طفلًا، وإنما رجل لم يبك قط من قبل، رجل ناضج في الخامسة والأربعين من عمره. تخيل ما كان يدور ولا شك بذهنه في لحظة كهذه! أية انتفاضات رهيبة تحملها روحه عندئذ! إن هذا انتهاك قاس لحرمة الروح. هذا هو الواقع؛ لأنه ورد في الكتاب المقدس «لا تقتلوا النفس»، أقتلونه لأنه قتل شخصًا آخر! لا. هذا ما لا ينبغي أن يكون. إنه خطأ فظيع، أؤكد لك. لقد رأيت هذا المنظر منذ شهر مضى، ومع ذلك فهو لا يزال يتراقص أمام عيني حتى هذه اللحظة. بل إنني كثيرًا ما أحلم به.

وكانت الحماسة قد سرت في جسم الأمير وهو يتحدث، وارتفعت إلى وجهه الشاحب ومضة من الاحمرار. وذلك رغم أنه كان يتحدث، كعادته دائماً بهدوء. وكان الخادم يتابع كلماته في اهتمام وإشفاق. وكان من الجلي أنه غير مشوق إلى الانتهاء من هذه المحادثة. فمن يدري؟ لعله هو أيضاً، رجل من ذوي الخيال. وأن له بعض القدرة على التفكير. ومن ثم قال:

- على أية حال يا سيدي، فإنه من دواعي العزاء أن المحكوم عليه لا يشعر بأي ألم عند انفصال رأسه عن الجسد.

فهتف الأمير بحرارة:

- ومن أين تدري؟ إنك تقول هذا الآن، ويقولوه الكثيرون غيرك. والمعروف أنها صممت لكي تقضي على الألم. وأنا أعني الجيلوتين طبعاً. ولكن خطرت ببالي فكرة عندئذ: ماذا لو كان ثمة خطأ في التصميم؟ يمكنك أن تسخر من فكري إن شئت. ولكن إذا كان عندك شيء من الخيال فإنك لا تستطيع الخلاص من مثل هذه الأفكار. فكر قليلاً؛ ففي حالة التعذيب مثلاً، تحدث آلام شديدة وجروح وأوجاع جسدية وكلها تذهل العقل عن الآلام الفكرية؛ لأنه حتى لحظة موتك لا تعذبك سوى جراحاتك، ومع ذلك فإن الألم الرئيسي وشر أنواع الألم لا تسببه الجراحات، وإنما اليقين بأنك بعد ساعة، ثم بعد عشر دقائق، ثم بعد نصف دقيقة، ثم حالاً، سوف تنفصل روحك عن جسدك، وإنك لن تكون بعد رجلاً. وهذا على وجه اليقين.. اليقين! هذه هي النقطة المهمة، اليقين من الموت في اللحظة التي تضع فيها رأسك تحت السكين، وتسمع صرير النصل فوقك، ثم إن هذه اللحظة هي أفظع ما في الأمر كله.

هذه هي فكري الخاصة، وإن كثيراً من الناس ليفكرون على هذا النحو،

ولكن إحساسي بها يبلغ من العمق بحيث أستطيع أن أقول لك رأيي: أعتقد أن إعدام شخص بسبب جريمة قتل، هو عقاب أقسى كثيرًا من جريمته. إن القتل بواسطة حكم الإعدام أفظع جدًّا من ارتكاب المجرم لجريمة القتل. فالرجل الذي يهاجمه اللصوص ليلاً، في غابة مظلمة، أو في أي مكان، لا يفقد، بلا شك، الرجاء في أنه قد ينجو حتى آخر لحظة من عمره. وهناك أمثلة كثيرة على الرجل الذي يحاول الهرب، أو يلتمس الرحمة، وهو في كل حالة يأمل في النجاة بدرجات متفاوتة، حتى بعد أن يذبح. أما في حالة الإعدام، فإن هذا الأمل الذي يخفف كثيرًا من صدمة الموت، ينزع من صدر المسكين، ويحل محله «اليقين» الرهيب. فهناك حكم الإعدام، ومعه هذا اليقين الرهيب في أنه لا يستطيع بأية حال النجاة من الموت الذي أعده، أفظع شيء في الوجود. إنك قد تضع جنديًا أمام فوهة مدفع، وتطلقه عليه، ومع ذلك فإنه لا يفقد الرجاء. ولكن اقرأ على هذا الجندي نفسه حكم الإعدام، وسوف ترى أنه إما أن يُجن أو ينفجر باكياً. من ذا يجروء على القول إن أي رجل يمر بهذه التجربة دون أن يفقد عقله! لا، لا! إنها لتضحية، إنه لعار، إنه لأمر لا داعي له، لماذا يبقى شيء كهذا؟ لا شك أنه قد يكون هناك أشخاص حكم بإعدامهم، وتعرضوا لهذا العذاب النفسي الرهيب، ثم أخلى سبيلهم، ولعل هؤلاء الأشخاص قد يستطيعون أن يصفوا مشاعرهم فيما بعد. لقد حدثنا السيد المسيح عن هذا العذاب والرعب. لا، لا، لا. لا ينبغي أن يتعرض لمثل هذا رجل.. أي رجل.

ورغم أن الخادم لم يكن يستطيع، بطبيعة الحال، أن يعبر عن هذا كله، كما فعل الأمير، إلا أنه استمر، كما بدا بوضوح، في متابعة الحديث، وكان يشعر بأتم الرضى، كما لاح من تعبيرات وجهه الودودة ومن ثم قال:

- إذا كنت حقًا شديد الرغبة في التدخين فأنا أعتقد أنك قد تستطيع أن تدخن إذا فرغت بسرعة. ذلك أنهم قد يأتون في أي وقت ويسألون عنك بينما لا تكون موجودًا، أترى ذلك الباب هناك، اذهب إليه، وسوف تجد غرفة صغيرة على اليمين. وفي مقدورك أن تدخن بها، ولكن افتح النافذة؛ لأننا لا نسمح بذلك هنا..

ولكن، لم يكن ثمة وقت أمام الأمير لكي يذهب ويدخن؛ ففي تلك اللحظة دخل غرفة الانتظار شاب يحمل في يده حزمة من الأوراق. وبادر الخادم إلى مساعدته في خلع معطفه، وألقى الواقد الجديد نظرة على الأمير من طرف عينيه.

وقال الخادم له في شيء من الألفة والمساواة:

- إن هذا يقول يا جافريلا أرداليونوفيتش، إنه الأمير ميشكين، وأنه قريب لربة البيت، لقد وصل من توه من الخارج لا يحمل من المتاع غير صرة.. ولم يسمع الأمير بقية الحديث؛ لأن الخادم أكمله، من هذه النقطة، بصوت هامس.

وأنصت جافريلا أرداليونوفيتش بانتباه، وحملق في وجه الأمير باهتمام بالغ. وأخيرًا نحى الخادم عنه، وتقدم بسرعة من الأمير، وسأله بكل أدب واحترام:

- هل أنت الأمير ميشكين؟

وكان جافريلا شابًا موفور الوسامة، في نحو الثامنة والعشرين من عمره، ذهبي الشعر متوسط الطول، له لحية صغيرة، وبنم وجهه عن الذكاء البالغ. ولكن ابتسامته، رغم تودده وتلففه، كانت شاحبة بعض الشيء إن صح هذا

التعبير. وتكشف عن أسنان منظومة نظمًا جميلًا، ورغم ما كان يبدو عليه من مرح وطيبة نفس ظاهرة فإن نظرات عينيه كانت لا تخلو من الفضول والتركيز اللذين يقللان من لطفها.

وفكر الأمير لنفسه «لعل نظراته إذا انفرد بنفسه، تكون مختلفة، ولعله لا يبتسم عندئذ أبدًا».

ثم قدم نفسه بكلمات قليلة، تمامًا كما فعل مع الخادم، ومع روجو جين من قبل.

وفي خلال هذا كان يلوح على جافريلا أنه يحاول أن يتذكر شيئًا، وأخيرًا قال:

- أأنت أنت إذن الذي أرسل خطابًا منذ عام أو أقل، من سويسرا على ما أظن.. إلى اليزابيث بروكوفينا؟ «مسز إيبانشين»؟!
- نعم أنا.

- أوه. إذن سوف يتذكرون من أنت بطبيعة الحال. أتريد أن تقابل الجنرال؟ لسوف أخبره حالًا، وفي لحظة سيكون خاليًا، ولكن أنت.. أنت يحسن أن تنتظر في غرفة الاستقبال.

ثم أضاف قائلاً في حدة للخادم:

- لماذا يجلس هنا؟

- أؤكد لك يا سيدي أن هذه رغبته.

وفي تلك اللحظة، فتح باب غرفة المكتب، وخرج رجل عسكري المظهر يحمل حافظة أوراق، ويتحدث بصوت مرتفع، وبعد أن حيًا شخصًا

بالداخل، انصرف.

وارتفع صوت من داخل غرفة المكتب:

- هل جئت يا جانيا؟ تعال هنا.. أسمع!

وأوماً جافريلاً أرداليونوفيتش برأسه للأمير، ثم أسرع بدخول المكتب.

وبعد دقيقتين، فتح الباب مرة أخرى وقال جانيا «جافريلاً» بصوته اللطيف:

- تفضل بالدخول أيها الأمير.



الفصل الثالث

كان الجنرال إيفان فيدوروفيتش إيبانشين واقفاً في وسط الغرفة يحدّق بفضول شديد نحو الأمير وهو يدخل. بل إنه تقدم خطوتين لاستقباله.

وتقدم الأمير نحوه وقدم إليه نفسه، فقال الجنرال:

- إنني سعيد بلقائك! ماذا أستطيع أن أفعل لك!

- لم آت لمهمة خاصة عاجلة من أي نوع يا سيدي! فالغرض الأساسي من زيارتي هذه، هي التعرف إليك. وأنا لا أحب أن أزعجك، ولكنني لا أعرف المواعيد والإجراءات الخاصة بالزيارات هنا. فأنا، كما تعلم، قد وصلت فوراً، وأقبلت من المحطة رأساً. لقد جئت من سويسرا الآن.

وأوشك الجنرال أن يبتسم، ولكنه رأى أن من الأوفق أن يتمالك نفسه؛ ثم راح يفكر وهو يطرف بعينه محملاً في ضيفه مرة أخرى من رأسه إلى قدميه. ثم فجأة أشار عليه بالجلوس، وجلس هو نفسه، وانتظر في ملل أن يبدأ الأمير الحديث.

ووقف جانبا أمام مكتبه في الركن الأقصى من الغرفة، يتصفح بعض الأوراق.

وقال الجنرال:

- ليس لديّ وقت كثير أنفقه في التعارف. ولكن بما أن لديك طبعاً هدفاً من هذه الزيارة، فإنني...

فقاطعه الأمير قائلاً:

- كنت أشعر يقيناً أنك ستظن أن لي هدفاً عندما قررت أن أقوم بهذه الزيارة لك. ولكنني أقسم لك أنني لا أهدف من هذه الزيارة غير بهجة التعرف بك.

- إنني أشاطرك هذا الشعور بطبيعة الحال. ولكن الحياة كما لا يخفى عليك، ليست بهجة خالصة. فهناك شيء اسمه العمل. وأنا في الواقع لا أرى أي سبب حقيقي أو أي شيء مشترك يمكن...

- أوه... ليس هناك أي سبب طبعاً. وأعتقد أن ليس هناك شيء مشترك بيننا، أيّاً كان؛ لأنني إذا كنت الأمير ميشكين، وشاء القدر أن تكون زوجتك من أسرتي، فلا يمكن أن يكون هذا «سبباً». فأنا أدرك هذا تماماً. ومع ذلك فإن هذه القرابة هي الدافع الأساسي لحضوري. إنني كما ترى لم أكن في روسيا خلال أربعة أعوام، ولم أكن أعرف غير القليل جداً عن أي شيء عندما رحلت عنها. وقد كنت طوال المدة مريضاً جداً، وإنني لأشعر الآن بحاجتي إلى عدد قليل من الأصدقاء الطيبين. وفي الواقع لديّ مشكلة معينة أريد أن أستشير أحداً فيها، وأنا لا أعرف إلى من ألجأ بشأنها. وذكرت أسرتك وأنا أمر ببرلين، وقلت لنفسني: «إنهم أقارب لي على نحو ما، ومن ثم سأبدأ بهم، ولعل العلاقة تتوطد بيننا، علاقتي بهم، وعلاقتهم بي، إذا كانوا أناساً طيبين، وقد سمعت أنكم طيبون»!

وأجاب الجنرال وقد أخذ على غرة:

- أوه، شكرًا لك. هل يمكن أن أسألك أين تقيم؟

- لم أستقر في مكان بعد.

- إذن فقد جئت إلى بيتي من المحطة رأسًا.. وماذا عن متاعك؟

- ليس لي غير هذه الصرة التي لا تحتوي إلا على ملابس الداخلية لا أكثر. وفي مقدوري أن أحملها بيدي بسهولة. ولا يزال في الوقت متسع لاستئجار غرفة بفندق ما حتى المساء.

- إذن فأنت تنوي أن تستأجر غرفة للسكنى؟

- طبعًا.

- ولكن حديثك يدل على أنك جئت من المحطة رأسًا إلى هنا للإقامة معنا.

- قد يمكن هذا فقط بناء على دعوتك لي. ولكنني أعترف، على كل حال، أنه لا ينبغي لي الإقامة هنا حتى لو دعوتني إليها، ولا يرجع هذا إلى سبب معين، ولكن لأنه، لأنه، حسنًا، لا يتفق مع طبيعتي وما جُبِلت عليه.

- آه! أحمقًا؟! إذن فلعلي أحسنت لأنني لم أدعك للإقامة، ولأنني لن أدعوك الآن أيضًا. وأستميحك العذر أيها الأمير، ولكن يحسن أن نحدّد الموقف بيننا بصفة قاطعة. لقد اتفقنا الآن فيما يخص بقرابتنا على أنه ليس هناك الكثير مما يُقال عنها، وذلك على الرغم، طبعًا، بأنه كان يسعدنا كثيرًا لو أن هناك صلة حقيقية من القرابة بيننا، ولهذا فربما..

- ولهذا فربما يحسن بي أن أنهض وأنصرف!

قالها الأمير ضاحكاً في مرج وهو ينهض من مكانه، وكان يضحك
وكأنما الموقف أبعد ما يكون عن الحرج، واستطرد قائلاً:

- وأؤكد لك يا جنرال أنني إن كنت لا أعرف شيئاً عن تقاليد المجتمعات
الراقية وسلوكها، ولا كيف يعيش الناس فيها وما إلى هذا، إلا أنني أشعر عن
يقين تام بأن زيارتي هذه كانت ستنتهي كما انتهت الآن. أوه، حسناً. ولعل
هذا أفضل، لا سيما أنني لم أتلق منكم ردّاً على خطابي، لا بأس. وداعاً،
وأرجو أن تغفر لي إزعاجي لك.

وكان وجه الأمير عندئذ ينم عن الرقة والطيبة. وكانت ابتسامته، وهو
ينظر إلى الجنرال، خالية تماماً من أي ظل للشعور بالضيق أو الاستياء،
بحيث توقّف هذا الأخير وبدأ أنه أخذ ينظر إلى ضيفه من زاوية أخرى جديدة
تماماً، كل هذا في لحظة واحدة.

وقال بصوت مختلف اللهجة أشد الاختلاف:

- أتعلم أيها الأمير أنني لم أعرفك بعد تماماً، وأن من المحتمل على
كل حال أن تبتهج إليزابيث - زوجتي - برؤية أحد أفراد أسرتها. انتظر قليلاً
إذا أمكنك، وإذا كان لديك متسع من الوقت.

- أوه، أؤكد لك أن لديّ الكثير من الوقت، إن وقتي ملك يدي.

ثم استطرد الأمير قائلاً وهو يعود ويضع قبعته الصوفية المستديرة على
النضد:

- أعترف أن هناك احتمالاً كبيراً في أن المسز إيبانشين قد تذكر أنني
أرسلت إليها خطاباً. إن خادمك، هناك في الخارج، قد خامره الشك الرهيب
في أنني جئت ألتمس مآلاً. لقد لاحظت هذا من تصرفاته. وربما كان لديه

تعليمات مشددة في هذا الشأن. ولكنني أؤكد لك أنني لم آت لأستجدي، وإنما جئت لأتعرّف بكم. ولكنني أشعر الآن بالاضطراب الشديد لأنني أزعجتكم. هذا هو كل ما يهمني في الأمر.

فقال الجنرال بابتسامة رقيقة:

- اسمع أيها الأمير، إذا كنت حقاً لطيفاً رقيقاً كما يبدو عليك الآن، فقد يكون من دواعي الغبطة الشديدة أن نزيد معرفتنا بك. ولكنني، كما ترى، رجل كثير الشواغل وأن عليّ الجلوس هنا باستمرار لتوقيع الأوراق، أو الذهاب لمقابلة فخامة الوزير، أو إلى مقر عملي، أو إلى أي مكان آخر. ومن ثم فإنه برغم رغبتني في رؤية الكثيرين من الناس اللطاف، فإنني، كما ترى.. حسناً! إنني واثق أنك نشأت نشأة حسنة بحيث يمكنك أن تدرك فوراً، ولكن كم عمرك أيها الأمير؟

- إنني في السادسة والعشرين.

- أحقاً؟! حسبّتك أصغر من هذا بكثير.

- نعم، يقولون لي «وجه شاب» صغير. أما عن إزعاجك، فسوف أتعلم في أقرب وقت كيف أتجنب هذا؛ لأنني أكره إزعاج الآخرين. وعدا هذا فإن هناك كثيراً جداً من أوجه الاختلاف بيني وبينك بحيث أعتقد أن المسائل المشتركة بيننا قليلة بلا ريب. ولا يعني هذا أنني أعتقد لحظة أنه لا يوجد بين أي رجلين شيء مشترك، كما يقول البعض، ولكنني أعتقد أن الناس يخطئون أكبر الخطأ حين يعزلون أنفسهم في جماعات، بحكم المظاهر، ولكنني أثير في نفسك الملل، فأنا أرى..

- أريد أن أعرف شيئاً أخيراً.. أليدك أي مورد مالي؟ أو لعلك تنوي

القيام بعمل ما لاكتساب الرزق! ومعدرة لهذا السؤال، ولكن..

- أوه، يا سيدي العزيز، إنني أقدر وأدرك مدى ما في سؤالك هذا من عطف. لا، ليس لديّ في الوقت الحاضر أي مورد مالي، ولا أي عمل أيضًا. ولكنني آمل أن أجد شيئًا من هذا القبيل. لقد كنت أعيش في الخارج عالة على غيري. لقد أعطاني شنيدر، الأستاذ الذي عالجنني وعلمني أيضًا في سويسرا، من المال ما يكفي فقط لرحلة العودة، ومن ثم فليس معي الآن غير قروش قليلة. وفي الواقع لديّ مسألة خاصة أحب أن أستشيرك فيها، ولكن...

فقاطعه الجنرال قائلاً:

- أخبرني، كيف تنوي أن تعيش الآن، وما هي مشروعاتك؟

- أريد أن أعمل بطريقة أو بأخرى.

- أوه، نعم. ولكنك، كما ترى، فيلسوف. أليك أية مواهب أو إمكانيات في أية ناحية، أعني أية إمكانيات تتيح لك فرصة التماس الرزق! ومعدرة مرة أخرى.

- أوه، لا تعتذر، لا. لا أعتقد أن لديّ مواهب أو إمكانيات خاصة من هذا النوع. بل على النقيض لقد كنت دائماً عاجزاً، غير قادر على تعلم الشيء الكثير. أما عن التماس الرزق فإني أعتقد..

وقاطعه الجنرال مرة أخرى بالأسئلة، ومرة أخرى أجاب الأمير عليه بالقصة التي سبق أن عرفناها. وبدا أن الجنرال يعرف بافليشيف. ولكن لماذا اهتم هذا الأخير بالأمير؟ فإنه، أي الأمير، لم يستطع أن يفسر ذلك. ولكن هل هذا يرجع في رأيه إلى صداقته القديمة لأبيه؟

كان الأمير قد تُرك في الحياة يتيماً وهو طفل صغير، وعهد به بافليشيف إلى سيدة عجوز، تمت إليه بصلة من القربى، وتقيم بالريف، وكان الطفل في حاجة إلى الهواء الطلق، وإلى ممارسة الحياة الريفية. وتلقى تعليمه أولاً على يدي مربية، ثم على يدي مدرس، ولكنه لا يستطيع أن يذكر الكثير عن هذه المرحلة من حياته. وكانت نوبات الصرع تتوالى عليه بحيث جعلته يبدو أبله «إن الأمير نفسه يستعمل هذا اللفظ ذاته.. أبله» وكان بافليشيف قد التقى بالبروفيسور شنيدر في برلين. وقد أقنعه هذا بإرسال الطفل إلى سويسرا، في مؤسسة شنيدر هناك، للعلاج من الصرع. ومنذ خمس سنوات أرسل الأمير إلى سويسرا، ولكن بافليشيف مات منذ عامين أو ثلاثة، وتولى شنيدر رعاية الشاب، على نفقته، منذ ذلك الحين حتى اليوم، ورغم أنه لم يشفه تماماً، إلا أنه حسن حالته كثيراً. والآن، أخيراً، وبناء على رغبة الأمير، وبسبب موضوع بلغ مسامعه، أرسله شنيدر إلى روسيا.

وسأله الجنرال في عجب شديد:

- إذن فليس لك أحد مطلقاً في روسيا؟

- لا أحد في الوقت الحاضر، ولكنني آمل أن أتعرف بأصدقاء، ثم إن معي خطاباً من...

فقاطعه الجنرال قبل أن يسمع أخبار ذلك الخطاب:

- إنك على أية حال قد تعلمت شيئاً، وإن مرضك لن يمنعك من القيام بعمل خفيف، في قسم من أقسام إحدى الإدارات مثلاً. أليس كذلك؟

- أوه، إنني واثق أنه لن يمنعني. وفي الواقع إنني أهفو جداً إلى عمل من هذا النوع، وإنني لمشوق لأن أعرف ماذا يمكن أن أعمل حقاً. لقد تعلمت

الشيء الكثير في السنوات الأربع الأخيرة، كما أنني قرأت الكثير جداً من الكتب الروسية.

- الكتب الروسية؟ إذن فلا شك أنك تستطيع أن تقرأ وأن تكتب بلا أخطاء.

- أوه، نعم. إلى حد كبير.

- عظيم جداً! وماذا عن خطك؟

- آه، إنني في هذه الحالة موهوب حقاً، ويمكنني القول إنني خطاط فنان.

ثم أردف قائلاً في حماس ولهفة:

- دعني أكتب شيئاً لترى.

- بكل سرور، لأن هذا في الواقع أمر ضروري. وإني معجب بحماستك، وأعترف أنك... أنك لطيف جداً!

- ما أجمل أدواتك الكتابية يا سيدي! وما أكثر ما لديك من أقلام وأشياء! وما ألطف هذا الورق! إنها لغرفة بديعة في مجموعها. وأنا أعرف هذه الصورة، إنها منظر سويسري. وأنا واثق أن الفنان رسمها عن الطبيعة، وإني أعرف هذا الموضع بالذات...

- هذا محتمل، وإن كنت قد اشتريتها هنا. جانيا، قدّم للأمير بعض الأوراق. وهذه هي أقلام وأوراق، اتخذ الآن مكانك إلى هذا النضد.. ما هذا؟

قالها الجنرال لسكريته جانيا الذي كان قد تناول في تلك اللحظة من

حافضة أوراقه صورة شمسية كبيرة لناستاسيا فيليوفنا وأراها لرئيسه الذي استطرد قائلاً في فضول شديد وانتعاش بالغ:

- هاللو! هل أرسلتها إليك بنفسها! بنفسها!

- لقد قدمتها إليّ الآن، فقط، عندما ذهبت لتهنئتها، كنت قد طلبتها منها منذ مدة طويلة. ولست أدري هل قصدت من إهدائها أن تغمزني لأنني ذهبت فارغ اليدين لتهنئتها بعيد ميلادها، أم ماذا؟

وابتسم جانيا في أسف، ولكن الجنرال قال بتأكيد:

- أوه، كلام فارغ. كلام فارغ! ما أعجب الأفكار التي تخطر لك يا جانيا! أيمكن هي أن تغمز؟ ليست هذه طريققتها. وعدا هذا أما كان في مقدورك أن تقدم إليها هدية ما لم يكن لديك الآلاف من الجنيهات. كان يمكنك أن تهديها صورتك، على كل حال. ألم تطلبها منك قبل ذلك؟

- لا.. ليس بعد، ومن المحتمل جداً ألا تطلبها أبداً. وأعتقد أنك لم تنس حفل الليلة، يا سيدي، فإنك أحد الذين خصتهم بالدعوة.

- أوه، لا. إنني أذكر تماماً، وسوف أذهب طبعاً. هذا ما أعتقد! إنها اليوم في الخامسة والعشرين. وعليك يا جانيا، كما تعلم، أن تكون مستعداً لأمر عظيم. إن أفانازي إيفانوفيتش قد وعدتنا كلينا، أنا والمستر توتسكي بأنها ستحدد إجابتها الليلة: نعم أو لا. ولهذا يجب أن تستعد.

- وبدا الاضطراب الشديد على جانيا، بحيث ازداد وجهه امتقاعاً. وكان صوته، كما بدا يرتعد وهو يقول:

- هل أنت واثق أنها قالت هذا؟

- نعم لقد وعدتنا. ظللنا نلح عليها حتى وافقت. ولكنها طلبت منا ألا

نذكر لك شيئاً إلا في هذا اليوم.

وراقب الجنرال بإمعان اضطراب جانيا، وكان يبدو عليه بوضوح أنه غير راض عن هذا. وقال جانيا في انفعال شديد:

- ولكن لا تنس يا سيدي أنني سأبقى أيضاً حرّاً حتى تحدد رأيها، وأن لي أيضاً الحرية في أن أقول «نعم أو لا».

فبدأ الجنرال يقول بانزعاج:

- عجباً!! لماذا، ألا..

- أرجو ألا تسيء فهمي..

- ولكن ماذا تريد أن تفعل يا عزيزي، ماذا تعني؟

- إنني لا أعني رفضها. ربما لم أحسن التعبير عن رأيي، ولكن ليس هذا ما أعني.

فقال الجنرال في استياء لم يحاول قط أن يخفيه:

- ترفضها! عجباً يا عزيزي! إن المسألة ليست في أنك ترفضها، وإنما في هل أنت على استعداد لأن تستقبل رضائها بالابتهاج، وبما يجب من رضى وغبطة، كيف الأحوال في البيت؟

- في البيت، أوه. إنني أفعل في البيت ما أشاء طبعاً! إن أبي فقط هو الذي يحاول كعادته أن يثير الاضطراب دائماً. وأنا لا أتحدث معه الآن، ولكنني ألزمه حدوده. وأقسم أنه لولا أُمِّي، لما عشت معه منذ أمد بعيد. إن أُمِّي لا تكف عن البكاء، وأختي دائمة يعلوها الاكتئاب. وقد اضطرت لأن أخبرهم أخيراً، أنني أنوي أن أجعل مصيري بين يدي، وإنني أنتظر أن يطيعني

الجميع في البيت، على الأقل أفهمت أختي هذا في حضور أُمي.

وهنا قال الجنرال وهو يهز كتفيه، ويسقط يديه إلى جانبيه:

- حسنًا! إنني في الواقع لا أفهم حقيقة الموقف! هل تذكر يوم جاءت والدتك نينا ألكسندروفنا وجلست هنا وراحت تئن وتشكو، ولما سألتها ماذا بها، قالت: «يا للفضيحة، ويا للعار!!» فضيحة وعار وكلام فارغ! إنني أريد أن أعرف من ذا يستطيع أن يلوم ناستاسيا، أو من ذا يجروء على التفوه بأية كلمة ضدها. هل تقصد بالفضيحة أن ناستاسيا تعيش مع توتسكي! ما أسخف هذا! لقد قالت والدتك أيضًا: «إنك لا ترضى أن تقترب ناستاسيا من بناتك» وماذا بعد ذلك! إنني أتساءل؟ إنني لا أدري كيف لا تستطيع والدتك أن تدرك...!

فأكمل جانينا عبارته بقوله:

- حقيقة مركزها؟ إنها تدركه، وأرجو ألا تستاء منها. لقد حذرتها من التدخل في شئون الغير. ومع ذلك، فبرغم أن السلام يسود جو المنزل في الوقت الحاضر، فإن العاصفة ستهب إذا تقرر شيء مؤكد في هذه الليلة.

وسمع الأمير كل هذه المحادثة وهو جالس إلى النضد، يكتب. فلما فرغ أخيرًا قدم نتيجة مجهوده إلى مكتب الجنرال.

وفجأة قال وهو يمعن النظر في اهتمام إلى الصورة:

- إذن فهذه صورة ناستاسيا فيليبوفنا!

ثم أضاف قائلاً بحرارة:

- ما أروع جمالها!

وكانت الصورة حقاً لفتاة ذات جمال رائع، وكانت قد صُورت في ثوب من الحرير الأسود البسيط التصميم. وشعرها كان كما يبدو فاحماً عادي التصفيف. وكانت عيناها عميقتين تمان عن التأمل وأمارات وجهها تنم عن قوة العاطفة مع الاعتداد بالنفس. أما جسمها فكان أقرب إلى النحافة مع شيء من الشحوب. ونظر كل من الجنرال وجانيا إلى الأمير في عجب، ثم سأله الأول قائلاً:

- كيف عرفت أنها ناستاسيا فيليوفنا؟ فلا شك أنك لم تتعرف عليها بعد، أليس كذلك؟

- بل أعرفها! فرغم أنني لم أمض غير يوم واحد في روسيا، فقد سمعت عن جمالها الرائع.

ثم شرع الأمير يتحدث عن مقابلته مع روجوجين في القطار، وعن قصة الأخير كلها. وبعد أن أنصت الجنرال إلى الحديث في اهتمام بالغ، قال بحرارة وحماسة:

- هذه معلومات جديدة!

وهتف جانيا في شيء من الاضطراب:

- أوه، ليس في هذا كله غير لغو فارغ. نعم. هذا كله مجرد لغو. إن ابن تاجر ثري يسره أن يثير حول نفسه هذه الضجة العاطفية البريئة، لقد سمعت شيئاً عن روجوجين.

وقال الجنرال:

- نعم. وأنا أيضاً. لقد حدثتنا ناستاسيا عن موضوع هذه الأقراط في نفس اليوم. ولكن الأمر الآن جد مختلف؛ فقد غدا ذلك الشاب، كما ترى

مالكًا لمليون روبل، وهو غارق إلى أذنيه في الحب. إن القصة كلها تنبض بالعاطفة. ونحن جميعًا نعرف ماذا يمكن أن تفعل هذه الطبقة من الناس إذا أثبرت عواطفها. لشد ما أخشى وقوع فضيحة مزعجة! نعم هذا ما أخشاه حقًا.

فابتسم جانبا كاشفًا عن أسنانه وقال:

- إنك خائف من المليون روبل على ما أعتقد.

- وأنت لست خائفًا كما أظن.. هه!؟

وفجأة سأل جانبا الأمير:

- ما رأيك فيه أيها الأمير؟ هل بدا لك واحدًا من الرجال الجادين، أم مجرد شاب لاهٍ عابث! ما رأيك الخاص في هذا الموضوع؟

وفيما كان جانبا يلقي بهذا السؤال، إذا بفكرة تومض في ذهنه، وتتألق في نظرات عينيه. وكان الجنرال شديد الانفعال والاضطراب وهو ينظر أيضًا إلى الأمير وإن كان لا يتوقع من إجابته الشيء الكثير.

وأجاب الأمير:

- إنني في الواقع لا أدري كيف أشرح الأمر. ولكن بدا لي عن يقين أن الشاب مفعم بالعاطفة، ولعلها أن تكون عاطفة غير بريئة أو طيبة. فهو لا يزال أبعد ما يكون عن تمام الصحة. ومن المحتمل جدًا أن يعود إلى الفراش مريضًا في خلال يوم أو يومين، لا سيما إذا عاد إلى شرب الخمر بإسراف.

وأسرع الجنرال يقول وهو متشبه بالفكرة:

- أهذا هو رأيك؟

- نعم.. هذا رأيي.

وقال جانيا باسمًا للجنرال:

- ولكن تلك الفضيحة التي ذكرتها، قد تحدث في أية لحظة، وربما في هذه الليلة.

- نعم، نعم، طبعًا. وفي هذه الحالة يتوقف كل شيء على ما يدور بذهنها في هذه اللحظات.

- إنك تعرف كيف تكون في بعض الأحيان؟

وهنا صاح الجنرال وقد نفذ صبره:

- ماذا تعني بقولك هذا؟ اسمع يا جانيا. حذار أن تثير استياءها في هذه الليلة. إن ما ينبغي عليك أن تفعله هو أن تكون لطيفًا معها بقدر ما تستطيع. هه! لماذا أنت تبسم الآن؟ يجب أن تفهم يا جانيا، أنه ليس لي مصلحة خاصة من حديثي هكذا. فأيا كان الأمر، فإنني سأستفيد في كل حالة. فليس هناك ما يزعزع توتسكي عن موقفه. ومن ثم فأنا لا أغامر بشيء. وإذا كان هناك ما أرغب فيه، فهي منفعتك الخاصة، وتستطيع إدراك ذلك بنفسك. ألا يمكنك أن تثق بي؟ إنك شاب فطن، وأنا أعتد عليك كثيرًا؛ لأن الذكاء في هذا الموضوع، فهو.. فهو.. «مسألة أساسية».

قالها جانيا ليخرج الجنرال، كعادته، من مأزق البحث عن اللفظ المناسب وكان، كالمعتاد أيضًا، يلوي شفثيه في ابتسامة مأكرة لم يحاول إخفاءها. وكان يحرق بنظراته المحمومة في عيني الجنرال كأنما يتوق أن يقرأ هذا الأخير أفكاره.

واربّد وجه الجنرال بالغضب، وصاح وهو ينظر بحدة إلى جانيا:

- نعم، الذكاء مسألة أساسية طبعًا، ما أعجبك من شاب يا جانيا؟ يلوح لي بجلاء أنك مبتهج إذ تسمع عن وصول ذلك المليونير الشاب، وكأني بك تهفو لأن تتخذة عذرًا للخروج من الموضوع كله. إن هذه مسألة ينبغي عليك أن تتصرف فيها بأمانة وشرف مع كلا الجانبين، وأن تقدم اعتذارك في الوقت المناسب حتى تتجنب إحراج الآخرين. وحتى الآن لا يزال في الوقت متسع. هل تفهمني؟ إنني أريد أن أعرف هلا تزال راغبًا في الاستمرار في هذا الموضوع أم لا؟ إذا لم تكن، فمرحبًا؟ ليس هناك من يحاول إرغامك على الوقوع في الشرك يا جانيا إذا كنت ترى أن في الأمر شرًا - على الأقل.

فغمغم جانيا برفق، ولكن في حزم وهو يفضي بعينه:

- بل أريد الاستمرار فيه.

ثم استغرق في صمت مكتئب.

وأحس الجنرال بالرضى.. لقد أهاج مشاعره، ويبدو أنه ندم على التماذي في الانفعال إلى هذا الحد. واستدار نحو الأمير، وفجأة شعر بالاستياء من وجود الأمير الذي لا شك قد سمع كل كلمة في هذه المحادثة. ولكن نفسه لم تلبث أن هدأت؛ فقد كان يكفي أن يلقي نظرة إليه حتى يدرك أنه لا داعي للخوف منه.

وهتف الجنرال حين رأى نموذج خط الأمير الذي قدمه إليه ليفحصه:

- أوه! عجبًا! إن هذا لرائع.. انظر يا جانيا! هنا موهبة أصيلة.

وكان الأمير قد كتب العبارة التالية على ورقة كتابة من النوع السميك، وبالخط الشائع في القرون الوسطى:

«لقد وقع هذا الراهب الوديع يا فنيوت».

- انظر، انظر، هذا هو التوقيع الحقيقي للراهب.. إنه في مخطوط يرجع تاريخه إلى القرن الرابع عشر، إن جميع أولئك الرهبان والأساقفة كانوا يكتبون بخط جميل، وبكل ذوق وعناية واجتهاد. أليس لديك نسخة من طبعة بوجودين يا جنرال. إذا كان لديك واحدة، فيمكنني أن أطلعك على أنموذج آخر. انتظر لحظة، هأتذا ترى كيف كانوا يكتبون بالخط الدائري الكبير المعروف في فرنسا في القرن الثامن عشر. إن شكل بعض الحروف يختلف عن الحروف المستعملة الآن. لقد كانت تلك الحروف شائعة الاستعمال عندئذ، وكان الكتبة العموميون يستخدمونها بوجه عام. لقد نسخت هذه العبارات عن واحد منهم، ويمكنك أن ترى مبلغ ما فيها من جمال. تأمل وجود استدارة حرفي «الألف» و«الدال». لقد حاولت أن أطابق بين الطابع الفرنسي والحروف الروسية. وهي عملية شاقة، ولكنني أعتقد أنني نجحت إلى حد لا بأس به. فهذا هي ذي عبارة لطيفة مكتوبة بخط جميل أصيل «الحماسة تغلب كل شيء» إنها شعار وزارة الحربية الروسية. وعلى هذا النحو ينبغي أن تكتب الوثائق الرسمية المرسلة إلى الشخصيات الكبيرة. إن الحروف مستديرة، والطابع شديد الوضوح، والأسلوب إلى حد ما بديع. إن الخطاط الأصيل قد لا تعجبه هذه الزخارف أو هذه المحاولات للزخرفة، أو هذه النهايات غير الكاملة كما ترى، ولكنك يمكنك - على الجملة - أن ترى أن لها طابعها الخاص. بل يمكنك في الواقع أن ترى طبيعة الكاتب العسكري تطل منها، يمكنك أن ترى الرغبة في التحرر وفي استعراض الخيال ومتابعة وحي العبقريّة إلى أقصى حد. ولكن النظام العسكري عنيف، ومن ثم يمكنك أن تلاحظ كيف يخضع الخط للنظام الصارم أيضاً.. إنه شيء جميل. لقد دهشت حين رأيت أول أنموذج من هذا النوع. لقد رأيته

مصادفة. وأين تظن؟ في سويسرا دون غيرها من البلاد، حسنًا: وإن هذا الخط إنجليزي عادي. وإن من المستحيل تقريبًا أن يزداد إجادة؛ لأنه يكاد يبلغ من الجمال والإبداع حد الكمال، وهذا أنموذج لطراز آخر، إنه مزيج من الأساليب الخطية. لقد أعطاني هذه النسخة تاجر فرنسي متجول. إن الخط فيها إنجليزي أساسًا، ولكن الجوانب النازلة أكثر ثخانة ووضوحًا منها في الخط الإنجليزي وقد قضى على العلاقة بين الظل و الضوء نتيجة لذلك. أترى كيف أن الحروف البيضاء متغيرة بعض الشيء، أقرب ما تكون إلى الاستدارة! أما هذا الخط ففيه مجال للزخرفة والتزيين. ولكن هذا أمر ينطوي على الخطر؛ لأن الزخرفة تستلزم ذوقًا رفيعًا، ولكن ما أجمل الكتابة بها عمومًا إذا نجح الكاتب فيها. إن نتيجهما أسلوب لا يُبارى، أسلوب يثير الحب والإعجاب في النفس.

وهنا ضحك الجنرال وقال:

- أوه! ما أعظم وأكثر معلوماتك الفنية في هذا الموضوع! عجبًا يا عزيزي، إنك لست خطأ، بل فنانًا. ما رأيك يا جانبا؟

فقال جانبا:

- رائع.

ثم أردف قائلاً بابتسامة تهكمية :

- وهو أيضًا لم تمامًا بمواهبه.

فقال الجنرال:

- إنك قد تضحك من هذا، ولكنني أرى فيه مستقبلًا. إنك لا تدري أية شخصية كبيرة سوف أطلعها على هذا أيها الأمير. عجبًا إن في مقدورك أن

تظفر بمنصب مرتبه الشهري ثلاثون روبلاً بصفة مبدئية.

ثم أردف قائلاً وهو ينظر في ساعة جيبه:

- وعلى كل حال قد بلغت الساعة الآن النصف بعد الثانية عشرة. فهيا إلى العمل أيها الأمير؛ لأنه ينبغي أن أستغرق في عملي، ولن أراك مرة أخرى اليوم. اجلس لحظة. لقد قلت لك إنني لن أستطيع أن أستقبلك كثيرًا، ولكنني أحب أن أسدي إليك بعض الخدمات، بعض الخدمات البسيطة - من النوع الذي يرضيك. سأجد لك وظيفة في إحدى الإدارات الحكومية. وظيفة مريحة، ولكنها تحتاج إلى الدقة في العمل. أما عن مشروعاتك في الإقامة، فإن في بيت - أعني في أسرة - صديقنا الشاب جانيا، الذي أرجو أن تتوطد معرفتك به، قد أعدت والدته وأخته غرفتين أو ثلاثة للسكنى للشخصيات الموثوق بها جدًا. ومع السكنى العناية والخدمة. وأنا واثق أن والدته نينا ألكسندروفنا سوف تقبلك بناء على توصيتي. وسوف تكون هناك مستريحًا وموضع الرعاية التامة؛ لأنني لا أعتقد أيها الأمير، أنك من الأشخاص الذين يمكن أن يُتركوا تحت رحمة القدر في مدينة مثل بطرسبرج. إن نينا ألكسندروفنا، والدة جانيا، وأخته فارفارا ألكسندروفنا سيدتان أكن لهما كل ما يمكن من تقدير واحترام. إن نينا ألكسندروفنا هي زوجة الجنرال أرداليون ألكسندروفيتش، زميلي السابق في الجيش، الذي يؤسفني أن أقول إنني، لأسباب خاصة، لم أعد أعرفه. إنني أقدم إليك كل هذه المعلومات أيها الأمير، لكي أبين لك أنني أركزك شخصيًا لهذه الأسرة، وأنني إذ أفعل هذا، أتحمّل المسؤولية بشأنك. إن الشروط معقولة جدًا، وأعتقد أن مرتبك سوف يغدو، عما قريب، كافيًا لجميع نفقاتك. والمصروف الخاص أمر ضروري بطبيعة الحال، مهما يكن قليلًا. ولا تغضب أيها الأمير إذا نصحتك بإخلاص

ألا تحمل معك نقودًا في جيبيك. وما دام كيسك خاليًا في الوقت الحاضر، فيجب أن تسمح لي بتقديم هذه الروبلات الخمسة والعشرين إليك، بصفة مبدئية. وسوف نسوي هذه المسألة في وقت آخر طبعًا، فإذا كنت كما يلوح عليك الرجل المستقيم الشريف، فإني أعتقد أن الأمور بيننا ستكون كما ينبغي. وإذا كنت شديد الاهتمام بك كما ترى، فأنا لا أفعل هذا بدون هدف ولسوف تعرف ذلك في حينه. إنني كما ترى صريح معك جدًا. وأنا أرجو يا جانبا ألا يكون لديك اعتراض في إقامة الأمير بمنزلك!

فقال جانبا في رقة وتلطف:

- أوه. بالعكس! لسوف يسر أُمي هذا.

- أظن أن إحدى غرفكم هي المشغولة فقط الآن، لذلك المدعو فيرد- فيرد- أليس ذلك؟

- فيردشנקو.

- نعم.. إنني لا أحب فيردشנקو هذا.. ولا أستطيع أن أدري كيف تشجعه ناستاسيا فيليبوفنا هكذا. أهو حقًا ابن عمها كما يقول؟

- أوه، لا يا سيدي! إن الأمر كله دعاية. إنه مثلي، لا يمت إليها بصلة قُربى..

- حسنًا. ما رأيك في هذه الترتيبات أيها الأمير؟

- شكرًا يا جنرال. لقد عاملتني بإشفاق وعطف، لا سيما وأنا لم أطلب منك العون ولست أقول هذا بدافع من الكبرياء. فالواقع أنني لم أكن أعرف أين سأنام الليلة. لقد دعاني روجوجين إلى بيته، ولكنني، طبعًا..

- روجوجين؟ لا لا يا عزيزي. إنني أنصحك بإخلاص نصيحة أبوية،

أو إذا شئت، نصيحة أخوية أن تنسى كل شيء عن روجوجين، وأن تتعلق بالأسرة التي ستقيم بين أفرادها.

- شكرًا لك. وما دمت شفيقًا بي إلى هذا الحد، فإنه لم يبق غير مسألة واحدة أحب أن..

فقاطعه الجنرال قائلاً:

- أرجوك المَعذرة. فليس لديّ في الواقع دقيقة أخرى. لسوف أخبر مسز إيبانشين بأمرك الآن، فإذا أرادت أن تستقبلك فورًا، كما سأفصح لها فإنني أنصحك بإخلاص أن تستفيد من هذه الفرصة وتوطد علاقتك بها؛ لأن زوجتي قد تكون ذات فائدة لك في نواح كثيرة. وإذا لم تستطع أن تستقبلك الآن، فيجب أن تروض نفسك على الانتظار إلى وقت آخر. والآن، عليك يا جانيا أن تفحص هذه الحسابات، فلا ينبغي أن ننسى هذه المسألة..

وغادر الجنرال الغرفة، ولم يستطع الأمير أن يتحدث معه في الموضوع الذي لديه، وذلك رغم أنه حاول هذا أربع مرات.

وأشعل جانيا سيجارة. وقدم أخرى للأمير، الذي تقبلها دون أن يتحدث بشيء حتى لا يشغل جانيا عن عمله. وشرع يفحص بنظراته غرفة المكتب ومحتوياتها. ولم يلق جانيا على العمل الذي أمامه غير نظرة خاطفة، ثم بدا عليه التفكير وشروذ الذهن، أما ابتسامته ومظهره العام فقد كان لهما أثر غير مستحب في نفسية الأمير لا سيما بعد أن تركا معًا في الغرفة.

وفجأة اقترب جانيا من بطلنا الذي كان واقفًا عندئذ أمام صورة ناستاسيا فيليوفنا يحملق فيها.

وسأله قائلاً وهو ينظر إليه بإمعان وقد بدا أن لديه هدفًا معينًا من سؤاله:

- هل يعجبك هذا النوع من النساء أيها الأمير؟

فقال الأمير:

- إن لها وجهًا رائعًا. وأنا واثق تمامًا أن مصيرها لن يكون بأية حال عاديًا خاليًا من الأحداث، إن وجهها يضحك حقًا، ولكن يبدو بوضوح أنها عانت في حياتها الشيء الكثير، أليس كذلك؟ إن نظراتها تنم عن هذا. وكذلك هاتان العظمتان.. النقطتان الصغيرتان تحت العينين، حيث يبدأ الخدان على وجه التحديد. إنه وجه مترفع جدًا! وأنا لا أستطيع أن أقول هل هي طيبة حنون أم لا. أوه لو أنها طيبة حقًا، إذن لتكامل جمال الصورة.

وعاد جانبا يسأله وهو لا يرفع نظراته المحمومة عن وجه الأمير:

- وهل تقبل أن تتزوج فتاة من هذا النوع، الآن!

- إنني لا أستطيع أن أتزوج إطلاقًا؛ لأنني مريض.

- وهل تظن أن روجوجين يقبل أن يتزوجها؟

- لم لا! أعتقد أنه يقبل بالتأكيد، إنه يقبل أن يتزوجها غدًا ثم يذبحها خلال أسبوع.

وما كاد الأمير يقول هذا حتى ارتعد جانبا بقوة وعنف مما جعل الأول يهتف قائلاً وهو يمسك بيده:

- ماذا بك؟

وفي تلك اللحظة، ظهر الخادم بالباب يقول:

- يا صاحب السمو. إن فخامة الجنرال يرجو ذهابك إلى شقة فخامتها.

وسرعان ما يتبع الأمير الخادم إلى خارج الغرفة.

الفصل الرابع

كانت بنات إيبانشين الثلاث كلهن طويلات القامة، صحيحات الأجسام، كاملات النمو، جميلات الأكتاف، بارزات الصدور، قويات الأذرع، كالرجال تقريباً. وبطبيعة الحال كانت لهن، فوق هذه الصفات كلها، شهية للأكل عارمة، ولم يكن يخجلن منها بأية حال.

وكانت الأم أليزابيث بروكوفينا تخبر بناتها، أحياناً، أنهن مسرفات بعض الشيء في هذه المسألة، ولكن رغم الاحترام الظاهري الذي تبديه البنات الثلاث لأمهن، فإنهن قد أجمعن على التحرر من ربة الطاعة العمياء التي تعودن عليها من قبل لأمهن، ومن ثم رأت المسز إيبانشين أن الأفضل قبول الأمر الواقع حرصاً على كرامتها، وذلك رغم إدراكها لحقيقة الموقف.

وفي الواقع كانت طبيعتها تثور أحياناً ضد ما تمليه الحكمة، كما كانت تزداد كل عام ضيق صدر وتقلب مزاج. ولكن لما كانت تطوي دائماً تحت جناحها زوجاً مطيعاً يحترمها فقد وجدت أنه من الممكن، بصفة عامة، أن تصب على رأسه نفثات صدرها، ولهذا فقد ظل الانسجام في جو الأسرة متوازناً، والأمور فيها تجري كأحسن ما ينبغي أن تجري في الأسرات.

وكانت لمسز إيبانشين شهية طيبة أيضًا، وقد اعتادت أن تنال نصيبها كاملاً في وجبة الطعام الرئيسية ظهرًا، وهي الوجبة المخصصة للبنات، والمعتبرة وجبة خفيفة وإن كانت لا تقل في مجموعها عن وجبة الغداء الكبيرة. وكانت البنات قد اعتدن أن يشربن القهوة قبل هذه الوجبة، في العاشرة صباحًا، وهن لا زلن في الفراش. وكانت تلك عادة محببة إليهن جدًّا، ويكرهن تغييرها بأيّة حال. وفي الثانية عشرة والنصف، تعد المائدة في غرفة الطعام الصغيرة، وكان الجنرال يشترك مع الأسرة في هذه الوجبة أحيانًا إذا أتيح له وقت فراغ.

وكان الطعام يتكون، عدا القهوة والشاي، من الجبن والشهد والزبد والكعك، والفطائر على مختلف الألوان والأنواع، «فإن ربة البيت تحب هذا الكعك أكثر من غيره» وشرائح اللحم وما إلى هذا. وكان حساء لحم البقر يقدم بصفة عامة مع غيره من أطيب الطعام.

وفي ذلك الصباح نفسه الذي بدأت فيه قصتنا، كانت الأسرة مجتمعة في غرفة الطعام، منتظرة ظهور الجنرال الذي وعد بالحضور في منتصف الساعة الواحدة بعد الظهر. ولو أنه تأخر لحظة أخرى، لأرسلت الأسرة في استدعائه، ولكنه وصل في الموعد المحدد تمامًا.

وفيما هو يتقدم محيياً زوجته ومقبلًا يديها، كعادته، لاحظ في نظراتها شيئاً ينذر بالخطر. وخطر له أنه يعرف السبب، وأنه يتوقع ما سيحدث. ولكنه ظل، رغم هذا، يشعر بالقلق. وتقدمت بناته أيضًا ليقبلنه، ورغم أن سماتهن لم تكن تنم عن الغضب، إلا أنه لاحظ في تعبيرات وجوههن شيئاً غير مألوف.

وكان الجنرال، بسبب ظروف معينة، لا يميل إلى حد ما لاستشعار الريبة

في الجو المنزلي، والإحساس بالتوتر العصبي الذي لا داعي له. ولكنه كوالد وزوج مجرب، يرى أنه من الأفضل أن يتخذ الإجراءات السريعة لحماية نفسه من أي جو ينذر بالخطر.

وأرجو، على أية حال، ألا أتدخل في سياق القصة الطبيعي أكثر مما ينبغي، إذا تحولت برهة عن السياق في هذه المرحلة لأشرح العلاقات المتبادلة بين أسرة الجنرال إيبانشين، وبين الشخصيات الأخرى التي لها دورها في هذا التاريخ وفي نفس الوقت الذي تلتقي فيه خيوط مصيرها جميعاً. وقد سبق أن قلنا إن الجنرال رغم أنه ينحدر من أصل بسيط، ولم يتلق الشيء الكثير من الثقافة، إلا أنه يعتبر زوجاً وأباً موهوباً مجرباً. وهو يرى، من بين ما يراه، أنه ليس من المستحب التعجيل بزواج بناته، أو بمعنى آخر بالإسراف في التأكيد لهن في كل مناسبة أن أمل الوالدين هو إسعادهن كما هي العادة بين كثير من الآباء والأمهات مع بناتهن. بل لقد نجح في ضم زوجته إلى جانبه في هذه المسألة، وذلك رغم ما عاناه في هذا السبيل من مشقة؛ لأن هذه المسألة لم تكن طبيعية، ولكن حجج الجنرال كانت قوية مقنعة وقائمة على حقائق واضحة، وكان من رأيه أنه ينبغي ترك ذوق الفتاة وحكمتها ينموان وينضجان على مهل. وأن واجب الوالدين هو مجرد المراقبة والملاحظة فقط، وذلك للحيلولة دون اختيار الفتاة لزوج غير مناسب. ولكن إذا وقع اختيار الابنة على الزوج المناسب، فإن واجب الأم والأب منذ تلك اللحظة يقتضي تأييدها قلباً وقالباً، والسعي الحثيث لكي تسير الأمور في مجراها الطبيعي حتى يتم عقد الزواج.

وعدا هذا، فقد كان من الواضح أن مكانة آل إيبانشين كانت تزداد في كل عام، بحساب دقيق مطرد، في كلا الجانبين، المالي والاجتماعي. ومن ثم

فكلما ازداد انتظار الفتيات، ازدادت الفرص أمامهن لزيجات أفضل وأروع. ولكن، بين كل هذه الحقائق الثابتة التي أوردناها، تظهر حقيقة أخرى لا تقل في الدلالة عن أخواتها، وهي أن الابنة الكبرى، ألكسندرا، قد أتمت أخيراً العام الخامس والعشرين من عمرها. وفي نفس الوقت تقريباً، أعرب أفانازي إيفانوفيتش توتسكي عن رغبته في الزواج، وهو رجل موفور الثراء، واسع الاتصالات، رفيع المكانة، في نحو الخامسة والخمسين، رفيق الذوق، فنان بطبعه، كان يريد أن يوفق إلى زيجة رائعة، كما كان خبيراً في فنون الجمال الأنثوي.

ولما كان توتسكي، في العهد الأخير، على صلات طيبة بآل إيبانشين، وقد زاد من قوة هذه الصلات اشتراكه مع الجنرال في مشروعات مالية كثيرة، فقد حدث أنه لجأ إلى الجنرال ودياً ليستشير في أمر هذه الخطوة المهمة التي يزمع اتخاذها، فهل يمكن، مثلاً، أن يقترح مشروع زواج بينه وبين إحدى بنات الجنرال.

وكان الواضح أن تيار الحياة الرقيق الهادئ في الأسرة قد بدأ يتعرض للون من التغيير.

وكانت أجلايا - صغرى البنات - هي، كما سبق القول أجمل زهرة في أسرة إيبانشين، ولكن توتسكي نفسه، رغم شدة إعجابه بذاته، كان يدرك أنه لا أمل له فيها، فالواضح أن أجلايا لم تكن له.

ولعل وشائج الحب والمودة التي تربط بين الأخوات الثلاث كان لها شأن ما في تضخيم فرص السعادة أمام أجلايا. لقد كان مصيرها المقدر، في رأيهم، ليس مجرد الحياة في سعادة، وإنما وجوب الحياة في جنة من

الأرض. إذ ينبغي أن يكون زوج أجلايا أنموذجاً لجماع الفضائل، ولكل أنواع النجاح، فضلاً عن الثراء الفاحش، وكان الاتفاق قد تم بين الأختين الكبيرين على التضحية من جانبهما بكل شيء، إذا لزم الأمر، من أجل أجلايا، وأن «صداقها» ينبغي أن يكون ضخماً لم يسبق له مثيل.

وكان الجنرال وزوجته على علم بهذا الاتفاق. ومن ثم فعندما عرض توتسكي أن يتزوج بإحدى البنات، لم يشك الوالدان في أن إحدى الأختين الكبيرين ستقبل هذا العرض ما دام توتسكي لا يثير أية مشكلة بشأن «الصداق». وقد اعتز الجنرال بهذا العرض أيما اعتزاز؛ لأنه يعرف الحياة، ويدرك ما ينطوي عليه هذا العرض من نفع جليل.

ورغم أن إجابة الأخوات على هذا الموضوع لم تكن حاسمة، إلا أنها لم تخل من بارقة أمل وعزاء. فقد أعلن أن الأخت الكبرى، ألكسندرا، قد تكون على استعداد لمناقشة الموضوع.

وكانت ألكسندرا فتاة طيبة القلب، عاقلة، لينة الجانب، وإن كانت أيضاً قوية الإرادة. وهي إذا قبلت الزواج، عن طواعية، بتوتسكي، فإنها لا ترجع في قرارها، كما أنها تغدو له زوجة صالحة. إنها لم تكن تهتم بالمجتمعات الراقية؛ لأنها فتاة حكيمة واقعية متهينة لأن تملأ حياة أي رجل بالهدوء والبهجة. وهي جميلة قطعاً وإن لم تكن فاتنة الجمال. فأية زوجة أفضل يريد توتسكي؟

وهكذا سارت الأمور في مجراها ببطء. ذلك لأن الجنرال وتوتسكي اتفقا على تجنب كل خطوة طائشة حمقاء. بل إن والدي ألكسندرا لم يكونا قد شرعا بعد في مصارحة بناتهما بشأن هذا الموضوع، عندما اضطرب فجأة وتر نشاز في نسق الأحداث. فقد بدأت أمارات الضيق والقلق تلوح على

المسز إيبانشين، وكانت هذه ظاهرة خطيرة، فقد تسلسل إلى الموضوع حدث معين، أو عامل بغیض مزعج هدد بقلب الأمور رأسًا على عقب.

لقد ظهر هذا الحدث في الوجود منذ ثمانية عشر عامًا. ففي جوار مزرعة توتسكي بإحدى المقاطعات الوسطى بروسيا، كان يقيم سيد فقير تعتبر مزرعته من أبأس المزارع. وكان ذلك السيد مشهورًا في المقاطعة بملازمة سوء الطالع له. كان اسمه باراشكوف، وكان من ناحية عراققة الأصل، أرفع كثيرًا من توتسكي، ولكن مزرعته كانت مرتھنة إلى آخر فدان بها. وفي ذات يوم، بينما كان في طريقه إلى المدينة لمقابلة أحد دائنيه، أسرع وراءه رئيس عمال قريته يحمل إليه نبأ احتراق منزله، ووفاة زوجته في الحريق، ونجاة أولاده.

ولكن باراشكوف، رغم احتمال له عواصف سوء طالع، لم يستطع الثبات أمام هذه الصدمة الأخيرة. لقد فقد عقله ومات بعد قليل في مستشفى البلدة، وبيعت مزرعته الصغيرة لحساب الدائنين؛ أما طفلتاه الصغيرتان وهما في السابعة والثامنة من العمر على التوالي، فقد تبناهما توتسكي الذي تولى تعليمهما ورعايتهما بكل ما في قلبه من عطف وحنان، لقد نشأتا مع أولاد وكيل دائرته الألماني، وعلى كل حال، لم يبق، بعد قليل، غير واحدة منهما - ناستاسيا فيليوفنا، ذلك لأن الأخت الأخرى الصغرى لم تلبث أن ماتت بالسعال الديكي. ونسي توتسكي، الذي كان يعيش خارج البلاد عندئذ، كل شيء عن الطفلة الباقية. ولما عاد إلى روسيا، بعد خمسة أعوام، خطر له أن يمضي إلى مزرعته ليرى كيف تسير الأمور فيها. حتى إذا وصل إلى بيت وكيل دائرته، لم يلبث أن اكتشف بين أبناء هذا الأخير فتاة رائعة الجمال في الثانية عشرة تعيش معهم - فتاة حلوة، ذكية، مشرقة، تبشر بجمال

من نوع ممتاز- وفي هذه الناحية يعتبر توتسكي حجة لا يُبارى.

ولم يمكث في دائرته غير أيام قليلة في تلك المرة، ولكنه وجد ما يكفي من الوقت لاتخاذ الترتيبات اللازمة. لقد أدخل في برنامج تعليم الفتاة تغييرات ضخمة. فاستأجر لها مربية خاصة: سيدة سويسرية ذات حكمة وثقافة. وأقامت هذه المربية أربعة أعوام مع الصغيرة ناستاسيا، ثم اعتبر توتسكي أن برنامج تعليمها قد تم. ورحلت المربية، وأقبلت بناء على تعليمات توتسكي، سيدة أخرى لرعاية ناستاسيا. وانتقلت الصبية إلى مزرعة أخرى لتوتسكي في جانب قصيٍّ من المنطقة. وهنا وجدت منزلًا صغيرًا خشبيًا جميلًا، حديث عهد بالبناء، ومعدًا لاستقبالها بكل عناية وذوق سليم وكانت هذه القرية الصغيرة بالطبيعة تسمى «عدن» وكأنما أطلق ذلك الاسم عليها قصدًا. وهنا اتخذت لنفسها مثابة مع السيدة التي صحبتها من مسكنها القديم. وفي البيت الجديد كان ثمة خادمتان بارعتان، وآلات موسيقية من كل نوع، ومكتبة لطيفة «لشابة صغيرة» ولوحات فنية، وصناديق ملونة، وكلب أليف، وكل ما يجعل الحياة مرضية هائلة. ووصل توتسكي نفسه خلال أسبوعين، وبدا منذ ذلك الحين أنه أصبح شديد الاهتمام بهذا الجانب من العالم، فراح يقبل عليه في كل صيف ليمكث شهرين أو ثلاثة دفعة واحدة. وهكذا انصرمت أربعة أعوام في سعادة وسلام، وفي جو لطيف.

وفي نهاية تلك الحقبة، أي بعد أربعة أشهر من آخر زيارة له «وكان لم يمكث غير أسبوعين في هذه المرة» بلغ مسامع ناستاسيا فيليوفنا أن توتسكي يوشك أن يتزوج في بطرسبرج بسيدة جميلة من سيدات المجتمع موفورة الثراء. وكان الخبر صادقًا بعض الشيء لأن مشروع الزواج كان في مرحلته الأولى، ولكن تغييرًا كبيرًا طرأ على ناستاسيا فيليوفنا، فقد أظهرت

فجأة قوة إرادة ونضج شخصية، فلم تلبث، دون أن تضيع أي وقت، أن غادرت بيتها الريفي ومضت إلى بطرسبرج، حيث قصدت، رأسًا، منزل توتسكي بمفردها.

وأعرب هذا عن استيائه بعد أن أدهشه سلوكها، ولكنه سرعان ما أدرك أنه ينبغي أن يغير من لهجة حديثه، وصوته، وكل شيء آخر في معاملته لهذه السيدة الشابة، إن العهد القديم الجميل قد مضى، وإن الجالسة أمامه الآن سيدة أخرى تختلف كثيرًا عن تلك الفتاة التي تركها في قرية «عدن» في شهر يوليو السابق.

لقد بدا له أولاً أن هذه السيدة الجديدة تدرك من أمور الحياة أشياء كثيرة غير عادية. بل لقد بلغ إدراكها في الواقع من العمق ما جعل توتسكي يعجب من أين التقطت كل هذه المعلومات. ليس من المعقول أن تكون قد استقتها من «مكتبتها الصغيرة»؛ ذلك أنها كانت محيطة بالمسائل القانونية، وبشئون «العالم» بوجه عام إلى حد كبير.

أما أخلاقها فقد تغيرت تمامًا. فلم يعد فيها ذلك التذبذب الصبائي بين الوداعة والمشاكسة، أو بين التحفز الحلو وشرود الذهن. والدموع، والملاعبة. ولكنها الآن مخلوقة جديدة غريبة الأطوار، تلك الجالسة أمامه تسخر منه، وتصارحه بأنها لم تحس نحوه أبدًا بأي شعور من أي نوع، إلا التقزز والاحتقار - الاحتقار الذي أعقب فورًا مشاعر دهشتها وحيرتها عندما عرفته أول مرة.

لقد زادت هذه المرأة الجديدة فجعلته يدرك تمامًا أنها - وإن كانت لا تهتم إطلاقًا بالفتاة التي سيتزوجها - قد جاءت بعد أن قررت أن تمنع هذا الزواج - لا لسبب معين غير الاحتقار، وغير أنها أرادت هذا، وغير رغبتها

في تسليّة نفسها على حسابها؛ لأن دورها قد جاء «لتضحك هي أيضًا قليلًا». كانت تلك كلماتها، ومن المحتمل جدًا أنها لم تذكر الأسباب الحقيقية لهذا التصرف الشاذ، ولكن هذا، على كل حال، هو كل التفسير الذي تنازلت وقدمته إليه.

وخلال هذا كان توتسكي يستعرض في ذهنه الموقف كله بقدر ما تسمح به أفكاره المشتتة، واستمر تفكيره، على أية حال، أسبوعين، ثم اتخذ في نهايتهما قرارًا. فالواقع أن توتسكي كان في ذلك الحين رجلًا في الخمسين من عمره، وكان مركزه المالي ثابتًا محترمًا، ومكانته الاجتماعية مستقرة تمامًا على أسس قوية منذ أمد بعيد. وكان يحب نفسه، وراحته الشخصية ومكانته الاجتماعية أكثر من أي شيء في العالم، كما ينبغي أن يفعل أي إنسان محترم جدًا!

وفي الوقت نفسه، فإن إحاطة توتسكي بالأمر بوجه عام، جعلته يدرك أن عليه الآن أن يتعامل مع إنسانة لها تصرفات تشد كثيرًا عن نطاق التصرفات البسيطة العادية.. إنسانة لا تهدده بالشر فحسب، بل قادرة - بدون شك - على تنفيذ هذا التهديد، والمضي فيه بغير مبالاة بأحد.

وانتهى به التفكير إلى أن هناك خطرًا ما. نوعًا من الثورة الفكرية، أو شيئًا من الغضب العاطفي موجهًا إلى حيث لا يعلم أحد غير الله. أو نوعًا من الاحتقار البالغ. أي على الجملة شيئًا يجمع بين الغرابة والشذوذ في المجتمع الراقى، ولكنه في نفس الوقت أخطر كثيرًا من أن يتعرض له إنسان محترم له مكانته التي يريد أن يحتفظ بها في المجتمع.

لقد كان من اليسير على رجل في مثل مكانة توتسكي وثرائه أن يتخذ من

الإجراءات ما يجنبه كل أنواع المضايقات، بينما كان من العسير في الوقت نفسه على ناستاسيا فيليبونا أن تسيء إليه بأي شكل، سواء بطريقة قانونية أو بإثارة فضيحة اجتماعية لأن في مقدوره بسهولة، في هذه الحالة الأخيرة، أن يكسر شوكتها ويقلم مخالبيها... ولكن هذه الاحتمالات قد تصح، على كل حال، إذا تصرف ناستاسيا كما قد يتصرف غيرها في حالة الطوارئ، إلا أنه كان من المرجح جدًا أنها سوف تشد في تصرفاتها عن الحدود المعقولة بوسائل غير مألوفة إطلاقًا.

وهنا وضعته حكمته في موقف سليم. فقد أدرك أن ناستاسيا فيليبونا لا شك تعلم أنها لا تستطيع الإساءة إليه بالوسائل القانونية، ولكن كان ثمة أهداف أخرى تنم عنها نظراتها النارية.

إن ناستاسيا فيليبونا لا تتورع أن تحطم نفسها، بل وأن ترتكب شيئًا قد يرسلها إلى سيبريا لمجرد الاستمتاع بالإساءة إلى رجل لا تحمل له إلا كل إحساس بالتقزز والاحتقار. لقد كانت له من الفطنة وقوة البصيرة ما يكفي لأن يجعله يدرك أنها لا تبالي بشيء في العالم، حتى ولا بنفسها، وأنه لم يحاول أن يخفي الحقيقة بأنه في بعض النواحي جبان. فمثلاً لو قيل له إنه سيطعن بمدية وهو واقف أمام مذبح الزواج، أو أن إهانة ما ستوجه إليه علناً، لا متلأت نفسه بالخوف قطعاً. ولكن لن يبلغ خوفه من القتل أو الإصابة أو الإهانة حد الخوف من التفكير في أن يبدو في نظر المجتمع - حتى لو حدث شيء من هذا - موضع التندر والسخرية.

إنه يعلم تمامًا أن ناستاسيا تفهم نفسيته كل الفهم، وتعرف أين وكيف توجه ضربتها إليه. ولهذا، فما دام مشروع الزواج في مرحلته التمهيدية، فقد قرر توتسكي أن يهدئ ثأرتها بالتراجع عنه. وقد شد من عزمته في هذا

الأمر أن ناستاسيا قد تغيرت، أخيراً، بشكل يدعو للعجب. وإنه لمن العسير أن تدرك إلى أي حد بلغ اختلافها في المظهر والجسم، في الوقت الحاضر، عما كانت عليه وهي صبية منذ أعوام قليلة. لقد كانت يومذاك حلوة؛ ولكن الآن...!! إن توتسكي ليضحك غضباً وهو يفكر فيما وصل إليه من قصر النظر وسوء التقدير. إنه يتذكر كيف كان، في الأيام الخوالي، ينظر إلى عينيها الجميلتين، بل وكيف كان يدهش لما تنطوي عليه أعماقهما من أسرار وغموض، ومن نظرات متسائلة كأنما هي تلمس الإجابة عن لغز مجهول، وقد تغير لون بشرتها أيضاً. فهي الآن شديدة الشحوب، ولكن هذا التغير، للعجب، جعلها أكثر جمالاً. وكان توتسكي، كمعظم الرجال المحنكين، يحتقر الغزو الرخيص لقلب فتاة تحت رعايته. ولكنه في الأعوام الأخيرة بدأ ينظر إلى الأمر من زوايا جديدة. فقد خطر له منذ الربيع الماضي، أن من الواجب عليه أن يبحث لها عن الزوج المناسب. عن شاب - مثلاً - محترم لطيف يعمل في إحدى المصالح الحكومية بمنطقة أخرى من البلاد. «أوه: لشد ما ضحكت وسخرت ناستاسيا من هذه الفكرة الآن!».

وبدا لتوتسكي، على أية حال، أنه قد يستطيع أن يستفيد منها بطريقة أخرى. فقرر أن يجعلها تستقر في مدينة بطرسبرج، وأن يحيطها بكل ألوان الأبهة والترف التي تتيحها ثروته، وبهذه الوسيلة قد يستطيع أن يظفر برفعة الشأن في دوائر معينة.

ومرت خمس سنوات على هذا اللون من الحياة في بطرسبرج. وقد حدثت بطبيعة الحال أشياء كثيرة خلال هذه الفترة. كما أصبحت مكانة توتسكي على غير ما ينبغي أن تكون، فبعد أن «تخاذل» مرة، لم يستطع أن يسترد الإحساس براحة النفس. لقد كان خائفاً، وهو لا يدري لماذا؟ كان

خائفاً فقط من ناستاسيا فيليوفا. إن الشك خامره في العامين الأولين بأنها تريد أن تتزوجه هو؛ وأن كبرياءها فقط هي التي تمنعها من مصارحته بذلك، وأنها تنتظر - في إصرار - أن يتقدم هو في خشوع وتواضع ويطلب يدها. ولكنه تبين لدهشته البالغة التي لم تخل من الأسى، أن الأمر ليس كذلك، وأنه لو طلب يدها لرفضته. وظل فترة طويلة لا يفهم حقيقة الموقف، ثم اضطر لأن يستنتج بأنها الكبرياء: كبرياء المرأة الجريحة النفس، الواسعة الخيال التي دفعت بها إلى أن تفضل البقاء واجترار احتقارها وكراهيتها له في عزلة ووحشة، على التحليق في جو المجتمع الراقي الذي لم تكن تحلم به. ومما زاد الأمر سوءاً، أنها لم تحفل بالاعتبارات المالية لنفسها؛ أي كان من العسير رشوتها عن هذا السبيل. وأخيراً اتخذ توتسكي معها وسائل مأكرة ليحاول أن يمزق قيوده ويحرر نفسه. لقد حاول أن يغريها بوسائل مختلفة لكي تنصرف عنه. فأقام المآدب للأمرء وضباط سلاح الفرسان، وسكرتيري السفارات، والسفراء والروائيين والاشتراكيين ليتعرفوا بها، ولكن لم يستطع واحد منهم أن يترك في قلب ناستاسيا أي تأثير، وكأنما قُذ هذا القلب من صخر، أو كأنما جفت فيه ينابيع المشاعر والعواطف إلى الأبد.

كانت تعيش في شبه عزلة، تقرأ أو تدرس، وتهوى الموسيقى؛ وكان معارفها الأساسيون نسوة فقيرات من مختلف الطبقات، وممثلين، وأسرة مدرس فقير، وكانت تتمتع بين هؤلاء جميعاً بقسط وافر من الحب.

وفي بعض الأحيان كانت تستقبل أربعة أو خمسة من الأصدقاء لتمضية السهرة وكان توتسكي يزورها كثيراً، وفي العهد الأخير استطاع الجنرال إيبانشين أيضاً أن يقدم نفسه في مجتمعتها بشيء كثير من المشقة، وكذلك تعرف بها جانيا وكان من معارفها غير هؤلاء: فيردشنكو - وهو كاتب

حكومي شاب وضيع المنبت مسرف في شرب الخمر، يتظاهر بالظرف، ثم بيتسيل المرايبي المتواضع الرقيق الذي ارتفع من بيئة فقيرة. وكان جمال ناستاسيا في الواقع قد أصبح حديث المدينة كلها، ولكن لم يكن ثمة رجل واحد يستطيع أن يزهو ويزعم أن علاقته بها تتجاوز مجرد الإعجاب. وأن شهرتها هذه، وألمحيتها، وثقافتها، ورقتها قد جعلت توتسكي يتأكد أن الخطوة التي يعد لها سوف تنجح.

وفي هذه الفترة كان الجنرال إيبانشين قد بدأ يلعب في القصة دوره الكبير الخطير.

فعندما تقدم توتسكي إلى الجنرال- في أدب وتلطف- طالبًا منه يد إحدى بناته، اعترف له في صراحة تامة بكل شيء. وقال إنه ينوي ألا يسمح لشيء أبدًا أن يحرمه من حريته. وحتى لو وعدت ناستاسيا بأن تدعه وشأنه في المستقبل، فإنه «كما قال» لن يصدقها. إن الكلمات وحدها لن تكفي، وإنما ينبغي أن يظفر بضمان ما أكيد. ومن ثم قرر مع الجنرال أن يحاولا الالتجاء إلى المسالمة، وإلى إثارة المشاعر الطيبة في قلبها. وبعد أن وصل توتسكي مع الجنرال إلى بيت ناستاسيا ذات يوم، راح يتحدث عن موقفه العصيب الذي لا يُطاق، واعترف بأنه هو المسئول عن كل شيء، ولكنه اعترف أيضًا بصراحة بأنه لا يستطيع أن يرغم نفسه على الشعور بأي ندم بسبب غوايته لها وما ارتكبه في حقها من خطيئة وإثم؛ لأنه رجل لا يستطيع السيطرة على شهواته العارمة، ولأنه عاجز تمامًا عن كبح جماح نفسه في هذا الشأن، ولكنه يريد أخيرًا، وبصفة جدية، أن يتزوج، وأن مصير هذه الزيجة الرفيعة المرغوب فيها والتي يستعد لها، بين يديها. وبعبارة أخرى إنه يضع كل آماله أمام طيبة قلبها وكرم مشاعرها.

وقام الجنرال إيبانشين بدوره وراح يتحدث بلهجة والد الأسرة.. وكان يتحدث بحكمة دون أن يسرف في محاولة التأثير عليها عاطفياً. وإنما أخذ فقط يؤكد لها اعترافه التام بحقها في أن تكون الفيصل في مصير توتسكي في هذه اللحظة. ثم أشار بعد ذلك إلى أن مصير ابنته الكبرى، بل وربما مصير الابنتين الأخريين، يتوقف على إجابتها.

ولما سألت ناستاسيا عما يريدان منها أن تفعل، اعترف لها توتسكي أنه كان في طيلة السنوات الخمس الماضية خائفاً منها، وأنه لن يستطيع أن يطمئن تمامًا إلا إذا تزوجت هي. ثم بادر وأضاف قائلاً إن مثل هذا العرض يبدو - بطبيعة الحال - شاذاً ما لم يكن قائماً على أساس ما، ثم قال إنه يعرف تمام المعرفة شاباً مهذباً كريم المحتد يدعى جافريلا أرداليونوفيتش إيفولجين، وهو شاب تعرفه هي، وسبق أن استقبلته في بيتها. وهو يحبها منذ أمد بعيد أشد الحب، كما أنه على استعداد للتضحية بحياته إذا استجابت لرجائه. لقد اعترف الشاب بغرامه إليه «إلى توتسكي». وكان اعترافه أمام رئيسه وولي أمره، الجنرال إيبانشين. وأخيراً فإنه لا يملك نفسه من الظن بأنها هي نفسها على علم بحب جانبا لها، وإذا كان هو «توتسكي» لم يخطئ الظن، فإنها كانت تنظر إلى هذا الحب بعين الرضى والقبول، بسبب وحدتها الدائمة وإحساسها بالضيق من حياتها الحاضرة. وبعد أن أشار توتسكي إلى أنه - بطبيعة الحال - آخر رجل يجوز له الحديث معها في هذه الأمور، اختتم حديثه قائلاً إنه واثق بأن ناستاسيا فيليبوفنا لن تشعر نحوه بالاحتقار إذا هو أعرب عن رغبته الصادقة في تأمين مستقبلها، وذلك بتقديم هدية مالية لها مقدارها خمسة وسبعون ألف روبل. وأضاف قائلاً إن هذا المبلغ كان سيتركه لها، على كل حال، في وصيته، ومن ثم فلا ينبغي أن تعتبر هذه الهدية بأي

حال نوعاً من التعويض لما ارتكبه في حقها. وإنما ليس هناك، في الواقع، أي سبب يمنع الإنسان من تحقيق رغبته الطبيعية في إرضاء ضميره.. إلى آخر كل ما ينبغي أن يُقال في مثل هذه الظروف. وكان توتسكي بليغاً طوال حديثه، وقد أشار في الختام إلى أنه لا يوجد في الدنيا شخص - حتى الجنرال إيبانشين - يعرف شيئاً عن الخمسة والسبعين ألف روبل المشار إليها، وأن هذه هي أول مرة يعرب فيها عن رغبته في هذا الشأن.

وكانت إجابة ناستاسيا فيليبوفنا على هذا الحديث الطويل مثار دهشة الصديقين..

إنه لم يكن ثمة أثر فحسب، لتهكمها القديم أو لكراهيتها وعدائها السابق أو لضحككتها الرهيبة التي طالما أثارت الرعدة في جسم توتسكي، وإنما لاح أنها شديدة الغبطة والابتهاج حقاً، إذ أتيحت لها الفرصة لتحدث معه جدياً وبطريقة ودّية. واعترفت أنها طالما تافت إلى أن تتحدث بصراحة وحرية، وإلى أن تلتمس النصيحة ودية، ولكن كبرياءها كانت دائماً تمنعها، ولكن ما دام الأمر بينهما قد تحسن، فليس هناك شيء أحب إليها من هذه الفرصة.

واعترفت بابتسامة حزينة أولاً، ثم بغمزة مرحة من عينيها أن العاصفة التي ظلت تزار في صدرها مدى خمسة أعوام لم يعد لها وجود الآن. وقالت إنها أيضاً غيرت نظرتها إلى الأمور منذ أمد بعيد. ورأت أنه ينبغي الاعتراف بالحقائق رغم ما قد يستشعره القلب. إن ما حدث قد حدث وانتهى، وأنها لا تستطيع أن تفهم لماذا يظل توتسكي خائفاً منزعجاً!

ثم استدارت إلى الجنرال إيبانشين وأشارت في تلطف وأدب إلى أنها تعرف منذ أمد بعيد بناته، وأنها لم تسمع عنهن إلا كل خير، وأنها تعودت ألا

تفكر فيهن إلا بكل تقدير واحترام، وأن مجرد التفكير وحده في أن تؤدي لهن أية خدمة يملأ نفسها بالزهو والسعادة الحقة.

وقالت إنها حقاً تشعر بالوحدة في حياتها الراهنة، وأن توتسكي صدق في إدراكه لما تحس به. إنها تتوق إلى الاستمتاع - إن لم يكن بالحب - فعلى الأقل بالحياة العائلية، وبآمال وأهداف جديدة. أما عن جافريلا أورداليونوفيتش فإنها لا تستطيع أن تتحدث في شأنه بالشيء الكثير، إنها ترى أن موضوعه هو أنه لا شك يحبها، وأنها أيضاً قد تعرف كيف تحبه إذا أيقنت من قوة وشيخته بها؛ ولكنه لا يزال شاباً حدثاً، وإن من العسير التأكد من عاطفته. إلا أن أجمل ما تحبه فيه هو أنه يعمل، يعول أسرته بعرق الجبين.

لقد سمعت أنه معتد بنفسه طموح. كما أنها سمعت الشيء الكثير اللطيف عن أمه وأخته. لقد سمعت عنهما من المستر بيتسين، وأنها تتوق كثيراً لأن تتعرف بهما. ولكنها ليست واثقة تماماً مما إذا كانتا تقبلان استقبالها في منزلهما ورغم أنها - على الجملة - لم ترفض فكرة هذا الزواج، فإنها لا تريد أن يتعجلها أحد، أما عن الخمسة والسبعين ألف روبل، فليس ما يدعو المستر توتسكي إلى الشعور بأية مشقة أو حرج في هذا الشأن. فهي تدرك تماماً قيمة المال، ومن ثم ستقبل الهدية بطبيعة الحال. وقد شكرت له هذا الكرم، ولكنها، مع هذا، لم تر ما يدعو لإخفاء هذا الأمر عن جافريلا أورداليونوفيتش.

إنها لن تتزوج بهذا الأخير، كما ذكرت، إلا إذا اقتنعت تماماً بأنه لا يوجد من جانبه، أو من جانب أسرته، أي ظل من الشك في أمرها. إنها لا تنوي أن تلتمس المغفرة عن أي شيء مضى، وهذه حقيقة تحب أن يعرفها الجميع. إنها لا تعتبر نفسها مخطئة في أي شيء حدث فيما مضى، وهي ترى

أنه ينبغي أن يعلم جافريلا بالوشائج التي كانت تربط بينها وبين توتسكي في خلال السنوات الخمس المنصرمة. فإذا هي قبلت منه هذا المبلغ، فلا يجب أن يعتبر هذا ثمنًا لما نالها من سوء وهي في مرحلة الصبا. هذا السوء الذي لا يمكن بأي حال أن تكون مسئولة عنه، وإنما يعتبر تعويضًا عن تدمير حياتها. وكانت قد بلغت من الانفعال واهتياج النفس في أثناء هذه التفسيرات والاعترافات حدًا جعل الجنرال إيبانشين يشعر بأتم الرضى، ثم يعتبر الموضوع منتهيًا تمامًا بحالة مرضية. ولكن توتسكي، الذي لدغ مرة، كان أكثر حذرًا وخوفًا من أن يكون ثمة أفاع أخرى مخبئة بين الزهور! على أن النقطة المهمة التي اعتمد عليها الصديقان لتحقيق هدفهما «وهي بصراحة ميل ناستاسيا فيليبوفنا إلى جافريلا» كانت تزداد أهمية ووضوحًا بالتدريج، ومن ثم بدأت المفاوضات وغدا توتسكي، شيئًا فشيئًا، يؤمن بإمكان الوصول إلى اتفاق.

ولم تلبث ناستاسيا وجانيا «جافريلا» أن تحدثا في هذا الأمر، وكان حديثهما مقتضبًا جدًّا، لكنهما يجرح مثل هذا الحديث حياءها. ولكنها شعرت بحبه لها ورحبت بهذا الحب وإن أوضحت له كل الوضوح بأنها لن ترتبط بشيء أبدًا، وأنها ستحتفظ بحقها في الرفض حتى آخر ساعة قبل عقد الزواج. وأن يكون لجانيا مثل هذا الحق، على كل حال، حتى اللحظة الأخيرة.

وسرعان ما تبين لجانيا، بعد الشيء الكثير من الخلافات والمنازعات في المحيط العائلي، أن أسرته تعارض هذا الزواج بشدة، وأن ناستاسيا تعرف هذه الحقيقة كما يعرفها، ولكنها لم تحدثه بشيء عنها رغم أنه كان يتوقع كل يوم أن تفعل.

ولم تلبث الشائعات والأقاويل أن انتشرت قبل مضي وقت طويل، مما أفقد توتسكي الشيء الكثير من راحة باله. ولكننا لن نتوقف هنا لنصفها. وإنما سنذكر مثلاً أو مثلين: الأول أن ناستاسيا قد عقدت وشائج وثيقة سرية مع بنات الجنرال إيبانشين وهذه إشاعة غير محتملة الحدوث. والثانية أن ناستاسيا أقنعت نفسها منذ مدة بأن جانبا لا يريد أن يتزوجها إلا من أجل مالها، وأنه بطبيعته مكتئب جشع، متسرع، أناني إلى حد كبير. إنه على الرغم من رغبته السابقة في أن يغزو قلبها ويتنصر، فالواضح أنه بدأ يعتبر الموضوع كله كابوساً وشيئاً مزعجاً بعد أن علم برغبة الصديقين في استغلال عواطفه لتحقيق أغراضهما.

وكان يلوح أن عاطفتي الحب والكراهية تقفان في قلبه على مفترق طرق، فعلى الرغم من أنه أعرب أخيراً عن موافقته للزواج من المرأة الساقطة «كما قال» تحت ضغط الظروف فإنه عاهد نفسه أن ينتقم منها و«يمسح بها الأرض» بعد الزواج.

ولاح لتوتسكي أن ناستاسيا قد أدركت هذا كله، وأنها تعد لحسابها شيئاً جعله يفرع إلى حد لم يستطع معه أن يفضي بذات نفسه حتى للجنرال. ولكنه في بعض الأحيان كان يلتقط شجاعته، ويملاً نفسه بالأمل، وبالروح المعنوية العالية، أي كان في الواقع يسلك مسلك الرجال الضعفاء في مثل هذه الأحوال.

وعلى أية حال شعر الصديقان أن الأمور تسير كما يشتهيان عندما ذكرت لهما ناستاسيا ذات يوم أنهما ستخبرهما برأيها الأخير يوم الاحتفال بعيد ميلادها الذي كان قد اقترب موعده.

وفي الوقت نفسه بدأت شائعة عجيبة في الانتشار. ولم تكن تقل عن

الزعم بأن الجنرال المحترم الموقر إيبانشين هو نفسه مفتون بناستاسيا فيليبوفنا، وأن شعوره نحوها قد بلغ حد الحب. وكان من العسير أن يتصور أحد ماذا يمكن أن يستفيد هو من زواج جانيا بالفتاة. من المحتمل أن يكون معتمداً على وداعة جانيا وسلاسة قياده، ذلك أن توتسكي كان يرتاب منذ أن تبين وجود نوع من التفاهم الخاص بين الجنرال وسكرتيره. وعلى أية حال، فقد عرف عن يقين أنه أعد هدية فاخرة من اللؤلؤ ليقدمها لناستاسيا في عيد ميلادها، وأنه ينتظر ملهوفاً هذه المناسبة؛ لكي يقدم فيها هديته بفارغ الصبر وبأشد الانفعالات وكان يبدو على أحر من الجمر في اليوم السابق على عيد ميلادها.

وكانت المسز إيبانشين، التي اعتادت كثيراً خيانات زوجها، قد سمعت بأمر هدية اللؤلؤ، كما أثارت الإشاعة أشد اهتمامها. ولاحظ الجنرال شكوكها، وقد أحس أن عليه أن يقدم قريباً تفسيراً طويلاً، مما سبب له في الواقع أشد الانزعاج.

ذلك هو السبب الذي جعله غير راغب في تناول طعام الغداء مع الأسرة «في اليوم الذي بدأنا فيه هذه القصة». وكان قبل وصول الأمير قد رأى أن يعتذر بكثرة الأعمال، «ويزوغ» من الغداء، أو ببساطة، يهرب منه.

لقد كان ملهوفاً بوجه خاص على أن يمضي هذا اليوم بالذات، لا سيما المساء، بلا خلافات بينه وبين أسرته. ثم إذا بالأمير يقبل في الوقت المناسب «وكانما أرسلته السماء لغرض معين»، هكذا حدث الجنرال نفسه وهو يغادر مكتبه في الطريق إلى شريكة حياته.



الفصل الخامس

كانت المسز إيبانشين سيدة مترفعة بطبيعتها، فخورة بمحتدها. ومن ثم كانت الصدمة عنيفة على نفسها حينما علمت فجأة، وبلا استعداد، أن الأمير ميشكين، آخر فرد في شجرة أسرتها وأسرته، قد وصل في أسمال متسول، وفي سمتِ أبله، وفي حاجة إلى عون وإحسان، كما حاول أن يبين لها الجنرال بالتفصيل ليحول أفكارها إلى اتجاه آخر، وليغطي موضوع اللآلئ تحت هذه الأنباء المفاجئة.

وكان من عادة المسز إيبانشين أن تشد قامتها، وأن تطيل النظر أمامها دون أن تنطق بكلمة، في لحظات الانفعال النفسي.

وكانت سيدة طويلة عريضة، في مثل سن زوجها الجنرال، ذات أنف مقوّس بعض الشيء، وجبين مرتفع ضيق، وشعر غزير وخطه الشيب، وبشرة شاحبة. وكانت عيناها رماديتين، تطل منهما أحياناً نظرات غريبة التعبير، وهي تؤمن أن لهما في النفس تأثيراً عميقاً، ولا شيء في الوجود يمكن أن يززع إيمانها هذا.

قالت وهي تحملق بنظرات غامضة إلى زوجها الواقف أمامها متململاً:

- ماذا؟! أتريد مني أن أستقبله الآن، فوراً؟

فأسرع الجنرال ليقول موضعاً الأمر:

- أوه، مهلاً، أوكد لك أنه لا داعي للرسميات معه! إنه حَدَثَ في سن الصبا، ولا أقول إن منظره يثير العطف والإشفاق. وهو معرض لنوبات مرضية من نوع ما. وقد وصل إلى المحطة من سويسرا فوراً، ثم جاءنا من المحطة رأساً وهو يرتدي ملابس ألمانية وليس في جيبه مليم. وقد أعطيته خمسة وعشرين روبلاً بصفة مبدئية. وسأبحث له عن عمل سهل في إحدى الإدارات الحكومية، وأنا أرجو أن تتخمنه بأطيب الطعام يا عزيزاتي لأنني أشعر أنه جائع جداً.

فقالت زوجته وهي لا تزال تحملق فيه:

- إنك تدهشني! نوبات مرضية، وجائع أيضاً؟ وما نوع هذه النوبات؟

- أوه! إنها لا تعتريه كثيراً، ثم إنه صبي في السلوك رغم ما يبدو من أنه مثقف إلى حد ما، وأنا أحب يا عزيزاتي، إن أمكن، أن...

ثم أضاف الجنرال قائلاً وهو يستدير للانصراف، موجهًا الحديث إلى بناته:

- أن تختبرنه بعض الشيء، وأن تعرفن إمكانياته. وأن تترفقن به، وهذا كما تعلمن، عمل طيب، وبطبيعة الحال يمكنكن أن تتصرفن كما تشأن، ولكن لا تنسين أنه يمت إليكن بوشائج قري. وأعتقد أنه يهمل رؤية الشاب، لترين أي طراز من الناس هو؟

وهنا قالت ألكسندرا، الابنة الكبرى:

- أوه، طبعًا يا أماه، إذا لم يكن ثمة ما يدعو للرسميات معه، فينبغي أن نقدم للمسكين شيئًا يأكله بعد رحلته، لا سيما أن ليس لديه أية فكرة عن مكان يأوي إليه.

وقالت أدليدا:

- وعدا هذا فإنه صغير السن، ومن الممكن أن نسليه بلعبة الاستغماية إذا لزم الأمر.

فتساءلت المسز إيبانشين قائلة:

- الاستغماية؟

وهتفت أجلايا في استياء:

- أوه، دعك من التظاهر يا أماه! ابعث به إلينا يا أبي، فإن أمي موافقة.
ودق الجنرال الجرس، وأصدر أمره باستدعاء الأمير.

وقالت المسز إيبانشين:

- بشرط أن يضع فوطة تحت ذقنه في أثناء الطعام، وأن يقف فيدور أو مارفا وراءه وهو يأكل. هل يكون هادئًا عندما تعتريه النوبات؟ إنه لا يحتاج أو يعنف عندئذ، أليس كذلك؟

- بالعكس، إنه يبدو حسن التربية، وإن سلوكه لممتاز، ولكن ها هو ذا قد جاء بنفسه، هلم أيها الأمير، دعني أقدمك. إنه آخر سلالة آل ميشكين، وهو قريب لك يا عزيزتي، أو يحمل نفس اسم أسرتك على الأقل. استقبله بعطف، أرجوك، لسوف يقدم الآن طعام الغداء أيها الأمير، ويجب أن تبقى لتشارك فيه، ولكن يجب أن تقبل عذري، فإني متعجل، وينبغي أن أسرع..

فقال المسز إيبانشين بنبرات لها دلالتها:

- إننا جميعًا نعرف إلى أين ينبغي أن تسرع..

- نعم، نعم، لقد تأخرت! اسمعن يا عزيزاتي، دعوه يكتب لكن شيئًا في إضماماتكن^(١)، إنكن لا تعرفن أي خطاط بارع هو، إنه فنان موهوب! لقد كتب لي عبارة قديمة هي «إن الراهب بافني قد وقع على هذا». حسنًا، إلى اللقاء.

وبصوت زاهر بالاستياء، هتفت المسز إيبانشين بزوجها المتعجل:

- تمهل برهة! إلى أين أنت ذاهب؟ ومن هو هذا الراهب؟

- أجل يا عزيزتي، كان راهبًا قديمًا يحمل هذا الاسم.. يجب أن أسرع لمقابلة الكونت، إنه ينتظرنني، وقد تأخرت. طاب يومك، إلى اللقاء أيها الأمير.

وانطلق الجنرال مسرعًا بأقصى ما يستطيع.

وقالت المرأة بصوت قاطع وهي تستدير نحو الأمير:

- أوه، نعم... أنا أعرف أي كونت ذاهب للقاءه! والآن. ما معنى هذا كله؟ أي راهب..

ثم أضافت قائلة بحدة:

- من يكون بافني هذا؟

وهتفت ألكسندرا دهشة لفظاظة أمها:

- أوه، أماه!!

(١) الإضمامة = ألبوم Album.

وضربت أجلايا الأرض بقدمها.

وعادت الأم الغاضبة تقول:

- هراء! دعوني وشأني! والآن أيها الأمير، اجلس، لا، اقترب، اقترب من الضوء، إنني أريد أن أمعن النظر إليك. والآن، من هو هذا الراهب؟

فقال صاحبنا في جد واهتمام:

- الراهب بافني.

- نعم بافني، ولكن من يكون؟

وكانت المسز إيبانشين تلقي بهذه الأسئلة في سرعة وضجر، وكلما أجاب الأمير أومات برأسها لكل كلمة يقولها:

- كان الراهب بافني يعيش في القرن الرابع عشر. وكان رئيسًا لأحد الأديرة على نهر الفولجا حيث تقع الآن حكومة مقاطعة كوستروما. وقد ذهب إلى الأورال، حيث يقيم التتر، واشترك في المسائل الكبرى التي كانت تجري في المحيط الديني يومذاك. وقد وقع على مرسوم هناك، ورأيت صورة مطبوعة لتوقيعه، وقد أعجبتني، فنسختها. ولما طلب الجنرال مني في مكتبه، أن أكتب شيئاً ليرى خطي، كتبت «الراهب بافني قد وقع على هذا» مقلداً نفس خط الراهب. وقد أعجب الجنرال بالخط كثيراً، وهذا ما جعله يذكره الآن.

وقالت الأم لأجلايا:

- أجلايا، اكتبي مذكرة عن «بافني» هذا وإلا نسيناه. حسناً. وأين هذا التوقيع؟

- أعتقد أنه لا يزال على مكتب الجنرال.

- ليأت به أحد إليّ حالاً.

- أوه، إنني أستطيع أن أكتب لك توقيماً غيره في لحظة، إذا شئت.

وهنا قالت ألكسندرا:

- طبعاً يا أماه، هلم نتناول الغداء الآن، فإننا جميعاً جائعون.

فقالت الأم:

- نعم، هلم أيها الأمير، هل أنت جائع جداً؟

- أجل، يجب أن أعترف بأنني جائع جداً. شكراً جزئياً.

- يسرني أنك مهذب، وإنني لأرى أنك لست بالشخص الغريب الأطوار

كما يقول الجنرال، هلم اجلس هنا في مواجهتي، فأنا أريد أن أتمكن من رؤية وجهك. ألكسندرا، أدليدا، اعتنيا بالأمير، إنه لا يلوح مريضاً جداً..

أليس كذلك؟ ولست أعتقد أنه بحاجة إلى فوطه تحت ذقنه. هل أنت معتاد على هذا أيها الأمير؟

- فيما مضى، عندما كنت في السابعة من عمري أو نحو ذلك، أعتقد

أنني كنت أضع واحدة تحت ذقني يومذاك. أما الآن، فإنني عادة أضعها على ركبتي في أثناء الأكل.

- طبعاً، طبعاً، ماذا عن النوبات التي تعتريك؟

فقال الأمير مندهشاً:

- نوبات؟! إنني قلما أتعرض لأية نوبات في الوقت الحاضر. إلا أنني لا

أدري كيف يكون الحال هنا، فإنه يُقال إن الطقس هنا قد يكون غير مناسب لي.

وقالت المسز إيبانشين التي كانت مستمرة في الإيماء برأسها لكل كلمة ينطق بها الأمير:

- إنه يجيد الحديث، كما ترين! الواقع أنني لم أكن أتوقع هذا إطلاقاً. وأعتقد أن كل ما قاله الجنرال كان، كالمعتاد، لغوًا وباطلاً. استمر في الأكل أيها الأمير وحدثني أين وُلدت، وأين نشأت. فأنا أريد أن أعرف كل شيء عنك لأنك تثير أشد اهتمامي.

وأعرب الأمير عن شكره الجزيل مرة أخرى، ثم بدأ- وهو يأكل بشهية- في سرد قصة حياته بسويسرا، وهي التي سبق أن سمعناها من قبل. وازدادت المسز إيبانشين ابتهاجًا بضيفها، وكذلك البنات أيضًا، كن ينصتن إليه في انتباه. وبالحديث عن علاقات القُربى تبين أن الأمير جد خبير بالموضوع، وأنه يحفظ تسلسل نسبه عن ظهر قلب. وقد ثبت أنه لا يكاد يوجد أية علاقة قُربى بينه وبين المسز إيبانشين ولكن بدا أن هناك نوعًا من القرابة البعيدة كانت بين بعض أجداده، وأجدادها. على أن هذه المحادثة، وفرصة الحديث عن شجرة أسرتها، أفعمت نفسها إلى حد كبير بالغبطة ومن ثم نهضت عن المائدة وهي منسرحة الصدر جدًا.

وقالت:

- هَلُمَّ إلى غرفة جلوسي، وسوف تأتي القهوة لنا فيها.

ثم أوضحت الأمر للأمير بقولها:

- إنها الغرفة التي نجتمع فيها حيث نشغل وقتنا كما يحلو لنا. فابنتي الكبرى ألكسندرا تعزف على البيانو، أو تقرأ، أو تخط، وترسم أدليدا المناظر الطبيعية وصور الأشخاص «ولكنها لا تتم شيئًا منها» أما أجلايا

فإنها تجلس ولا تفعل شيئاً. وأنا أيضاً لا أعمل كثيراً. آه، ها نحن أولاء الآن. اجلس أيها الأمير بالقرب من المدفأة وحدثنا. فأنا أريد أن أسمعك تتحدث عن شيء، لأنني أرغب أولاً من التأكد منك ثم أتحدث عنك مع الأميرة بيلوكوفسكي، صديقتي الحبيبة. وإني لآمل أن تتعرف بجميع الشخصيات الكبيرة وأن تشير اهتمامهم بك. والآن ابداً!

وهنا قالت أدليدا التي كانت واقفة أمام حامل الرسم بين ألوانها وفرشاتها:

- ولكن، يا أماء، أليس عجباً أن تأمري شخصاً ما بالحديث على هذا النحو؟

وكانت كل من أجلايا وألكسندرا قد استقرت على المتكأ، وعقدت يديها على صدرها، معبرة عن استعدادها للإنصات. وأحس الأمير أن الاهتمام العام قد أصبح مركزاً عليه.

وقالت أجلايا:

- لو أنني تلقيت أمراً كهذا للحديث، لرفضت أن أنطق بكلمة واحدة.

فقالت الأم:

- لماذا؟ ما وجه العجب في هذا؟ إن له لساناً، فلماذا لا يحدثنا بشيء، إنني أريد أن أعرف أهو محدث بارع أم لا. تحدث عن أي شيء تريد أيها الأمير: ما هو شعورك نحو سويسرا؟ ما هي انطباعاتك الأولى عنها، أي شيء. لسوف ترين أنه سيبدأ الحديث حالاً ويخبرنا بكل شيء ببراعة.

وبدأ الأمير حديثه قائلاً:

- كان الأثر قوياً..

وقاطعته السيدة الملول قائلة لبناتها:

- أترين يا بنات؛ لقد بدأ الحديث! اسمعن.

فقالت ألكسندرا:

- حسنًا! دعيه إذن يتحدث يا أماه!

ثم أردفت هامسة لأختها أجلايا:

- هذا الأمير أفاق كبير وليس أبله بأية حال.

فقالت أجلايا:

- أوه، لقد عرفت هذا من أول الأمر. ولست أرى أبدًا أنه من اللائق أن يلعب هذا الدور. إنني أتساءل عما يمكن أن يستفيد من هذا؟

وكرر الأمير قائلاً:

- كان التأثير قويًا جدًا في نفسي أولاً، فعندما رحلوا بي من روسيا، أذكر أنني مررت بكثير من المدن الألمانية، وكنت أطل من نوافذ القطار، ولكنني لم أحاول أن أستفسر كثيرًا عنها. وكان ذلك بعد سلسلة طويلة من النوبات. وكنت في المعتاد أبقى في شبه غيبوبة بعد هذه النوبات، وأفقد ذاكرتي تمامًا. ورغم أنني لم أكن فاقد العقل كلية في مثل هذه الحالة، فإني كنت أعجز عن التفكير السليم. وكانت هذه الحالة تستمر ثلاثة أو أربعة أيام، ثم أعود إلى حالتي الطبيعية كما أنا الآن. وأذكر أن شعوري بالاكئاب عندئذ كان قويًا لا يُحتمل، إذ أحس بالميل إلى البكاء. كنت أبقى مستغرقًا في حالة من القلق والتساؤل والشعور المُمض بأن كل شيء يبدو غريبًا في نظري. وكان في مقدوري أن أدرك أن كل ما حولي كان غريبًا عجيبيًا. وأذكر أنني أفقتُ من هذه الحالة في مدينة بازل ذات مساء، عند وصولي إلى سويسرا.

أفقت على نهيق حمار بسوق المدينة. وقد رأيت الحمار وابتهجت كثيرًا برؤيته. ومنذ ذلك الحين وأنا أحس بالصفاء في رأسي كما يبدو لي.

وهنا قالت المسز إيبانشين وهي تنظر بغضب شديد إلى بناتها اللاتي بدأن في الضحك:

- حمار! يا للعجب؟ ومع ذلك فلا عجب في هذا.. فمن المحتمل أن يقع أي منا في حب حمار! لقد حدث هذا في الأساطير. استمر في حديثك أيها الأمير.

- ومنذ ذلك المساء وأنا شديد الشغف بالحمير، فبدأت أستمع عنها، لأنني لم أكن رأيت واحدًا منها من قبل. وسرعان ما انتهى الرأي بي إلى أنها من أنفع الحيوانات. فهي قوية، مطيعة، صابرة، ورخيصة الثمن. ويرجع الفضل إلى ذلك الحمار في أنني بدأت أحب كل المنطقة التي كنت مازًا بها، وفي ذلك الشعور بالاكتمال من نفسي.

وقالت المسز إيبانشين:

- إن هذا كله عجيب ومثير، ولندع الآن الحمار ولنتناول موضوعًا آخر. ماذا يضحكك يا أجلايا، وأنت أيضًا يا أدليدا! لقد حدثنا الأمير عن تجاربه بكل براعة، لقد رأى الحمار بنفسه، فماذا رأيته أنتن؟ إنكن لم ترحلن إلى الخارج قط.

فقالت أجلايا:

- ومع ذلك فقد رأيت حمارًا يا أماء.

وقالت أدليدا:

- وأنا سمعت صوت واحد!

وضحكت البنات الثلاث عاليًا واشترك الأمير معهن في الضحك.

وقالت الأم:

- قبيح منكن هذا! يجب أن تغفر لهن أيها الأمير، إنهن بنات طيبات وأنا شديدة الحب لهن رغم أنني كثيرًا ما أعنفهن. إنهن جميعًا حمقات ومخبولات كأرانب البراري.

فضحك الأمير قائلًا:

- ولماذا لا يضحكن؟ إنني ما كنت أدع هذه الفرصة تمر دون أن أضحك، ولكنني مع هذا ورغم كل شيء متمسك بشعوري نحو الحمار، إنه مخلوق صبور طيب القلب.

وهنا قالت المسز إيبانشين:

- وهل أنت رجل صبور أيها الأمير؟ إنني أسأل فقط بدافع من الفضول. ومرة أخرى ضحك الجميع.

وهتفت السيدة قائلة:

- أوه، ذلك الحمار البائس مرة أخرى، فهمت! أؤكد لك أنني لم أكن أقصد أبدًا..

- التعريض بي! أوه؟ أؤكد لك إنني أصدقك تمامًا.

قالها الأمير وهو لا يزال يضحك مرحًا.

وقالت المسز إيبانشين:

- يجب أن أقول إنه جميل منك جدًا أن تضحك، فأنا أرى أنك إنسان طيب القلب حقًا، طيب القلب دائمًا.

وأكملت حديثها بجفاء غير منتظر:

- إنني شخصيًا طيبة القلب، وعلى الدوام أيضًا إذا شئت! وهذا هو عيبي الأساسي؛ لأنه لا يجوز أن يكون الإنسان طيب القلب دائمًا. وأنا كثيرًا ما أغضب مع هؤلاء البنات وأبيهن، ولكن أسوأ ما في الأمر أنني أكون أشد طيبة عندما أغضب وأثور. لقد كنت غاضبة قبل مجيئك مباشرة، وقد ألفت عليّ أجلايا هذه درسًا، شكرًا لك يا عزيزتي أجلايا. تعالي وقبليني.

ثم أردفت قائلة بعد أن تقدمت أجلايا وقبلت فمها ثم يدها:

- هذا يكفي، والآن، استمر في حديثك أيها الأمير فلعلك تستطيع أن تفكر في شيء أشد إثارة من الحمار!!

وقالت أدليدا:

- يجب أن أعود إلى القول بأنني لا أفهم كيف يمكن أن تتوقعي من شخص أن يمضي في سرد الأحاديث والقصص بالأمر هكذا؟ إنني أعرف أن هذا ليس في مقدوري أبدًا.

- نعم. ولكن الأمير يستطيع؛ لأنه بارع، أبرع منك عشر مرات أو عشرين إذا شئت. نعم، هذا هو الواقع أيها الأمير، ولنترك جدّيًا موضوع الحمار الآن. فماذا رأيت أيضًا في الخارج بعد الحميم؟

وقالت ألكسندرا:

- نعم، ولكن الأمير مع هذا كان بارعًا جدًّا في حديثه عن الحمار، فقد كنت شديدة الاهتمام دائمًا لمعرفة كيف يفقد بعض الناس عقولهم ثم يستردونها مرة أخرى، وما إلى هذا، لا سيما عندما تحدث فجأة.

وهتفت المسز إيبانشين في ابتهاج:

- تمامًا، تمامًا! أرى أن في مقدورك يا ألكسندرا أن تكوني بارعة بين
الحين والآخر، كنت تتحدث عن سويسرا أيها الأمير!

- نعم، ووصلنا إلى لوسيرن، وأركبوني في البحيرة زورقًا، وأحسست
بجمال النزهة، ولكن هذا الإحساس تحول بطريقة أو بأخرى إلى شعور
بالاكتئاب.

فسألت ألكسندرا قائلة:

- لماذا؟!

- لا أدري، فهذا هو شعوري دائمًا كلما نظرت إلى جمال الطبيعة لأول
مرة، ولكنني بطبيعة الحال كنت يومذاك مريضًا.
وقالت أدليدا:

- أوه، ولكنني أحب لو رأينا هذا، ولست أدري متى سوف نسافر إلى
الخارج، إنني منذ عامين أهفو إلى موضوع جميل للرسم بعد أن استنفدت
كل ما لديّ من موضوعات. «فأنا أعرف الشمال والجنوب» عن ظهر قلب
كما يقول الشاعر، أرجوك أيها الأمير أن تساعدني في الحصول على موضوع
جميل للرسم.

- أوه، ولكنني لا أعرف شيئًا عن الرسم. إن على المرء، كما يبدو لي،
أن يرى وأن يرسم ما يراه.

- ولكنني لا أعرف كيف أرى.

فتدخلت الأم قائلة:

- هراء! ما هذا اللغو الذي تقولينه! ألا تعرفين كيف تنظرين، افتحي

عينيك وانظري، فإذا لم تستطعي النظر هنا، فلن تستطعيه في الخارج أيضًا.
حدثنا أيها الأمير، بنفسك؟

وقالت أدليدا:

- نعم، هذا أحسن. لقد تعلم الأمير كيف ينظر إلى الأشياء في الخارج.
- أوه، إنني لا أكاد أعرف. لقد سافرت لأسترد صحتي، ومن ثم فلا
أعرف هل تعلمت النظر إلى الأشياء أم لا. فقد كنت، على أية حال، سعيّدًا
جداً طول الوقت تقريباً.

فقالت أجلايا هاتفة:

- سعيّدًا؟ أيمكن أن تكون سعيّدًا؟ إذن كيف يمكن أن تقول إنك لم
تتعلم كيف تنظر به ولهذا أعتقد أنه في مقدورك أن تعلمنا كيف ننظر.

وضحكت أدليدا قائلة:

- أرجوك أن تعلمنا!

فقال الأمير ضاحكاً أيضًا:

- أوه! إنني لا أستطيع أن أفعل هذا، لقد أقمت المدة كلها تقريباً في
قرية سويسرية صغيرة، فماذا يمكن أن أعلمكن؟ في أول الأمر لم أكن ملولاً
إلى حد كبير، ثم بدأت صحتي تتحسن، ثم أخذ كل يوم يصبح أغلى وأحب
إلى نفسي وكلما طال بي المقام، ازداد الوقت إعزازاً لديّ، وهذا ما جعلني
ألاحظ مروره رغماً عني، ولكن لماذا حدث هذا؟ فإن من العسير عليّ أن
أعرف السبب.

- ولهذا فأنت لم تهتم بالتردد على أي مكان آخر.

- لقد فعلت هذا في أول الأمر، كنت أشعر بالقلق وعدم الاستقرار، فأنا لم أكن أعرف كيف سأمضي في الحياة. والمعروف أنه يأتي على الإنسان مثل هذه اللحظات لا سيما في الوحدة. وكان ثمة مسقط مائي صغير بالقرب منها، وكان المنظر جميلاً فهو سلسال من الماء، كالخيط، ولكنه أبيض ومتحرك. كان يسقط من ارتفاع شاهق، ولكن يلوح كأنه منخفض، وكان يبعد مسافة نصف ميل ولكنها بدت كأنها خمسون خطوة فقط. وكنت أحب الإنصات إلى خريره ليلاً، إلا أنني عندئذ بدأت أشعر بالضجر وعدم الاستقرار. وفي بعض الأحيان كنت أذهب وأتسلق الجبل وأقف بين أشجار الشربين الطوال، وحيداً في قلب السكون الرهيب، وقريتنا الصغيرة تبدو من بعيد، والسماء شديدة الزرقة، والشمس بالغة التألّق، وقلعة قديمة مهدمة تبدو على جانب الجبل من بعيد. وقد اعتدت أن أرقب خط الأفق حيث تتلاقى السماء بالأرض، وحيث أهفو لأن أذهب وأبحث هناك عن مفتاح كل هذه الأسرار، حاسباً أنني قد أجد حياة جديدة أو ربما مدينة كبيرة حيث تكون الحياة فيها أعظم وأثري، ثم إذا بي أحس فجأة أن الحياة قد تكون رائعة حتى في السجن.

وقالت أجلايا:

- لقد قرأت هذا الرأي الأخير القيم في التقويم السنوي عندما كنت في الثانية عشرة من عمري.

وقالت أديليدا:

- هذه كلها فلسفة بحتة. إنك فيلسوف أيها الأمير، وقد جئت هنا لتدرس لنا نظرياتك.

فقال الأمير باسمًا:

- لعلك على حق. فأنا أظن أنني فيلسوف، ربما، فمن يدري، وربما أرغب في تدريس نظرياتي عن الأشياء لمن ألتقي بهم.

وقالت أجليا:

- إن فلسفتك أقرب ما تكون إلى فلسفة سيده عجوز كنا نعرفها، وكانت ثرية ولكنها لا تفعل شيئاً غير الاهتمام بإنفاق أقل ما يمكن من المال. إنها لا تتحدث إلا عن المال طيلة اليوم. إن رأيك الفيلسفي العظيم عن الحياة الرائعة في السجن وسنواتك الأربع السعيدة في تلك القرية السويسرية، مثل هذا!

وقال الأمير:

- أما عن الحياة في السجن فقد يكون هناك طبعاً رأيان ؛ فقد حدث أنني سمعت قصة عن رجل عاش اثنتي عشرة سنة في السجن.. سمعتها من الرجل نفسه. كان أحد المرضى الذين يعالجهم أستاذي الطبيب. كان يعاني من نوبات الصرع، ومن حالات الاكتئاب الفجائية التي تجعله يستغرق في البكاء. وقد حاول ذات مرة أن ينتحر. وكانت حياته في السجن محزنة حقاً، إذ لم يكن يؤنس وحشته غير العناكب، وشجرة نامية خارج القضبان. ولكنني أعتقد أنه يحسن ألا أحدثكم عن رجل آخر التقيت به في العام الماضي. فإن في حياته حادثاً عجبياً، وهو عجيب بسبب ندرة حدوثه البالغة. لقد سبق هذا الرجل إلى ساحة الإعدام مع عدد غيره من الناس. وكان محكوماً عليه بالإعدام رمياً بالرصاص بسبب بعض الجرائم السياسية. وبعد عشرين دقيقة صدر أمر باستبدال حكم آخر بحكم الإعدام. ولكن الفترة الواقعة بين الحكمين، عشرين دقيقة أو ربع ساعة، مضت وهو واثق تماماً أنه سيموت

حتمًا بعد لحظات قليلة. وكنت شديد الشوق لأسمعه يتحدث عن انطباعاته خلال هذه الفترة الرهيبة. وكثيرًا ما كنت أسأله عن أفكاره وإحساساته. وكان يذكر كل شيء بدقة ووضوح عجيب، ويقول إنه لن ينسى أبدًا أية هنة من هذه التجربة.

فعلى مسافة عشرين خطوة من حيث وقف بساحة الإعدام ليستمع إلى الحكم، كان ثم ثلاثة قوائم خشبية مثبتة في الأرض لشد المحكوم عليهم إليها «وكان عددهم كبيرًا». وقد سيق المساجين الثلاثة الأول إلى القوائم، مرتدين أردية بيضاء، وعلى رؤوسهم أغطية بيضاء منسدلة على وجوههم حتى لا يروا البنادق وهي مصوَّبة إليهم. ثم اتخذت جماعة من الجنود مواقعها في مواجهة كل قائمة خشبية. وكان صديقي هو الثامن في قائمة المحكوم عليهم. ولهذا كان بين المجموعة الثالثة عند التنفيذ. وقد سار قسيس بين هذه المجموعة حاملًا الصليب، وكان لم يبق أمام صاحبي في الحياة غير خمس دقائق.

ويقول إن هذه الدقائق الخمس بدت له أطول فترة من الوقت مرّت عليه، كانت ثروة هائلة من الوقت، لقد لاح له أنه يعيش، في هذه الدقائق، عددًا كبيرًا من ألوان الحياة، وأنه قام بعدد كبير من الترتيبات، مقسمًا هذه اللحظات إلى فترات، واحدة مقدارها الزمني دقيقتان لتوديع زملائه، ودقيقتان أخريان للتفكير في حياته ومصيره وكل ما يتعلق به، والخامسة لإلقاء نظرة أخيرة على كل ما حوله. إنه يذكر أنه قسم وقته هكذا تمامًا. وبينما كان يودع أصدقاءه تذكر أنه سأل أحدهم سؤالًا عاديًا، وقد اهتم كثيرًا بالإجابة. وبعد أن فرغ من التوديع، استغرق في الدقيقتين المخصصتين للتفكير في نفسه، وكان يعرف مقدمًا في أي شيء سوف يفكر. لقد أراد أن يفرغ من التفكير

بأوضح وأسرع ما يمكن. لقد فكر في أنه لا يزال إنساناً يعيش ويفكر، وأنه بعد ثلاث دقائق سيغدو لا شيء أو إذا كان سيغدو شيئاً أو شخصاً، فماذا تراه سيكون، وأين؟ لقد فكر في أنه سيعرف هذا بصفة نهائية بعد ثلاث دقائق. وكان على مسافة يسيرة ثمة كنيسة قائمة، يلمع برجها المذهب في ضوء الشمس. وهو يذكر أنه ظل يمعن النظر بإصرار إلى ذلك البرج، وإلى خيوط الضوء المنعكسة عنه. إنه لم يستطع أن ينتزع عينيه من هذه الخيوط المضيئة. لقد خطر له أن هذه الخيوط المضيئة هي حياته الجديدة وأنه سيغدو واحداً منها، ومندمجاً فيها بطريقة ما ويقول إن نفسه امتلأت بشعور رهيب من الاشمئزاز والتقرز بسبب ما سوف يعقب هذا من حياة جديدة، أو الشك فيه. ولكن أسوأ ما في الأمر كله هو تفكيره الدائم في هذا السؤال: ماذا يمكن أن أفعل إذا لم أمت الآن؟ ماذا لو أنني عدت إلى الحياة مرة أخرى؟ أية أيام لا نهائية، سوف تكون كلها لي؟ كيف يمكن أن أحول كل دقيقة فيها إلى عمر كامل حتى لا تضيع مني لحظة واحدة؟ لقد قال إن هذا التفكير ظل يثقل عليه حتى غدا عبثاً ثقيلاً على ذهنه لا يستطيع احتماله، وتمنى لو أنهم أطلقوا الرصاص عليه وفرغوا منه.

وتوقف الأمير برهة عن الحديث، وظل الجميع ينتظرون أن يستأنفه ويفرغ من سرد قصته.

وقالت أجلايا:

- أهذا كل شيء؟

فقال الأمير وهو يفيق من شرود ذهني مؤقت:

- كل شيء؟ نعم.

- ولماذا حدثتنا بهذا؟

- أوه! لا أدري، لقد تذكرته فقط، و... و... ظننت أنه قد يصلح موضوعاً للحديث.

وقالت ألكسندرا:

- لعلك أردت أيها الأمير أن تنتهي إلى هذه النتيجة، وهي أن دقائق الزمن لا يمكن أن تُحسب بالمال، وأن خمس دقائق قد تساوي أحياناً كنزاً لا يُقدر بثمن. إن لهذا كله قيمته. ولكن هل يمكن أن أسألك عن صديقك هذا الذي حدثك بهذه التجربة الرهيبة عن حياته؟ لقد نجا من حكم الإعدام كما تقول، وبمعنى آخر لقد أعادوا إليه هذه «الأيام اللانهائية»، فماذا فعل بكل هذه الكنوز من الزمن؟ هل حرص على أن يحسب كل دقيقة فيها على حدة؟

- أوه، لا. إنه لم يفعل. لقد سأله بنفسه فقال إنه لم يعيش أبداً كما كان ينوي، وأنه ضيع سدى لحظات عديدة.

- حسناً جداً، هذه إذن تجربة واقعية أثبتت حقيقة مهمة، وهي أنك لا تستطيع أن تحصي كل دقيقة على حدة. ومهما قلت في هذا فإنك لا تستطيع.

فقال الأمير:

- نعم، هذا صحيح كما قلت لنفسه. ومع ذلك، فلماذا لا يمكن للإنسان أن يفعل هذا؟

فقال أجلايا:

- أترى إذن أن في مقدورك أن تعيش بحكمة أكثر من غيرك من الناس؟

- لقد خطرت لي هذه الفكرة!

- ألا تزال تحتفظ بها؟

- نعم ما زلت محتفظاً بها.

وكان ينظر إلى أجلايا، حتى الآن، بابتسامة رقيقة خجول، ولكن ما كاد ينطق بالكلمات الأخيرة حتى أخذ يضحك وينظر إليها مرحاً.

فقالت أجلايا في شيء من الضيق:

- إنك لست شديد التواضع؟

فقال:

- ولكن ما أشجعك؟ إنك تضحكين، بينما أنا... أنا قد بلغ من تأثري بقصة هذا الرجل أنني حلمت بها فيما بعد، نعم حلمت بهذه الدقائق الخمس. وعاد ينظر إلى المستمعات إليه بتلك السمات الجادة الفاحصة. ثم سأل فجأة قائلاً بشيء من السرعة والتوتر رغم أنه كان ينظر إليهن بجرأة:

- إنكن غير غاضبات مني؟

فهتفن قائلات:

- ولماذا نغضب منك؟

- لأنه يلوح فقط أنني أُلقي عليك طوال الوقت إحدى المحاضرات.

وهنا ضحكن بكل قلوبهن بينما استطرد الأمير قائلاً:

- أرجو ألا تغضبني مني؟ فأنا أعرف تمامًا أنني لم أر من الحياة مثلما رأى غيري من الناس، ولم أعرف منها الشيء الكثير. ولا شك أن حديثي أحياناً يبدو عجيباً..

وقال الكلمات الأخيرة مستوفزاً.

وقاطعته أجلايا بصوت فيه رنين التهكم:

- تقول إنك تعيش سعيدًا، وهذا يعني أنك عشت في الحياة أكثر - لا أقل - مما عاش غيرك من الناس. فلماذا كل هذه الاعتذارات. وعدا هذا فلا حاجة بك إلى أن تهتم بأمر محاضرتنا؛ لأنه ليس لديك ما تفخر به. فبهذوئك هذا يمكن للإنسان أن يعيش سعيدًا مائة عام على الأقل. وقد يمكن أن تشاهد تنفيذ حكم للإعدام، أو مجرد أصبع صغير، وكل ما تفعله هو أن تتخذ مما ترى عبرة أو تجربة وأنت راضٍ هادئ النفس. إن هذا اللون من الحياة سهل تمامًا.

وهنا قالت المسز إيبانشين التي كانت تنصت إلى المحادثة وتفحص وجوه المتحدثين على التوالي:

- إنني لا أدري لماذا تثورين دائمًا. إنني لا أفهم ماذا تعنين؟ ما شأن أصبعك الصغير في الموضوع؟ إن الأمير يتحدث جيدًا وإن لم يكن حديثه مسليًا. لقد بدأ حديثه ضاحكًا، وهو يبدو الآن مكتئبًا.

فقالت أجلايا:

- لا عليك يا أماه! تمنيت أيها الأمير لو أنك رأيت تنفيذ حكم إعدام؛ لأنني كنت أحب أن ألقى عليك سؤالًا في هذا الشأن.

فقال الأمير:

- لقد رأيت عملية تنفيذ حكم بالإعدام.

فهتفت أجلايا:

- أحمقًا؟! كان يجب أن أستنتج هذا! إن فيه تنويعًا لبقية القصة. فإذا كنت قد رأيت تنفيذ حكم بالإعدام، فكيف تقول إنك سعيد في حياتك؟

وسألته أدليدا قائلة:

- ولكن هل عقوبة الإعدام موجودة حيث كنت تقيم؟

- رأيت هذا في مدينة ليون، لقد صحبني شنيدر إليها، ووصلنا في الوقت المحدد لتنفيذ حكم الإعدام.

وسألت أجلايا:

- حسنًا! وهل أعجبك كثيرًا؟ هل وجدت فيها تجربة قيمة أو درسًا مفيدًا؟

- لا، لم أعجب بها أبدًا، بل مرضت بعدها. ولكنني أعترف أنني كنت أحملق فيما أرى وكأنما عيناى متعلقتان به، فلا أستطيع لهما تحويلًا.
فقالت أجلايا:

- وأنا أيضًا! ما كنت لأستطيع أن أحول عيني عن منظر كهذا.

- لم يكن القوم هناك يحبون أن يروا النساء يشهدن هذا المنظر، والنساء اللاتي يفعلن هذا يتعرضن فيما بعد لحملة قاسية من الصحف.

- هذا يعني أنه إذا كان هذا المنظر يصلح لأن يراه الرجال، فلا يصلح لأن تراه النساء! إنني أهنتهم على هذا المنطق، وأعتقد أنك أيها الأمير تتفق معهم في هذا الرأي.

وقالت أدليدا:

- حدثنا عن عملية تنفيذ حكم الإعدام.

فقال الأمير بوجه مقطب بعض الشيء وينم عن القلق الخفيف:

- إنني أفضل كثيرًا ألا أفعل الآن.

فقلت أجلايا في سخرية:

- يبدو أنك لا تريد أن تحدثنا.

- لا. الذي حدث هو أنني كنت أتحدث عن هذا الموضوع منذ فترة وجيزة....

- إلى مَنْ كنت تتحدث؟!

- إلى الخادم، عندما كنت أنتظر مقابلة الجنرال.

فهتفن قائلات:

- إلى خادمنا؟!

- نعم، إنه ذلك المختص بالمتظرين، في قاعة الانتظار، رجل رمادي الشعر، أحمر الوجه.

فقلت أجلايا:

- إن الأمير ديمقراطي. حسناً، إذا كنت قد استطعت أن تحدث أليكسي عنه، فيجب أن تحدثنا عنه أيضاً.

وكررت أدليدا القول:

- إنني مشوقة إلى سماع هذا الحديث.

فقال الأمير بمزيد من الانتعاش:

- لا، ليس الآن. وأعترف - حين طلبت مني موضوعاً للرسم - أنني فكرت جدياً في أن أسألك أن ترسمي وجه رجل محكوم عليه بالإعدام قبل تنفيذ الحكم بلحظة، أي في أثناء وقوف البائس على المنصة، استعداداً لوضع رأسه فوق الخشبة قبيل سقوط سكين الجيلوتين على عنقه.

فتساءلت أدليدا:

- ماذا؟! وجهه! وجهه فقط؟! إنه موضوع عجيب حقًا! ثم أي نوع من لوحات الرسم ستكون؟

فقال الأمير في إصرار وشيء من الحماسة:

- أوه، لم لا؟ عندما كنت في مدينة بازل رأيت لوحة رسم قريبة جدًا من هذا الطراز، ويسرنى أن أحدثك عنها ذات يوم؛ لأنها تركت في نفسي أثرًا قويًا.

فقالت أدليدا:

- أوه، لسوف تحدثنا عن لوحة بازل في وقت آخر، أما الآن، فيجب أن تخبرنا بكل شيء عن تنفيذ ذلك الحكم بالإعدام، حدثنا عن الوجه كما رأيته بعين خيالك؟ كيف كان مكتئبًا؟ مجرد الوجه وحده! أليس هذا ما تعنيه؟
فبدأ الأمير حديثه بغبطة، مدفوعًا بذكرياته، غافلًا، كما يبدو، عن كل شيء آخر في تلك اللحظة:

- كان هذا قبيل التنفيذ بلحظة، أي في اللحظة التي خطا فيها من السلم إلى المنصة، وحدث أن التفت ناحيتي، فرأيت عينيه وفهمت كل شيء فورًا، ولكن كيف يمكنني أن أصف ما رأيته؟ إنني أتمنى لو تستطيعين، أو يستطيع أحد غيرك أن يصور هذا بريشته.. أنت بالذات إذا أمكن، لقد خطر لي في ذلك الحين أنها ستكون لوحة رائعة. إذ ينبغي أن تصوري كل شيء حدث قبيل التنفيذ، كل شيء، لقد عاش في السجن فترة من الوقت، ولم يكن يتوقع تنفيذ الحكم قبل أسبوع على الأقل، كان يعتمد على أن الإجراءات الرسمية وما إلى هذا ستستغرق وقتًا. ولكن حدث أن تم إعداد أوراقه بسرعة، وكان

في الساعة الخامسة صباحًا مستغرقًا في النوم. وكنا عندئذ في شهر أكتوبر حيث يكون الجو في الخامسة صباحًا، باردًا مظلمًا. وأقبل مدير السجن على أطراف أصابعه، ولمس كتف الرجل النائم برفق، فجفل مستيقظًا وقال: «ماذا حدث؟» فقليل له: «قد تحدد موعد تنفيذ الحكم في الساعة العاشرة» وكان مستيقظًا من توه، فأبى أن يصدق ما سمع في أول الأمر، وإنما أخذ يجادل قائلاً إن أوراقه لن يتم إعدادها قبل أسبوع، وما إلى هذا. ولما أفاق من النوم تمامًا، وأدرك الحقيقة، استغرق في الصمت، وتوقف عن الجدال، هكذا قالوا. ولكنه قال بعد برهة: «من القسوة أن يكون الأمر فجائيًا هكذا»، ثم عاد إلى الصمت ولم يقل شيئًا. وطبعًا مرت الساعات الثلاث أو الأربع في الإجراءات العادية.. القسيس، والإنكار «لقد قدم إليه، لحم وقهوة وبعض الشراب. ألا يبدو هذا عجيبيًا!» ومع ذلك فأنا أعتقد أن هؤلاء الناس يقدمون للمحكوم عليهم إفطارًا جيدًا بدافع من طيبة القلب وهم يعتقدون أنهم يحسنون صنعًا. ثم ارتدى ملابسه، وبدأ الموكب يسير خلال المدينة إلى منصة الإعدام. وأعتقد أنه أيضًا لا بد قد شعر بأن أمامه عمرًا كاملاً وهو في طريقه إلى هناك. ومن المحتمل أنه قال لنفسه، وهو في الطريق: «أوه، إنه لا يزال لدي وقت طويل، طويل، لا يزال أمامي من الحياة ثلاثة شوارع. فعندما نجتاز هذا الشارع، فسوف يتبقى شارع ثان، ثم الشارع الآخر الذي يقع فيه المخبز على اليمين. ومتى سنصل إليه! إنه عمر طويل، طويل» ومن حوله الجماهير تضج بالصياح والهتاف! عشرة آلاف وجه، وعشرون ألف عين. وكان عليه أن يحتمل هذا كله، وأن يقول لنفسه على الأخص: «ها هنا عشرة آلاف رجل ليس بينهم من سيقدم أما أنا فسوف أموت» وهذا كله في مرحلة الإعداد وعند المنصة، يوجد سلم، وهناك، فقط انفجر باكيًا، وكان

الرجل، كما يقولون، قوي البأس شريراً جداً، وكان معه طيلة الوقت قسيس يتحدث إليه، وكان ممعناً في الحديث حتى والمركبة تمر في خلال المدينة. ومن المحتمل أن الآخر لم يكن يسمع منه شيئاً، ولعله كان ينصت بين الحين والآخر، ثم ينسى عند الكلمة الثالثة أو نحوها كل ما سمعه. وأخيراً بدأ يصعد درجات السلم، وكان مقيد الساقين، ومن ثم كانت خطواته صغيرة محدودة. وكان القسيس الذي بدا أنه رجل عاقل حكيم، قد توقف عن الحديث الآن، واكتفى بحمل الصليب أمام الشقي ليلثمه. وعند أول درجات السلم كان شديد الامتناع، ولكن حين وصل إلى منصة الإعدام غدا وجهه فجأة في لون الورق، تماماً في لون ورق الكتابة. ولا شك أن ساقيه أصبحتا فجأة ضعيفتين عاجزتين، وأنه أحس بغصة في حلقه، وكلنا نعرف ذلك الشعور المفاجئ في لحظة الخوف العنيف، عندما لا يفقد الإنسان القدرة على التفكير وإنما يغدو عاجزاً عن الحركة! فمثلاً إذا حدث فجأة شيء فطبع كأن يوشك بيت على الانهيار فوق شخص ما، أفلا تعلمن كيف أن هذا الشخص يهفو لأن يجلس ويغمض عينيه ويتنظر.. يتنظر! حسناً عندما غمره هذا الشعور الرهيب، بادر القسيس وضغط بالصليب على شفثيه دن أن ينطق بكلمة.. وكان صليياً صغيراً من الفضة. وظل ضاغطاً به على شفثي الرجل في كل لحظة. وكلما لمس الصليب شفثيه، فتح الرجل عينيه لحظة، وتحركت ساقاه مرة أخرى، وعاد هو إلى تقبيل الصليب بشراهة، ولهفة، كأنما يتوق إلى الإمساك «بشيء» قد يفيدته فيما بعد، وذلك رغم أنه لم يكن يفكر في تلك اللحظة أي تفكير ديني. وهكذا حتى وصل إلى الخشبة.

ومن العجيب أن المجرمين في هذه اللحظات قلما يفقدون الوعي. دائماً، على النقيض يكون الذهن موفور النشاط بصفة خاصة، ولا يكف عن

العمل، بقوة، وبقوة وبقوة، كآلة تعمل بكل طاقتها. ويخيل إليّ أن مختلف الأفكار كانت تنبض بعنف وسرعة في رأسه، وكلها أفكار ناقصة عجيبة، طريفة على الأرجح.. أفكار كهذه مثلاً «ذلك الرجل ينظر إليّ وعلى جبينه ثؤلؤل! ونفد الجلود أحد أضرار سترته. والزر الأخير فيه صدى..» وهو في خلال هذا يلاحظ ويتذكر كل شيء، وثمة نقطة لا يمكن أن ينساها إذ يتراقص كل شيء حولها ويدور. وبسبب هذه النقطة لا يستطيع أن يفقد وعيه. وتستمر هذه الحالة حتى الربع الأخير من الثانية الأخيرة، أي عندما تُوضع عنق الشقي فوق الخشبة، ثم ينصت فينظر ويعلم - تلك هي النقطة - إنه يعلم أنه الآن، فقط، سيموت، وهو ينصت لصبر الحديد فوق رأسه. ولو كنت في موضعه، لأنصت، يقيناً، إلى ذلك الصرير، ولسمعته أيضاً! ومن المحتمل ألا تستغرق فترة الإنصات أكثر من عشر ثانية، ولكن الإنسان قطعاً سيسمع هذا الصوت. ثم تصورن أن بعض الناس يقولون إن الرأس حين يطير، يشعر في تلك اللحظة أنه يطير. تصورن هذا؟ تصورن لو أن الإحساس استمر ولو خمس ثوان بعد ذلك؟

ارسمي منصة الإعدام حيث يبدو فيها بوضوح الدرجة العليا من السلم، والمجرم يخطو إليها بوجه ممتقع في لون ورق الكتابة، والقسيس رافعاً الصليب إلى شفثيه الزرقاوين، والمجرم يلثمه، وهو يعرف ويرى ويفهم كل شيء - الصليب والرأس، هذه هي الصورة؟ ثم القسيس والجلاد واثنان من مساعديه وقليل من الرؤوس، والأعين في أسفل، وهؤلاء يكونون عوامل مساعدة للصورة الأصلية، أي التظهير. ذلك موضوع لصورتك.

وتوقف الأمير عن الحديث وتلفت حوله.

وغمغمت ألكسندرا قائلة كأنما تحدث نفسها:

- لا شك أن هذا لا يدل على طبيعة هادئة في شيء.

وقالت أدليدا بعد برهة صمت:

- والآن، حدثنا عن غرامياتك.

وحملق الأمير إليها في دهشة بينما استطردت هي قائلة:

- إنك كما تعلم لا تزال تدين لنا بوصف صورة مدينة بازل، ولكنني أرغب أولاً أن أسمع كيف وقعت في الحب. لا تنكر هذه الحقيقة؛ لأنك طبعاً، وقعت في الحب. وعدا هذا يجب أن تمتنع عن التفلسف عندما تحدثنا عن شيء.

وسألته أجاليا فجأة:

- لماذا تخجل من أحاديثك بمجرد أن تفرغ من سردها علينا؟

فقالت المسز إيبانشين وهي تنظر باستنكار إلى المتحدث الأخيرة:

- يا لها من حماقة!

وقالت ألكسندرا:

- نعم، لم تكن هذه ملاحظة بارعة.

فقالت المسز إيبانشين:

- لا عليك منها أيها الأمير، إنها تقول مثل هذه الأشياء بدافع من الخبث. لا تحفل بكل ما يصدر عنهن من لغو الحديث، إنه لا يعني شيئاً. إنهن فقط يملن إلى التندر والمداعبة، ولكنهن يحبينك، فإني أرى هذا على وجوههن التي أعرفها جيداً.

فقال الأمير وهو يحرص على ضغط ألفاظه:

- وأنا أيضًا أعرف وجوههن.

فقلت أدليدا بفضول:

- كيف هذا؟

وهتفت الآخرين في صوت واحد:

- ماذا تعرف عن وجوهنا؟

ولكن الأمير بقي صامتًا جادًا، وظل الجميع في انتظار إجابته.

وأخيرًا قال بهدوء:

- سوف أخبركن فيما بعد.

وقالت أجلايا:

- إن كل ما تريد هو أن تثير فضولنا، وما أشد جدية مظهرك وأنت تفعل

هذا!

وتدخلت أدليدا في الحديث قائلة:

- حسنًا جدًّا، إذا كان في مقدورك أن تجيد قراءة الوجوه هكذا، فلا

شك أنك عرفت الحب، هيا الآن لقد صح استنتاجي، أخبرنا، أرجوك!

فقال الأمير بنفس الهدوء والجد:

- إنني لم أعرف الحب، وإنما كنت سعيدًا بطريقة أخرى.

- كيف - كيف؟

فقال الأمير وقد بدا مستغرقًا في ذهول عميق:

- حسنًا! سوف أخبركن.

الفصل السادس

وبدا الأمير حديثه قائلاً:

- هأنتن أولاء تعددن أنفسكن للإنصات إليّ بشيء كثير من حب الاستطلاع يجعلكن تغضبن مني إذا أنا لم أرضكن.

ثم أردف قائلاً بسرعة وهو يتسم:

- لا، لا، إنني أمزح فقط! حسناً إذن. كانوا جميعاً أطفالاً هناك. وكنت دائماً بين الأطفال، ولا شيء غير الأطفال. كانوا أطفال القرية التي كنت أقيم بها، وكانوا يذهبون إلى المدرسة هناك - جميعاً. ولم أكن أعلمهم، لا. فقد كان بالمدرسة مدرس يدعى جول ثيوت. وكان من الممكن أن أعلمهم شيئاً، ولكنني كنت بينهم، دخيلاً عليهم؛ وقد أمضيت كل السنوات الأربع من حياتي بينهم، ولم أرغب في أفضل من هذا، وقد تعودت أن أصارحهم بكل شيء، ولا أخفي عنهم شيئاً. وقد اشتد غضب آبائهم وأقاربهم عليّ؛ لأن الأطفال في النهاية لم يكونوا يستطيعون القيام بشيء، بدوني، كما تعودوا الالتفاف حولي دائماً. وأصبح معلم المدرسة ألد أعدائي في النهاية! لقد كثر أعدائي بسبب تعلق الأطفال بي. حتى شنيدر لا مني. ومم كانوا يخافون؟ إن

في مقدور الإنسان أن يخبر الطفل بكل شيء، كل شيء وكثيرًا ما أذهلتني هذه الحقيقة، وهي أن الآباء لا يعرفون عن أبنائهم إلا القليل. إن الواجب ألا يخفوا عنهم أشياء كثيرة لأنهم يرونهم أصغر من أن يفهموها! إن في إمكان الأطفال أن يقدموا النصيحة في أشد الأمور أهمية. فكيف يمكن للمرء أن يخدع هذه الطيور الصغيرة العزيزة عندما يتطلعون إليه في ثقة ولطف؟ إنني أسميهم طيورًا لأنه لا يوجد في الدنيا أجمل من الطيور.

على أية حال كان معظم الناس هناك غاضبين عليّ لهذا السبب بالذات. أما ثيوت فكان غيورًا مني فقط، وفي أول الأمر كان يهز رأسه ويعجب كيف يمكن للأطفال أن يفهموا جيدًا ما أقول لهم، بينما لا يفهمون منه شيئًا، وقد ضحك ساخرًا عندما أجبت قائلاً إنه لا هو، ولا أنا، نستطيع أن نعلمهم شيئًا كثيرًا، وإنما يمكن أن يعلمونا هم الشيء الكثير. لشد ما كان يبغضني وينشر عني الفضائح. وإن ما عجزت عن فهمه هو استمرار حياته مع الأطفال. فالأطفال عادة كالبلسم الشافي للقلب الجريح. وأنا أذكر أنه كان بيننا تحت إشراف الأستاذ الطبيب شاب مسكين يعالج من الجنون. ولا يمكننا أن نتصورن ماذا فعل هؤلاء الأطفال له مع مرور الزمن. وأنا لا أعتقد أنه كان مجنونًا. وإنما بائس إلى حد كبير، ولكنني سأخبرك بكل شيء عنه في يوم آخر، إذ يجب الآن أن أستمري في حديثي. ولم يكن الأطفال يحبونني في أول الأمر، إذ كنت عندئذ شابًا مريضًا غريب الأطوار، وأنا أعرف أنني قبيح الشكل أيضًا. هذا عدا كوني أجنبيًا. وقد اعتاد الأطفال أن يسخروا مني في أول الأمر، بل بلغ بهم الأمر أنهم كانوا يقذفونني بالحجارة حينما يرونني أقبل ماري. إنني لم أقبلها غير مرة واحدة في حياتي - لا، لا، لا تضحكن!

قال الأمير هذه الكلمات الأخيرة بسرعة حتى يمنع المستمعات إليه من

الضحك، ثم استطرد قائلاً:

- إنها لم تكن مسألة حب إطلاقاً. فلو أنكن عرفتن فقط أية مخلوقة بائسة هي، لشعرتن نحوها بالراء كما فعلت أنا. كانت تنتمي إلى قريتنا، ولها أم عجوز تباع معها الخيوط والشرائط والصابون والتبغ من نافذة بيتها الصغير ويعشن من أرباح هذه التجارة البسيطة. وكانت المرأة العجوز مريضة طاعنة في السن لا تكاد تقوى على الحركة. وماري هي ابنتها، فتاة في نحو العشرين من العمر، ضعيفة، نحيلة، ومصابة بالسل منذ سنوات، ومع ذلك كانت تؤدي الأعمال الشاقة في المنازل المجاورة يوماً وراء يوم. حسناً، وحدث ذات يوم أن خدعها تاجر فرنسي جوال وأخذها معه، ثم تخلى عنها بعد أسبوع، وعادت إلى القرية حافية القدمين، وفي حالة يرثى لها من القذارة والشعث، كانت تنام في العراء، وتستجدي الطعام، وأصبحت بنوبة برد حادة، وكانت قدمها متورمتين داميتين ويدها مجروحتين ممزقتين، ورغم أنها لم تكن يوماً ما جميلة، إلا أن عينيها كانتا مفعمتين بالبراءة والطيبة.

كانت دائماً هادئة، وأذكر ذات مرة عندما أخذت تغني فجأة في أثناء العمل، أن كل من سمعها قال: «إن ماري حاولت أن تغني اليوم». وظلت موضعاً للسخرية والتندر حتى أقلعت تماماً عن الغناء بعد ذلك. وكانت تعامل برفق في القرية قبل الحادث، ولكنها بعد أن عادت سقيمة بائسة منبوذة، لم تنعم بأقل عطف من أحد، يا لهم من قساة! أية أفكار مشوشة يعرفونها عن مسائل كهذه! وكانت أمها هي البادئة بالقسوة، فقد استقبلتها بغضب شديد، وباحتقار وشدة قائلة: «لقد فضحتيني». كانت أول من عرضها للعار والهوان. ولكن عندما تسامع الجميع أن ماري عادت إلى القرية تسابقوا لرؤيتها واحتشدوا في المنزل الصغير، رجال عجائز، وأطفال ونساء وفتيات،

كلهم كانوا يهرعون ويتسابقون كالذئاب الجائعة. وكانت ماري ملقاة عند قدمي المرأة العجوز، جائعة، محطمة، شعشاء، بائسة تبكي. وعندما تزاحم الجميع في الغرفة حولها، طمرت وجهها في شعرها الأشعث، وبقيت راقدة في خوف وارتعاد. وكان الجميع ينظرون إليها كأنها قطعة من حمأ الطريق. وأخذ الرجال العجائز يعنفونها ويقسون، والصغار يسخرون منها، والنساء يوبخنها ويلمنها أيضًا، وينظرون إليها باحتقار كأنها مجرد حشرة منفرة.

وسمحت أمها بأن يحدث هذا كله، وكانت تومئ برأسها لتشجعهم عليه، وكانت هذه العجوز مريضة جدًّا عندئذ، وتعلم أنها مشرفة على الموت «وقد ماتت فعلاً بعد شهرين». ورغم شعورها بقرب النهاية إلا أنها لم تفكر أبدًا في الصفح عن ابنتها حتى آخر يوم في حياتها. بل إنها كانت ترفض مجرد الحديث إليها، وقد جعلتها تنام على القش في الجرن، ولا تكاد تعطيها من الطعام ما يحفظ عليها حياتها.

وكانت ماري جد حنون بأمها، إذ راحت تمرضها، وتقوم لها بكل شيء، ولكن المرأة العجوز كانت تتقبل كل هذه الخدمات بلا أية كلمة، ودون أن تعرب عن أية بارقة من العطف. وتحملت ماري هذا كله وهي ترى - كما تبينت حين تعرفت بها - أن هذا أمر طبيعي عادل، باعتبارها لنفسها أخط وأحقر المخلوقات.

وعندما لظمت الأم العجوز فراشها أخيرًا، أخذت النسوة العجائز في القرية يتناوبن الجلوس معها كالعادة المتبعة هناك. وهكذا أصبحت ماري شبه مطرودة من البيت، بلا طعام، وبدون أن يرغب أحد في تخديمها لديه، وبدا أن الرجال لم يعودوا يعتبرونها امرأة على الإطلاق، فكانوا يوجهون إليها ألفاظًا مقذعة ويلقون لها بالقرش أو القرشين في الوحل. وكانت ماري

تلتقط النقود في صمت، وكانت قد بدأت تنفث الدم من صدرها.

وغدت ملابسها أخيراً مهلهلة ممزقة بحيث أصبحت تخجل من الظهور في القرية بعد ذلك. واعتاد الأطفال أن يقدفوها بالأوحال، ومن ثم كانت تلتمس أن تعمل مساعدة لراعي بقر، ولكن الراعي أبى أن يحقق رغبتها، ومع ذلك فقد أخذت تساعد بغير إذن منه. فلما عرف قيمة مساعدتها له، لم يحاول أن يطردها عنه مرة أخرى، بل على العكس، أصبح يعطيها، أحياناً، بقايا طعامه خبزاً وجبناً، واعتبر نفسه شقيقاً جداً، ولما ماتت أمها، لم يتورع قسيس القرية من تعريض ماري للمذلة ولسخرية أهل القرية جميعاً، وذلك عندما كانت ماري واقفة على رأس تابوت أمها، مهلهلة الثياب، تبكي.

وكان عدد كبير من الناس قد اجتمعوا ليروا كيف راحت تبكي، وبدأ القسيس، الذي كان شاباً طامعاً في أن يغدو واعظاً كبيراً، موعظته، مشيراً إلى ماري قائلاً «هذه هي السبب في موت هذه المرأة المحترمة» وكانت تلك أكذوبة؛ لأن المرأة ظلت مريضة عامين على الأقل «ها هي ذي واقفة أمامكم، لا تجرؤ أن ترفع عينيها عن الأرض؛ لأنها تعلم أن يد الله عليها. انظروا إلى أسمالها وهلاهيلها؟ إنها شعار أولئك الذي يفقدون طهارتهم. من تكون؟ إنها ابتتها» وهكذا إلى النهاية.

وتصورن أن هذا البهتان أرضى جميعهم تقريباً. الأطفال فقط هم الذين تغيروا؛ لأنهم كانوا عندئذ في جانبي وتعلموا كيف يحبون ماري. هكذا كان الأمر، لقد أردت أن أفعل شيئاً لماري، هفوت إلى تقديم بعض المال لها، ولكنني لم أكن أمتلك مليمًا هناك. ولكن كان لديّ دبوس من الماس، وقد بعته لبائع متجول اشتراه بثمانية فرنكات وهو يساوي على الأقل أربعين.

وحاولت كثيرًا أن ألتقي بماري على انفراد، وأخيرًا استطعت أن ألتقي بها على سفح التل بعيدًا عن القرية، وأعطيتها الفرنكات الثمانية وطلبت منها أن تحرص عليها لأنني لن أستطيع الحصول على المزيد. ثم قبلتها وقلت لها ألا نظن أنني قبلتها لأغراض سيئة أو لأنني أحبها، وإنما لأنني فقط أعطف عليها ولا أعتبرها من أول الأمر مذنبه بقدر ما هي تعسة الحظ. كنت أتوق إلى مواساتها وتشجيعها على نحو ما، وأؤكد لها أنها ليست ذلك الشيء الحقير الوضيع الذي تحاول هي وغيرها أن يجعلوها تعتقد أنها هو. ولكنني لا أعتقد أنها فهمتني، إذ كانت واقفة أمامي، شديدة الخجل من نفسها، مطرقة برأسها، ولما فرغت من حديثي، قبلت يدي، وكنت أريد أن أقبل يدها، ولكنها سحبتها بسرعة؛ وفي هذه اللحظة بالذات رأينا جماعة الأطفال، «وقد عرفت فيما بعد أنهم كانوا يراقبونني طيلة الوقت» وقد بدأوا جميعًا يصفرون ويصفقون ويضحكون منا. وانطلقت ماري هاربة، ولما حاولت أن أتحدث مع الأطفال، أخذوا يقذفونني بالحجارة. وتسامعت القرية كلها بما حدث في نفس اليوم، وازداد موقف ماري حرجًا وسوءًا عما كان من قبل. فلم يعد الأطفال يسمحون لها بالمروور في الشوارع، وإنما راحوا يزعمونها ويقذفونها بالوحل أكثر مما كانوا يفعلون من قبل. وقد اعتادوا أن يجروا وراءها، وكانت هي تحاول أن تسبقهم بصدرها المريض الضعيف وأنفاسها اللاهثة الشاهقة، كل هذا وهم يضربونها ويسبونها.

وقد اضطرت ذات مرة إلى التدخل بقوة، وبعد ذلك اعتدت أن أتحدث إليهم كل يوم وحيثما أستطيع. وكانوا يتوقفون وينصتون، ولكنهم مع هذا لم يكفوا عن التعريض بماري والسخرية منها.

لقد أخبرتهم إلى أي حد كانت ماري بائسة، وهكذا توقفوا، بعد حين،

عن التعرّض لها، وتركوها تمضي في سلام.. وشيئاً فشيئاً بدأنا نتبادل الحديث معاً، الأطفال وأنا، وكنت لا أخفي عنهم شيئاً، وإنما أصارحهم بكل شيء، وكانوا ينصتون إليّ بانتباه شديد، وسرعان ما بدأوا يأسفون من أجل ماري. وأخيراً تعود بعضهم أن يقولوا لها «صباح الخير» في عطف، عندما يلتقون بها. والمعتاد هناك أن تحيي أي شخص بقولك «صباح الخير» سواء كنت تعرفه أم لا. ويمكنني أن أتصور مبلغ دهشة ماري وهي تتلقى أولى التحيات منهم.

وحدث ذات مرة أن ظفرت فتاتان صغيرتان ببعض الطعام وحملتاها إليها، ثم عادتا إليّ وأخبرتاني بالأمر، وقد قالتا إنها انفجرت باكية، وإنهما أصبحتا تحبانها الآن جداً.

وسرعان ما غدوا بعد ذلك ولوعين بماري، وبدأوا في الوقت نفسه يشعرون نحوي بأعظم الحب. وكثيراً ما كانوا يأتون إليّ ويلتمسون مني أن أقص عليهم القصص. ولا بد أني - كما أعتقد - كنت أجيد سردها عليهم؛ لأنهم كانوا يحبون سماعها كثيراً. وأخيراً شرعت في قراءة الموضوعات الشائقة لكي أستطيع نقلها إلى هؤلاء الصغار، وظل الحال على هذا المنوال بقية الفترة التي أمضيها هناك، أي ثلاثة أعوام. وبعد ذلك حين أصبح الجميع هناك - حتى شنيدر - ساخطين عليّ لأنني لا أخفي عن الصغار شيئاً، بينت لهم مدى ما في موقفهم من حماقة؛ لأن الصغار عادة يعرفون كل شيء، وهم يعرفونه بطريقة تلوث عقولهم.. وليس الأمر هكذا معي. وما على الإنسان إلا أن يتذكر طفولته حتى يعترف بهذه الحقيقة. ولكن أحداً لم يقتنع... وكنت قد قابلت ماري قبل وفاة أمها بأسبوعين. ولما ألقى القسيس موعظته يوم الوفاة، كان الأطفال جميعاً في جانبي.

وحين ذكرت لهم مدى ما في حديث القسيس من قسوة، وشرحت لهم السبب في رأيي هذا، استبد الغضب بهم، بحيث اندفع بعضهم وحطموا نوافذه بالحجارة. وبطبيعة الحال منعهم عن هذا؛ لأنه خطأ. ولكن القرية كلها تسامعت بالأمر وحمّلني أهلها مسئولية إفساد الأطفال. وكان الجميع قد اكتشفوا عندئذ أن الأطفال أصبحوا متعلقين بماري! وقد أزعج هذا آباءهم إلى حد كبير. ولكن ماري كانت جد سعيدة، ورغم أن الآباء حرموا على أطفالهم الاتصال بها، إلا أنهم اعتادوا أن يسرعوا من القرية إلى المرعى حاملين إليها الطعام وغيره، وأحياناً كانوا يسرعون إليها ليقبلوها فقط ويقولون لها «إننا نحبك يا ماري» ثم يتواثبون عائدين. وكانوا يظنون أنني على علاقة حب بماري، وكانت هذه هي النقطة الوحيدة التي لم أذكر لهم فيها الحقيقة كاملة؛ لأنهم كانوا يستمدون من هذا الظن بهجة شديدة، وما أشد ما كانوا يظهرون من رقة وتلطف في هذا الشأن.

وكنت معتاداً أن أتمشى في المساء إلى المسقط المائي، وكان هناك موضع مستتر تماماً عن القرية، ومحاط بالأشجار الكبيرة، وإلى هذا الموضع كان الصغار يأتون إليّ، وكانوا لا يطيقون التفكير في أن عزيزهم ليون.. أي أنا.. يحب فتاة حافية القدمين، مهلهلة الملابس. فهل تصدقن أنهم تآزروا معاً واشتروا لها حذاء وجوارب وملابس داخلية. بل ورداءً خارجياً أيضاً؟ إنني لا أتصور كيف أمكنهم أن يقوموا بهذا، ولكنهم قاموا به فعلاً متعاونين معاً. ولما سألتهم عن هذا، ضحكوا وهتفوا، وصفقت البنات الصغيرات وقبلنني. وكنت في بعض الأحيان أمضي أيضاً لرؤية ماري خلسة. وكانت قد غدت مريضة جداً لا تقوى على السير. ورغم أنها استمرت في الذهاب مع قطيع البقر إلى المرعى، إلا أنها لم تعد قادرة على معاونة الراعي في الشؤون

الأخرى. وإنما كانت تجلس على صخرة قريبة من القطيع، وتبقى سحابة النهار ساكنة بلا حراك، ثم تعود مع القطيع ليلاً، وكان مرضها الصدري قد تقدم وبلغ بها الضعف حدًا جعلها تجلس ساكنة مغمضة العينين، تلتقط أنفاسها بصعوبة. وقد بلغ من نحافة وجهها أنه أصبح كوجه هيكل عظمي، وكان العرق عادة يتجمع في قطرات كبيرة على جبينها الشاحب، وكنت عادة أجدها جالسة هكذا دائماً. وقد اعتدت أن أسعى نحوها في هدوء وأنظر إليها، ولكن ماري كانت تسمعني، فتفتح عينيها، وترتجش بقوة وهي تقبل يدي. ولم أكن أسحب يدي منها لأنها تشعر بالسعادة في تقبيلها، وهكذا كانت تجلس وتبكي في هدوء. وفي بعض الأحيان كانت تحاول أن تتحدث، ولكن كان من العسير جدًا أن يفهم أحد كلامها. إذ كلما أقبلت إليها أصبحت أقرب ما تكون إلى امرأة مجنونة من فرط الانفعال والنشوة. وفي بعض الأوقات كان الصغار يصحبونني إليها، وفي هذه الحالة كانوا يقفون على مسافة منا ليقوموا على حراستنا، أي ليخبروني إذا كان ثمة أحد يقترب وكانوا يستمدون من هذا العمل الابتهاج الشديد. وكانت ماري، بعد انصرافنا عنها، تعود وتستغرق في حالتها السابقة، فتجلس مغمضة العينين، هامدة الحركة. وحدث ذات يوم أنها لم تستطع الذهاب مع القطيع إطلاقاً، فبقيت في الكوخ الخالي بمفردها. ولكن الأطفال سرعان ما عرفوا هذه الحقيقة، فبادروا جميعاً - تقريباً - إلى زيارتها في ذلك اليوم وهي راقدة على الفراش بمفردها، بئسة عاجزة وظل الصغار يعنون بها مدة يومين، ولما عرف أهل القرية أن ماري تحتضر حقاً، جاء بعض النسوة العجائز ورحن يتناوبن الجلوس بجانبها والعناية بها بعض الشيء، وأعتقد أن أهل القرية بدأوا يشعرون بالأسف نحوها قليلاً في النهاية. وعلى أية حال لم يعودوا

يمنعون الأطفال من العطف عليها.

وكانت ماري راقدة في شبه غيبوبة دائمة، يكاد يمزقها السعال، وكانت النسوة العجائز يمنعن الأطفال من البقاء داخل الغرفة، ولكن هؤلاء كانوا يتجمعون في كل صباح خارج النافذة، ولو لمدة لحظة واحدة، ويهتفون «صباح الخير يا عزيزتنا ماري» وما تكاد ماري تلمحهم أو تسمعهم حتى تنتعش فوراً وتحاول - رغم اعتراض النسوة العجائز - أن تجلس وأن تومئ برأسها وأن تبسم لهم وأن تشرّكهم. واعتاد الصغار أن يأتوا إليها بأشياء لطيفة وبألوان من الحلوى لتأكلها، ولكنها قلما كانت تتناول شيئاً. وأؤكد لك أنّ الفضل يرجع إلى هؤلاء الصغار في شعور الفتاة بالسعادة التامة عند موتها. لقد نسيت شقاءها تقريباً، وبدا أنها تقبلت حبهم على أنه رمز ما ينم عن غفران ذنبها، وذلك رغم أنها لم تكف أبداً عن اعتبار نفسها آثمة جداً. وكانوا قد اعتادوا أن يرفرفوا أجنحتهم عند نافذتها كالطيور ويهتفون كل صباح «نحبك يا ماري».

وماتت بعد ذلك فوراً، وكنت أظن أنها ستعيش فترة أطول. فقد ذهبت إليها قبل وفاتها بيوم لأراها آخر مرة، وكان ذلك قبل الغروب مباشرة. وأعتقد أنها عرفتني؛ لأنها ضغطت على يدي.

وفي صباح اليوم التالي، أقبل الصغار وقالوا لي إن ماري ماتت، ولم يستطع أحد أن يكبح مشاعر هؤلاء الصغار عندئذ؛ فقد ذهبوا وغطوا تابوتها بالأزهار ووضعوا إكليلاً من الزهور الجميلة المفتحة على رأسها، ولم يتفوه القسيس مرة أخرى بكلمات بذينة يعرض فيها بالمرأة الميتة. إلا أنه لم يحضر الجناز غير عدد قليل جداً من الناس. وعلى أية حال عندما حان وقت حمل التابوت، أسرع جميع الصغار ليحملوه بأنفسهم، وبطبيعة الحال

لم يستطيعوا أن يحملوه بمفردهم، ولكنهم أصروا على المعاونة في حمله، وساروا بجانبه، ووراءه ييكون.

لقد زرعوا الورود حول قبرها. وفي كل عام كانوا يعنون بأشجار الورد ويجعلون من مثوى ماري مكاناً جميلاً بقدر ما يستطيعون. وكنت بعد هذا كله على علاقة سيئة مع آباء الصغار، ولا سيما مع القسيس ومعلم المدرسة. واضطر شنيدر لأن يعدهم بمنعني من الاتصال بهم أو التحدث إليهم. ولكننا كنا نتبادل الحديث من بعيد بالإشارات وقد اعتادوا أن يكتبوا إليّ رسائل صغيرة لطيفة. وقد ازددت بعد ذلك قريباً من هذه القلوب الصغيرة البريئة بسبب هذا المنع، وازداد حبي للأطفال وتعلقهم بي. وفي العام الأخير من إقامتي تحسنت العلاقة بعض الشيء بيني وبين القسيس ومعلم المدرسة.

وظل شنيدر يتحدث معي ويجادلني كثيراً حول «أسلوبى» الضار في معاملة الأطفال. فأى لغو هذا؟ وماذا يعني بكلمة أسلوب؟ لقد قال لي فيما بعد، قبل رحيلي مباشرة، إنني في أعماق نفسي طفل. «إن لك شكل ووجه الإنسان البالغ» هكذا قال «ولكن فيما يتعلق بالنفس والطباع وربما التفكير أيضاً، فأنت طفل بكل ما في كلمة الطفولة من معنى، وسوف تبقى كذلك حتى لو بلغت الستين من العمر»، وضحكت عالياً لأنني اعتبرت هذا من لغو الحديث طبعاً. ولكن الواقع أنني لم أكن أهتم كثيراً بالاختلاط بالكبار، وأفضل جداً مجتمع الصغار. وبالغا ما بلغ عطف الناس عليّ، فإني لا أستريح بوجودي بينهم، وابتهج كثيراً عندما أعود إلى أصحابي الصغار. وإن أصدقائي الآن دائماً من الصغار؛ لا لأنني كنت طفلاً، وإنما لأنني أحب الأشياء الصغيرة. ففي ذات يوم من أوائل أيام إقامتي بسويسرا، كنت أتمشى وحيداً بائساً عندما فوجئت بالصغار يندفعون في ضجيج من المدرسة،

حاملين ألواحهم وحقائبهم وكتبهم وألعابهم، مرسلين في الجو ضحكهم وهتافهم، وأحسست بروحي تهفو إليهم، فتوقفت، وضحكت سعيداً وأنا أرقب أقدامهم الصغيرة وهي تتحرك بسرعة؛ وكانوا بنات وصبياناً يضحكون ويبكون؛ لأنهم وهم في الطريق إلى بيوتهم كانوا يجدون متسعاً من الوقت للعراك والصلح، للبكاء واللعب. ونسيت متاعبي وأنا أنظر إليهم وعندئذ، وطوال السنوات الثلاث التالية، حاولت أن أعرف لماذا يسعى الناس دائماً إلى تعذيب أنفسهم، لقد عشت كطفل صغير هناك، وخطر لي أنه لا ينبغي أبداً أن أرحل عن القرية الصغيرة. والواقع أنني كنت أبعد الناس عن التفكير في العودة إلى روسيا. ولكنني لم ألبث أن تبينت أن شنيدر لا يستطيع أن يعولني أكثر مما فعل، ثم حدث عندئذ أمر خطير جعل شنيدر نفسه يحثني على الرحيل والعودة فكتب يقول إنني سأعود، ولسوف أحاول أن أعرف الآن ماذا حدث تماماً، وألتمس النصيحة ومن يدري فلعل مصيري كله في الحياة سيتغير، ولكن ليس هذا بالشيء المهم، وإنما المهم هو ذلك التغير الكامل الذي طرأ عليّ، لقد تركت ورائي الشيء الكثير، الكثير جداً. لقد ذهب هذا كله، وفي أثناء رحلة العودة قلت لنفسي «إنني في طريقي إلى عالم الرجال، ولعلي لا أعرف عنه الكثير، ولكنني سوف أبدأ حياة جديدة» وقررت في نفسي أن أكون أميناً مستقيماً مؤدياً لواجباتي. ومن المحتمل أن أواجه بعض المتاعب والكثير من الإخفاق، ولكنني عاهدت نفسي أن أبقى مهذباً ومخلصاً للجميع بحيث لا يمكن أن يُطلب مني المزيد. وقد يعتبرني الناس طفلاً إذا شاءوا، بل إنني كثيراً ما سُميت «الأبله» وقد كنت في حين ما مريضاً جداً حتى بلغت حقاً حد «البله» ولكنني الآن لست أبله، وكيف يمكن أن أكون كذلك وأنا أعرف أنهم يعتبرونني عبيطاً! وعندما تلقيت رسالة من

أولئك الصغار الأعزاء في أثناء مروري بمدينة برلين، أدركت عندئذ فقط مبلغ حبي لهم. ولشد ما تألمت وتألمت من لوعة الفراق عند استلامي لهذه الرسالة الأولى الصغيرة. ولشد ما كانوا محزونين عند توديعي! لقد ظلوا مدة شهر يتحدثون في حزن وأسى عن رحيلي. وعند المسقط المائي ذات مساء، حينما افترقنا في ليلة السفر، أخذوا يقبلونني ويعانقونني بحرارة وشوق أكثر جدًّا من ذي قبل. وبين الحين والآخر كانوا يستديرون، الواحد بعد الآخر، ليعيدوا تقبيلي وعناقي وأنا وحيد ليعربوا عن مدى حبههم لي. وقد صحبوني جميعًا إلى المحطة التي تبعد عن القرية ميلًا، وكان الواحد منهم بين آن وآخر يتوقف ويلف ذراعيه حولي معانقًا، وكانت نبرات البكاء في أصوات جميع الفتيات الصغيرات رغم كل ما بذلته من جهد حتى لا يبكين. وفيما كان القطار يتحرك بي من المحطة، رأيتهم جميعًا واقفين على الإفريز يلوحون لي بأيديهم ويهتفون «الوداع» حتى غابوا عن ناظري.

وأؤكد لكنّ أنني حين جئت هنا الآن ورأيت وجوهكن الشفيقة «وأنا أجيد قراءة الوجوه» أحسست بالبهجة لأول مرة منذ افتراقني عنهم. وأعتقد أنني أحد الذين ولدوا ليكونوا سعداء الحظ؛ لأنه ليس من المعتاد كثيرًا أن يلتقي الإنسان بأناس يشعر أن في مقدوره أن يحبهم من النظرة الأولى إلى وجوههم. ومع ذلك فما إن غادرت مركبة القطار حتى التقيت بكن. وأنا أعرف أنه ينبغي على الإنسان أن يخجل حين يتحدث عن مشاعره أمام الآخرين ومع هذا فهأنذا أتحدث أمامكن هكذا دون أن أشعر بأي خجل أو حرج وأنا إنسان غير اجتماعي، ومن المحتمل جدًّا ألا أعود لأراكن مدة طويلة. ولكن لا تسئن الظن بي لهذا. فلست أعني أنني لا أقدر صحبتكن قدرها، كما يجب ألا يخامركن الظن بأنني غاضب من شيء.

وقد سألتني عن وجهك، وعما يمكن أن أقرأ فيها. ولسوف أخبركن الآن بكل سرور. إن لك يا أديليدا إيفانوفنا وجهًا سعيدًا جدًّا، إنه أشد وجوه أخواتك إحساسًا بالعطف على الغير، وعدا جمالك الطبيعي، فإن الإنسان يستطيع النظر إلى وجهك ويقول لنفسه: «إن لها وجه أخت حنون» إنك بسيطة ومرحة، ولكن في مقدورك النفاذ بسرعة إلى ما يضطرب في قلوب الغير. هذا ما أقرأه في وجهك وإن لك أنت أيضًا يا ألكسندرا إيفانوفنا وجهًا وسميًا جدًّا، ولكنني أعتقد أن صدرك قد ينطوي على حزن دفين. ولا شك في أنك طيبة القلب عفيفة، ولكنك لست مرحة بطبعك. إن في وجهك أثر ذلك الظل الحزين الذي يذكرني بصورة «العذراء» التي رسمها هولبورن. والموجودة الآن في مدينة درسدن بألمانيا. يكفي هذا عن وجهك، فهل أجدت الاستنتاج!

أما عن وجهك يا مسز إيبانشين، فأنا لا أظن فقط، وإنما أعتقد تمامًا أنك طفلة كاملة في كل شيء، كل شيء، في تفكيرك، وفي حسناتك ومساوئك، وذلك رغم سنوات عمرك. ولا تغضبي مني لقولي هذا. فأنت تعرفين ما هو شعوري نحو الأطفال. ثم لا تحسبين أنني أتكلم بهذه الصراحة، بدافع من بساطتي أو سذاجتي، أوه لا، فليس الأمر هكذا إطلاقًا. فلعل أن يكون لي أيضًا معين من هذا كله.



الفصل السابع

عندما توقف الأمير عن الحديث، أخذ الجميع، حتى أجلايا، ينظرون إليه في مرح، ولا سيما المسز إيبانشين التي هتفت قائلة:

- حسنًا، لقد وضعناك في بوتقة الاختبار. والآن يا عزيزاتي، لقد خطر ببالكن، كما أعتقد، أنكن ستضعن هذا السيد الصغير تحت رعايتكن باعتباره «لاجئًا» مسكينًا لا مأوى له، وأن تنشرن عليه حمايتكن العظيمة. فيا لنا من حمقاوات، ويا لوالدكن، على الأخص، من أحقق كبير؟ أحسنت صنعًا أيها الأمير! أوكد لك أن الجنرال طلب مني فعلًا أن أضعك تحت الاختبار وأن أمتحنك. أما فيما قلته عن وجهي، فقد صدقت الحكم كل الصدق. فأنا طفلة، وأعرف هذا عن نفسي. لقد عرفت هذه الحقيقة قبل أن تقولها بزم من طويل. وكل ما فعلته أنك عبرت عن آرائي. فنحن مثل قطرتين من الماء، إلا أنك رجل وأنا امرأة «وإلا أنني لم أذهب إلى سويسرا» هذا هو كل الفرق بيننا.

وصاحت أجلايا قائلة:

- لا تتسرعي يا أماه، فالأمير يقول إن لديه هدفًا وراء بساطته.

فضحكت الأخريات قائلات:

- نعم، نعم، قال هذا.

وقالت الأم:

- أوه لا تبدأن في التندر عليه يا عزيزاتي، فمن المحتمل أنه أبرع منكن
أنتن الثلاث مجتمعات. ولسوف نرى. ولكنك لم تقل شيئاً عن أجلايا حتى
الآن أيها الأمير، وإني أنا وأجلايا معاً في انتظار ما تقول.

- لا أستطيع أن أقول شيئاً الآن، وإنما فيما بعد.

- لماذا؟ إن وجهي واضح أمامك تمامًا، أليس كذلك؟

- آه، نعم، طبعاً. إنك يا أجلايا يا إيفانوفنا جميلة جداً بحيث يخشى
الإنسان من النظر إلى وجهك.

فقالَت الأم في إصرار:

- أهذا كل شيء، وماذا عن صفاتها؟

- من الصعب الحكم عندما يتعلق الأمر بمثل هذا الجمال. إنني لست
مستعداً للحكم الآن. فإن الجمال لغز.

فقالَت أدليدا:

- هل يعني هذا أنك تعتبر أجلايا لغزاً؟ أرايت يا أجلايا؟ ولكنها أيها
الأمير جميلة جداً، أليس كذلك؟

فقال هذا بحرارة وهو يحدق النظر إلى أجلايا بإعجاب:

- جداً! إنها تكاد تكون في جمال ناستاسيا فيليبوفنا، ولكن من طراز
مختلف.

وتبادلن جميعاً نظرات الدهشة. ثم قالت المسز إيبانشين:

- في جمال من؟! جمال ناستاسيا فيليبوفنا! أين رأيت ناستاسيا فيليبوفنا؟ ومن تكون ناستاسيا فيليبوفنا؟

- لقد أطلع جافريلا أرداليونوفيتش الجنرال على صورتها منذ لحظات قليلة.

- كيف هذا؟ هل أحضر صورتها لزوجي؟

- ليطلعه عليها فقط. لقد أعطت ناستاسيا فيليبوفنا صورتها لجافريلا أرداليونوفيتش اليوم فقط، وقد أحضرها هذا ليطلع الجنرال عليها.

فهمت المسز إيبانشين قائلة:

- يجب أن أراها، أين هذه الصورة؟ إذا كانت قد أعطتها له، فلا بد أنها معه. وهو لا يزال في غرفة المكتب الآن؛ لأنه لا ينصرف قبل الساعة الرابعة مساءً في أيام الأربعاء. استدعي جافريلا أرداليونوفيتش حالاً، ولكن، لا، إنني لا أتوق إلى رؤيته كثيراً. اسمع يا عزيزي الأمير، أسد إليّ هذا الجميل، أرجوك، وما عليك إلا أن تخطو إلى المكتب وتأتي منه بالصورة، قل له إننا نريد رؤيتها، افعل هذا من أجلي! أرجوك.

ولما انصرف الأمير من الغرفة، قالت أدليدا:

- إنه إنسان لطيف، ولكنه ساذج إلى حد ما.

فقالت ألكسندرا:

- إنه كذلك حقاً. بل وإلى حد إثارة الضحك منه أحياناً.

ولكن يبدو أنه لا هذه أو تلك أعربت عن كل ما يدور بذهنها.

وقالت أجلايا:

- ومع هذا كيف يحسن الحديث ببراعة عن وجوهنا، لقد أطرانا جميعاً، حتى أمنا.

فصاحت الأخيرة قائلة:

- هراء! إنه لم يطرنني. بل أنا التي وجدت في تقديره لي إطرء. وأعتقد أنكن أشد حماقة منه إلى حد كبير. وهو أيضاً إنسان بسيط، ولكنه فطن جداً أيضاً، مثلي.

وقال الأمير لنفسه وهو يدخل غرفة المكتب وقد غمره إحساس بالذنب:
«ما أشد حماقتي إذ تحدثت عن الصورة؟ ومع ذلك، فلعلي أكون على صواب رغم كل شيء».

وكانت تخامره فكرة لم تتكامل بعد، ولكنها كانت، مع هذا، فكرة عجيبة.

وكان جافريلا أورداليونوفيتش لا يزال جالساً إلى مكتبه، غارقاً في أكداس من الأوراق. وكان يبدو أنه لا يأخذ مرتبه عفواً من الشركة العامة، التي يعمل بها.

ولاح عليه الحرج والارتباك الشديد حين طلب الأمير الصورة منه وحين شرح له السبب في هذا الطلب وقد قال:

- أوه، ويحي! لماذا بالله تثرثر؟ إنك لا تعرف شيئاً عن هذا الموضوع..

ثم أردف مغمغماً في غضب مكتوم:

- أيها الأبله.

- إنني جد آسف، لقد قلت هذا بلا تفكير. قلت فقط أن أجلايا تكاد تستوي في الجمال مع ناستاسيا فيليوفنا.

واستوضحه جانيا المزيد من التفاصيل. وكرر الأمير مرة أخرى الحديث عليه؛ هذا بينما كان جانيا ينظر إليه في تهكم وازدراء. وأخيرًا قال:
- ناستاسيا فيليوفنا..

ثم توقف وقد لاح عليه بوضوح أنه شديد الانفعال والضيق. وعاد الأمير يذكره بالصورة. فقال جانيا له وكأنما ومضت بذهنه فكرة ما:
- اسمع أيها الأمير. إنني أرجو أن تسدي إليّ جميلًا كبيرًا، ولكنني مع ذلك لا أدري...

وتوقف عن الحديث مرة أخرى مرتبكًا؛ كان يحاول أن يقرر بذهنه شيئًا، ومن ثم راح يستعرضه على كل وجه. وانتظر الأمير في هدوء، وأخيرًا ركز جانيا عليه نظراته الفاحصة المتسائلة ثم قال:

- اسمع أيها الأمير، إنهم هنا غاضبون مني لأسباب خاصة لا حاجة بي إلى شرحها، ولهذا لا أميل إلى الذهاب إليهن دون دعوة، وأنا أرغب بصفة خاصة أن أتحدث مع أجلايا، ولكنني كتبت كلمات قليلة في حالة عدم سnoch الفرصة لرؤيتها «هنا لاحظ الأمير وجود رسالة صغيرة في يده» وأنا لا أدري كيف أستطيع الاتصال بها. فهل ترى أن في مقدورك حمل هذه الرسالة إليها فورًا، إليها هي فقط، بشرط ألا يراك أحد وأنت تسلمها لها. إن الأمر لا ينطوي على سر كبير، ولكن... هل ستقوم بهذه الخدمة لي؟
فأجاب الأمير قائلاً:

- إنني لا أميل إلى هذا النوع من العمل.

فقال جانبا متوسلاً:

- ولكن الأمر على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لي. صدقني، فلولا هذا لما طلبته منك، أية وسيلة أخرى أستطيع بها الوصول إليها؟ إن الأمر خطير، خطير جداً بالنسبة لي.

والواضح أن جانبا كان يخشى ألا يقبل الأمير حمل الرسالة. ومن ثم راح ينظر إليه في توسل كامل.. ولكن الأمير قال:

- سأحمل الرسالة إذن.

فهتف جانبا قائلاً في بهجة:

- ولكن أرجوك، حذار أن يراها أحد؛ وبطبيعة الحال يمكنني الاعتماد على كلمة شرف منك. هه!

- لن أجعل أحداً يراها.

- إن الرسالة ليست مغلقة...

وتوقف جانبا عن الحديث مرتبكاً، ولكن الأمير قال ببساطة وهدوء:

- أوه! إنني لن أحاول قراءتها.

وأخذ الصورة، وغادر غرفة المكتب، تاركاً جانبا بمفرده، ممسكاً رأسه بكلتا يديه، قائلاً لنفسه:

«كلمة واحدة منها؛ كلمة واحدة فقط يمكن أن تحررني من هذا الزواج».

ولم يستطع أن يعود إلى عمله مرة أخرى في هدوء بسبب انفعال نفسه واهتياج مشاعره، ومن ثم راح يذرع الغرفة من أقصاها إلى أقصاها ذهاباً وإياباً.

ومضى الأمير في طريقه وهو مستغرق في التفكير. إنه لم يكن ميالاً إلى القيام بهذه المهمة، كما لم يكن راضياً عن فكرة إرسال جانيا الرسائل إلى أجلايا بوجه عام. ولكن عندما أصبح على مسافة غرفتين من قاعة الجلوس حيث كن جالسات، توقف فجأة كأنما تذكر شيئاً، ثم مضى إلى النافذة، بالقرب من الضوء، وراح يفحص الصورة التي في يده.

وتاق إلى أن يكشف الغموض عن شيء ما في وجه ناستاسيا فيليوفنا. شيء أثر في نفسه عندما رأى الصورة أول مرة من قبل. إن هذا التأثير لم يزياله. إنه يرجع من جهة إلى جمالها الباهر الذي أدهشه، وإلى شيء آخر من جهة ثانية. لقد كان الوجه ينم عن كبرياء شديدة وازدراء يكاد يبلغ حد الكراهية، وفي الوقت نفسه ينطوي على الثقة بالغير والبراءة الواضحة. وقد أثار هذا التناقض في قلبه إحساساً عميقاً بالعطف وهو يتطلع إلى ذلك الوجه الجميل. وكان جمالها المذهل الساطع يكاد يجعل الإنسان لا يقوى على احتمال النظر إليه. هذا الوجه الشاحب النحيل، وهاتان العينان المتوهجتان! إنه جمال من نوع عجيب.

وحقق الأمير النظر إلى الصورة برهة، ثم تلفت حوله وأسرع ورفعها إلى شفثيه. ولما وصل إلى باب غرفة الجلوس بعد لحظة، كان قد استرد حالته الطبيعية. ولكنه ما أن وصل إلى الباب حتى رأى أجلايا تخرج بمفردها من الغرفة.

قال لها وهو يسلمها الرسالة:

- طلب مني جافريلا أرداليونوفيتش أن أقدم لك هذه.

وتوقفت أجلايا، وأخذت الرسالة وهي تنظر إلى الأمير في دهشة. ولم

يكن وجهها ينم عن الاضطراب، وإنما ربما عن الدهشة اليسيرة لا غير، وكانت نظرتها تنم فقط عن مطالبة الأمير ليشرح لها كيف حدث أن اتفق مع جانيا في أمر كهذا، ولكن تعبيرات وجهها كانت تدل تمامًا على الهدوء والثبات، بل والاستخفاف أيضًا.

ووقف هكذا برهة، كل في مواجهة الآخر. وأخيرًا طافت بوجهها ابتسامة خفيفة، ثم سارت في طريقها بلا كلمة.

وفحصت المسز إيبانشين صورة ناستاسيا فيليبونا برهة وجيزة وهي تمسك بها في احتقار على مبعدة ذراع. وأخيرًا قالت:

- نعم. إنها جميلة. بل جميلة جدًا. لقد رأيتها مرتين، ولكن عن بُعد.

ثم سألت الأمير فجأة:

- إذن فأنت تعجب بهذا النوع من الجمال.

- نعم. إنني أعجب بهذا النوع.

- هل تعني بهذا النوع خاصة؟

- نعم، خاصة بهذا النوع.

- لماذا؟!

فغمغم الأمير قائلًا في صوت الذي يتحدث إلى نفسه أكثر مما يجيب عن سؤال:

- لأن هذا الوجه ينم عن كثير من احتمال آلام الحياة.

فقالت المسز إيبانشين في لهجة حاسمة بعد أن تأملت وجه الأمير بإمعان:

- أعتقد أنك تهذي أيها الأمير .

ثم ألقت بالصورة إلى المائدة في كبرياء وترفع .

وتناولتها ألكسندرا، وأقبلت أدليدا إليها، وراحت الاثنتان تفحصان الصورة، وعندئذ فقط دخلت أجلايا الغرفة .

وفجأة هتفت أدليدا وهي تفحص الصورة من فوق كتف أختها:

- يا له من قوة!

فقالت الأم بخشونة:

- من؟ قوة... من؟!

فقالت أدليدا:

- إن هذا الجمال قوة حقيقية. وقد يستطيع شخص له مثل هذا الجمال أن يقلب العالم رأسًا على عقب.

ثم عادت إلى حامل الرسم وهي مستغرقة في التفكير .

وألقت أجلايا نظرة عابرة إلى الصورة، وقطبت جبينها، ومطت شفها السفلى، ثم عادت وجلست على المتكأ وعقدت يديها. ودقت المسز إيبانشين الجرس، ثم قالت للخادم الذي أقبل:

- دع جافريلا أرداليونوفيتش يأتي إلينا.

فهتفت ألكسندرا قائلة بلهجة لها دلالتها:

- أماه!!

فقالت الأم بطريقة قضت على كل معارضة وقد لاح عليها بوضوح الاضطراب الشديد:

- إنني سأواجه إليه كلمتين فقط، ولا شيء غير هذا. أترى أيها الأمير،

إننا هنا نعيش في جو من الأسرار، كل الأسرار! وهذا يبدو، لسبب أو لآخر، من التقاليد المتبعة في هذا القصر. ولا شك أن هذا حماقة ولغو.. لا سيما إذا كان الأمر يحتاج في تديره إلى كل صراحة ووضوح وصدق. إن هناك زواجاً يعدون العدة له، وأنا لا أوافق على هذا الزواج.

وأسرعت ألكسندرا تقول مرة أخرى:

- أماه! ما هذا الذي تقولين؟

هه، ماذا يا ابنتي العزيزة؟ كأنما يمكن أن توافقي عليه بنفسك! إن أمور القلب شيء خطير، وما عداها سخف ولغو. وإن كان ينبغي أن يكون الإنسان عاقلاً أيضاً، ولعل العقل هو الشيء الخطير. لا بتسمي هكذا يا أجلايا، فأنا لا أناقض نفسي، إن الإنسان الغبي الموتور العواطف، القليل العقل، يكون يائساً تماماً مثل الغبي الموفور العقل بلا عواطف. وأنا أحد هذين، وأنت الآخر، ولهذا فكل منا تعاني، وكل منا غير سعيدة.

وهنا قالت أدليدا التي بدا أنها وحدها - دون غيرها - ظلت محتفظة حتى الآن بهدوئها وثبات أعصابها:

- ولماذا أنت غير سعيدة يا أماه؟

فقالت الأم في حدة:

- أولاً بسبب بناتي المتريات على أحسن وجه! وبما أن هذا أهم سبب يمكن أن أقدمه، فلا حاجة إلى البحث عن أسباب أخرى في الوقت الحاضر. والآن كفى حديثاً، لسوف نرى كيف يمكنكم، وأنا أخرج أجلايا من الموضوع، أن تديرا شئونكم. سنرى هل يمكنك أيتها المحترمة جداً، ألكسندرا إيفانوفنا أن تعيشي سعيدة مع زوجك اللطيف.

ثم أضافت قائلة عندما أقبل جانبا فجأة إلى الغرفة:

- أه، ها هو ذا موضوع زواج آخر، كيف حالك؟

قالها ردًا على انحناء جانبا لها، ولكنها لم تدعه إلى الجلوس، وإنما أردفت قائلة:

- هل أنت تستعد للزواج؟

فغمغم جانبا قائلاً وهو غارق في الاضطراب والارتباك:

- زواج؟ كيف... أي زواج؟

- إنني أسألك: هل أنت تتأهب لأن تتخذ لنفسك زوجة، إن كنت تفضل هذا التعبير؟

فهتف جانبا بوجه مضطرب ينم بوضوح عن الكذب والشعور بالخجل لهذا:

- لا.. لا.. أنا.. لا!

ثم ركز نظراته على أجلايا الجالسة على مسافة يسيرة، ثم أسرع وأغضى بعينه إلى الأرض.

وحدقت أجلايا النظر إليه في ثبات وهدوء وبرود دون أن تحول عينها عن وجهه، وراحت ترقب بإمعان ارتبাকে. واستطردت المسز إيبانشين التي لا ترحم قائلة:

- لا؟ أقول لا! أه! إذن سوف أذكر أنك قلت لي في صباح هذا اليوم، الأربعاء، ردًا على سؤالي، أنك لا تستعد للزواج. في أي يوم نحن، الأربعاء، أليس كذلك؟

فقلت أدليدا:

- نعم. أعتقد هذا.

- إنهن لا يعرفن أبداً في أي يوم من أيام الأسبوع نحن. وما هو تاريخ هذا اليوم من الشهر!

فقال جانبا:

- السابع والعشرين.

- السابع والعشرين؟ عظيم جداً. طاب يومك الآن. أنا واثقة أن لديك الكثير مما يجب أن تقوم به. وسوف أمضي الآن وأرتدي ملابس لي للخروج. خذ صورتك هذه، وبلغ تحياتي إلى والدتك المسكينة، نينا ألكسندروفنا. إلى اللقاء يا عزيزي الأمير، أرجو أن تتردد علينا لترانا، وسوف أحدث الأميرة بيلوكوفسكي عنك. لسوف أذهب لزيارتها، لغرض ما. واسمع يا ولدي العزيز. إنني واثقة أن الله قد أرسلك من سويسرا إلى بطرسبرج لتحقيق غرض معين لي. ولعل أن يكون ثمة أعمال أخرى تقوم بها، عدا هذا، ولكنك أرسلت من أجلي خاصة، إنني واثقة من هذا. لقد أرسلك الله لي! إلى اللقاء، تعالي معي يا عزيزتي ألكسندرا.

وغادرت المسز إيبانشين الغرفة.

وتناول جانبا الصورة وهو أشد ما يكون اضطراباً، واستياءً، وغضباً، واستدار نحو الأمير وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة كدرة، ثم قال:

- إنني في طريقي إلى البيت أيها الأمير. فإذا لم تكن قد غيرت رأيك للإقامة معنا، فلعلك لا ترفض المجيء معي. إنك لا تعرف العنوان كما أعتقد!

وهنا قالت أجلايا فجأة وهي تنهض عن المتكأ:

- انتظر لحظة أيها الأمير. أرجوك أن تكتب لي شيئاً في إضمامتي. إن أبي يقول أنك خطاط موهوب. لسوف آتي لك بالإضمامة فوراً.

ثم انصرفت من الغرفة.

وقالت أدليدا:

- حسناً. إلى اللقاء أيها الأمير. يجب أن أمضي أنا أيضاً.

ثم ضغطت على يد الأمير بحرارة، ووجهت إليه ابتسامة ودودة وهي تغادر الغرفة، ولكنها لم تلق على جانبا مجرد نظرة.

وقال جانبا مستديراً إلى الأمير بمجرد انصراف الجميع من الغرفة:

- كل هذا من صنع يديك أيها الأمير؟ كله بسببك.

ثم أردف قائلاً في همس وقد اربد وجهه غضباً وتطايير الشرر من عينيه:

- لقد حدثتهن عن موضوع زواجي أيها الثرثار الوقح.

فقال الأمير في هدوء وأدب:

- أوكد لك أنك مخطئ.. بل إنني لم أكن أعرف أنك ستزوج.

- لقد سمعته أن يحدث عن هذا الموضوع مع الجنرال. سمعته أقول

إن كل شيء سيتم إعداده اليوم في بيت ناستاسيا فيليبونا، فجئت وثرثرت

بهذا كله هنا. إذا أنكرت هذا فأنت كاذب. وإلا فمن يمكن أن يخبرهن

غيرك؟ اللعنة على كل شيء! من يمكن أن يخبرهن غيرك؟ ألم تلمح المرأة

العجوز بهذا!

- إذا كانت قد لمتحت لك عن الذي أخبرها، فلا شك أنك تعرفه أكثر

مني طبعًا. أما أنا فلم أَلْفِظ بكلمة واحدة عن هذا الموضوع.

فقاطعه جانيا بضيق:

- هل سلمت رسالتي؟ هل استلمت ردًّا؟

وقبل أن يجد الأمير وقتًا للإجابة، عادت أجلايا وقالت:

- هذه هي إضمامتي أيها الأمير، أرجوك أن تختار الآن صفحة منها وأن تكتب فيها شيئًا. ها هي ذي ريشة كتابة، وهي جديدة، هل يضيرك أن تكتب بسن من الصلب! لقد سمعت أنكم يا معشر الخطاطين الفنانين لا تحبون الكتابة بسن من الصلب.

وكان يبدو على أجلايا، وهي تتحدث إلى الأمير، أنها لا تشعر بوجود جانيا في الغرفة. ولكن بينما كان الأمير يعد الريشة، ويبحث عن الصفحة، ويستعد للكتابة، اقترب جانيا من المدفأة حيث كانت أجلايا واقفة إلى يمين الأمير، ثم همس بنبرات مضطربة متلعثمة في أذنها تقريبًا:

- كلمة واحدة، مجرد كلمة واحدة منك، وأنجو...

واستدار الأمير بسرعة ونظر إليهما معًا؛ وكان وجه جانيا مفعمًا بالأس الحقيقي، وكان يبدو أنه نطق بهذه الكلمات بلا وعي تقريبًا، وبدافع مفاجئ.

وحملت أجلايا إليه برهة بنفس الهدوء والدهشة والثبات، كما فعلت قبل ذلك بلحظات عندما سلمها الأمير الرسالة، ويبدو أن هذه الدهشة الهادئة، والظهور بمظهر التي لم تفهم ما قاله لها، كان أدعى إلى ارتباك واضطراب جانيا مما لو أنها أعربت بوضوح عن ازدرائها.

وسألها الأمير قائلاً:

- ماذا أكتب؟

فقلت أجلايا وهي تقترب من المائدة:

- لسوف أملّي عليك.. والآن، هل أنت مستعد؟ اكتب «إنني لا أتنازل أبداً لأساوم على شيء» والآن اكتب اسمك والتاريخ، دعني أرى.

ولما ناولها الأمير الإضمامة، قالت:

- عظيم! ما أجمل هذا الخط! شكراً جزيلاً! إلى اللقاء أيها الأمير..

ثم أضافت قائلة:

- انتظر برهة أريد أن أعطيك شيئاً على سبيل التذكار. تعال معي في هذه الناحية أرجوك.

وتبعها الأمير، حتى إذا وصلت إلى غرفة الطعام، توقفت، ثم قالت وهي تقدم إليه رسالة جانبا:

- اقرأ هذه.

وتناولها الأمير منها، وحملق فيها بحيرة ودهشة. وقالت أجلايا:

- أوه، أنا أعرف أنك لم تقرأها، وأنت لا يمكن أن تكون شريكاً لهذا الرجل، اقرأها، إنني أريد أن تقرأها.

وكان يلوح أن الرسالة كتبت بسرعة وتعجل، وكانت كما يلي:

«إن مصيري سوف يتحدد اليوم. وأنت تعرفين كيف. ففي هذا اليوم يجب أن أحدد موقفني نهائياً. ولا حق لي في التماس العون منك. ولست أجروء على السماح لنفسني بالاستغراق في الآمال. ولكن بمجرد أن تقولي كلمة واحدة، فإن هذه الكلمة ستضيء ليل حياتي، وتصبح نبراس الهدى

لأيامي. قلتي مرة واحدة مثل هذه الكلمة، وأنقذيني من الدمار الشامل، قلتي لي فقط «افسخ كل شيء» ولسوف أفعل ذلك في هذا اليوم نفسه. أوه! ماذا يمكن أن يكلفك مجرد النطق بهذه الكلمة. إنك بهذا لن تفعلي أكثر من الإيماء لي بإشارة من عطفك عليّ، من إشفافك بي؛ وأنا لا أطمع في غير هذا، هذا فقط، ولا شيء أكثر، لا شيء.. إنني لا أستطيع الاستغراق في أي أمل؛ لأنني غير جدير به. ولكن إذا قلت هذه الكلمة لسوف أتحمّل مرة أخرى فاقتي وأواجه بسرور موقفي الميثوس منه. لسوف أقاوم العاصفة وأنا مسرور بهذا ولسوف أنهض مرة أخرى بقوة متجددة.

امنحيني كلمة العطف هذه، فقط العطف، وأنا أقسم لك. أوه! لا تغضبي من إلحاح رجل يائس. رجل غريق تجرأ وبذل هذا الجهد الأخير لإنقاذ نفسه من الهلاك تحت سطح الماء.. ج. أ.

وقالت أجلايا بازدرء بعد أن فرغ الأمير من قراءة الرسالة:

- هذا الرجل يؤكد لي أن عبارة «افسخ كل شيء» لا تلزمني بشيء أيّا كان، وهو بنفسه يقدم لي ضماناً مكتوباً بهذا المعنى في رسالته. لاحظ كيف يضع بدهاء خطأً تحت كلمات معينة، وكيف تبدو بغلظة، أفكاره المخبوءة. إنه لا شك يعرف لو أنه «افسخ كل شيء» أولاً، من تلقاء نفسه وبدون أن يذكر لي كلمة عن هذا أو بدون أن يكون لديه أي أمل من ناحيتي، فربما أتمكن، في هذه الحالة، من تغيير رأيي عنه، بل والموافقة أيضاً على صداقته. لا شك أنه يعرف هذا، ولكنه دنيء النفس إنه يعرف، ولكنه لا يستطيع أن يحدد موقفه، إنه يعرف، ولكنه يطالب بضمان أولاً. إنه لا يستطيع أن يحمل نفسه على الثقة بي. إنه يريد أن أطمعه بالأمل في نفسي قبل أن ينفض يديه من المائة ألف روبل. أما عن «الكلمة التي يقول إنها ستضيء

ليل حياته» فهو في هذا كذاب أشر. لقد عطف عليه ذات مرة فقط، ولكنه شاب ملحاح وقح. لقد بدا في تلك اللحظة يأمل ويرجو، كما تبين لي فوراً. وحاول منذ ذلك الحين أن يوقعني في شباكه، وهو لا يزال يسعى في هذا السبيل. حسناً، يكفي هذا. خذ الرسالة وأعدّها إليه بمجرد أن تغادر البيت، وليس قبل هذا طبعاً.

- وماذا أقول له في مجال الرد؟

- لا شيء... طبعاً! هذا أحسن رد. إذن فأنت تنوي الإقامة في بيته؟!

- نعم. لقد تكرم والدك وزكاني لديه.

- إنني أحذرك بالاحتراس منه، فهو لن يصفح عنك بسهولة لإعادتك الرسالة إليه.

وضغطت أجلايا على يد الأمير، وانصرفت من الغرفة وقد بدا وجهها جاداً مقطباً، بل إنها لم تبسم وهي تومئ له بالتحية عند الباب.

وقال الأمير لجانيا وهو يعود إلى غرفة الاستقبال:

- سأتي فقط بالصرة وأمضي معك.

وضرب جانيا الأرض بقدمه في ضجر، وقد بدا وجهه مربرداً مكفهراً بالغضب.

وأخيراً تركا المنزل وراءهما، والأمير يحمل صرته. وقد بادره جانيا قائلاً بمجرد أن أصبحا في الخارج:

- الرد، بسرعة، الرد. ماذا قالت لك؟ هل سلمتها الرسالة؟

وما أن أعاد الأمير الرسالة إليه، حتى تسمر جانيا في مكانه من فرط

الدهشة، ثم صاح:

- ماذا؟ ما هذا؟ رسالتي؟ إنه لم يسلمها إليها أبدًا، كان يجب أن أدرك هذا. اللعنة عليه! إنها طبعًا لم تفهم ما أعني. لماذا، لماذا، لماذا لم تسلمها الرسالة، يا...
- معذرة، لقد تمكنت من تسليمها الرسالة بمجرد أن عهدي إليّ بها، وقد سلمتها إليها تمامًا كما أردت أن أفعل. وهي الآن معي لأن أجلايا إيفانوفنا أعادتها إليّ الآن.

- كيف؟ متى؟

- بمجرد أن فرغت من الكتابة في إضمامتها، وعندما طلبت مني أن أغادر الغرفة معها «وقد سمعتها بنفسك» ومضينا معًا إلى قاعة المائدة، وهناك أعطتني الرسالة لأقرأها، ثم طلبت مني أن أعيدها إليك.

فصاح جانبا بأعلى صوته تقريبًا:

- لتقرأها! لتقرأها! وهل قرأتها؟

ومرة أخرى تسمر كلوح الخشب في وسط الإفريز، وبلغ من دهشته أن فغرفاه بعد الكلمة الأخيرة، وتركه فاغرا.

- نعم، لقد قرأتها، منذ لحظات خلت.

- وهل أعطتها لك، لتقرأها، بنفسها.. بنفسها؟

- نعم، بنفسها، ويمكنك أن تصدقني إذا قلت لك إنني ما كنت لأقرأها بدون إذن منها.

وصمت جانبا برهة أو اثنتين كأنما يفكر في مشكلة ما، ثم هتف فجأة:

- هذا مستحيل! إنها لا يمكن أن تعطيها لك لتقرأها. أنت تكذب. لقد قرأتها من تلقاء نفسك!

فقال الأمير بصوته الهادئ السابق:

- إنني أقول لك الحقيقة، وصدقني، إنني آسف جدًا لأن الظروف قد تركت في نفسك هذا الأثر السيئ.

- ولكن، أيها التمس! كان يجب على الأقل أن تقول شيئًا، يجب أن يكون هناك رد ما منها.

- نعم، طبعًا، لقد قالت شيئًا.

- حدثني به حالًا، اللعنة على كل هذا! أخبرني فورًا.

ودق جانبا الإفريز بقدميه مرتين. وقال الأمير:

- بمجرد أن فرغت من قراءتها، أخبرتني بأنك تسعى وراءها، وأنت تريد التفاهم معها لكي تظفر منها ببعض الآمال التي قد تشجعك على التخلي عن مائة ألف روبل.

وقالت لو أنك فعلت هذا بلا مساومة معها، لو أنك تخليت عن مشروع الحصول على هذا المبلغ دون أن تنتزع منها الضمان أولاً، فقد كان من الممكن أن تغدو صديقة لك. هذا كل شيء كما أرى، أوه، لا، فعندما سألتها ماذا أقول لك حين أعيد الرسالة إليك؟ أجابت قائلة: «إن عدم الرد هو أحسن رد». أعتقد أن هذا هو كل شيء، ومعدرة إذا أنا لم أذكر لك تعبيراتها الحرفية، إنني أقول لك المضمون كما فهمته.

واستبد الغضب المطلق والجنون بجانيا، وإذا هو ينفث ثورته بلا أية محاولة للسيطرة عليها فصاح قائلاً:

- أوه، هكذا الأمر! أليس كذلك؟ إنها تلقي برسائلي من النافذة، أليس كذلك؟ أوه، وهي لا تتنازل للمساومة بينما أفعل أنا، هه؟ سوف ترى، سوف ترى، لسوف أجعلها تدفع الثمن.

وراح يتلوى بالغضب، وازداد وجهه امتقاعًا، وأخذ يهدد بقبضة يده، وسارا معًا خطوات قليلة، ولم يراع جانبا آداب السلوك مع الأمير، وإنما كان يتصرف تمامًا كما لو كان في غرفته الخاصة بمفرده. وفجأة لاح كأنما خطرت بباله فكرة، فجمع شتات نفسه، وقال:

- ولكن كيف حدث؟ كيف حدث أن تصبح أنت؟

وأرد قائلاً لنفسه «أنت الأبله» ثم استطرد يقول بصوت مسموع:

- موضع ثقة سريعة بعد ساعتين من لقاءك الأول مع هؤلاء الناس؟ كيف حدث هذا؟

ولم تكن الغيرة، حتى هذه اللحظة، مثار عذابه، وإذا بها فجأة تنهش قلبه.

وأجاب الأمير قائلاً:

- هذا شيء أستطيع أن أتولى تفسيره.

ونظر جانبا إليه باحتقار وغضب. ثم قال:

- أوه! أظن أن الهدية التي أرادت أن تقدمها إليك حين أخذتك إلى قاعة المائدة هي ثقتها هذه! هه؟

- أعتقد أن الأمر كذلك، ولا أستطيع أن أجد تفسيراً آخر.

- ولكن لماذا؟ لماذا، ماذا فعلت بحق الشيطان هناك؟ لماذا أنسن

إليك؟ اسمع، ألا يمكن أن تتذكر على وجه التحديد ماذا قلت لهن منذ اللحظة الأولى، ألا يمكن أن تتذكر؟

- أوه، لقد تحدثنا عن أشياء كثيرة، فعندما أقبلت عليهن أولاً، بدأنا الحديث عن سويسرا.

- أوه، ليأخذ الشيطان سويسرا.

- ثم عن تنفيذ أحكام الإعدام.

- أحكام الإعدام؟

- نعم، على الأقل عن تنفيذ حكم واحد، ثم حدثتني عن قصة الأعمام الثلاثة كلها التي أقمتها في سويسرا، وعن تاريخ حياة فتاة ريفية مسكينة. فقال جانبا في ملل:

- اللعنة على الفتاة الريفية - استمر، استمر في حديثك.

- ثم تحدثت عن رأي شنيدر في طبيعتي الصبائية و..

- اللعنة على شنيدر وآرائه القذرة. استمر.

- ثم بدأت الحديث عن الوجوه، أو على الأقل، عن تعبيرات الوجوه. وقلت إن أجلايا إيفانوفنا تكاد تبدو في جمال ناستاسيا فيليبوفنا، وعندئذ بدر مني الحديث عن الصورة.

- ولكنك لم تذكر شيئاً مما سمعت في غرفة المكتب! إنك لم تذكره؟
هه!

- لا. قلت لك إنني لم أفعل هذا.

- إذن كيف عرفن...! اسمع؟ هل أطلعت أجلايا السيدة العجوز على

رسالتي؟

- أوه، يمكنني هنا أن أؤكد لك بصفة قاطعة أنها لم تفعل. لقد كنت موجودًا طيلة الوقت، ولم تكن لديها الفرصة لتفعل هذا.
- وصاح جانبا وقد أخرجه الغضب عن جادة الصواب:
- ولكن لعلك لم تلاحظ هذا. أوه أيها الأبله اللعين.
- ثم أردف قائلاً:
- بل إنك لا تستطيع أن تصف ما حدث.

ولما انحدر جانبا إلى حد الشتم والسب دون أن يوقف عند حده، تمادى في هذا بسرعة بلا قيود أو حدود كما هو الشأن في مثل هذه الأحوال. لقد أعماه الغضب بحيث لم يعد يفتن إلى أن هذا «الأبله» الذي ينهال عليه بكل هذه الشتائم، أبعد ما يكون عن بلادة الفهم، وأن له طريقته في استيعاب ما يحدث أمامه، ثم سرده بعد ذلك مرة أخرى. وهي طريقة أبعد ما تكون عن «البلاهة» حقًا. ولكن حدث عندئذ شيء بسيط لم يكن متوقعًا.

لقد قال الأمير فجأة:

- أرى من الواجب أن أقول لك يا جافريلا أرداليونوفيتش إنني رغم اشتداد المرض بي ذات يوم حتى أصبحت حقًا لا أزيد كثيرا عن أي «أبله» إلا أنني استرددت كامل صحتي تقريبًا، ولهذا لا يليق أبدًا أن تنعني بهذه الصفة في مواجهتي. طبعًا إن لك العذر في غضبك بسبب هذه المعاملة التي تعرضت لها الآن، ولكن ينبغي أن أذكرك أنك شتمتني مرتين بفظاظة. وأنا لا أحب مثل هذا، لا سيما من رجل ألتقي به لأول مرة. ولهذا، وبما أننا نقف الآن في مفترق الطرق، ألا ترى أنه يحسن أن نفترق، فتمضي أنت يسارًا نحو

بيتك، وأمضي أنا يمينًا هنا؟ إن لديّ خمسة وعشرين روبلاً ومن السهل أن أجد مأوى.

واشتد ارتباك جانيا، واضطرم وجهه خجلاً، وإذا هو يهتف وغير نبرات الشتم في صوته إلى احترام كبير:

- أوه، صفحاً أيها الأمير. أسألك بحق السماء أن تصفح عني، فأنت ترى في أي موقف تعس أنا. ومع ذلك فإنك لا تكاد تعرف شيئاً عن حقائق الأمر حتى الآن. وإني لواثق أنك، لو عرفت، لغفرت لي، ولو بعض الشيء. طبعاً أنا أعرف أن ما بدر مني لا يغتفر، ولكن..

فأجاب الأمير بسرعة:

- أوه، ويحي! إنني في الواقع لست في حاجة إلى كل هذه الاعتذارات القوية. فأنا أدرك تماماً موقفك الحرج، وأن هذا ما دفعك إلى شتمي، وعلى هذا هلم إلى بيتك، فسوف يسرنني..

وقال جانيا لنفسه وهو ينظر إلى الأمير بغضب أثناء سيرهما معاً:

- إنني لن أدعه يفلت هكذا ببساطة! لقد امتص كل شيء مني، ثم رفع الآن قناعه. إن هناك شيئاً أكثر مما يبدو عليه. وسوف نرى. إن كل شيء سيبين كالماء الصافي الليلة. كل شيء.

ولكن كانا عندئذ قد وصلا إلى بيت جانيا.



الفصل الثامن

كانت الشقة التي يقيم فيها جانبا وأسرته في الطابق الثالث من المنزل. وكان الوصول إليها عن طريق سلم نظيف منير. وهي تتكون من سبع غرفات، وتعتبر سكنًا مريحًا يمكن الإنسان أن يستكثره على كاتب مرتبه ألفا روبل في العام. ولكن كان من المقرر أن تؤجر بعض غرفاته لعدد قليل من النزلاء. وكان قد استأجر منذ شهور قليلة، رغمًا عن نفور جانبا، وبناء على رجاء والدته، وأخته فارفارا أرداليونوفنا التي كانت تتوق للقيام بشيء يزيد من دخل الأسرة، وقد عقدت آمالها على تأجير بعض الغرفات. وعارض جانبا هذه الفكرة، إذ كان يراها دون مكانته وزهد بعد ذلك في الظهور بالمجتمع.. ذلك المجتمع الذي تعود أن يبدو فيه حتى الآن كشاب ينتظره مستقبل لامع، وقد أدت كل هذه الظروف الاضطرابية، وازورار الحظ عنه أخيرًا إلى الشعور العميق بالمهانة، وإلى إثارة أعصابه إلى حد كبير، وإلى انفلات غضبه من كل زمام أو تعقل. ولكن إذا كان قد قرر في ذات نفسه أن يرضى إلى حين بهذا النوع من الحياة، فإنما فعل هذا فحسب وهو متفاهم مع نفسه على أنه سيغير هذا الوضع كله بسرعة، وأنه سيظفر من الحياة بما يريد مرة أخرى. ولكن نفس الوسائل التي كان يأمل أن يغير بها هذا الوضع، أصبحت تهدد بإلقائه في شبكة من المصاعب أكبر مما كان لديه من قبل.

وكان المسكن مقسمًا بالممر الممتد مباشرة من ردهة المدخل . وعلى أحد جانبي هذا الممر تقع ثلاث غرفات مخصصة للنزلاء «الموصي عليهم بصفة خاصة» وعدا هذه الغرفات الثلاث، توجد غرفة أخرى صغيرة في نهاية الممر، قريبة من المطبخ، ومخصصة للجنرال إيفولجين، السيد الاسمي للبيت، الذي كان ينام على متكأ عريض، ويضطر عند الخروج من الغرفة أو الدخول إليها للمرور على المطبخ، ثم الصعود أو الهبوط على السلم الخلفي. وكان كوليا، شقيق جانيا التلميذ البالغ من العمر ثلاثة عشر عامًا، يشارك أباه في هذه الغرفة وكان أيضًا ينام على أريكة قديمة ضيقة، غير مريحة، فوقها حشية ممزقة. وكانت مهمته الرئيسية هي رعاية أبيه الذي كان يحتاج إلى مزيد من العناية يوميًا بعد يوم.

وأنزل الأمير في إحدى الغرفات الثلاث، وكانت الأولى مشغولة برجل يدعى فيردشكو، بينما كانت الثالثة خالية.

ولكن جانيا مضى بالأمير أولاً إلى جناح الأسرة. وكان هذا يتكوّن من «صالون» يتحول إلى غرفة طعام عند الحاجة، وغرفة جلوس، وهي غرفة جلوس فقط في الصباح، ومكتب لجانيا في المساء وغرفة نوم له في الليل. وأخيرًا غرفة نوم نينا ألكسندروفنا وفارفارا، وهي غرفة صغيرة يقتسمانها معًا.

وعلى الجملة كان المكان كله مزدهرًا، و«ضائقًا جدًّا» بالجميع. وقد اعتاد جانيا أن يعرض على نواجذه بسبب هذه الحالة وذلك رغم حرصه على أن يكون مطيعًا لأمه مهذبًا معها. وعلى أية حال، فإنه سرعان ما يتضح لكل من يأتي إلى المسكن أن جانيا هو حاكم الأسرة المستبد.

كانت نينا ألكسندروفنا وابنتها جالستين معًا في غرفة الجلوس،

مشغولتين بالخياطة، وتبادلان الحديث مع زائر هو إيفان بتروفيتش بيتسين. وكانت ربة البيت سيدة تبدو في نحو الخمسين من عمرها، نحيلة الوجه، ذات خطوط سوداء تحت عينيها. وكانت تبدو مريضة وأقرب إلى الحزن ولكن وجهها مع هذا كان لطيفاً. ومن أول كلمة تبدو من شفيتها يستطيع أي إنسان أن يدرك أنها ذات طبيعة جادة ومخلصة على وجه خاص. وبرغم سمات الحزن على وجهها، فإنها توحى بوفرة ما تتمتع به من حزم وثبات، وكانت ملابسها بسيطة ومتواضعة إلى حد ما، قاتمة الألوان، وقورة الطراز. ولكن وجهها، ومظهرها العام كانا ينمان عن أيام أسعد من هذه عاشتها من قبل.

وكانت فارفارا فتاة في نحو الثالثة والعشرين من عمرها، متوسطة الطول، نحيلة الجسم، لها وجه إن لم يكن جميلاً فعلاً، فإنه كان يمتاز بجاذبية نادرة، ومن الممكن أن يثير في القلب أصدق العواطف.

كانت شديدة الشبه بأمها، بل كانت ترتدي مثل ملابسها، مما يدل على أنها لا تعبأ بالملابس الأنيقة. وكانت تعبيرات عينيها الرماديتين، تنم عن البشاشة والركة، عندما لا تكونان، كما هو شأنها أخيراً، زاخرتين بالقلق والتفكير. ويمكن أن يلاحظ نفس الحزم والثبات على وجهها كما يبدو أن على وجه أمها، ولكنها تبدو أشد قوة وحيوية منها. وكانت معرضة لنوبات من الغضب المتفجر الذي يخشاه حتى أخوها جانبا بعض الخشية.

وكان الزائر في تلك اللحظة بيتسين، يخافها أيضاً، وهو شاب لم يبلغ الثلاثين من عمره؛ ملابسها بسيطة وإن كانت أنيقة. وكان سلوكه سليماً وإن لم يخل من التكلف. وكانت لحيته السوداء تحمل الدليل على أنه لا يشغل أي منصب حكومي. ورغم قدرته على إجادة الحديث كان يفضل الصمت.

وهو في جملته يترك في النفس أثراً طيباً دون أدنى شك. وكان الواضح أنه مفتون بفارفارا إذ إنه لا يخفي عواطفه في هذه الناحية. وكانت هي تثق فيه بطريقة ودية دون أن تبدي نحوه، حتى الآن ما يشجعه. ولم يخفف موقفها هذا نيران عواطفه المتأججة في شيء.

وكانت نينا ألكسندروفنا تؤثره كثيراً وازدادت أخيراً ثقتها به، وكان بيتسين - كما هو معروف للجميع - يشتغل بعمليات تسليف النقود بضمانات قوية، وبفوائد طيبة. وكان صديقاً حميماً لجانيا.

وبعد أن قام جانيا بتقديم الأمير «وكان جانيا قد ألقى تحية قصيرة سريعة على أمه، ولم يلتفت إطلاقاً إلى أخته، وبادر إلى إخراج بيتسين من الغرفة» وجهت نينا ألكسندروفنا كلمات قليلة رقيقة إلى الأمير، ثم طلبت من كوليا - الذي ظهر بالباب عندئذ - أن يصحبه إلى الغرفة الوسطى.

وكان كوليا غلاماً لطيف المنظر، تنم ملامحه عن البساطة والثقة في الغير، وينم سلوكه عن الأدب واللطف.

قال للأمير وهو يمضي معه إلى غرفته:

- أين متاعك؟

- إن لي صرة، وهي في ردهة المدخل.

- لسوف آتي بها فوراً. ليس لدينا غير طاهٍ، وخادمة فقط. ومن ثم عليّ

أن أساعد بقدر ما أستطيع. إن أختي فاريا تشرف على كل شيء بوجه عام، وينفذ صبرها بسرعة. لقد قال جانيا إنك وصلتتوا من سويسرا.

- نعم.

- أهى بلاد جميلة؟

- جدًا.

- وفيها جبال؟

- نعم.

- لسوف أمضي وآتي بصرتك.

وهنا انضمت فارفارا إليهما قائلة للأمير:

- لسوف تحضر الخادمة ملاءات الفرش فوراً، هل لديك حقيبة سفر؟

- لا. صرة فقط، وقد ذهب أخوك إلى الردهة لإحضارها.

وأقبل كوليا عندئذ وقال:

- لا شيء هناك غير هذه. أين وضعت متاعك؟

فقال الأمير وهو يتناول الصرة:

- أوه، ولكن هذا كل ما لدي من متاع.

- آه، ظننت أن فيردشنكو ربما أخذه.

فقالت فاريا بحدة:

- كفى لغواً.

وكان يبدو عليها الضيق، وإن كان حديثها للأمير مهذباً.

وضحك الغلام قائلاً:

- أوه! يمكنك أن تكوني ألطف من هذا معي، نعم، فأنا لست بيتسين؟

- إنك تستحق أن تجلد يا كوليا، أيها الغلام الأحمق.

ثم أردفت قائلة للأمير:

- عندما تريد شيئاً، فأرجو أن تنادي الخادمة، إننا نتناول الغداء في الرابعة والنصف بعد الظهر، ويمكنك أن تتناوله معنا، أو في غرفتك كما يحلو لك. هلم يا كوليا، لا تزعج الأمير.

والتقيا عند الباب بجانيا مقبلاً يقول:

- هل أبي موجود؟

وهمس كوليا بشيء في أذنه وانصرف.

وقال جانيا للأمير:

- سأقول لك كلمتين أيها الأمير إذا سمحت لي. لا تثرثر هناك عما قد تراه هنا أو في هذا البيت، كما تثرثرت عني وعن أجلايا. إن الأمور في هذا المكان ليست على خير حال - اللعنة على كل شيء. أترى؟ أرجو أن تضع لسانك في فمك هذا اليوم بالذات.

فقال الأمير باستياء شديد وقد أدرك بوضوح أن العلاقات بينه وبين جانيا لا تتحسن إطلاقاً:

- أؤكد لك أنني أثرثر أقل كثيرًا جدًا مما تظن!

- أوه. حسنًا! ولكنني عانيت اليوم متاعب كثيرة، والفضل في هذا كله لك! وعلى أي حال فيني أسامحك.

- أرى أن من الإنصاف أن تذكر أنني لم أكن مرتبطاً بأي عهد، ولم يكن هناك ما يدعوني لأن أمسك لسانك بشأن الصورة. إنك لم تطلب مني أبداً ألا أذكرها.

وهنا قال جانيا وهو يتلفت في جوانب الغرفة مشمئزاً:

- ويحي! ما أتعس هذه الغرفة. مظلمة، وتطل نافذتها على الفناء. إن مجيئك إلى منزلنا لم يكن بأي حال، في الوقت المناسب، وأيًا كان الأمر، فليس هذا شأني، فأنا لا أدير غرفات الإقامة هنا.

وفي تلك اللحظة أطل بيتسين وأشار لجانيا الذي أسرع بالخروج من الغرفة رغم أنه كان- كما بدا بوضوح- يريد أن يقول المزيد للأمير، وكان قد تحدث عن رأيه في الغرفة ليكسب الوقت. وما كاد الأمير يغتسل ويرتب شئونه قليلاً حتى فتح الباب مرة أخرى وظهر شخص آخر.

كان شاباً في نحو الثلاثين من عمره، طويلاً، عريض الكتفين أحمر الشعر، أحمر الوجه أيضاً، غليظ الشفتين، واسع الأنف، ضيق العينين، اللتين كانتا ناريتي النظرات بعض الشيء، تمان عن التهكم والسخرية وكأنما يغمزان باستمرار على شيء ما. وكان منظره بوجه عام ينم عن الوقاحة، كما كانت ملابسه رثة.

كان قد فتح الباب فقط بقدر ما يطل برأسه، وقد ظل على هذا النحو لحظات قلائل وهو يتفحص الغرفة بهدوء. ثم فتح الباب بعد هذا بما يكفي لدخول جسمه. ولكنه لم يدخل، وإنما ظل واقفاً على عتبة الباب يتأمل الأمير بإمعان. وأخيراً دفع الباب وأكمل فتحه، ثم اقترب من الأمير، وتناول يده، وأجلسه وجلس بجانبه على مقعدين متجاورين.

قال وهو يحرق في عيني الأمير متسائلاً:

- أنا فير دشنكو.

فقال الأمير وهو يكاد يضحك له:

- وماذا بعد؟

واستطرد الأول وهو لا يزال محملاً:

- أحد النزلاء هنا.

فسأله الأمير قائلاً:

- أتريد أن نتعارف؟

فقال الزائر وهو يتخلل بأصابعه شعره ويتنهد:

- آها..

ثم النفث إلى الناحية الأخرى من الغرفة، وفجأة قال:

- ألدك مال؟

- قليل.

- كم؟

- خمسة وعشرون روبلاً.

- هلم نر.

وتناول الأمير الورقة النقدية وقدمها لفيردشنكو الذي فتحها ونظر فيها،

ثم قلبها وفحص الجانب الآخر منها، ثم عرضها للضوء وهو يقول متأملاً:

- ما أعجب أن تصبح قاتمة هكذا؟ إن هذه الأوراق النقدية من فئة

الخمس والعشرين روبلاً تتحول بسرعة عجيبة إلى اللون البني، بينما

الأوراق النقدية الأخرى تصبح عادة متغيرة اللون. خذها.

وتناول الأمير الورقة المالية، ونهض فيردشنكو قائلاً:

- جئت إليك لأحذرك. أولاً لا تقرضني نقوداً؛ لأنني بالتأكيد سأطلب

منك هذا.

- حسنًا جدًا.

- هل تدفع أجر إقامتك هنا؟

- نعم. هذا ما أنويه.

- أوه. إنني لا أنوي أن أفعل. شكرًا. إنني أقيم هنا، في الغرفة المجاورة لك، لقد لاحظتها، أليس كذلك؟ لا تأت إلي كثيرًا، وسوف أراك هنا كثيرًا. هل رأيت الجنرال؟

- لا.

- أو سمعت عنه؟

- لا. طبعًا لا.

- حسنًا، لسوف تراه وتسمع عنه في أقرب وقت. إنه يحاول اقتراض النقود حتى مني. حسنًا، طاب يومك، أعتقد أن شخصًا ما يستطيع أن يعيش وهو يحمل اسم فيردشنيكو.

- لِمَا لا؟

- طاب يومك.

وهكذا انصرف. وتبين الأمير فيما بعد أن هذا السيد يعمل دائمًا على تسلية الناس وإدهاشهم بالعبارات الفكاهة، والآراء الأصلية، ولكن النتيجة، بوجه عام، لا تسر. بل إنه في بعض الأحيان يترك أثرًا سيئًا في نفوس بعض الناس، مما كان يحزنه إلى حد كبير، ولكنه مع هذا لم يغير سلوكه.

وبينما هو يغادر غرفة الأمير، اصطدم بزائر آخر في طريقه إلى الداخل،

وانتهز فير دشنكو هذه الفرصة ليقوم بإيماءات تحذيرية كثيرة للأمير من وراء ظهر الوافد الجديد، ثم غادر الغرفة في زهو واضح.

وكان الزائر التالي هذا رجلاً أحمر الوجه، في نحو الخامسة والخمسين من عمره، أشيب الشعر والسوالف، كبير العينين، جاحظ الحدة. وكان يمكن أن يبدو ممتازاً في مظهره لولا أن ملابسه تنم عن ميل للقدارة. فقد كان مرتدياً سترة قديمة، تنبعث منها رائحة الفودكا حين يقترب من أحد، وكانت طريقته في السير تنم عن شيء من الزهو، إذ يحاول أن يبدو شامخاً له تأثيره في النفوس.

واقترب هذا السيد من الأمير ببطء، وهو يتسم في ترحيب وبشاشة. وفي صمت تناول يد الأمير في يده، وراح يتأمل ملامحه كأنما يبحث عن سمات مألوفة لديه. وأخيراً قال بهدوء، ولكن في شيء كثير من الجد:

- إنه هو، إنه هو، وكأنني به قد عاد إلى الحياة مرة أخرى. لقد سمعت عن الاسم المعروف.. الاسم العزيز المعروف.. أوه! لشد ما يذكرني بالماضي الذي لن يعود؟ إنك الأمير ميشكين، كما أعتقد.

- تماماً!

- إنني الجنرال إيفولجين.. متقاعد وسيء الحظ. هل أستطيع أن أسألك عن اسمك الأول وأسماء أسرتك؟

- ليو نيكولايفيتش.

- نعم، نعم، ابن صديقي القديم أو على الأصح، صديق الصبا نيكولاي ليوفيتش.

- نعم، إن اسم أبي هو نيكولاي ليوفيتش.

فكرر الجنرال النطق بالاسم دون أي تسرع، وبأتم ثقة، وكأنما لم يكشف نفسه إطلاقاً؛ وإنما عثر لسانه فقط، وجلس، وتناول يد الأمير، وأجلسه بجانبه وقال:

- لقد حملتك بين ذراعي وأنت طفل.

فقال الأمير:

- أحقاً؟ عجباً! لقد مات أبي منذ عشرين عاماً.

- نعم، نعم. عشرين عاماً وثلاثة أشهر، لقد تعلمنا معاً والتحقنا أنا رأساً بالجيش، أما هو..

- لقد التحق أبي بالجيش أيضاً، كان ملازماً ثانياً في فرقة فازيليسكي.

- لا يا سيدي، بل في فرقة بيلومرسكي، لقد انضم إلى هذه الفرقة قبل وفاته بقليل. وكنت بجانبه وهو على فراش الموت وأسبغت عليه بركاتي للخلود. أما والدك..

وتوقف الجنرال كأنما غلب عليه التأثر؛ فقال الأمير:

- لقد ماتت بعده بثلاثة أشهر بسبب نوبة برد.

- أوه، ليست نوبة برد، صدق رجلاً عجوزاً، لا، لم تكن نوبة برد، وإنما من الحزن على أميرها، أوه، أمك، أمك، كانت رمزاً للشباب! لقد كاد كل منا، والدك وأنا، أن يقتل أحدهما الآخر بسببها رغم قوة صداقتنا.

وبدأ الأمير ينصت وقد خالجه بعض الشك في حديث الرجل، بينما استطرد الجنرال يقول:

- لقد كنت أحبها أشد الحب عندما خطبها صديقي، ولاحظ الأمير..

والدك.. هذه الحقيقة فاستبد به الغضب. وفي ذات صباح، جاء وأيقظني في السابعة، فنهضت وارتديت ملابسني متعجبًا. ولما ظل الصمت مخيمًا علينا أدركت كل شيء. وتناول من جيبه غدارتين، ونشر منديلًا، ولم نستدع شهودًا، وما حاجتنا إلى الشهود وكل منا سيكون في طريقه إلى العالم الآخر بعد لحظات؟ وكانت الغدارتان محشوتين، وأمسكنا بطرفي المنديل، وشددناه وصوب كل منا نحو قلب الآخر. وفجأة ارتعدت أيدينا، وانحدرت الدموع من أعيننا، وبكيننا، وتعانقنا، وأصبحت المعركة الآن تدور حول التضحية بالنفس ومن ثم صاح الأمير قائلًا: «إنها لك» وصحت أنا «بل إنها لك» والخلاصة أنك جئت لتعيش معنا، ها!

فقال الأمير متعثرًا:

- نعم، نعم، بعد فترة ما، أظن!

وعندئذ ظهر كوليا بالباب وقال:

- أيها الأمير، إن أمي ترجوك أن تأتي إليها.

ونفض الأمير ليمضي، ولكن الجنرال وضع يده مرة أخرى على كتفه بطريقة ودية، وجذبه للجلوس على المتكأ قائلًا:

- بصفتي الصديق الحميم لأبيك، أحب أن أقول لك بضع كلمات. لقد عانيت كثيرًا.. حدثت كارثة، قاسيت فيها كثيرًا بلا محاكمة، لم يحاكموني.. إن نينا ألكسندروفنا - زوجتي - سيدة ممتازة، وكذلك أيضًا ابنتي فارفارا. وقد اضطررنا إلى تأجير بعض الغرفات مفروشة لأننا فقراء، لقد حدثت أزمة عيفة لم يسبق لها مثيل، لي، لي أنا الذي كان ينبغي أن أكون حاكمًا عامًا. ولكننا على كل حال سعداء جدًا بوجودك بيننا، وفي الوقت نفسه، إننا هنا

نمر بمأساة.

ولما نظر الأمير إليه متسائلاً، استطرد قائلاً:

- إنهم يعدون العدة لإتمام زواج ما، زواج بين سيدة تحيط بها الشبهات، وبين شاب قد يصبح من رجال البلاط الملكي. إنهم يريدون إحضار هذه السيدة هنا، حيث تقيم زوجتي وابنتي، ولكنني ما دمتُ باقيًا على قيد الحياة، فإنها لن تدخل بيتي، لسوف أرقد على العتبة، وعليها أن تمشي فوقي إذا أرادت أن تدخل. إنني لا أكاد أتحدث الآن مع جانيا، وأحرص على تجنبه بقدر الإمكان. إنني أحذرك من هذا مقدمًا، ولكنك لن تعجز عن ملاحظة الأمر، وبما أنك ابن صديقي القديم، فإني أرجو..

وهنا قالت نينا ألكسندروفنا بنفسها وقد ظهرت الباب:

- أرجو أن تتكرم أيها الأمير وتأتي معي إلى غرفة الجلوس برهة.
وهتف الجنرال قائلاً:

- تصوري يا عزيزتي، لقد ظهر أني كنت أهدهد الأمير على ركبتني فيما مضى!

وأرسلت زوجته إليه نظرة فاحصة، ثم نظرت إلى الأمير، ولم تفعل شيئًا، ونهض الأمير وتبعها. وما إن وصلا إلى غرفة الجلوس وبدأت نينا ألكسندروفنا في الحديث بسرعة، حتى لحق بهما الجنرال، وهنا لزمتم الصمت فورًا. وربما لاحظ رب البيت هذا، ولكنه، على أية حال، لم يلاحظ شيئًا البتة؛ لأنه كان في حالة ابتهاج شديد وهو يقول هاتفًا:

- إنه ابن صديقي القديم العزيز، لا شك أنك تذكرين نيكولاي ليوفيتش لقد رأيته في مدينة تير.

فقالَت الزوجة:

- إنني لا أذكر شخصًا باسم نيكولا ليوفيتش، أهو والدك أيها الأمير؟

فقال الأمير في تردد:

- نعم، ولكنه مات في مدينة إيزابجراد، وليس في تير. هكذا قال لي بافليشيف.

فقال الجنرال مُصراً:

- لا، بل في تير. لقد انتقل إليها قبل وفاته مباشرة، لقد كنت صغيراً جداً ولا يمكن أن تذكر، وإن بافليشيف، رغم أنه إنسان ممتاز، قد يكون مخطئاً.

- إذن فأنت تعرف بافليشيف؟

- أوه، نعم، إنه شخص رائع. ولكنني كنت موجوداً بجانبه ساعة الموت، وقد باركته.

وقال الأمير:

- لقد كان أبي على وشك أن يُقدم للمحاكمة قبيل وفاته. ولكنني لم أعرف أبداً نوع الاتهام الذي وُجِّه إليه. لقد مات في المستشفى.

- أوه، كان الأمر يتعلق بقضية الجندي كولباكوف، وبطبيعة الحال كان سيظفر بالبراءة.

فقال الأمير وقد ثار فضوله بسبب كلمات الجنرال:

- أحقاً؟ أتقول هذا عن يقين؟

فهتف الآخر قائلاً:

- هذا ما أراه حقاً! إن المحكمة العسكرية لم تصل إلى قرار. ويمكن

القول إن الأمر كان غامضاً جداً ومن المستحيل الوصول إلى حقائق، فقد مات الكابتن لاريونوف قائد الفرقة، وأسندت القيادة بعده مؤقتاً إلى الأمير، ثم حدث أن هذا الجندي كولباكوف سرق بعض الجلود من أحد زملائه قاصداً بيعها وإنفاق الثمن على الخمر. حسناً، وقد عنف الأمير ذلك الجندي بشدة، وهدد بجلده، وكان ذلك أمام السرجنت ميجور، والجاويش، حسناً. وعاد الجندي كولباكوف إلى المعسكر، ورقد على فراشه، وبعد ربع ساعة وُجد ميتاً. أنفهم، لقد كان الأمر عجباً غريباً يكاد يستحيل أن يتصوره أحد. ودفن كولباكوف في الوقت المناسب، وكتب الأمير تقريره، وحذف اسم المتوفى من سجل الجيش، أي تم كل شيء كما ينبغي، أليس كذلك؟ ولكن بعد ثلاثة أشهر تماماً، عُثر على كولباكوف، أثناء نوبة تفتيشية، حياً بالكتيبة الثالثة من اللواء الثاني مشاة بفرقة نوئوزمليانسكي، وكأنما لم يحدث شيء.

فقال الأمير في دهشة شديدة:

– ماذا؟!

– إنه لم يكن حادثاً، وإنما خطأ!

قالتها نينا ألكسندروفنا بسرعة وهي تنظر في قلق إلى الأمير، ثم أردفت قائلة بالفرنسية «زوجي يخطئ».

فقال الجنرال:

– من السهل يا عزيزتي أن تقولي هذا؟ ولكن هل تذكرين حالة كهذه إطلاقاً؟ لقد كنا جميعاً في أشد العجب والحيرة. وكان ينبغي أن أكون أول من يقول عن هذه الحالة إن الناس يخطئون، ولكنني لسوء الحظ كنت شاهد عيان، كما كنت عضو لجنة التحقيق. وقد أثبت كل شيء أنه حقاً هو نفس

الجندي كولباكوف الذي شيعت جنازته عسكريًا. إنها حالة عجيبة بطبيعة الحال، بل تكاد تكون مستحيلة الوقوع، فأنا أعترف بهذا ولكن..

وهنا قالت فارفارا وهي تطل برأسها من الباب:

- أبي، إن طعام عشائك جاهز.

- يسرني هذا جدًّا، فأني جائع أشد الجوع، نعم، نعم، كان حادثًا عجيبيًّا، بل يكاد يبلغ..

- إن حساءك سوف يبرد، أرجو أن تأتي.

فقال الجنرال:

- إنني آت، آت.

ثم راح يغمغم قائلاً وهو يمضي في الممر:

- ابن صديقي القديم..

وقالت نينا ألكسندروفنا:

- إذا كنت ستقيم معنا، فعليك أن تغفر لزوجي أشياء كثيرة. ولكنه لن يزعجك غالبًا، إنه يتناول طعام العشاء بمفرده، ولكل منا نقائمه وغرائبه القليلة كما تعلم، وربما يكون لبعض الناس من التصرفات الشاذة أكثر مما لدى أولئك الذين نشير إليهم ونسخر منهم. وأنا أرجو شيئًا واحدًا، إذا طلب إليك زوجي أجر إقامتك هنا، فقل له إنك دفعته لي، وبطبيعة الحال سنعتبر أي شيء يتعلق بك تدفعه للجنرال كأنه دُفع لي، ولكنني أرجو أن يكون الأمر كما قلت، إذا سمحت، من أجل النظام. ماذا يا فاريا؟

وكانت فاريا قد دخلت الغرفة بهدوء وهي ممسكة بصورة ناستاسيا

فيلبيونا لتعرضها على أمها.

وجفلت نينا ألكسندروفنا، وراحت تفحص الصورة بإمعان وهي تحدّق فيها بنظرات طويلة حزينة. وأخيراً نظرت في تساؤل إلى فاريا التي قالت:

- إنها هدية منها إليه، وسوف يتحدّد الأمر نهائياً في هذا المساء.

فقالت الأم في صوت يائس، ولكنه خافت كأنما تحدث نفسها:

- هذا المساء؟ إذن فقد تم إعداد كل شيء، وطبعاً لم يبق لنا أي أمل. لقد عبّرت عن إجابتها بإهدائها هذه الصورة.

ثم أضافت قائلة في شيء من الدهشة:

- هل أطلعك عليها بنفسه؟

- إنك تعرفين أننا تقريباً لم نتبادل الحديث طيلة شهر كامل. لقد أخبرني بيتسين عن كل شيء، وكانت الصورة ملقاة تحت المائدة فالتقطتها.

وسألت نينا ألكسندروفنا الأمير قائلة:

- أريد أن أسألك أيها الأمير: هل تعرف ابني منذ وقت طويل؟ أظنه قال إنك وصلت اليوم فقط من مكان ما.

وقدّم الأمير حديثاً موجزاً مما سمعناه من قبل، تاركاً الجانب الأكبر منه، وكانت السيدتان تنصتان إليه بانتباه، وأخيراً قالت الأم:

- إنني لم أسألك عن جانبا بدافع من الفضول. وإنما أحب أن أعرف مبلغ ما تعلم عنه؛ لأنه طلب منا ألا نعاملك بالرسميات. فما معنى هذا على وجه التحديد؟

وفي تلك اللحظة، دخل جانبا وبيتسين الغرفة معاً، وسرعان ما لزمت

نينا ألكسندروفنا الصمت مرة أخرى. وظل الأمير جالسًا بجوارها، ولكن فاريا تحركت إلى الطرف الآخر من الغرفة. وظلت صورة ناستاسيا فيليوفنا موضوعة على نضد العمل كما كانت من قبل. ولاحظ جانيا وجودها، فاختطفها بوجه مقطب، وقذف بها إلى مكتبه الموضوع في الجانب الآخر من الغرفة.

وقالت نينا ألكسندروفنا أخيرًا:

- سيتم اليوم يا جانيا؟

فهتف جانيا قائلاً:

- ماذا سيتم اليوم؟

ثم تمالك نفسه فجأة واستدار نحو الأمير بحدة ودمدم قائلاً:

- أوه، إنني أراك هنا، وهذا يفسر كل شيء، أهو مرض أم ماذا الذي يجعلك لا تمسك عليك لسانك. اسمع أيها الأمير، عليك أن تفهم للمرة الأخيرة..

وهنا قال بيتسين:

- إنني المعلوم يا جانيا في هذا، لا أحد غيري.

ونظر جانيا متسائلاً إلى المتحدث الذي أردف قائلاً:

- إن هذا أحسن كما تعرف يا جانيا، لا سيما وأن الأمر - من وجهة نظر واحدة - يعتبر منتهياً.

وجلس بيتسين على مسافة يسيرة من النضد وراح يقرأ ورقة مكتوبة بالقلم الرصاص.

ووقف جانبا مقطب الجبين وهو يتوقع زوبعة خلاف عائلي، ومع هذا لم يفكر قط في الاعتذار للأمير. وقالت نينا ألكسندروفنا:

- إذا كان كل شيء قد تم إعداده يا جانبا، إذن فإن المستر بيتسين على حق طبعًا. لا تقطب جبينك ولا حاجة بك إلى القلق يا جانبا، إنني لن أسألك عن شيء، ولست ملزمًا أن تقول لي شيئًا لا تحب أن تقوله. أؤكد لك أنني قد استسلمت تمامًا لرغبتك.

قالت هذا كله وهي تخطط ثوبًا طيلة الوقت وكأنما هي أشد ما تكون هدوءًا وثباتًا.

ودهش جانبا، ولكنه، بدافع الحرص، ظل صامتًا وهو ينظر إلى أمه آملًا أن تعبر عن خواطرها بمزيد من الوضوح. ولاحظت أمه هذا الحرص، فأضافت قائلة وهي تبتسم ابتسامة مُرّة:

- إنك ما زلت، كما أرى، مرتبًا، ولا تصدّقني. ولكن يمكنك أن تطمئن تمامًا. فلن يكون هناك مزيد من الدموع أو الأسئلة - من ناحيتي على كل حال إن كل ما أرجوه هو أن تكون سعيدًا، كما تعلم، لقد خضعت لمصيري، ولكن قلبي سيبقى دائمًا معك، سواء بقينا معًا هنا أو افترقنا، وطبعًا أنا أتحدث عن نفسي، ومن العسير أن تنتظر من أختك...

فهتف جانبا قائلاً وهو ينظر إلى أخته في احتقار وفيما يقرب من الكراهية:

- أختي مرة أخرى؟ اسمعي يا أماه، لقد تعهدت لك أن أظل محترمًا لك احترامًا كاملاً شاملاً، وكذلك سيكون كل شخص آخر أيًا كان ذلك الذي سيعبر عتبة الباب.

وهدأت نفس جانبا إلى حد جعله ينظر إلى والدته بما يقرب من الحب الشديد.

أما هي فقالت:

- إنني لا أخشى على نفسي من شيء أبداً يا جانبا، كما تعلم جيداً. إنني لم أشعر بكل هذا القلق وكل هذا الانزعاج طيلة هذا الوقت كله من أجل نفسي، إنهم يقولون إن الأمر سيتم اليوم، فما ذلك الذي سيتم؟
فأجاب جانبا قائلاً:

- لقد وعدت أن تخبرني الليلة، في بيتها، هل توافق أم لا.
وقالت الأم:

- لقد لزمنا الصمت عن هذا الموضوع ثلاثة أسابيع تقريباً، وخيراً فعلنا، والآن أريد أن ألقى عليك سؤالاً واحداً: كيف يمكن أن تعرب عن موافقتها وتهديك صورتها وأنت لا تحبها، كيف يمكن أن تخدع مثل... مثل...
- مثل هذه المرأة المجربة، أليس هذا ما تعنيه؟
- إنني لم أكن سأعرب عن أفكارى هكذا، ولكن، كيف يمكنك أن تخدعني هكذا؟

وكان سؤال نينا ألكسندروفنا ينم عن الاستياء الشديد، وانتظر جانبا برهة ثم قال دون أن يحاول إخفاء رنين التهكم من صوته:

- ها أنت ذي يا أماء، هكذا دائماً. تبدئين بالوعد ألا تعاتبي أو تلقي أسئلة محرجة، ثم إذا بك تفعلين هذا فوراً. ويحسن بنا أن نهمل هذا الموضوع. نعم. حقاً، إنني لن أتخلى عنك أبداً يا أماء. وإن أي شخص آخر كان ينتهز

الفرصة ويهرب من أخت كهذه. انظري كيف تحدد في وجهي الآن؟ وعدا هذا كيف عرفت أنني أخدع ناستاسيا فيليبونا؟ أما عن فاريا، فأنا لا أهتم بأمرها، فيمكنها أن تفعل ما تشاء، حسناً، أيكفي هذا؟!

وكان توتر أعصاب جانيا يزداد مع كل كلمة ينطق بها وهو يروح ويجيء في الغرفة. وكانت هذه المحادثات تنكأ جروح الأسرة منذ فترة طويلة.

وقالت فاريا:

- لقد سبق أن قلت إن اللحظة التي ستدخل هي فيها البيت، سأخرج أنا، وسوف أنفذ قولي.

فهتف جانيا قائلاً:

- كل هذا عناد منك، وأنت لم تتزوجي أيضاً حتى الآن بسبب هذا العناد. أوه، لا داعي لأن تتجهمي في وجهي يا فاريا. ويمكنك أن تخرجي الآن إذا شئت. فأنا قد ضقت ذرعاً بصحبتك. ماذا؟ أذهب أنت أيضاً أيها الأمير؟

هتف جانيا بذلك وهو يستدير نحو الأمير الذي كان ينهض عن مقعده. وكان صوته مفعماً بأشد ما يمكن أن يكون من التوتر العصبي.

واستدار الأمير عند الباب ليقول شيئاً، ولكنه حين رأى في ملامح جانيا أن أية قطرة في إناء غضبه ستجعله يفيض، غير رأيه وغادر الغرفة دون أن ينطق بكلمة. وبعد لحظات أدرك من الأصوات المرتفعة في غرفة الجلوس، أن المناقشة ازدادت حدة عما كانت قبل انصرافه.

وعبر «الصالون» وردة المدخل ليمضي في الممر المؤدي إلى غرفته، وبينما هو يقترب من باب المسكن، سمع في خارجه شخصاً يحاول - عبثاً -

أن يدق الجرس الذي كان يبدو مختلاً، فلم يهتز إلا قليلاً دون أن يحدث رنيناً.

ورفع الأمير السلسلة وفتح الباب، ثم جفل مترجعاً في دهشة، لأنه رأى ناستاسيا فيليبونا واقفة أمامه. لقد عرفها فوراً من صورتها، وكان الشرر يتطاير من عينيها وهي تنظر إليه. وسرعان ما مرقت بجانبه إلى الردهة بعد أن نحّته عن طريقها بكتفها، قائلة، بغضب شديد، وهي ترفع عنها معطفها الفراء:

- إذا كنت أكسل من أن تصلح جرس بابك، فكان الواجب عليك، على الأقل أن تنتظر في الردهة لتدخل القادمين عندما يشدون قبضة الجرس. آه، ها قد أسقط معطفي الفراء، الأحمق..

وكان المعطف واقفاً على الأرض فعلاً. ذلك أن ناستاسيا كانت قد قذفت به إلى الأمير متوقعة أن يلقيه، ولكنه أخطأ التقاطه.

وقالت هي:

- والآن، أسرع وأعلن حضوري، يجب أن يطردوك.

وأراد الأمير أن يقول شيئاً، ولكنه لم يستطع بسبب ارتبائه ودهشته.

وعلى أية حال تحرك نحو غرفة الجلوس والمعطف على ذراعه.

وقالت ناستاسيا:

- إلى أين ستمضي بمعطفي؟ ها ها ها؟ هل أنت مجنون؟

واستدار الأمير، وعاد، وهو أكثر ارتباكاً عن ذي قبل، ولما انفجرت ضاحكة، ابتسم، ولكن لسانه لم يستطع أن ينطق بكلمة. فعندما فتح الباب في أول الأمر وراها واقفة أمامه، شحب وجهه حتى أصبح كوجوه الموتى،

أما الآن، فقد ارتفعت الدماء إلى وجنتيه غزيرة.

وهتفت ناستاسيا وهي تدق الأرض بقدمها في توفز عصبي:

- ما هذا؟ أي أبله هذا؟ اذهب، من التي ستعلن حضورها؟

فغمغم الأمير قائلاً:

- ناستاسيا فيليوفنا.

فقالت بحدة:

- كيف عرفت هذا؟! إنني لم أرك من قبل؟ اذهب، وأعلن حضوري،

ما هذا الضجيج؟

فقال الأمير:

- إنهم يتشاجرون.

ثم دخل غرفة الجلوس حيث كانت الأمور قد بلغت ذروتها من السوء. وكانت نينا ألكسندروفنا قد نسيت أنها «استسلمت» لكل شيء. وراحت تدافع عن فاريا. وكان بيتسين يقف في جانبها أيضاً. ولا يعني هذا أن فاريا لم تكن قادرة على الدفاع عن نفسها. فإنها لم تكن أبداً من هذا النوع من الفتيات. ولكن أخاها كان يزداد كل لحظة خشونة وفضاظة إلى حد لا يطاق. وكانت عاداتها في مثل هذه الأحوال ألا تقول شيئاً، وإنما أخذت تحمق فيه دون أن تحول عينها عن وجهه لحظة. وكانت هذه الخطة - كما تعلم جيداً - كفيلة بتشتيت ذهن جانبا وإثارة ارتباكها.

وفي تلك اللحظة فقط فتح الباب ودخل الأمير معلناً حضوره:

- ناستاسيا فيليوفنا.

الفصل التاسع

وخيم الصمت المطبق على الغرفة في الحال وتطلع الجميع إلى الأمير كأنما لا يفهمون، أو كأنما لا يريدون أن يفهموا. أما جانيا، فقد جمد في مكانه فزعًا.

لقد كان مجيء ناستاسيا حدثًا مفاجئًا مذهلاً للجميع. فهي، أولاً، لم يسبق لها أن زارتهم. إذ كانت حتى ذلك الحين مترفعة بحيث لم تطلب من جانيا يومًا أن يقدمها إلى والديه. بل كانت في الأيام الأخيرة لا تكاد تذكرهما. وكان جانيا سعيدًا لهذا من ناحية، ولكنه وضع موقفها هذا في «الحساب» الذي سيسوى بعد الزواج.

كان على استعداد لأن يحتمل أي شيء منها إلا هذه الزيارة. ولكن شيئًا واحدًا بدا له جد واضح - وهو القرار الذي تنوي أن تتخذه من هذه الزيارة وبعد إهدائها إياه صورتها في هذا اليوم بالذات.

ولم تستمر نظرات الدهشة البالغة التي وجهها الجميع إلى الأمير فترة طويلة، ذلك لأن ناستاسيا نفسها لم تلبث أن ظهرت بالباب، ثم تقدمت إلى الغرفة منحية الأمير عن طريقها.

وقالت في مرح وهي تضغط على يد جانيا الذي اندفع إليها بمجرد ظهورها:

- أخيراً اقتحمت الحصن! لماذا تربط جرس بابك! ولماذا تبدو مرتبكاً؟ أرجوك أن تقدمني.

وقدمها جانبا المرتبك أولاً إلى فاريا. وقبل أن تتصافح الاثنان، تبادلتا نظرات غريبة الدلالة. ولكن ناستاسيا، على أية حال، ابتسمت في تلفظ أما فاريا فلم تحاول أن تبدو هكذا، وإنما بقيت مقطبة الجبين. بل إنها لم تحاول حتى أن تبسم من باب اللياقة وآداب السلوك. وألقى عليها جانبا- بسبب هذا الموقف- نظرة رهيبة غامضة، ولكن والدته نينا ألكسندروفنا أصلحت الأمر عندما قدمها أخيراً. ولكن ما كادت السيدة العجوز تبدأ في عبارات المودة والترحيب حتى انصرفت ناستاسيا عنها، وألقت بنفسها على مقعد بجانب جانبا في ركن عند النافذة وهتفت قائلة:

- أين غرفة مكتبك، وأين... النزلاء، إن لديكم نزلاء بالأجر، أليس كذلك؟

وبدا جانبا أشد ما يكون حرجاً، وحاول أن يرد عليها بشيء، ولكن ناستاسيا قاطعته قائلة:

- عجباً! أين يمكنكم أن تحضروا النزلاء هنا؟ أليست لديك غرفة مكتب؟

ثم التفتت إلى نينا ألكسندروفنا وأردفت قائلة:

- هل تربحون من تأجير الغرف المفروشة؟

فقالت نينا:

- إنها عملية مرهقة، ولكنها، على ما أعتقد، ستدر ربحاً وثيراً. ونحن على كل حال في أول الأمر..

ومرة أخرى لم تنتظر ناستاسيا فيليوفنا أن تسمع بقية الحديث، وإنما نظرت إلى جانيا وهتفت ضاحكة:

- ما أطرف منظرك يا عزيزي؟ يا إلهي! ما أطرف منظر وجهك في هذه اللحظة!

والواقع أن جانيا لم يكن بأية حال في سمته الطبيعي. ذلك أن مظاهر ارتبাকে وحرجه الشديد قد تحولت إلى غضب شديد ينم عنه اختلاج شفتيه وهو يمعن النظر شزراً، إلى ضيفته الضاحكة، بينما كان وجهه قد اربد تماماً. وكان ثمة شاهد آخر استطاع أن يلمح - رغم وقوفه بالباب في سكون ودهشة - امتقاع وجه جانيا، والتغير الرهيب الذي شاع فيه. هذا الشاهد كان الأمير الذي تقدم الآن في قلق إلى جانيا وتمتم له قائلاً:

- اشرب قليلاً من الماء، وتمالك نفسك.

وكان من الواضح أنه قال هذا بلا غرض ذاتي، وإنما عفو الخاطر. ولكن النتائج التي ترتبت كانت كثيرة.. فقد وضح أن غضب جانيا قد انصب كله الآن على الأمير، فأمسك به من كتفيه، وحملق فيه ببغضاء واشمئزاز، ولكنه لم يقل شيئاً، وكأنما كانت انفعالاته أقوى من أن تسمح له بالكلام.

وشاع في الغرفة الاضطراب العام، إذ ندت عن شفتي نينا ألكسندروفنا صيحة قلق خافتة، وتقدم بيتسين خطوة إلى الأمام في جزع. جمد كل من كوليا وفيردشنكو عند الباب دهشين. ولم يكن غير فاريا هي التي بقيت تراقب المنظر بهدوء من تحت أهدابها. إنها لم تجلس، وإنما وقفت بجانب أمها، عاقدة ذراعيها، أما جانيا فقد تمالك نفسه بسرعة، ورفع يديه عن الأمير وانفجر ضاحكاً ثم قال بصوت حاول أن يجعله طبيعياً بقدر الإمكان:

- عجباً! أطيب أنت أيها الأمير، أم ماذا؟ أعترف أنك أفرغتني. ناستاسيا فيليوفا، دعيني أقدم لك هذه الشخصية الشائقة، وإن كنت لم أعرف عليه إلا في هذا الصباح.

وحملت ناستاسيا إلى الأمير في دهشة، ثم قالت:

- أمير!! أهو أمير؟ عجباً! لقد ظننته منذ لحظات خادماً وطلبت إليه أن يعلن حضوري. ها، ها ها، أليس هذا ظريفاً!

وهنا قال فيردشنكو:

- لا بأس. لا بأس إطلاقاً.

وعادت ناستاسيا تقول:

- لقد كدت أعنفك أيضاً؟ أليس كذلك؟ أرجوك المعذرة!

ثم أردفت قائلة لجانيا:

- من هو؟ ماذا؟ الأمير ميشكين؟

وقال جانيا موضعاً:

- إنه أحد نزلائنا.

- أبله!

وسمع الأمير هذه الكلمة تنطلق بوضوح في همس وراء ظهره. وأدرك أن فيردشنكو تطوع بها كمزيد من المعلومات لناستاسيا التي استطردت قائلة وهي تفحص الأمير من رأسه إلى قدمه بدون أدنى تقدير لأداب السلوك:

- أخبرني لماذا لم تصح لي الأمر عندما ارتكبت في حقك هذا الخطأ الشنيع؟

وانتظرت إجابته وكأنها موقنة بأنها ستكون إجابة حمقاء تجعلها لا

تملك نفسها من الانفجار بالضحك منها.

وغمغم الأمير قائلاً:

- كنت قد دهشت حين رأيتك فجأة..

- وكيف عرفت من أنا؟ وأين رأيتني من قبل؟ ولماذا ذهلت عندما رأيتني؟ ما الذي أذهلك عندئذ؟

وهنا صاح فيردشككو:

- أوهو، هو، هو؟ والآن أيها الأمير، صدقني، ما أكثر ما يمكن أن أقول لو أتيتحت لي فرصة كهذه. هلم أيها الأمير، بحق الله.

وضحك الأمير قائلاً لفردشككو:

- وكذلك أنا، لو كنت في موضعك، بلا شك.

ثم استطرد يقول مخاطباً ناستاسيا.

- لقد أذهلتني صورتك في هذا الصباح. ثم تحدثت عنك مع آل إيبانشين. وقبل هذا، وأنا في القطار قبيل وصولي إلى محطة بطرسبرج، أخبرني بارفين روجوجين بالشيء الكثير عنك، وحدث في نفس اللحظة التي فتحت لك فيها الباب أنني كنت أفكر فيك، ثم إذا بك تقفين أمامي..

- وكيف عرفتني؟

- من الصورة.

وماذا أيضاً؟

- بدا لي أنني كنت أتخيلك تماماً كما أنت، ويلوح لي أنني رأيتك من قبل.

- أين؟ أين؟

- يخيل لي أنني رأيت عينيك في مكان ما. ولكن هذا غير ممكن. إنني لم أرك قط من قبل. ربما حلمت بك، فأنا لا أدري.

قال الأمير هذا بجهد واضح، وبعبارات متقطعة، وبأنفاس ممطوطة، وكان يبدو بوضوح أنه شديد الانفعال. ونظرت ناستاسيا إليه نظرة فاحصة. ولكنها لم تضحك.

- مرحي أيها الأمير!

وفي تلك اللحظة ارتفع صوت وراء الواقفين حول الأمير وناستاسيا، ثم شق طريقه بينهم، ووقف أمامهم رب الأسرة الجنرال إيفولجين. وكان مرتدياً ملابس المساء، مصبوغ الشارب.

وكان هذا أكثر مما يحتمل جانبا الذي كان رغم غروره ومطامحه التي تبلغ حد الاعتلال، قد احتمل الشيء الكثير خلال الشهرين الأخيرين، ملتصقا في الوقت نفسه بكل قواه بعض الوسائل التي تتيح له حسن الظهور في المجتمع. أما في البيت فكان يتخذ مظهر عدم الاكتراث التام، إلا أنه لم يستطع أن يلتزم هذا المظهر أمام ناستاسيا فيليبوفنا رغم أنه أقسم أن يجعلها تدفع غالبا بعد الزواج ثمن كل ما يعانيه الآن - وكان في تلك اللحظة يعاني آخر مرحلة من المذلة والهوان، بل أمرها جميعا؛ إنها مرحلة الخجل من أفراد أسرته داخل بيته. وفجأة خطر بذهنه هذا السؤال: هل الأمر يستدعي كل هذا العناء؟

ذلك لأن الذي حدث تلك اللحظة، كان كابوسا ظل يثقل عليه مدى شهرين، وشيئا ظل يملأ نفسه بالخوف والعار.. وهو اللقاء بين أبيه وبين ناستاسيا فيليبوفنا. لقد حاول كثيرا أن يتصور هذا الحدث، ولكنه كان دائما يجد الصورة مزعجة مؤلمة، فيلجأ إلى إغفالها. ومن المحتمل جدا أنه كان يتوقع أشياء أسوأ كثيرا مما ينبغي. فهكذا الشأن عامة مع المغرورين. ومن

ثم كان قد قرر منذ فترة طويلة أن يبعد أباه من الطريق إلى أي مكان، قبل الزواج، وذلك حتى يتجنب مثل هذا اللقاء. ولكن عندما دخلت ناستاسيا الغرفة الآن، كان من الدهشة والذهول بحيث لم يفكر في أبيه، فلم يتخذ من الترتيبات ما يجعله بعيداً عن الموقف. أما الآن، فقد فات الأوان - وها هو ذا والده، في معطف المساء، والعناقة البيضاء وناستاسيا في الحالة النفسية المرحية التي تتيح لها صب سخريتها عليه وعلى محيط أسرته. وكان بهذه الحقيقة الأخيرة جد مقتنع، وإلا فلأي غرض آخر جاءت؟ فهذا هما أمه وأخته جالستان أمامها. ولكن يبدو أنها نسيت وجودهما تمامًا. فإذا كانت قد تصرفت هكذا، فلا بد أن لديها - كما خطر له - هدفًا معينًا.

وقاد فيردشنيكو الجنرال إلى ناستاسيا حيث قال لها وهو يتسم وينحني انحناءة تنم عن وقار بالغ:

- أورداليون ألكسندروفيتش إيفولجين، جندي قديم، لسوء الحظ، ورب هذه الأسرة، ولكنني سعيد إذ أضم إليها إنسانة على مثل هذا..

ولم يتم عبارته؛ لأن فيردشنيكو في تلك اللحظة، دفع بمقعد من الخلف ليجلس عليه الجنرال الذي لم يكن ثابتاً تمامًا على ساقيه، بعد العشاء والشراب مباشرة، فانهار.. جالسًا عليه. ولكن كان من العسير أن تسبب الارتباك لذلك المحارب القديم، ومن ثم فإن هذا الانهيار المفاجئ على المقعد لم يؤثر في سيطرته على نفسه. وهكذا جلس في مواجهة ناستاسيا التي تناول أصابعها عندئذ ورفعها إلى شفثيه في رشاقة رائعة ولباقة ملحوظة. وكان الجنرال متميماً إلى وسط من أرقى الأوساط الاجتماعية، ولكنه طُرد منذ عامين أو ثلاثة بسبب إسرافه في شرب الخمر، وقد اندفع في هذا الإسراف بعد ذلك بلا قيد أو حد. ولكنه ظل محتفظاً بآداب السلوك

حتى الآن ورغم كل شيء.

ولاح أن ناستاسيا فيليوفا قد ابتهجت لظهور هذا الوافد الجديد الذي سمعت - ولا شك - عنه الشيء الكثير من قبل.

وبدأ أرداليون ألكسندروفيتش الحديث بقوله:

- لقد سمعت أن ابني ..

- أحمقاً؟ ابنك؟ يا لك من أب لطيف؟ أما كان في مقدورك أن تأتي لزيارتي دون أن نعرض أحداً للهوان؟ هل كنت تخفي نفسك أم أن ابنك كان يخفيك؟

ومرة أخرى بدأ الجنرال يقول:

- إن أبناء القرن التاسع عشر وآباءهم ..

وهنا قطعت نينا ألكسندروفنا المحادثة قائلة بصوت مرتفع:

- ناستاسيا فيليوفا، هل تأذنين للجنرال بالانصراف لحظة واحدة. إن شخصاً ما يسأل عنه.

- آذن له! أوه، لا! لقد تمنيت طويلاً أن ألتقي به. أي عمل هذا الذي يشغله؟ ألم يعتزل العمل! أليس كذلك. إنك لن تنصرف عني يا جنرال، أرجوك!

- أتعهد لك بأن يعود ويراك - ولكنه الآن في حاجة إلى - إلى الراحة.

فقال ناستاسيا في اكتئاب الطفل الذي تؤخذ منه لعبته:

- يقولون يا جنرال إنك محتاج إلى الراحة؟

وسرعان ما بذل أرداليون ألكسندروفيتش كل جهده ليزيد موقفه الأخرق سوءاً على سوء، فقال بلهجة جادة عاتبة وهو ينظر إلى زوجته

واضعاً يده على قلبه:

- يا عزيزتي، يا عزيزتي!

وقالت فاريا بصوت مرتفع:

- ألا تغادرين الغرفة يا أماه؟

- لا يا فاريا، لسوف أبقى حتى النهاية.

ولا شك أن ناستاسيا سمعت السؤال والإجابة. ولكن مرحها لم يكن قد زایلها بأية حال. بل على النقيض، لقد بدا أنه ازداد. ومن ثم بادرت بإغراق الجنرال مرة أخرى بفيض من أسئلتها، وفي أقل من خمس دقائق كان صاحبنا سعيداً كملك، مجيباً عن الأسئلة بأعلى صوته، مثيراً ضحك جميع من في الغرفة تقريباً.

ولكز كوليا ذراع الأمير وقال له ودموع الاستياء تظفر من عينيه:

- ألا تستطيع أن تخرجه من الغرفة بأية وسيلة. أرجوك أن تفعل.

ثم غمغم بين أسنانه قائلاً:

- اللعنة على جانبا هذا!

وكان الجنرال إيفولجين يقول في تلك اللحظة:

- أوه، نعم، كنت أعرف الجنرال إيبانشين تمامًا. هو والأمير نيكولا ي

إيفانوفيتش ميشكين - الذي عانقت اليوم ابنه بعد غيبة عشرين عاماً - وكنا نحن الثلاثة لا نفترق، ولكن وأسفاه! إن أحدنا الآن في القبر ممزق بالوشايات والرصاص، والثاني أمامكن الآن لا يزال يكافح الوشايات والرصاص.

فهتفت ناستاسيا قائلة: الرصاص؟

- نعم، إنها هنا في صدري يا سيدتي. لقد أصبت بها في حصار فارس

وأشعر بأوجاعها أثناء الجو البارد. وأنا أعيش في كل حالة كفيلسوف. فأنا أذهب في كل مكان، وأتمشى وأقرأ وألعب الورق في المقهى مع رجال الأعمال المتقاعدين، أما عن ثالثنا إيبانشين، فإن ما حدث للأسف بيني وبينه بسبب الكلب المدلل بمركبة السكة الحديد، قد قطع كل ما بيننا بطبيعة الحال. فقلت ناستاسيا في تفكير وكأنما تحاول أن تتذكر شيئاً:

- الكلب المدلل؟ ماذا كان؟ وفي مركبة قطار؟ ويحي!
- أوه، نعم. كانت مسألة بسيطة حمقاء لا تستحق الذكر. وكانت بخصوص وصيفة الأميرة بيلوكوفسكي، الأنسة سميث- وهي حقاً لا تستحق الذكر.

فصاحت ناستاسيا قائلة في مرح:

- لا، لا، يجب أن نسمعها.

وقال فيردشنكو:

- نعم، طبعاً؛ لأنني لم أسمعها أيضاً.

وقالت نينا ألكسندروفيتش في رجاء:

- أورداليون!

وصاح كوليا:

- هناك من يريدك يا أبي.

ولكن الجنرال المبتهج بدأ في الحديث قائلاً:

- حسناً! إنها قصة صغيرة حمقاء يمكن إيجازها في كلمات معدودة، فمنذ عامين، أي عقب افتتاح الخط الحديدي الجديد مباشرة، كان عليّ أن

أذهب هنا أو هناك لبعض أعمالي. حسنًا. وحجزت تذكرة في مقصورة الدرجة الأولى حيث جلست وبدأت أدخن، أو على الأصح، استأنفت التدخين، إذ كنت قد أشعلت سيجاري من قبل وكنت بمفردي، ولم يكن التدخين مباحًا، ولا ممنوعًا أيضًا، وإنما الأمر نصف نصف أو هو مباح في بعض الأحيان - وكانت النافذة مفتوحة.

وفجأة، وقبل انطلاق الصفارة «المؤذنة بتحريك القطار» أقبلت سيدتان ومعهما كلب من النوع الصغير المدلل، وجلستا قبالي، ولم تكونا قبيحتي الشكل: إحداهما كانت ترتدي ثوبًا ذا زرقة خفيفة، والأخرى ترتدي ثوبًا من الحرير الأسود، وكان الكلب المدلل قطعة من الجمال له طوق من الفراء الفضي، وكان جالسًا على ركبتَي ذات الثوب الخفيف الزرقة. وكانتا مترفعتي السم، تتبادلان الحديث باللغة الإنجليزية. ولم أحفل بهما، وإنما مضيت في التدخين. ثم لاحظت أن السيدتين بدأتا بغضبان - بسبب سيجاري ولا شك. ونظرت إحداهما إليّ من خلال عدستها ذات الإطار الصدفي، ولكنني بقيت غير حافل بهما؛ لأنهما لم تلفظا بكلمة. فلو كانتا لا تطيقان السيجار، فلماذا لا تقولان هذا؟ لا كلام ولا تلميح! وفجأة، وبدون أدنى تحذير أو إنذار، أمسكت ذات الثوب الخفيف الزرقة السيجار من بين أصابعي، وقذفت به من النافذة. حسنًا! واستمر القطار في انطلاقه، وجلست أنا ذاهلاً، وأخذت السيدة الشابة، الطويلة الشقراء، المضطربة الوجه، جدًّا، تحملق إليّ بعينين غاضبتين.

ولم ألفظ بكلمة، ولكن في مقدوري القول إنني مددت يدي بكل لباقة واحترام وأدب وفرقت بأصابعي للكلب الصغير المدلل، ثم تناولته برفق من فراء عنقه، وألقيت به من النافذة وراء السيجار، واستمر القطار في

انطلاقه، وتلاشت صيحات الكلب في الهواء.

وهنا هتفت ناستاسيا وهي تضحك وتصفق بيديها كطفل:

- أوه، أيها الرجل المشاغب!

وصاح فيردشنيكو:

- مرحى!

وابتسم بيتسين رغم أنه أسف حين رأى الجنرال يقبل. حتى كوليا، ضحك قائلاً - مرحى يا أبي.

وصاح الجنرال قائلاً في حماسة وجد:

- كنت على حق، على حق تام؛ لأنه إذا كان تدخين السيجار ممنوعاً في مركبات السكك الحديدية، فإن حمل الكلاب الصغيرة ممنوع أيضاً بوجه خاص.

وسألت ناستاسيا بلهفة:

- حسناً، وماذا فعلت السيدة؟

فأجاب الجنرال إيفولجين بجين مقطب:

- آه، ها هنا يكمن أسوأ ما في الأمر. فبدون كلمة تحذير، كالمعتاد، صفعتني على وجهي. نعم يا آنسة، كانت امرأة وحشية الطباع.

- وأنت!

وأغضى الجنرال بعينه، ورفع حاجبيه، وهز كتفيه، وزم شفتيه، وبسط يديه، وظل صامتاً، وأخيراً قال فجأة:

- فقدت السيطرة على أعصابي.

- هل صفعتها؟

- أوه، لا، لا، لقد حدثت ضجة كبرى، ولكنني لم أضربها، بل كان علي أن أبذل جهدي لمجرد الدفاع عن نفسي. ولكن الشيطان نفسه كان في قلب المعركة. وقد ظهر أن ذات الثوب الخفيف الزرقة هي سيدة إنجليزية، وصيفة أو شيء من هذا القبيل عند الأميرة بيلوكوفسكي، وأن الثانية إحدى بنات الأميرة العانسات. حسنًا، وكلنا نعرف مدى صداقة المسز إيبانشين مع الأميرة. وهكذا وجدت نفسي في مأزق حرج. لقد لبست أميرات بيلوكوفسكي جميعًا الحداد على الكلب المدلل، وذرفت ست أميرات الدمع عليه، وتولت السيدة الإنجليزية مهمة العويل والصياح وكتبت أعذار بطبيعة الحال، وحاولت أن أقوم بزيارة قصر الأميرة، ولكنهن لم يقبلن اعتذاري أو استقبالي، وكذلك قاطعني آل إيبانشين أيضًا.

وقالت ناستاسيا:

- ولكن انتظر. كيف حدث منذ خمسة أو ستة أيام أنني قرأت في جريدة «أندنيديانس» وأنا من العاكفين على قراءة هذه الجريدة - هذه القصة نفسها في الصحف على أنها وقعت بين رجل فرنسي وفتاة إنجليزية، وقد حدثت في سكة حديد الراين. لقد اختطف السيجار تمامًا كما وصفت، ثم أُلقي بالكلب المدلل وراءه بعد ذلك، ثم حدث الصفع أيضًا كما هو الحال معك، وكان لون ثوب الفتاة أزرق خفيفًا!

واحمر وجه الجنرال بشكل فظيع، وكذلك احمر وجه كوليا. وأسرع بيتسين وأشاح بوجهه، وكان فيردشنكو الوحيد الذي ضحك مرًا كما فعل من قبل. أما جانبا، فلا حاجة إلى القول إنه كان تعسًا، فقد وقف مذهولًا بئسًا لا يكاد يشعر بأحد.

وقال الجنرال:

- أؤكد لك أن هذا ما حدث لي على وجه التحديد.

وقال كوليا:

- إنني أذكر أنه حدث بعض النزاع بين أبي والآنسة سميث وصيفة آل بيلوكوفسكي.

فاستطردت ناستاسيا قائلة بلا رحمة:

- ما أعجب أن يقع حادثان متشابهان تمامًا في طرفين مختلفين من أوروبا؟! حتى الثوب الخفيف الزرقة. يجب أن أرسل إليك الصحيفة.

فقال الجنرال بإصرار:

- ينبغي أن تلاحظي أن ما حدث لي كان منذ سنتين!

وضحكت ناستاسيا بعصبية وقالت:

- آه، في ذاك الوقت، بلا شك.

وهنا قال جانبا بصوت يرتعد انفعالا وهو يمسك بكتفي أبيه، وعينه تتوهجان بالحق:

- أبي، هل تسمع كلمة من في الخارج!

وفي تلك اللحظة، سمع الجميع دويًا هائلًا بالبواب الخارجي كان يكفي لأن يحطمه. لا شك أن زائرًا غير عادي قد وصل. وأسرع كوليا ليفتح الباب.



الفصل العاشر

وامتلأت ردهة المدخل فجأة بالضجيج والأصوات. ويمكن الحكم من الأصوات التي نفذت إلى غرفة الجلوس، بأن عددًا من الناس قد دخلوا المسكن فعلاً، وأن وقع أقدامهم لا يزال مستمرًا. وكان ثمة عدد من الأصوات تتحدث وتتصايح في وقت واحد، وغيرهم كانوا يتحدثون ويصيحون على السلم خارج المسكن، وكان الواضح أنها زيارة جد غريبة عجيبة تلك التي توشك أن تتم.

وتبادل الجميع نظرات الدهشة. واندفع جانبا في طريقه إلى خارج غرفة الجلوس، ولكن عددًا من الرجال كانوا قد وصلوا إليها والتقوا به.

وهتف رجل بصوت عرفه الأمير فورًا قائلاً:

- ها هو ذا يهوذا! كيف حالك أيها الوغد العجوز!

وقال آخر:

- نعم، إنه هو بنفسه.

ولم يعد ثمة مجال للشك في رأي الأمير، فأحد الصوتين كان صوت روجوجين والثاني صوت ليبيديف.

وقف جانبا عند الباب كالصنم، ينظر في صمت، دون أن يعترض طريق الداخلين الذين بلغ عددهم عشرة أو اثني عشر رجلاً تقدموا وراء بارفين روجوجين وكانوا بلا شك مجموعة مختلفة الأشكال، بعضهم أقبلوا بمعاطفهم وقلنسواتهم المصنوعة من الفراء. ولم يكن بينهم أحد مخمورًا تمامًا، ولكنهم كانوا جميعًا مهتاجي المشاعر إلى حد كبير.

وبدا عليهم أن كلاً منهم كان في حاجة إلى مؤازرة الآخر له، معنوياً.. قبل أن يجرؤ على الدخول. أي لم يكن في مقدور أحدهم أن يدخل بمفرده، أما مع الباقين، فكل منهم شجاع حقاً! حتى روجوجين، فقد أقبل في حذر يتقدم صفه ولكنه كان كما يبدو مهموماً؛ إذ كانت مظاهر الكآبة والأسى تلوح عليه، ومن الواضح أنه جاء لهدف معين، أما الباقون، فكانوا مجرد أنصار جيء بهم لتأييد الشخصية الرئيسية، وعدا لبيديف، كان بينهم زاليشوف، المتأنق، الذي أقبل بلا معطف أو قبعة، واثنان أو ثلاثة حذوا حذوه، أما الباقون فكانوا أكثر شذوذاً واستهتاراً وكان بينهم اثنان أو ثلاثة يبدو أنهم من أبناء التجار الناجحين، ورجل في معطف رمادي، وطالب طب، وبولندي قصير، ورجل بدين ممتلئ كان لا يكف عن الضحك، ورجل فارغ الطول، قوي السميت، يبدو أنه يثق أشد الثقة بقوة قبضتيه، و«سيدتان» من طراز ما، كانتا تطلان برأسيهما من الباب دون أن تجرؤا على الدخول، وقد صفق كوليا الباب في وجهيهما وأغلقه بالمفتاح.

وقال روجوجين وهو يتقدم داخل الغرفة ويقف أمام جانبا:

- ها، جانبا، أيها الكلب القذر! إنك لم تكن تتوقع رؤية روجوجين.

ولكنه في تلك اللحظة رأى ناستاسيا جالسة أمامه. وبدا بوضوح أنه لم يكن يحلم برؤيتها هنا؛ لأن ظهورها أمامه ترك فيه أثراً بالغاً، فإذا وجهه

يتمتع، والزرقة تلون شفثفه.

وغمغم قائلاً لنفسه وقد ارتسم الأس على وجهه:

- إذن فالأمر حقيقة كما أرى؟ ومن ثم فهذه هي النهاية.

ثم استطرد فجأة قائلاً لجانيا وهو يحملق فيه شزراً:

- والآن يا سيدي، سأجعلك تدفع ثمن هذا! آه معلون!

ولمشت أنفاسه، وغدا لا يكاد يقوى على الحديث من فرط الانفعال، ثم تقدم داخل الغرفة بطريقة آلية. ولكنه حين لمح نينا ألكسندروفنا وفاريا ازداد ارتباكاً رغم انفعاله. ودخل أنصاره وراءه، ولكنهم توقفوا عند رؤيتهم للسيدات. ولكن حسن مسلكتهم هذا ما كان ليستمز طويلاً، فلو أن أحدهم بدأ في الهماف، فلن تستطيع قوة في الأرض أن توقفهم عند حدهم.

وقال روجوجين للأمير في شيء من شروء الذهن ولكن في دهشة قليلة أيضاً:

- عجباً! أنت هنا أيضاً أيها الأمير! وبهذاك نفسك!

وتنهء قليلاً ثم نسي الأمير في اللحظة التالية، وتحول بنظراته الشاردة إلى ناستاسيا مرة أخرى، كأنما تنجذب عيناه إلى هذه الناحية بقوة مغناطيسية. ورنـت ناستاسيا إلى الوافء الجديد في دهشة شديدة. أما جانيا، فقد جمع نفسه أخيراً وقال بصوت مرتفع:

- معذرة أيها السادة! ولكن ما معنى هذا كله؟

وكان يحملق في المجموعة وهي تتقدم بوجه عام، ولكنه كان يوجه الحديث خاصة إلى كبيرهم روجوجين. وقد أردف قائلاً:

- إنكم لستم في مريط خيل أيها السادة، وإن كنتم قد تظنون هذا.. إن أمي وأختي حاضرتان.

وغمغم روجوجين بين أسنانه:

- نعم، إنني أرى أمك وأختك.

ويبدو أن لبيديف أحس أن عليه أن يؤيد هذا الرأي. ولكن جانبا قال وقد تجاوز غضبه نطاق كلماته، إذ قال:

- على أية حال يجب أن أرجوكم المضي معي إلى غرفة الاستقبال، وعندئذ سوف أستفسر..

وقال روجوجين وهو يكشر عن أسنانه:

- عجباً! إنه لا يعرفني؟ إنه لا يعرف روجوجين!

ولم يتزحزح عن مكانه خطوة.

- أعتقد أنني التقيت بك في مكان ما، ولكن...

- التقيت بي في مكان ما، هه! عجباً! إنني منذ ثلاثة أشهر فقط خسرت مائتي روبل من مال أبي وأنا ألعب الورق معك، وقد مات أبي قبل أن يكتشف الأمر. وإن بيتسين يعرف هذا الموضوع كله. عجباً! يكفيني أن أتناول من جيبتي ورقة مالية من فئة ثلاثة الروبلات وأبينها لك حتى تزحف على يديك وركبتك من الطرف الآخر للمدينة لكي تحصل عليها. هذه هي الحقيقة عنك. عجباً! لقد جئت الآن، في هذه اللحظة؛ لأشتريك. أوه! لا حاجة بك إلى الظن بأنني لا أملك ما لأني أرثدي هذا الحذاء. إن لديّ الوفير من المال، نعم يا سيدي، لدي ما يكفي لشرائك وشراء كل ما يتعلق بك. وهذا ما سأفعله إذا أردت. لسوف أشتريك! نعم. هذا ما سأفعله.

وكان يصيح. والواضح أنه كان يزداد سكرًا وانفعلاً وهو يردف قائلاً
لناستاسيا:

- أوه، ناستاسيا فيليوفنا! لا تخذليني! أرجوك أن تنطقي بكلمة واحدة.
أتزوجين بهذا الرجل أم لا؟

ألقى روجوجين هذا السؤال، وكأنه روح ضالة تلتمس الصفح والغفران
وبجراحة واستهتار الإنسان المشرف على الموت، فلم يبق لديه ما يفقده.
وانتظر جوابها في ألم مُضِن.

وحملت ناستاسيا فيليوفنا إليه في ترفُّع وقد اكتسى وجهها بأمارات
التهكم. ولكن عندما انتقلت بنظراتها من نينا ألكسندروفنا وفاريا إلى جانيا،
غيرت صوتها على حين غرة وهي تقول بجذ وهدوء، بل وفي شيء من
الدهشة الواضحة:

- طبعًا لا! ما هذا الذي تفكر فيه! ما الذي حفرك إلى إلقاء مثل هذا
السؤال عليّ؟

فهتف روجوجين وهو يكاد يخرج عن صوابه ابتهاجًا:

- لا؟ لا؟ ألن تتزوجي به، بعد كل شيء؟ مع أنهم قالوا لي. أوه،
ناستاسيا فيليوفنا! قالوا إنك وعدت بالزواج منه.. منه، وكأنما في مقدورك
أن تفعلي هذا؟ منه! يا للعار! إنني لا أهتم أن أقولها لأي إنسان.. وهو أنني
سأشتريه منك في أي يوم بمائة روبل، أعطه ألفين أو ثلاثة آلاف إذا أراد،
وعندئذ يهرب قبل الزفاف بيوم، تاركًا عروسه لي! أليس كذلك يا جانيا؟
أيها الوغد! ستأخذ ثلاثة آلاف، أليس كذلك؟ ها هو ذا المال؟ انظر، لقد
جئت لأدفع الثمن وأحصل على الإيصال، رسميًا. لقد قلت إنني سأشتريك،

وهذا ما سأفعله.

فصاح جانبا ووجهه يحمر ويشحب على التوالي:

- اخرج من هنا أيها الحيوان السكير.

وهنا دمدم أنصار روجوجين الذين كانوا ينتظرون الفرصة لأن يفعلوا هذا. وتقدم ليبيديف إلى بارفين روجوجين وهمس في أذنه شيئاً جعله يقول لجانيا:

- إنك على حق أيها الكاتب. إنك على حق أيها السكير الحقير. على حق..

ثم التفت إلى ناستاسيا وأردف قائلاً وهو يبدو كمجنون - مسالم عادة - يوشك أن يفقد السيطرة على أعصابه تمامًا:

- ناستاسيا فيليبوفنا، هاك ثمانية عشر ألف روبل، وسيكون لك المزيد. ثم ألقى برزمة من الأوراق المالية ملفوفة بورق أبيض، على النضد أمامها، دون أن يجسر على قول كل ما يريد.

وغمغم ليبيديف وهو يمسك بذراعه، مذهولاً، بوضوح، من ضخامة المبلغ، معتقداً أن من الممكن البدء بمبلغ أقل:

- لا، لا، لا.

فقال روجوجين وهو يرتعد أمام نظرات ناستاسيا النارية:

- لا أيها الأحمق، أنت لا تعرف مع من تتعامل. ويبدو أنني أيضاً أحمق. أوه اللعنة على كل شيء.

ثم أردف قائلاً وهو أشد ما يكون شقاء:

- ما أشد حماقتي إذ استمعت إليك.

ولاحظت ناستاسيا أمارات الأسى والأسف على وجهه، فانفجرت ضاحكة، ثم قالت في جراءة الإنسان الذي يرفع الكلفة، وهي تنهض استعدادًا للانصراف:

- ثمانية عشر ألف روبل، من أجلي! عجبًا! لقد قلت عن نفسك إنك أحمق الآن.

وكان جانيا يرقب الموقف كله بقلب هابط، وصاح روجوجين قائلاً:
- أربعون ألف إذن - أربعون ألف روبل بدلاً من ثمانية عشر. لقد وعد بيتسين وشخص آخر أن يأتياني بأربعين ألف روبل حتى الساعة السابعة هذه الليلة، أربعين ألف روبل، سأدفعها نقدًا وعدًا.

ورغم أن الموقف يزداد خزيًا وعارًا، إلا أن ناستاسيا فيليوفنا استمرت تضحك دون أن تنصرف. وكانت نينا ألكسندروفنا وفاريا قد نهضتا معًا، ووقفتا تنتظران - في صمت ونفور شديد - ما سيحدث بعد ذلك. وكانت عينا فاريا تتوهجان بالغضب. ولكن كان للموقف تأثير مختلف على نينا ألكسندروفنا. كانت ترتعد ووجهها يشحب، وتبدو على وشك أن يُغمى عليها في أية لحظة.

وصاح روجوجين قائلاً:

- حسنًا جدًا إذن؟ مائة ألف روبل، مائة ألف روبل، ستُدفع هذه الليلة: بيتسين! ائتي بهذا المبلغ لي، وسوف يكون لك منه نصيب طيب. هلم.
فتقدم بيتسين نحوه بسرعة وأمسك بيده قائلاً:

- إنك مجنون! إنك مخمور، لسوف يستدعون رجال الشرطة لك إذا

لم تحذر، فكر أين أنت.

وقالت ناستاسيا وكأنما تتعمد أن تحرضه:

- نعم. إنك تتفاخر كالسكير.

وهتف روجوجين وهو يزيد نفسه انفعالا إلى حد الاحتياج:

- إنني لا أتفاخر. لسوف يكون لك مائة ألف روبل في هذا اليوم نفسه.

بيتسين، انتِ بالمال، أيها المرابي الطروب! خذ ما تشاء من فائدة عليه، ولكن انتِ به هذا المساء. لسوف أبين للجميع أنني جاد.

وفجأة صاح الجنرال إيفولجين بغضب وهو يقترب من روجوجين:

- ما هذا كله؟!

وأثارت هذه العبارة المفاجئة من الرجل الذي بقي صامتا طيلة هذه المدة، شيئا من الضحك من أنصار روجوجين.

وصاح روجوجين «ضاحكا»:

- يا هذا! تعال معنا أيها الرجل العجوز، سنمكنك من الشراب.

وصاح كوليا وهو يبكي من فرط الاستياء والاستخزاء:

- أوه! ما أفضح هذا!

وهتفت فاريا فجأة وهي ترتعد بالغضب:

- لا بد أن يكون بينكم أحد هنا يلقي بهذه المخلوقة الوقحة خارج الغرفة.

فصاحت ناستاسيا فيليبوفنا وهي تبسم في استخفاف:

- أعتقد أنني المخلوقة الوحيدة. ويحي. تصوروا! لقد جئت هنا، كأية حمقاء، لدعوتهم جميعاً إلى بيتي هذا المساء! انظر كيف تعاملني أختك يا جافريلاً أرداليونوفيتش؟

ووقف جانبا لحظات كأنما أصيب بصدمة أو حطت عليه صاعقة، بعد حديث أخته. ولكن عندما رأى أن ناستاسيا فيليوفا تهم بالانصراف حقاً هذه المرة، وثب إلى فاريا وأمسك بذراعها كمجنون، وقال بصوت كالفحيح وهو يحملق فيها وكأنما يريد إبادتها من الوجود:

- ماذا فعلت؟

وبلغ من عنف غضبه أنه لم يستطع أن ينطق بكلمات أخرى.

وصاحت فاريا وهي تنظر إلى أخيها في كبرياء وتحد:

- ماذا فعلت؟ إلى أين تمضي بي؟ أتريد أن أعتذر لهذه المخلوقة لأنها جاءت هنا لتتهين والدتنا وتجلب العار على الأسرة كلها أيها التعس الحقير الدنيء؟

ومرت لحظات وهما يواجه أحدهما الآخر، وجانيا لا يزال ممسكاً بمعصمها بقوة وقاومت فاريا مرة بعد أخرى لتتخلص منه، ولم تستطع أن تزيد من سيطرتها على أعصابها، فبصقت على وجهه.

وصاحت ناستاسيا فيليوفا قائلة:

- يا لها من فتاة؟ أهنتك يا مستر بيتسين على حُسن اختيارك.

ودارت الأرض بجانيا، ونسي كل شيء، وصوّب لكمة إلى فاريا، كان يمكن بلا شك أن تلقي بها على الأرض، لولا أن يدًا أخرى امتدت فجأة وأمسكت بيده، وبينه وبين فاريا وقف الأمير الذي قال في إصرار وإن كان

يرتعد انفعالاً:

- كفى، كفى!

وصاح جانبا قائلاً بعد أن أطلق يد فاريا وصفع وجه الأمير بكل قوته:

- أنتوي دائماً أن تعترض سبيلي؟ عليك اللعنة.

وانطلقت عبارات الدهشة والاستنكار من كل جانب. واكتسى وجه الأمير بشحوب الموت. وراح يحملق في عيني جانبا بنظرات عجيبة وحشية عاتبة.. وارتعدت شفتاه، وحاول- عبثاً- أن يكون بعض الكلمات. وأخيراً التوى فمه بابتسامة استخذاء وقال بهدوء:

- حسناً جداً- لا عليك مني- ولكنني لن أسمح لك بأن تضربها.

ثم إذا به فجأة لا يستطيع الاستمرار في الاحتمال، فطمر وجهه بين يديه، واستدار نحو الحائط وغمغم بصوت متهدج:

- أوه! ما أشد عارك فيما بعد لهذا السبب.

وكان جانبا في الواقع يبدو في أشد حالات الخجل والاستخذاء. واندفع كوليا إلى الأمير ليخفف عنه، وتبعته فاريا، ثم روجوجين والجميع، حتى الجنرال.

وقال الأمير وقد عادت إلى وجهه تلك الابتسامة التي لم تكن تلائم هذه الظروف.

- ليس في الأمر شيء، ليس في الأمر شيء.

وصاح روجوجين قائلاً لجانبا:

- نعم، سوف يحل عليك العار. نعم ستشعر بأشد العار من نفسك

بسبب إهانتك لـ... لشابة كهذه «إنه لم يجد كلمة خيرًا من هذه» أيها الأمير،
يا صاحبي العزيز. دعك من هذا وتعال معي. سوف أجعلك ترى كيف يحب
روجو جين أصحابه.

وكانت ناستاسيا فيليوفنا قد تأثرت أيضًا إلى حد كبير بكل من سلوك
جانيا ورد الأمير عليه.

لقد كان وجهها الشاحب المفكر عادة، الذي تجاوب قليلاً حتى الآن
مع الضحكات والفكاهات، مراعاة للظروف القائمة، قد اضطرب أخيرًا
بمشاعر جديدة كما بدا بوضوح، وذلك رغم محاولتها إخفاء هذه الحقيقة.
والتظاهر بأنها مستعدة كالمعتاد للتندر والتهكم.

وقالت لنفسها جادة:

- أعتقد أنني رأيته بلا شك في مكان ما!

وكان الأمير عندئذ يوجه الحديث إلى ناستاسيا قائلاً في عتاب وفي
صوت كان يصدر بوضوح من أعماق قلبه:

- أوه، ألا تخجلين من نفسك، ألا تخجلين! هل أنت حقاً من هذا النوع
من النساء، كما تحاولين أن تظهرني أمامنا! أهذا ممكن؟

ولاحت الدهشة على ناستاسيا فيليوفنا، وابتسمت، ولكنها كانت
تخفي، كما يبدو، شيئاً ما وراء ابتسامتها. ثم إذا بها تغادر الغرفة في شيء من
الارتباك بعد أن ألقت نظرة على جانيا.

ولكنها على أية حال ما كادت تصل إلى ردهة المدخل حتى استدارت
وعادت مسرعة إلى نينا ألكسندروفنا وتناولت يدها، ورفعتهما إلى شفتيها.

وهمست في لهفة ووجهها يضطرم بقوة:

- لقد صدق في ظنه، فأنا لست من هذا النوع من النساء.

ثم استدارت مرة أخرى، وانصرفت عن الغرفة في سرعة بحيث لم يستطع أحد أن يتخيل لماذا عادت. إن كل ما شاهدوه، أنها قالت شيئاً لنا ألكسندروفنا في همس سريع، وبدا أنها قبلت يدها. على أن فاريا رأت وسمعت كل شيء، وراحت ترقب انصراف ناستاسيا من الغرفة في عجب. وجمع جانبا نفسه في الوقت المناسب، واندفع وراءها ليصحبها إلى خارج المسكن، ولكنها كانت قد خرجت، فتبعها إلى السلم حيث هتفت به قائلة:

- لا تأت معي. إلى اللقاء في هذا المساء. هل تسمع؟ إلى اللقاء.

وعاد مشغول الفكر مضطرباً. وبدأت المشكلة أشد غموضاً في نفسه، وكذلك أحس بالاضطراب لموقفه من الأمير، وقد بلغ من ذهوله أن أصحاب روججين مروا أمامه وداسوا طرف حذائه عند الباب وهم ينصرفون. وكانوا جميعاً يتحدثون في وقت واحد، وكان روججين يتقدمهم، متحدثاً إلى بيتسين، وكان يبدو أنه يصبر على شيء كبير الأهمية.

وصاح بجانيا وهو يمر أمامه:

- لقد خسرت المباراة يا جانيا.

وحملق جانيا وراءه في قلق، ولكنه لم يقل شيئاً!



الفصل العاوي عشر

وغادر الأمير الآن الغرفة، وأغلق على نفسه باب غرفته الخاصة. وتبعه كوليا فوراً وهو مشوق لأن يواسيه. ويبدو أن الغلام المسكين كان قد تعلق به بحيث أصبح لا يكاد يستطيع الانفصال عنه.

قال له:

- إنك على حق تمامًا في انصرافك. فإن النزاع سوف يزداد إلى أسوأ ما يكون الآن. وإن الأمر هكذا معنا كل ليلة دائماً. وكل هذا بسبب ناستاسيا فيليبوفنا.

وقال الأمير:

- إن لديكم هنا مصادر كثيرة للنزاع يا كوليا!
- نعم، حقاً، وكل هذا من صنع أيدينا. ولكن لي صديقاً حميماً أسوأ حالاً منا. أتحب أن تعرفه؟

- نعم، جداً، أهو أحد زملائك في المدرسة.

- لا، ليس إلى هذا الحد. لسوف أخبرك ذات يوم بكل شيء عنه. وما رأيك في ناستاسيا فيليبوفنا؟ إنها جميلة، أليس كذلك؟ إنني لم أرها من

قبل وإن كنت قد تمنيت هذا كثيرًا. لقد فتنتني، ويمكنني أن أغفر لجانيا إذا تزوجها عن حب، ولكن من أجل المال! أوه، ويحي! ما أقطع هذا!

- نعم، إن أخاك لا يعجبني كثيرًا.

- لن يدهشني هذا إذ كيف يمكنك أن تفعل بعد... ولكنني أكره أن أنظر إلى الأمور على هذا النحو؛ لأنه إذا حدث أن رجلًا أحمق، أو وغداً يتظاهر بالحمافة، يصفع رجلًا آخر، فإن العار يجلل هذا الرجل مدى العمر، ما لم يمح الإهانة بالدم، أو يجعل المعتدي يلتمس الصفح وهو راکع على ركبتيه. أعتقد أن هذا أمر شديد الغرابة. إن مسرحية ليرمنتوف «القناع» تدور حول هذه الفكرة، وهي فكرة حمقاء شاذة في رأيي، ولكنه لم يكن أكثر من طفل عندما كتبها!

- إنني أحببت أختك كثيرًا.

- أرايت كيف بصقت على وجه جانيا. إن فاريلا لا تهاب أحدًا. ولكنك لم تحدّ حذوها، ومع ذلك فأنا واثق أنك لم تفعل هذا جنبًا. ها هي ذي آتية، تحدث عن الذئب وسوف ترى ذيله. كنت أشعر عن يقين أنها ستأتي، فهي كريمة جدًا رغم أن لها طبعًا أخطاءها.

وتهجمت فاريلا على أخيها قائلة:

- ليس هذا مكانك. امض إلى أبيك، هل كان يزعجك أيها الأمير؟

- لا، أبدًا. بل على العكس إنه يعجبني.

فقال كوليا وهو ينطلق هاربًا:

- هكذا تعنفيني دائمًا يا فاريلا. إن هذا أسوأ ما فيك. وعلى كل حال فإني أعتقد أن أبي قد رحل مع روججين؟ ولا شك في أنه الآن آسف. ولعل من

الأفضل أن أذهب وأرى ماذا يفعل.

- حمداً لله، لقد أبعدت أُمي، ومضيت بها إلى الفراش دون مزيد من الخلافات. وإن جانيا ليشعر بالقلق، وبالخجل.. ليس بلا سبب! إذ كان الموقف بالغ الحرج، لقد جئت لأشكرك مرة أخرى أيها الأمير، ولأسألك هل كنت تعرف ناستاسيا من قبل؟

- لا، لم يسبق لي أن عرفتها!

- إذن، ماذا كنت تعني عندما قلت لها مباشرة «إنها ليست في الواقع كذلك» لقد صدق ظنك فيما أعتقد؟ فمن المحتمل جداً أنها لم تكن على حقيقتها في تلك اللحظة، وإن كنت لا أستطيع أن أفهم معنى حديثها. فالواضح أنها قصدت أن تجرحنا وتهيننا. لقد سمعت أحاديث عجيبة عنها من قبل، ولكن إذا كان قد جاءت تدعونا إلى بيتها، فلماذا تصرفت هكذا مع أُمي؟ إن بيتسين يعرفها تمام المعرفة. وهو يقول إنه لم يستطع أن يفهمها اليوم. وكذلك الأمر مع روجوجين أيضاً! فليس ثمة إنسان يحترم نفسه يتحدث هكذا عنها في البيت. إن أُمي مستاءة جداً من أجلك أيضاً.

فأشار الأمير بيده قائلاً:

- ليس الأمر بذِي بال.

- ولكن لشد ما كانت وادعة حين تحدثت إليها.

- وادعة؟ ماذا تعنين؟

- لقد قلت لها إنه لعار عليها أن تتصرف هكذا؟ وعندئذ تغير سلوكها فوراً، وبدت كأنها شخص آخر.

ثم أردفت قائلة وهي تبتسم قليلاً:

- إن لك عليها نفوذًا أيها الأمير.

وفي تلك اللحظة، فتح الباب، وأقبل جانيا على حين غرة. ولم يضطرب أقل اضطراب حين رأى فاريا في الغرفة. وإنما وقف برهة بالباب، ثم اقترب من الأمير برفق وقال بحرارة:

- لقد كنت وغداً معك أيها الأمير، فهلا غفرت لي؟

ونمَّ وجهه عن الألم الشديد، وارتسمت الدهشة البالغة على محيا الأمير، فلم يستطع أن يجيب فوراً. وعاد جانيا يقول في إلحاح وضجر:

- أوه، أرجوك أن تغفر لي، أن تغفر لي. إني مستعد، إذا أردت، أن أقبل يدك، هكذا.

وتأثر الأمير، وتناول يدي جانيا، وعانقه بحرارة، وتبادل معه القبلات.

وقال الأمير وهو يتنهد بعمق:

- إنني لم أكن أعرف قط أنك هكذا. لقد ظننتك.. ظننتك لا تقوى على..

- على ماذا؟ على الاعتذار؟ إه! من أين خطرت لي الفكرة بأنك أبله بحق السماء! إنك دائماً تلاحظ ما يغفل عنه غيرك من الناس. وفي الإمكان أن يتحدث معك الإنسان بحكمة. ولكن..

وأشار الأمير إلى فاريا قائلاً:

- هذه إنسانة أخرى ينبغي أن تعتذر لها.

فقال جانيا وهو يستدير بظهره إلى فاريا:

- لا، لا! إنهم جميعاً أعداء! لقد بذلت معهم جهدي. صدقني.

فقالت فاريا:

- ولكن ماذا إذا طلبت منك أن نتصالح!

- هل تذهبين إلى ناستاسيا فيليبوفنا هذا المساء؟

- إذا أصررت! ولكن حكم نفسك. هل أستطيع أن أذهب؟ هل ينبغي

أن أذهب؟

فقال جانيا غاضبًا:

- أوكد لك أنها ليست من هذا النوع من النساء.

- أنا أعرف هذا، أعرفه. ولكن يا له من دور قامت به! ثم فكر في ظنها بك الآن يا جانيا؟ أنا أعرف أنها قبلت يد أُمي وما إلى هذا. ولكنها سخرت منك على كل حال. وهذا كله لا يساوي خمسة وسبعين ألفًا من الروبلات يا ولدي العزيز. إن مشاعرك لا تزال تتسع للنبيل والكرم، وهذا ما يجعلني أتحدث معك هكذا. فكن على حذر مما أنت فاعل، ألا تعرف بنفسك أن النهاية ستكون سيئة يا جانيا!

قالت فاريا هذا في انفعال شديد ثم غادرت الغرفة.

وضحك جانيا وقال:

- هكذا هم دائمًا، وكأنما يظنون أنني لا أعرف عن هذا الأمر أكثر مما يعرفون.

وجلس بعد هذه الكلمات وقد بدا أنه ينوي إطالة الزيارة.

وقال الأمير في شيء من الوداعة:

- إذا كنت تعرف حقيقة الأمر هكذا، فلماذا تحتل كل هذه المنغصات

من أجل خمسة وسبعين ألف روبل . وهو مبلغ نعترف أنه لا يساوي هذا كله .
فقال جانينا:

- إنني لا أعني هذا؟ ولكن مادمنّا نتحدث في الموضوع، فدعني أعرف
رأيك. هل تساوي كل هذه المنغصات خمسة وسبعين ألف روبل. أم لا؟
- بالتأكيد لا

- طبعًا. إنه لعار أن تتزوج هكذا. إه!
- عار كبير.

- أوه. إذن يمكنك أن تعلم أنني سأفعل هذا يقينًا، الآن. سأتزوجها
حتمًا، إنني لم أكن واثقًا من نفسي من قبل، ولكنني الآن واثق. لا تقل شيئًا،
فإنني أعرف ماذا تريد أن تقول لي..
- لا. كنت أريد فقط أن أقول إن أشد ما يدهشني هو إسرافك في هذه
الثقة.

- كيف هذا؟ في أي شيء؟

- في أن ناستاسيا فيليوفنا ستقبلك زوجًا، وأن الأمر يعتبر في حكم
الانتهاء منه. وثانيًا، حتى لو أنها فعلت، فهل أنت واثق بأنك ستظفر بهذا
المبلغ؟ إنني طبعًا لا أعرف من الأمر غير القليل جدًّا. ولكن هذا هو رأيي
عندما يتزوج رجل من أجل المال، فالذي يحدث عادة أن تحتفظ الزوجة
بمالها لنفسها.

- إنك لا تعرف كل شيء طبعًا. ولكنني أؤكد لك أنه ليس ثمة ما يدعو
إلى الخوف منه. إن الأمر لن يكون هكذا معنا..

وأردف جانينا قائلاً بانفعال:

- هناك ظروف خاصة. أما عن رأيها في أمر الزواج، فلم يعد هناك شك.
فلماذا تظن أنها سترفض؟

- أوه، إنني أحكم فقط بما أرى. إن فارفارا أورداليونوفيتش قالت الآن..
- أوه! إنها- إنهم لا يعرفون شيئاً عن حقيقة الأمر. إن ناستاسيا كانت فقط تسخر من روجوجين. لقد جزعت حقاً في أول الأمر، ولكنني أحسنت التفكير فيه الآن. إنها كانت تسخر منه فحسب. وهي تعتقد أنني أحقق لأنني أظهرت أنني أريدها من أجل المال، دون أن تدرك أن هناك رجالاً آخرين يمكن أن يخدعوها بطريقة أسوأ كثيراً، إنني لن أظاهر بأي شيء. لسوف ترى أنها ستتزوج بي يقيناً. فإذا أرادت أن تعيش في هدوء فسيكون لها هذا. أما إذا ضايقتني بحماقاتها فسوف أهجرها فوراً مع احتفاظي بأموالها. إنني لن أنوي أن أبدو أحقق، هذا هو المهم. وهو ألا يبدو الإنسان أحقق.
فقال الأمير بحذر:

- ولكن لا يسعني غير الشعور بأن ناستاسيا ما هي إلا فتاة ذكية بارعة.
فلماذا تقع في شرك؟ أهي تعرف ما ينتظرها فيه من آلام؟ إنها تستطيع أن تتزوج شخصاً آخر، أليس كذلك؟ هذا ما أستطيع أن أفهمه.

- آه، ولكن لها، كما ترى، ما يبرر الأمر في نظرها. إنك لا تعرف كل شيء أيها الأمير. فهي تظن مثلاً أنني مجنون بهواها. وأقسم أنها تظن هذا. وأنا أظن أكبر الظن أنها تحبني أيضاً، بأسلوبها الخاص طبعاً. أي أنها تنوي أن تعاملني طيلة حياتها كعبد ذليل «لعل هذا ما تريده فعلاً» ومع ذلك فسوف تحبني بطريقتها الخاصة على كل حال. إنها تعد نفسها لهذا. وتلك هي طبيعتها. وأؤكد لك أنها امرأة روسية أنموذجية. حسناً.. ولكنني أيضاً أعد لها مفاجأة صغيرة. إن ما حدث الآن أمام فاريا كان مجرد مصادفة، ولكنها في

صالحى. لقد رأيت بنفسها وآمنت تمامًا أنني لا أتردد أبدًا في قطع كل علاقة لي مع الغير في سبيلها. وهذا يعني بدوره أنني أيضًا لست أحمق. تأكد من هذه الحقيقة وبهذه المناسبة هل تعتقد أنني ثرثار؟ إه، لعلني يا عزيزي الأمير أرتكب خطأ في الإفشاء لك بأسراري، الواقع أنني «انقضضت عليك» هكذا لأنك أول إنسان شريف ألتقي به، وأرجو ألا تأخذ عبارة «انقضضت عليك» بمعناها الحرفي! وأنت لست غاضبًا لما حدث الآن! أليس كذلك؟ لعلها هذه أول مرة منذ سنتين أتحدث فيها بحرية فإن الناس الشرفاء في الدنيا قليلون، ولعل بيتسين أكثرهم أمانة وشفافًا! إنك لا تضحك ساخرًا، أليس كذلك؟ إن الأوغاد يحبون الشرفاء ألا تعرف هذا؟ وأنا- ولكن أي نوع من الأوغاد أنا؟ أخبرني بصراحة! لماذا يحذون جميعًا حذوها ويسمونني وغدًا! وأنا كما تعلم أفعل مثلهم ومثلها وأقول عن نفسي إني وغد. وهذا هو أسوأ ما في الموضوع.

فقال الأمير:

- إني، عن نفسي، لن أعتقد مرة أخرى أنك وغد.. أبدًا. أعرف أنني لم أحسن الرأي فيك أول الأمر، ولكنني الآن فوجئت بسببك مفاجأة سارة. وفي هذا درس طيب لي. إني لن أحكم على أحد مرة أخرى قبل أن أحسن اختباره. فأنا أرى الآن أنك لست وغدًا على الإطلاق، بل ولست فاسد التربية أيضًا. إني أرى إنك إنسان عادي تمامًا، وغير موهوب البتة، ولكنك تميل إلى الضعف.

فابتسم جانبا متهمكًا من نفسه، ولكنه لم يقل شيئًا، ولما لاحظ الأمير أنه لم تعجبه الملاحظة الأخيرة، اضطرم وجهه، ولزم الصمت أيضًا.
وفجأة سأله جانبا قائلاً:

- هل طلب منك أبي مالا؟

- لا.

- لا تعطه شيئاً إذا فعل. تصور أنه كان رجلاً محترماً مهذباً يوماً! كان موضع الترحيب في أرقى الأوساط. ولم يكن دائماً الكذوب كما هو الآن، والخمر طبعاً هي السبب في هذا كله. ولكنه الآن أسوأ بكثير من كذوب ساذج. أتعرف أن له عشيقة؟ إنني لا أفهم كيف يمكن أن تحتل أمي هذا كله. هل حدثك بقصة حصار فارس! أو قصة الجواد الرمادي الذي يتكلم؟ إنه يحب التوسع في سرد هذه الغرائب التاريخية.

وانفجر جانبا في نوبة من الضحك، ثم التفت نحو الأمير فجأة وسأله قائلاً:

- لماذا تنظر إليّ هكذا؟

- لقد اندهشت وأنا أراك تضحك هكذا، كطفل. لقد غدوت الآن صديقاً لي مرة أخرى، وقد قلت لي «سوف أقبل يدك إذا أردت» تماماً كما يقولها الطفل، ثم إذا بك في الوقت نفسه تتحدث عن هذا المشروع الجنوني.. عن الخمسة والسبعين ألف روبل. إن هذا كله يبدو غريباً نادراً.

- حسناً! وما رأيك الأخير؟

- رأيي أنك مندفع بحماسة في هذا المشروع، ومن ثم يحسن بك أن تعيد التفكير فيه. فإن هناك أكثر من احتمال في أن تكون أختك فاريا على صواب. - أوه، لقد بدأت الآن في الوعظ! إنني أعرف أنني طفل، حسناً.

ثم أردف قائلاً في ضجر:

- والدليل على هذا هو حديثي معك الآن، فليس من أجل المال فقط

أيها الأمير أندفع في هذا المشروع.

واستطرد يقول بسرعة وهو لا يكاد يسيطر على ألفاظه وقد شعر أن كرامته مُست بعنف:

- فلو أنني كنت أعتد على هذا، لخدعت حتمًا؛ لأنني ما زلت ضعيف التفكير والشخصية. إنني مدفوع بعاطفة، أو ربما بحافز؛ لأنه ليس لي غير هدف واحد، وهو الذي يغلب على جميع الأهداف الأخرى، إنك قد تتصور أنني بمجرد الحصول على الخمسة والسبعين ألف روبل، سأندفع إلى شراء مركبة... لا، لسوف أستمّر في ارتداء معطفي القديم الذي أرتديه منذ ثلاثة أعوام، وسوف أمتنع عن التردد على النادي الذي أُنتمي إليه، وسأحذو حذو الرجال الذين صنعوا ثرواتهم. إن بيتسين وهو في السابعة عشرة من عمره، كان ينام في الطريق، ويبيع المُدى، وقد بدأ تجارته بقروش، وهو يمتلك الآن ستين ألف روبل. ولكن ماذا تراه قد فعل لكي يحصل على هذا المبلغ؟ حسنًا؟ لسوف أعفي نفسي من هذه البداية الشاقة؛ لكي أبدأ برأس مال لا بأس به. وبعد خمسة عشر عامًا، سيقول الناس عني «انظروا هذا هو إيفولجين، ملك اليهود». إنك تقول إنني بلا مواهب. وعليك أن تلاحظ الآن أيها الأمير، أنه لا يوجد ما يسيء إلى الرجل في عصرنا وجنسنا أكثر من أن يقال إنه بلا مواهب، وإنه ضعيف الشخصية، محروم من النبوغ في شيء معين، أي أنه، على الجملة، شخص عادي، إنك لم تحاول أن تنظر إليّ حتى باعتباري وغدًا، فهلا تعلم أنه كان في مقدوري أن أضربك على هذا الآن! لقد جرحني أكثر مما جرحني الجنرال إيبانشين الذي يظن أن في مقدوري أن أبيع له زوجتي. ولاحظ أن هذه مجرد فكرة بدون أي مقابل؛ لأننا لم نناقشها أبدًا. وقد استفزني هذا كله، وقررت أن أجمع ثروة طائلة.

وسأجمعها. وعندما أغدو موفور الثراء، فسوف أصبح عبقرياً، إنساناً موهوباً جداً. إن من أسوأ الأشياء وأكثرها دناءة تلك المتعلقة بالمال، أنه قادر على شراء كل شيء، حتى المواهب. وستبقى هذه الحقيقة بقاء الحياة في هذا العالم. لسوف تقول إن هذه أفكار صبيانية أو خيالية. ليكن، فإن هذا سيكون في صالحه. ولكن الأمل سيتحقق، وسوف أعمل على تحقيقه، والذي يضحك أخيراً يضحك كثيراً، لماذا يهينني الجنرال إيبانشين؟ لأنني لا شيء في المجتمع. وهذا يكفي الآن على كل حال. لقد أطل كوليا مرتين ليقول إن طعام العشاء قد أعد، ولكنني سأتناول عشائي في الخارج وسوف آتي لأتحدث معك بين الحين والآخر. ولسوف تكون في أتم الراحة معنا ومن المؤكد أنهم سيعاملونك كواحد من الأسرة. وأعتقد أن العلاقة بيني وبينك إما أن تكون صداقة وطيدة أو عدااء مستحكما، اسمع. افرض أنني الآن قبلت يدك، كما عرضت أن أفعل بكل إخلاص، فهل يجعلني هذا أكرهك لهذا السبب فيما بعد!

فقال الأمير بعد برهة تفكير وبابتسامة لطيفة:

- بالتأكيد، ولكن ليس على الدوام؛ لأنك لن تستطيع أن تستمر على كراهيتي، ومن ثم سينتهي الأمر بصفحك عني.

- أوه! لشد ما ينبغي أن يكون الإنسان على حذر معك أيها الأمير! ألم تضع قطرة من السم في هذه الملاحظة الآن! من يدري؟ ربما تكون عدواً لي! وبهذه المناسبة - ها ها ها - لقد نسيت أن أسألك، هل أنا محق في اعتقادي بأنك ذهلت إعجاباً بجمال ناستاسيا فيليبوفنا؟

- نعم، نعم.

- هل وقعت في غرامها؟

- لا. لا.

- ومع ذلك فقد اضطرم وجهك احمرارًا كالوردة. حسنًا، حسنًا، إنني لن أسخر منك. أتعلم أنها امرأة فاضلة جدًا؟ صدق أو لا تصدق، كما تريد، إنك تظن أن بينها وبين توتسكي - لا، لا شيء إطلاقًا. ولن يكون ثمة شيء أبدًا. إلى اللقاء.

وغادر جانبا الغرفة في حالة معنوية عالية. وبقي الأمير بمفرده، يفكر ويتأمل بضع لحظات. وأخيرًا أطل كوليا برأسه مرة أخرى. فقال له:

- إنني لا أريد أن أتناول أي عشاء، شكرًا يا كوليا. إذ تناولت غداءً طيبًا في بيت الجنرال إيبانشين.

وتقدم كوليا في الغرفة، وسلم الأمير رسالة. وكانت من الجنرال إيفولجين، ومغلقة بعناية. وبدا على وجه كوليا بوضوح الألم الشديد لاضطراره إلى تسليم هذه الرسالة. وقرأها الأمير، ونهض وتناول قبعته، ولكن كوليا قال بوجه مضطرب:

- إنه جد قريب من هنا. وهو جالس الآن إلى قنينة خمر. ولست أدري كيف أمكنه أن يشتري الخمر بالنسيئة! لا تقل لأمي إنني أوصلت إليك هذه الرسالة أيها الأمير. لقد أقسمت ألف مرة ألا أفعل هذا. ولكنني دائمًا أشعر بالأسى من أجله. ولا داعي لأن تعامله بالرسميات. أعطه شيئًا قليلًا، ودع الأمر ينتهي عند هذا الحد.

فقال الأمير:

- هلم يا كوليا، فإني أريد رؤية أبيك، فقد خطرت ببالى فكرة.

الفصل الثاني عشر

ومضى كوليا بالأمير إلى مقهى في شارع ليتاينايا، غير بعيد من البيت. وفي إحدى الغرف الجانبية، جلس أرداليون ألكسندروفيتش إلى إحدى الموائد في هيئة واحد من الرواد الدائمين على المقهى، وأمامه زجاجة، وعلى ركبتيه صحيفة. وكان جالسًا في انتظار الأمير الذي ما إن ظهر حتى بادر الجنرال إلى حديث طويل عريض عن هذا الشيء أو ذاك. ولكنه كان قد بلغ من السكر حدًا جعل الأمير لا يكاد يفهم كلمة مما يقول.

وقال الأمير:

- ليس لديّ ورقة مالية من فئة عشرة الروبلات. ولكن ها هي ذي ورقة بخمسة وعشرين روبلاً، اصرفها وأعطني خمسة عشر روبلاً، وإلا أصبحت بلا مال تمامًا.

- أوه، طبعًا، طبعًا، إنك لتعرف يقينًا أن...

- نعم. ولديّ رجاء آخر يا جنرال. هل سبق أن زرت بيت ناستاسيا فيليوفنا!

- أنا، أنا؟ هل تعنيني أنا؟ أحيانًا يا صديقي أحيانًا. كنت أدّعي فقط

أني لا أذهب حتى أتجنب هذا الموضوع المؤلم. لقد رأيت بنفسك اليوم، وكنت من الشاهدين، أنني بذلت كل ما يمكن أن يبذله والد شقيق كريم. ولكن والدًا من نوع آخر سوف يتدخل الآن في الموضوع. وسوف ترى، إن المحارب القديم سوف يفضح هذه المؤامرة، وإلا فإن هذه المرأة الفاضحة سوف تقحم نفسها في وسط أسرة كريمة محترمة.

- نعم، تمامًا. لقد أردت أن أسألك هل يمكنك أن تدلني على بيت ناستاسيا فيليوفنا هذا المساء. إذ يجب أن أذهب إليها؛ لأن لدي مهمة معها. إنني لم أدع إليها، ولكنني قُدمت لها. وعلى أية حال، فإني مستعد لأن أتجاوز قواعد اللياقة والأصول إذا أمكنني فقط أن أصل إليها.

- لقد عبرت يا صديقي الشاب عن نفس الفكرة التي خطرت ببالي، فالواقع أنني لم أسألك الحضور من أجل هذه التفاهات.

ولكنه وضع في هذه اللحظة النقود في جيبه قبل أن يستطرد قائلاً:

- وإنما دعوتك لتأزرنني في المعركة ضد ناستاسيا فيليوفنا الليلة. ما أروع رنين هذين الاسمين «الجنرال إيفولجين، والأمير ميشكين» لسوف تذهل حتمًا كما أعتقد. هه! عظيم. لسوف نذهب في التاسعة مساءً، ولا تزال أمامنا فسحة من الوقت.

- وأين تقيم؟

- أوه، على مسافة بعيدة من هنا، بالقرب من مسرح بولشوي، في منزل المسز ميتو متزذن، الممثل على الميدان تقريبًا، بالطابق الأول... ولن يكون عدد المدعوين كبيرًا، رغم أن الليلة عيد ميلادها..

واستمر الجنرال جالسًا، وممعنًا في الجلوس؛ وكان قد أمر بزجاجة

شراب عندما حضر الأمير. وقد استغرق ساعة في شربها، ثم أمر بغيرها، وغيرها. وكان في خلال احتساء هذا كله يسرد على الأمير قصة حياته كلها، تقريباً. وخامر اليأس قلب الأمير. فعلى الرغم من أنه لم يلجأ إلى هذا السكير العجوز البائس إلا لأنه لم يجد ثمة وسيلة أخرى للوصول إلى بيت ناستاسيا فيليبونا، فقد شعر أنه أخطأ في وضع أقل الثقة في رجل كهذا.

وأخيراً نهض وأعلن أنه لن يستطيع أن ينتظر أكثر من هذا، وقام الجنرال أيضاً، وشرب آخر قطرات أمكن أن يمتصها من الزجاجاة، وسار مترنحاً إلى الشارع.

وبدأ اليأس يشيع في نفس ميشكين. إنه لا يستطيع أن يتصور كيف بلغت به الحماسة أن يثق في هذا الرجل. إنه يريد شيئاً واحداً فقط. وهو أن يصل إلى بيت ناستاسيا ولو على حساب آداب اللياقة والأصول. أما الآن، فإنه مُهدّد بالفضيحة أكثر مما كان يتوقع من قبل. وكان أرداليون ألكسندروفيتش قد أمسى مخموراً تماماً. وقد ظل مستحوذاً على سمع صاحبه وهو يتحدث ببلاغة وحرارة في مختلف الموضوعات التي كان يطعمها بفيض من الشكاوى ضد أفراد أسرته. وقد أصر على أن جميع متاعبه تسببت من سوء سلوكهم، وأن الزمن وحده هو الكفيل بوضع حد لهذا كله.

وأخيراً وصلا إلى شارع ليتانيايا. وكان رذاذ المطر قد بدأ يزداد باضطراب وهبت في خلال الشوارع رياح دافئة سقيمة. وانطلقت المركبات تخوض الأوحال. وارتفعت دققة السنايك الحديدية للخيول والبغال على الأرضية المرصوفة. وأخذت جموع كثيرة من الناس المكتئبي الوجوه تخوض في تعب فوق الأفاريز وقد اختلط بهم بعض السكارى.

وقال الجنرال:

- أترى تلك النوافذ المتألقة بالضوء؟ إن كثيرًا من زملائي القدامى في السلاح يعيشون هنا. أما أنا الذي خدمت في الجيش مدة أطول، وعانيت الأهوال أكثر منهم جميعًا، فإني أسير على قدمي إلى بيت امرأة ليست سمعتها فوق الشبهات. إنك قد لا تصدق أنني رجل أحمل في صدري ثلاث عشرة رصاصة، حسنًا!ؤكد لك أنه من أجلي فقط أبرق ببيروجوف إلى باريس، وغادر سيباستبول مخاطرًا بنفسه أشد المخاطرة أثناء الحصار. وقد طالب الدكتور فيلاتون- الجراح في البلاط الملكي الفرنسي- باسم العلم، ضمان حرية المرور إلى المدينة المحاصرة ليعالج جراحي. والحكومة تعرف كل شيء عن هذا الأمر «هذا هو إيفولجين ذو الثلاث عشرة رصاصة بداخله» هكذا كانوا يتحدثون عني. أترى ذلك البيت أيها الأمير؟! إن في الطابق الأول منه يعيش صديق قديم لي مع أسرة كبيرة. في هذا البيت، وفي خمسة بيوت أخرى تطل على ميدان نيفسكي، وفي بيتين بشارع مورسكايا، يقيم كل من تبقى من خاصة أصدقائي الخصوصيين. لقد انقطع اتصال نينا ألكسندروفنا بهم منذ أمد بعيد، ولكنني ما زلت متصلاً بهم. ويمكنني القول إنني أحس بالانتعاش عند لقائي بأصحابي ومرؤوسي القدامى الذين لا يزالون يقدسونني رغم كل شيء. والجنرال سوكولوفيتش «وبهذه المناسبة لم أقم بزيارته في العهد الأخير، ولم أر أيضًا حنة فيدورونا». فأنت تعلم يا عزيزي الأمير، أن الإنسان عندما لا يستقبل الأصحاب في بيته، يتوقف عن زيارة الناس في بيوتهم رغمًا عنه.

ومع ذلك، حسنًا... يلوح عليك كأنك لا تصدقني. لا بأس الآن. لماذا لا أقدم ابن صاحبي وصديقي القديم إلى هذه الأسرة اللطيفة. الجنرال إيفولجين والأمير ميشكين؟ لسوف ترى فتاة حلوة! ماذا أقول؟ فتاة حلوة!

لا، حقاً بل اثنتين وثلاث. هن زينة المدينة والمجتمع: الجمال، والعلم، والثقافة الخاصة بالمرأة، والشعر، وكل شيء. يضاف إلى هذا أن كل واحدة ستكون لها بائة «دوطة» مقدارها ثمانون ألف روبل. شيء لا بأس به إه! والخلاصة يجب تمام الوجوب أن أقدمك إليهم. هذا واجب، فرض. الجنرال إيفولجين والأمير ميشكين.. شيء مثير!

فقال الأمير:

- تقدمني الآن! لا شك أنك نسيت..

- لا، لم أنس شيئاً، هلم. هذا هو البيت، وهيا اصعد هذه الدرجات الفاخرة. إنني مندهش لغياب البواب، ولكننا في عطلة، ولا شك أن الرجل قد انصرف.. ذلك السكير الأحق، لماذا لا يتخلصون منه. إن سو كولوفيتش يدين بسعاده في أثناء الخدمة، وفي حياته الخاصة لي أنا، أنا فقط. ولكن ها نحن قد وصلنا.

وتبعه الأمير بهدوء دون المزيد من الاعتراض؛ خوفاً من إثارة الرجل العجوز. وفي الوقت نفسه، كان يرجو بحرارة لو أن الجنرال سو كولوفيتش وأفراد أسرته يتلاشون كالسراب في الصحراء، ومن ثم يستطيع هو وصاحبه أن يهربا عن طريق العودة على السلم وحسب. ولكنه رأى، لفزع، أن الجنرال إيفولجين عليم تماماً بالبيت وأن له، كما يبدو، أصدقاء فيه حقاً فقد كان في كل درجة يذكر بعض التفاصيل التاريخية الموضعية عن مكانه في إسهاب لا يدع مجالاً للمزيد من الدقة، وعندما وصلا إلى الدرجة الأخيرة، عند الطابق الأول، حيث استدار الجنرال ليدق الجرس عن يمينه، فودّ الأمير أن يهرب؛ ولكن حدثاً غريباً منعه إلى حين.

قال للجنرال:

- لقد أخطأت يا جنرال. إن الاسم الموجود على الباب هو كولاكوف، وأنت تريد أن ترى الجنرال سوكولوفيتش.

- كولاكوف؟ إن كولاكوف لا يعني شيئاً؛ إن هذا مسكن سوكولوفيتش وأنا أدق جرس بابه.. فما شأني بكولاكوف؟ ها قد أقبل شخص ما ليفتح. والواقع أن الباب فتح فوراً، وظهر خادم يقول إن أفراد الأسرة جميعاً غائبون.

وراح أرداليون ألكسندروفيتش يقول مكرراً بصوت ينم عن الأسف:

- يا للخسارة: يا للخسارة: هكذا حظي! عندما يعود سيدك قل لهما إن الجنرال إيفولجين والأمير ميشكين، رغبا في أن يقوموا بواجب التحية بنفسيهما، ولكنهما يأسفان جداً. ويأسفان أشد..

وفي تلك اللحظة ظهرت في نهاية الردهة سيدة من طاقم خدم المسكن، كانت في نحو الأربعين من عمرها، ترتدي ملابس قاتمة اللون، وكان من المحتمل أنها مديرة للمسكن أو مربية، فلما سمعت الاسمين، تقدمت نحو الباب وقد نم وجهها عن الشك.

قالت وهي تحملق بشدة في وجه الجنرال:

- إن ماري ألكسندروفنا غير موجودة بالبيت. لقد ذهبت إلى بيت والدتها مع ألكسندرا ميخايلونا.

- ألكسندرا ميخايلونا في الخارج أيضاً؟ يا لسوء الحظ؟ هل تصدقين أنني دائماً سيئ الحظ هكذا؟ هل يمكن أن أسألك - بكل احترام - أن تقدمي تحياتي إلى ألكسندرا ميخايلونا، وأرجو أن تذكرها.. قل لي لها إنني أرجو

لها من صميم قلبي ما كانت ترجوه لنفسها في مساء يوم الخميس عندما كانت تنصت إلى مقطوعة «شوبان». إنها ستتذكر. وإني لأتمنى هذا بكل إخلاص. الجنرال إيفولجين والأمير ميشكين.

وتغيرت تعبيرات وجه المرأة، فزالت عنها أمارات الشك، ومن ثم قالت وهي تنحني لهما لتصرفهما:

- لن أنسى أن أبلغها رسالتك.

وأخذ الجنرال، وهما يهبطان الدرجات، يعرب عن أسفه مرة بعد أخرى لفشله في تقديم صديقه الأمير إلى أصدقائه. وقد قال:

- أنت تعرف أن لي نصيباً يسيراً من الشاعرية. ألم تلاحظ هذا؟ أعني الطبيعة الشاعرية كما تعلم؟
وفجأة أردف قائلاً:

- ولكن على كل حال، أعتقد أننا أخطأنا هذه المرة. فأنا أذكر أن الجنرال سو كولوفيتش يقيم في منزل آخر، وأكثر من هذا؛ فإنه يقيم والأسرة في موسكو الآن. نعم. لقد أخطأت حقاً. ولكن لا ضير في هذا.
وقال الأمير في مجال الرد:

- ولكن، قل لي، هل يمكن أن أعتمد على مساعدتك؟ أو أمضي بمفردي لمقابلة ناستاسيا فيليبوفنا.

- تعتمد على مساعدتي! تذهب بمفردك؟ كيف يمكن أن تسألني هذا السؤال في موضوع يتوقف عليه مصير أسرتي إلى حد كبير؟ إنك لا تعرف من هو إيفولجين يا صديقي. إنك حين تثق في إيفولجين، فكأنما تثق في الصخر! هكذا كان رجال الكتبية الأولى التي كنت قائدها، يتحدثون عني

«اعتمد على إيفولجين» هكذا كانوا يقولون «إنه صخرة وطيدة». ولكن، معذرة، يجب أن أمضي لزيارة بيت في طريقها، بيت كثيرًا ما وجدت فيه السلوى والعزاء والعون في أوقات المحنة.

- هل أنت عائد إلى البيت؟

- لا.. إني أريد.. أن أزور مدام تيرنتيف، أرملة الكابتن تيرنتيف مساعدتي وصديقتي القديم. لقد أعانتي على الاحتفاظ بشجاعتي، وعلى احتمال منغصات حياتي الزوجية، ولما كنت أشعر بزيادة الهموم في نفسي اليوم..

فقاطعه الأمير قائلاً:

- يُخيل لي أنني كنت أحمق في إزعاجي لك الآن. وعلى كل حال، وداعًا.

فصاح الجنرال:

- لا، لا، لا يجب أن تنصرف هكذا أيها الشاب، لا يجب. إن صديقتي هنا أرملة وربة أسرة، وكلماتها تصدر مباشرة من قلبها وتجد لها صدًى في قلبي. إن زيارتها مسألة لا تتجاوز بضع دقائق. فأنا في بيتها كأني في بيتي. لسوف أغتسل فيه، وأغير ملابسي ثم يمكننا أن نمضي في مركبة إلى مسرح بولشوي. قرر أن تقضي الليلة معي - ها قد وصلنا، هذا هو البيت - عجبًا! كوليا؟ أأنت هنا؟ حسنًا. هل مارفا بوريزونا في بيتها أم أنك جئت من فورك؟

فأجاب كوليا الذي كان بالباب الخارجي عندما التقى به الجنرال:

- أوه، لا. لقد كنت هنا منذ فترة طويلة مع إيبوليت. إنه أسوأ حالًا، لقد ظل ملازمًا الفراش طيلة اليوم. وكنت قد جئت لشراء بعض أوراق اللعب،

إن مارفا بوريزونا تنتظرك.

ثم أردف الغلام قائلاً حين لاحظ ترنح حركات أبيه:

- ولكنك يا أبي في حالة سيئة؟ حسناً، هلم ندخل.

وعند الالتقاء بكوليا، قرر الأمير أن يصحب الجنرال رغم أنه عقد العزم على أن يبقى أقصر وقت ممكن. كان يريد كوليا بعد أن قرر في حزن أن يترك الجنرال وراءه. ولم يستطع أن يغفر لنفسه هذه السذاجة التي جعلته يتصور أن الجنرال إيفولجين يمكن أن يكون ذا فائدة ما. وصعد الدرجات الثلاثة العديدة حتى وصلوا إلى الطابق الرابع، حيث تقيم مدام تيرنتيف.

وقال كوليا في أثناء الصعود:

- هل تنوي أن تقدم الأمير؟

- نعم، يا ولدي، أريد أن أقدمه: الجنرال إيفولجين، والأمير ميشكين. ماذا حدث؟ ماذا؟ كيف حال مارفا بوريزونا.

- أنت تعرف يا أبي أنه كان من الأفضل كثيراً لو أنك لم تأت لزيارتها إطلاقاً. إنها على استعداد لأن تنشب أظفارها فيك. إنك لم تزرها منذ أول أمس، وهي في انتظار المال منك. لماذا وعدت أن تعطيتها بعضاً منه؟ هكذا أنت دائماً. حسناً، عليك أن تخرج الآن من هذا المأزق بقدر ما تستطيع.

وتوقفوا أمام مدخل منخفض بعض الشيء بالطابق الرابع. وتخاذل أرداليون ألكسندروفيتش بوضوح، فراح يدفع ميشكين أمامه مغمغماً:

- لسوف أنتظر هنا، فإني أحب أن أفاжئها..

وتقدم كوليا أولاً، وفيما كان الباب يفتح، أطلت ربة البيت برأسها،

وهكذا انهارت المفاجأة التي أعدها خيال الجنرال، وشرعت هي تحدثه في عتاب وتوبيخ.

كانت مارفا بوريزونا في نحو الأربعين من عمرها، ترتدي سترة فوق ثوبها، وفي قدميها حذاء، ووجهها مجمل بالمساحيق، وشعرها معقود في عشرات من الجداول الصغيرة. وما كادت ترى الجنرال حتى صاحت به:

- ها هو ذا الوغد الشرير الحقير! لقد عرفت أنه هو، عرفته بقلبي.

وحاول الجنرال العجوز أن يواجه الأمر بهدوء، فهمس للأمير قائلاً:

- هيا إلى الداخل، إن الحالة كما ينبغي.

ولكن الحالة كانت أخطر مما أراد أن يظن. فبمجرد أن اجتاز الزوار الردهة المظلمة، ودخلوا غرفة الاستقبال الضيقة المفروشة بنصف دسته من المقاعد الخيزرانية، ومائدتي لعب ورق صغيرتين، حتى استطردت مدام تيرنتيف تصب جام غضبها على الجنرال بصوتها المرتفع بطبيعته، فقالت:

- أأنت خجلاً! أأنت خجلاً! أيها الهمجي، أيها الطاغية. لقد سرقت كل ما أملكه، لقد امتصصت عظامي. إلى متى سأبقى ضحية لك أيها الرجل الوغد الدنيء؟!

وغمغم الرجل العجوز المضطرب:

- مارفا بوريزونا؟ مارفا بوريزونا! هذا هو... الأمير ميشكين! الجنرال إيفولجين، الأمير ميشكين!

وقالت ربة البيت وهي توجه الحديث فجأة إلى الأمير:

- هل يمكن أن تصدق أن هذا الرجل لم يرحم حتى أطفاله اليتامى؟

لقد سرق كل ما أمتلك، وباع كل شيء، ورهن كل شيء؛ لم يترك لي شيئاً، أبداً! ماذا تراني فاعلة بكميالاتك؟ أيها الوغد الخبيث الدنيء! أجب أيها الخطاف؟ أجب يا ذا القلب الحجري. كيف أطعم أبنائي اليتامى؟ بأي شيء سأغذيهم؟ وما قد جاء الآن، جاء مخموراً. إنه لا يكاد يقوى على الوقوف. أوه، يبدو أنني أسأت جدًّا في حق الله حتى ابتلاني بهذه اللعنة! أجب أيها الوغد النافه، أجب؟

ولكن كان هذا أكثر مما يحتمل الجنرال، فقال لها:

- هاك خمسة وعشرين روبلاً يا مارفا بوريزونا. هذا كل ما يمكن أن أعطيك بل إنني أدين بهذا المبلغ لكرم الأمير. صديقي النبيل. لقد خدعت بقسوة، ولكن... هكذا الحياة. معذرة.. إنني أشعر بضعف شديد.

ثم استطرد قائلاً وهو واقف في وسط الغرفة ينحني في كل اتجاه:

- إنني على وشك الإغماء. معذرة. هاتي يا عزيزتي لينوشكا وسادة.

وأسرعت لينوشكا، وهي طفلة في الثامنة، لتأتي له بوسادة فوراً، ثم وضعتها على الأريكة القديمة المتأرجحة. وكان الجنرال يريد أن يقول أكثر من هذا، ولكن بمجرد أن تمدد على الأريكة، حتى أدار وجهه للحائط، واستغرق في نوم ذوي الضمائر المستريحة.

وأشارت مارفا بوريزونا- في وقار وأدب- للأمير في مقعد أمام إحدى مائدتي لعب الورق، ثم جلست في مواجهته، واعتمدت بخدها الأيمن على يدها، وبقيت صامتة، مركزة نظراتها على ميشكين وهي تنهض بعمق بين الحين والآخر. وأقبل الأطفال الثلاثة، ولدان وبنت، وتقدمت لينوشكا، بصفتها أكبرهم سنًا، واعتمدت على المائدة، وراحت تحمق فيه أيضاً.

وأخيرًا جاء كوليا من غرفة مجاورة فقال له الأمير:

- إنني في الواقع سعيد جدًا إذ التقيت بك هنا يا كوليا. فهل يمكن أن تقوم لي بخدمة! أريد أن أرى ناستاسيا فيليوفنا. وقد طلبت من أرداليون ألكسندروفيتش أن يمضي بي إلى بيتها، ولكنه راح في النوم كما ترى. فهل تدلني على الطريق إليها؛ لأنني لا أعرف الشارع، إن العنوان معي، ومسكنها قريب من مسرح بولشوي.

- ناستاسيا فيليوفنا؟ إنها لا تقيم هناك، وإذا شئت الحقيقة، فإن أبي لم يذهب إلى بيتها أبدًا. وإنه لعجيب أن تعتمد عليه، إنها تقيم بالقرب من شارع فلاديمير، عند ميدان «فايف كورنرز»، وهو جد قريب من هنا. هل تحب أن تمضي فورًا؟ يمكنني أن أدلك على الطريق بكل سرور.

ومضى كوليا والأمير معًا، ولم يكن لدى الآخر، للأسف، نقود للركوب. ومن ثم اضطر إلى المسير. وقال كوليا:

- كنت أحب لو أنني عرفتك بإيبوليت، إنه أكبر أبناء السيدة التي رأيتهما الآن، كان في الغرفة التالية، إنه مريض، ظل ملازمًا الفراش طيلة اليوم. ولكنه غريب الأطوار بعض الشيء، وشديد الحساسية جدًا، وظننت أنه قد يضطرب بسبب الظروف التي جئت أنت فيها، وهذا الأمر لا يخجلني كثيرًا، لأنه يتعلق بأبي، بينما يتعلق بأمه، وما يكون فضيحة كبرى لامرأة، لا يكون كذلك بالنسبة للرجل، أو على الأقل، لا يتساوى الوضع بينهما، ولعل الرأي العام أن يكون مخطئًا في قسوته على جنس، وصفحه عن الجنس الآخر، إن إيبوليت غلام بارع جدًا، ولكنه شديد التعصب؛ إنه في الواقع عبد لأفكاره.

- أتقول إنه مريض بداء الصدر؟

- نعم، والواقع أن من الخير له أن يموت صغيرًا. ولو كنت في مكانه لتمنيت الموت بلا تردد، إنه تعس بسبب أخيه وأخته. هؤلاء الصغار الذين رأيتهم. فلو كان الأمر ممكنًا، أي لو كان لدينا بعض المال، لتركنا أسرتنا المحترمتين، وعشنا معًا في مسكن صغير خاص بنا. إن هذا هو حلمنا. ولكن، هل تعرف أنه غضب عندما كنت أتحدث بشأنك معه، وقال إن أي إنسان لا يتحدى شخصًا صفعه يعتبر جبانًا. إنه شديد التوفز العصبي هذا اليوم. وقد كففت عن مناقشة الأمر معه. إذن فقد دعتك ناستاسيا فيليبوفنا لزيارتها؟

- إذا شئت الحقيقة، إنها لم تفعل.

فصاح كوليا وقد بلغت به الدهشة أن توقف في وسط الإفريز:

- إذن كيف يمكنك أن تذهب؟ ثم.. هل تذهب لزيارتها في بيتها وأنت بهذه الملابس؟

- إنني في الواقع لا أدري هل تسمح لي بالدخول أم لا. فإذا استقبلتني، كان خيرًا، وإلا فسوف ينتهي الأمر عند هذا الحد. أما عن ملابسني، فماذا في وسعي أن أفعل؟

- هل أنت ذاهب إليها لغرض معين أو لمجرد الانضمام إلى مجتمعها وأصدقائها؟

- لا، ليس لي في الواقع هدف معين في الذهاب، أعني أنني لست ذاهبًا لعمل خاص.. إن من العسير أن أوضح، ولكن..

- حسنًا، سواء كنت ذاهبًا لغرض معين أو لا، فهذا شأنك. إنني لا أريد أن أعرف. إن الشيء المهم، في رأيي، أنه لا ينبغي أن تذهب لمجرد

الاستمتاع بقضاء السهرة في وسط كهذا يجمع بين الغواني والقوادين والمرابين! إذا كان هذا ما تنويه، فلا يسعني إلا أن أزدريك وأسخر منك. إن الناس الأمناء الشرفاء الآن قليلون جدًّا، ولا يكاد الإنسان يجد من يستطيع أن يحترمهم، رغم تظاهرهم بالكبرياء، ولا سيما فاريا! ألم تلاحظ أيها الأمير، كثرة عدد الأفاقين في هذه الأيام؟ لا سيما هنا، في بلادنا العزيزة، روسيا؟ إنني لا أستطيع أن أفهم كيف حدث هذا؟ لقد كان من المعتاد من قبل أن يكون لكل شيء أساس قوي. فماذا يحدث الآن؟ إن كل شيء أصبح معرضًا مكشوفًا أمام الناس، لقد مُزقت الحجب، وتعرض كل جرح لعبث الأصابع المستهتر. إننا الآن نعيش في عالم من الفضائح! إن آباءنا يخجلون الآن وهم يتذكرون مبادئهم «الأخلاقية القديمة» لقد حدث في موسكو أخيرًا أن والدًا راح يبحث ابنه على ارتكاب كل شيء، كل شيء، أسمع؟ في سبيل الحصول على المال. وتلقفت الصحف هذه القصة، طبعًا، وأصبحت أمرًا شائعًا. انظر إلى أبي، الجنرال، انظر كيف حاله، ومع ذلك أوكد لك أنه رجل أمين. إنه فقط يسرف في شرب الخمر، وأخلاقه ليست كما نرجو جميعًا. نعم، هذا صحيح! وإنني، إذا شئت الحقيقة، لأشفق عليه. ولكنني لا أجرو أن أقول هذا؛ لأن الجميع سيسخرون مني، ولكنني أرثي له! ثم من هم الرجال البارعون حقًا بعد هذا؟ إنهم المرابون، من أولهم إلى آخرهم. إن إيبوليت يلتمس الأعذار لتسليف المال، قائلًا إن الأمر ضرورة. وهو يتحدث عن الحركة الاقتصادية وعن المد والجزر في رؤوس الأموال، ولست والله أعرف ماذا يعني. إنني أشعر بالغضب حين أسمعه يتحدث هكذا، ولكن متاعبه جعلته سيئ الخليفة، أترى؟ إن الجنرال ينفق على أمه، وهي تقرضه المال بالربا! إنها تقرضه له أسبوعًا أو عشرة أيام بفائدة كبيرة! ألا يشير هذا

الاشمئزاز والنفور؟ وبعد ذلك - ولعل من العسير أن تصدق هذا - تأتي أُمي نينا ألكسندروفنا وتعين إيبوليت بكل وسيلة. فترسل إليه المال والثياب، بل تذهب في هذا بعيداً، فتساعد الأطفال عن طريق إيبوليت؛ لأن أهمهم لا تبالي بأمرهم. وكذلك تفعل فاريا نفس الشيء.

- حسناً، لقد قلت الآن، فقط، إنه لا يوجد رجال شرفاء أمناء، وإنما يوجد فقط المرابون والانتهازيون، ولكن ها هنا - أقرب ما يكونون إلينا - أشخاصاً أمناء شرفاء، مثل والدتك وأختك فاريا. وإني أعتقد أن هناك الشيء الكثير من القوة الأخلاقية في مساعدة أشخاص في مثل هذه الظروف.

- إن فاريا تفعل هذا بدافع الكبرياء، إنها تحب الظهور، والزهو على الغير، أما والدتي، فإني في الحقيقة شديد الإعجاب بها، أجل، والاحترام لها. وإن إيبوليت رغم قساوة مشاعره، قد أصبح يشاركني بعض هذا الشعور. لقد كان يضحك في أول الأمر، ويعتقد أن في مساعدة أُمي له نوعاً من الخسة. ولكنه الآن، وفي أحيان كثيرة يتأثر بعطفها. ها! أتسمي هذا أخلاقاً فاضلة؟ لسوف أتذكر هذا القول. أما جانيا فلا يعرف ذلك، إنه لو عرف لقال إن فيما تفعله أُمي وأختي تشجيعاً للرديلة.

فقال الأمير وهو يفكر في كلمات كوليا الأخيرة:

- آه، إذن جانيا لا يعرف شيئاً عن هذا؟ يبدو أن هناك أشياء كثيرة لا يعرفها جانيا.

- أتعرف أنني أحبك في الحقيقة كثيراً أيها الأمير؟ إنني لن أنسى أبداً ما حدث بعد ظهر اليوم.

- وأنا أحبك أيضاً يا كوليا.

فقال كوليا:

- اسمع. إنك تنوي الإقامة هنا، أليس كذلك؟ أعني ستظفر بعمل تؤديه دائماً وتكسب منه المال، إذن هل يمكن أن نعيش نحن الثلاثة معاً؟ أنت وإيوليت وأنا؟ لسوف نستأجر مسكناً، وسندع الجنرال يأتي لزيارتنا، فما رأيك؟

فقال الأمير:

- يسرني جداً أن أفعل هذا. ولكن ينبغي أن نترث؛ لأنني شديد القلق في الوقت الحاضر، ماذا؟ هل وصلنا- أهذا هو البيت، يا له من سلم عديد الدرجات؟ وها هنا أيضاً بواب؟ حسناً يا كوليا، إنني لا أدري إلام سيتهي هذا الأمر.

وبدا على الأمير أنه شديد الاضطراب في تلك اللحظة، ولكن كوليا هتف بانفعال:

- يجب أن تخبرني بكل شيء غداً. لا تخف. أرجو لك النجاح، إننا متفقان في كل شيء بحيث يمكنني أن أحل محلّك، وإن كنت لا أعرف لماذا جئت هنا. والآن سأهرع عائداً لأحدث إيوليت بمشروعاتك ومقترحاتك. وبما أنك ذاهب إليها، فلا تخف إطلاقاً. لسوف تراها، وسترى أنها موهوبة في كل شيء. إنها تقيم بالطابق الأول، وسوف يدلك البواب عليها.



الفصل الثالث عشر

كان الأمير متوتر الأعصاب جدًّا حين بلغ باب المسكن الخارجي، ولكنه راح يشجع نفسه بالتفكير في أن أسوأ ما يمكن أن يحدث له، هو رفض ناستاسيا لاستقباله، أو ربما حتى إذا استقبلته، فإنها ستسخر من حضوره.

ولكن كانت هناك مشكلة أخرى تخيفه جدًّا، وهي: ماذا سيفعل عندما يدخل؟ ولم يستطع أن يجد لهذه المشكلة الحل المعقول.

لو أن الفرصة فقط تتاح له لأن يقترب من ناستاسيا ويقول لها:

«لا تدمري حياتك بالزواج من هذا الرجل. إنه لا يحبك، وإنما يحب أموالك. لقد قال لي هذا بنفسه، وكذلك قالت أجلايا إيبانشين. وقد جئت لغرض تحذيرك».

ولكن حتى هذا لم يكن يبدو صوابًا أو إجراءً واقعيًّا. ثم هناك مشكلة أخرى حساسة، لا يجد لها حلًّا، بل لا يستطيع في الواقع أن يفكر فيها. إلا أن مجرد تفكيره فيها الآن جعله يضطرب وجعل وجهه يتوهج بالدماء. وأيًا كان الأمر، وبرغم كل مخاوفه، وانتفاضات قلبه، فقد دخل وسأل البواب عن ناستاسيا فيليبوفنا.

وكانت ناستاسيا تقيم في مسكن متوسط الحجم، يلفت النظر بأناقته، جميل في ترتيبه وتأثيره، والواقع أن توتسكي، في فترة ما خلال هذه السنوات الخمس التي عاشتها ناستاسيا في مدينة بطرسبرج، لم يدخر وسعاً في الإنفاق عليها بسخاء وكان قد وضع في حسابه أن ذلك سيؤدي بها إلى أن تحبه، فحاول أن يغريها بألوان الترف والأبهة، مدرّكاً تمام الإدراك مدى السهولة التي تتعود بها النفس على الترف والرفاهية، ومدى الصعوبة في انتزاع الإنسان نفسه من الحياة المترفة التي اعتاد عليها، فأصبحت على مرور الزمن ضرورة حتمية.

ولم ترفض ناستاسيا هذا كله، بل لقد أحبت هذه الحياة المترفة المرفهة، ولكنها - للعجب الشديد - لم تصبح، بأي شكل، معتادة عليها، وإنما كانت تصرفاتها دائماً تنم عن أنها تستطيع أن تنعم أيضاً بالحياة بدون هذا كله. بل إنها في الواقع تمادت إلى حد أنها أخبرت توتسكي في مناسبات عديدة أن هذه هي حقيقة الأمر؛ وكان صاحبنا هذا يعتبر تلك الأقوال غير مرضية حقاً.

ولكن توتسكي لاحظ، في العهد الأخير، خصائص ودلالات عجيبة أصيلة في طبيعة ناستاسيا، ولم يكن في الأوقات السابقة قد لاحظ هذه الخصائص والدلالات أو حسب لها حساباً. ولكن بعضها استهواه وفتنه، حتى الآن، رغم أن جميع تقديراته بشأنها قد ذهبت أدراج الرياح منذ أمد بعيد.

وفتحت الباب للأمير خادمة «وجميع خدم ناستاسيا من الإناث»، ودهش إذ تلقت رجاءه في مقابلة سيدتها بدون أي تعجب، فلا حذاءه القذر، ولا قبعته ذات الحافة العريضة، ولا عباءته التي بلا أكمام، ولا الارتباك الواضح في تصرفاته، كان له أي أثر عليها. لقد ساعدته في خلع عباءته،

والتمست منه أن ينتظر لحظة في ردهة الانتظار ريثما تعلن حضوره.

وكان المدعوون المجتمعون في مسكن ناستاسيا فيليبوفنا لا يتجاوزون نطاق الخاصة من الأصدقاء. وكان عددهم صغيراً جداً بالنسبة للأعداد الكبيرة التي كانت تجتمع لديها في مثل هذه المناسبة - أي الاحتفال بعيد ميلادها - في السنوات السابقة.

وفي مقدمة الحاضرين كان توتسكي والجنرال إيبانشين. وكان كل منهما على جانب كبير من البشاشة والتلطف. ولكن كان يلوح أنهما يعانيان إحساساً شبه خفي من القلق بشأن ما تنويه بخصوص جانيا، وهو ما سوف تعرف نتيجته علناً هذا المساء.

ثم ان هناك، بطبيعة الحال، جانيا الذي لم يكن بأية حال بشوشاً أو لطيفاً كصاحبيه الأكبر منه، وإنما وقف منعزلاً، مكتئب الوجه، تعساً، صامتاً. وكان قد قرر ألا يحضر فاريا معه، ولكن ناستاسيا لم تهتم حتى بالسؤال عنها، وذلك رغم أنه ما كاد يصل حتى ذكرته بما حدث بينه وبين الأمير. وبدأ الجنرال، الذي لم يسمع بالموضوع من قبل، ينصت في شيء من الاستمتاع، بينما راح جانيا، في شيء من الجفاف ولكن في صراحة تامة، يسرد كل ما حدث بما فيه من الاعتذار الذي قدمه للأمير. وفرغ من حديثه بقوله إن الأمير رجل ممتاز جداً، وإن الله وحده يعلم لماذا يعتبره البعض «أبله» مع أنه أبعد الناس عن هذه الصفة.

وأنصت ناستاسيا إلى هذا كله في متعة واهتمام كبير، ولكن المحادثة لم تلبث أن تحولت إلى روجوجين وزيارته. وثبت أن هذا الموضوع أثار أشد الانتباه من كل من توتسكي والجنرال إيبانشين.

واستطاع بيتسين أن يقدم بعض التفاصيل عن تصرفات روجوجين من بعد ظهر اليوم. وقال إنه ظل مشغولاً بالبحث عن المال من أجله، وقد استمر في عملية البحث حتى الساعة التاسعة؛ لأن روجوجين أعلن أنه لا بد قطعاً من أن يحصل على مائة ألف روبل هذا المساء. ثم أضاف قائلاً إن روجوجين كان مخموراً، طبعاً، ولكنه يعتقد أن المبلغ المطلوب سيتجمع؛ لأن حالة الانفعال والسكر التي تسيطر على روجوجين جعلته يقبل أية فائدة مالية يفرضها عليه، كما أن هذه الحالة جعلت كثيراً من المرابين يتنافسون في جمع هذا المبلغ أيضاً.

واستقبل الجميع هذه الأنباء في شيء من الاهتمام والاكثاب. أما ناستاسيا فقد لزمت الصمت، واحتفظت بأفكارها عن الموضوع لنفسها. وكذلك كان موقف جانيا في التحفظ. وبدا أن الجنرال كان أكثرهم جميعاً قلقاً واضطرباً. وكانت هديته اللؤلؤية التي أعدها منذ الصباح بابتهاج شديد، قد تقبلتها ناستاسيا ببرود، بل لقد ابتسمت بجفاء وهي تتناولها منه. وكان فيردشنكو هو الوحيد بينهم الذي ظل في حالة معنوية طيبة.

وكان توتسكي نفسه، المعروف بأنه متحدث من الدرجة الأولى، والروح النابضة عادة في مثل هذه الحفلات، ملتزماً الصمت تماماً، وجالساً في حالة من الاضطراب لم تكن من عادته.

أما بقية المدعوين وهم «أستاذ أو ناظر مدرسة عجوز»، ولا يعلم غير الله لماذا دُعي، وشاب هادئ جداً، خجول، صامت؛ وسيدة عالية الصوت في نحو الأربعين يلوح عليها أنها ممثلة، وسيدة ألمانية حسنة أئيفة لم تنطق بكلمة طيلة السهرة، نقول أما هؤلاء، فلم تكن لديهم موهبة إثارة الحيوية في الاجتماع بل لا يكاد أحدهم يعرف ماذا يقول إذا وجه أحد الحديث إليه.

ومن ثم كان وصول الأمير في هذه الظروف يعتبر نجدة من السماء.

لقد أثار إعلان اسمه موجة من الدهشة، كما رسم الابتسام على شفاه البعض لا سيما عندما وضح من نظرة الاندهاش في عيني ناستاسيا، أنها لم تفكر في دعوته. ولكن ما إن زالت دهشتها حتى لاح عليها من الرضا ما جعل الجميع يعدون أنفسهم لاستقبال الأمير بالابتسامات وعبارات الترحيب.

وقال الجنرال إيبانشين:

- إنه طبعاً فعل هذا بلا أي قصد! ولكن لعل من الخطر أن يشجع الإنسان هذا النوع من... من الحرية! على أن وصوله في هذه اللحظة يعتبر شيئاً طيباً ولعله يحبي الجلسة بعض الشيء بطرائفه.

وقال فيردشنكو:

- لا سيما وقد دعا نفسه بنفسه.

فرد الجنرال الذي كان يزدي فيردشنكو في جفاء:

- وما علاقة هذا بالموضوع؟

فشرح فيردشنكو حديثه بقوله:

- عجباً! لأنه كان عليه أن يدفع ضريبة الدخول!

فرد الجنرال في ضجر وجفاء:

- ها! إن الأمير ميشكين ليس فيردشنكو على كل حال!

وكان الجنرال، المحترم، لا يطبق أبداً مجرد التفكير في الالتقاء بفيردشنكو في أي مجتمع على قدم المساواة.

وقال فيردشنكو:

- أوه، أيها الجنرال، رفقا بفيردشنكو. فإن لي امتيازات خاصة.

- ماذا تعني بالامتيازات الخاصة؟

- قبل أن يكون لي شرف سردها أمام الحاضرين، سوف أكرر الشرح اليوم لصالح فخامتكم. إنك ترى يا صاحب الفخامة، أن الناس جميعاً أذكاء بارعون ما عداي. وهذه هي الحقيقة. وقد سمحت لنفسى أن أعترف بهذه الحقيقة على سبيل التعويض؛ لأن الحقائق المعروفة جداً أن الأغبياء فقط هم الذين يصدقون الحديث. وبالإضافة إلى هذا، فأنا رجل حقود؛ لأنني لست بارعاً. فإذا أساء أحد إليّ أو أهانني؛ فإنني أحتمل هذا بصبر حتى يصاب الذي أساء إليّ أو أهانني بكارثة. وعندئذ أتذكر، وأنتقم، وأرد الإهانة بسبعة أمثالها. كما يقول إيفان بتروفيتش بيتسين «ولكنه طبعاً لا يفعل هذا» ولا شك يا صاحب الفخامة في أنك تذكر أسطورة كريلوف «الأسد والحمار».. أي أنت وأنا. إن هذه الأسطورة تنطبق علينا تمام الانطباق.

فدمدم الجنرال قائلاً:

- يلوح لي أنك عدت إلى لغو الحديث مرة أخرى يا فيردشنكو.

- وماذا يهمك يا صاحب الفخامة؟ فأنا أعرف كيف ألزم حدودي. فعندما قلت الآن إننا، أنت وأنا، نمثل الأسد والحمار في أسطورة كريلوف، فالمفهوم طبعاً أنني أمثل دور الحمار، وأن فخامتكم الأسد الذي قالت تلك الأسطورة عنه:

«إن الأسد الهصور، ملك الغاب..

قد فقد قواه مع تقدم العمر..

وأنا، يا صاحب الفخامة، الحمار.

فقال الجنرال في ضيق لم يحسن إخفاءه:

- إنني متفق معك في هذه النقطة الأخيرة.

وكان هذا كله، بطبيعة الحال، حديثاً سوقياً معدّاً من قبل. إلا أن فيردشنيكو كان قد أقنع الجميع بأنه رجل أحمق مأفون. وقد قال ذات يوم:

- إذا كنتم تأذنون لي بالجلوس معكم وتحتملونني؛ فإنما لأنني، ببساطة، أتحدث هكذا. فأين ذلك الإنسان الذي يمكن أن يستقبل في بيته رجلاً مثلي؟ إنني مدرك لهذا تمامًا. والآن هل يمكن أن يسمح لي أنا- فيردشنيكو- أن أقف على قدم المساواة مع سيد بارع مثل المستر توتسكي! إن هناك تفسيراً واحداً، واحداً فقط، وهو أنكم تسمحون بوجودي بينكم؛ لأن من المستحيل أن يتصوّر أحد مثل هذا.

ويبدو أن هذا الحديث الفظّ قد سرّ ناستاسيا فيليوفا، وذلك رغم قسوته كان يصيب الهدف إلى حد كبير في بعض الأحيان. وكان الراغبون في زيارة ناستاسيا يضطرون إلى احتمال فيردشنيكو. ومن المحتمل أن هذا لم يكن مخططاً في ظنه أن ناستاسيا لا تستقبله فقط إلا لمضايقة توتسكي الذي يبغضه أشد البغض. وكثيراً ما كان جانيا يتعرض للذعات هذا المهرج الذي كان يتبع هذا الأسلوب إرضاء لناستاسيا فيليوفا.

وقال فيردشنيكو:

- لسوف أبدأ بأن أجعل الأمير يغني لنا أغنية شائعة.

ثم نظر إلى ربة البيت ليرى ما سوف تقول. وقد ردت هي بجفاء:

- لا أظن هذا يا فيردشنيكو! أرجو أن تهدأ.

- آها! إذا كان يتمتع بحماية خاصة، فإني أسحب عنه مخالبي.

ولكن ناستاسيا فيليبونا كانت عندئذ قد نهضت لاستقبال الأمير قائلة:

- إنني جد آسفة لأنني نسيت دعوتك للحضور عندما رأيتك. وإنني لسعيدة إذ أمكنني الآن أن أشرك شخصيًا، وأعرب لك عن تقديري للدافع الذي دعاك إلى الحضور.

وكانت تحديق في عينيه وهي تقول هذا، لكي تعرف الدافع الذي حدا به إلى زيارتها في بيتها. وكان من الممكن جدًّا أن يرد الأمير على كلماتها اللطيفة، ولكن مظهرها أذهله بحيث لم يستطع أن يقول شيئًا.

ولاحظت ناستاسيا هذا في غبطة ورضى، وكانت في ذلك المساء في أكمل زيتها، ومن المؤكد أنها حرصت أن تذهل بمظهرها كل من يراها. وتناولت يده، ومضت به إلى بقية ضيوفها، ولكن قبل أن تصل معه إلى باب غرفة الاستقبال، أوقفها الأمير وهمس لها بسرعة وانفعال شديد:

- إنك في غاية الكمال. حتى شحوبك ونحافتك من مظاهر هذا الكمال، ولا يمكن لأحد أن يتمنى رؤيتك على غير هذا، لشد ما أحسست بالرغبة في الحضور لأراك، وأرجو أن.. تغفري لي.

فقال ناستاسيا ضاحكة:

- لا تعتذر، وإلا أفسدت كل ما في الحديث من طرافة وإبداع. وأعتقد أن كل ما يقولونه عنك صحيح، وهو أنك ظريف مبتدع! إذن فأنت تراني غاية في الكمال، أليس كذلك؟

- نعم.

- حسنًا. لعلك أن تكون بارعًا في التخمين، ولكنك، على كل حال، أخطأت الحدس، ولسوف أذكرك بهذه الليلة.

وقدمت ناستاسيا الأمير إلى ضيوفها الذين كان معظمهم يعرفونه.

وبادر توتسكي إلى إلقاء بعض العبارات اللطيفة، وبدأ أن الجميع انتعشوا في الحال، فراحوا يتبادلون الأحاديث والضحك، وجعلت ناستاسيا الأمير يجلس بجانبها.

وقال فيردشنكو:

- ويحي، يبدو أنه ليس ثمة غرابة في حضور الأمير فجأة رغم كل شيء.
وهنا قال جانيا الذي ظل حتى الآن صامتًا:

- إن المسألة جد واضحة، فقد راقبت الأمير طوال اليوم، منذ اللحظة التي شاهد فيها صورة ناستاسيا فيليبوفنا بمنزل الجنرال إيبانشين. وأتذكر أن ما حسبه ظنًا عندئذ قد أصبح الآن يقينًا، وهو ما اعترف لي به أيضًا بنفسه بعد ذلك.

قال جانيا هذا كله بصوت جاد تمامًا، ليس فيه أية رنة من دعابة، بل كان يبدو في الواقع شديد الاكتئاب. وقال الأمير بوجه مضطرم:

- إنني لم أعترف لك بشيء، وإنما أجبت فقط عن أسئلتك.

فهتف فيردشنكو قائلاً:

- مرحى، هذه هي الصراحة على كل حال.

وضحك الجميع، ثم قال الجنرال إيبانشين:

- أوه، أيها الأمير.. أيها الأمير.. ما كنت أظنك قط هكذا؛ لقد ظننتك فيلسوفًا آه منكم أيها الصامتون.

وعلى حين غرة قال ناظر المدرسة العجوز الأدرد الفم الذي لم يكن

حتى ذلك الحين قد فتح فمه:

- إذا حكمنا من اضطرام وجه الأمير - كما يضطرم وجه الفتاة، لهذه الدعابة البريئة، أمكننا القول إنه لا شك يخفي في قلبه - كرجل شريف - أنبل المقاصد.

وأثارت هذه الملاحظة موجة من المرح العام، وقد ضحك الرجل العجوز نفسه ضحكًا متواصلًا انتهى بنوبة عنيفة من السعال مما جعل ناستاسيا التي كانت - لسبب ما - تميل كثيرًا إلى مثل هؤلاء الرجال والنساء العجائز، بل وإلى المرضى بعقولهم - تسرع إليه وتداعبه وتقبله وتأمر له بالمزيد من الشاي، وطلبت من الخادمة أن تأتي له بالشاي وأن تحضر له رداءه الكبير، الذي شملته به، وأن تضع في المدفأة مزيدًا من أخشاب الوقود، ثم سألت عن الوقت، فقالت الخادمة إنه تجاوز العاشرة والنصف.

وفجأة سألتهم ناستاسيا قائلة:

- ألا تريدون أيها السادة شيئًا من الشمبانيا الآن؟ لقد أمرت بإعدادها. ولسوف تنعش نفوسنا، أرجو أن تشربوا بلا رسميات.

وبدت هذه الدعوة إلى الشراب لا سيما بعد أن قدمت بذلك الأسلوب البسيط عجيبة غريبة من ناستاسيا فيليبوفنا؛ ذلك لأنهم كانوا يعرفون أن ترحيباتها السابقة بالمدعوين كانت مشوبة دائمًا بالكثير من المظاهر الرسمية، وهكذا أصبحت الحفلة أكثر مرحًا وانتعاشًا في جملتها وإن لم يكن جوها كالمعتاد دائمًا إلا أنهم، على أية حال، لم يرفضوا الشراب وإنما تناول كل ضيف كأسه فيما عدا جانيا الذي لم يشرب شيئًا.

وكان من العسير جدًّا تفسير سلوك ناستاسيا العجيب الذي كان يزداد

وضوحًا في كل لحظة بحيث لم يستطع أحد أن يتجنب ملاحظته.

لقد تناولت كأسها، وتعهدت أن تفرغها ثلاث مرات في تلك الليلة.

وكانت تتصرف بعصبية، ونضحك عاليًا بين لحظة وأخرى بلا سبب واضح، وفي اللحظة التالية كانت تستغرق في حالة من الاكتئاب والتفكير.

وخطر لبعض ضيوفها أنها لا بد أن تكون مريضة، ثم استقر أمرهم في النهاية على أنها تنتظر شيئًا؛ لأنها كانت تنظر في ساعة يدها بضجر وإلحاح، كما كانت شاردة الذهن أحيانًا، غريبة السلوك.

وقالت الممثلة لها:

- يبدو أنك مضطربة بعض الشيء الليلة؟

فأجابت ناستاسيا قائلة:

- نعم، إنني مريضة، وقد اضطررت إلى وضع هذا المطرف حول كتفي لأنني أشعر بالبرودة.

وكان وجهها، في الحقيقة، قد امتقع بشدة، وبين الحين والآخر كانت تحاول أن تكتم رعدة أطرافها.

وقال توتسكي للجنرال:

- ألا يحسن بنا أن نسمح لمضيفتنا بالراحة؟

فقالت ناستاسيا بلهجة لها دلالتها:

- لا، لا أبدًا أيها السادة، أبدًا. إن وجودكم الليلة معي أمر مهم جدًا. ولما كان معظم الحاضرين على علم بأن قرارًا خطيرًا جدًا سوف يُتخذ في هذه الليلة، فقد وضح أن كلمات ناستاسيا استقبلت باهتمام خفي. ومن

ذلك أن توتسكي تبادل النظرات مع الجنرال، وأخذ جانبا يتململ مضطرباً في مقعده.

وقالت الممثلة على سبيل الاقتراح:

- هلم نلعب شيئاً.

وأضاف فيردشنيكو قائلاً:

- إنني أعرف لعبة جديدة مسلية جداً.

وسألته الممثلة قائلة:

- ما هي؟

- حسنًا. عندما لعبناها كنا مجموعة من الناس، كما هو شأننا الآن مثلاً. واقترح أحدنا أن يقوم كل واحد منا، دون أن يغادر مكانه، بالحديث عن نفسه، بشرط أن يسرد بكل أمانة وصدق أسوأ شيء فعله في حياته. والشرط الأساسي أن يكون أميناً صادقاً ولن يسمح له بالكذب.

وقال الجنرال:

- يا لها من فكرة عجيبة جداً؟

- هذا هو جمالها يا جنرال.

وقال توتسكي:

- إنها فكرة طريفة، ومع ذلك فهي طبيعية تماماً. وإن كانت أسلوباً جديداً للفخر والزهو!

- لعل هذا هو المطلوب يا سيدي.

وقالت الممثلة:

- عجباً! إنها قد تكون لعبة تستدر البكاء لا الضحك والسخرية.

فقال بيتسين:

- إنها شيء سخيف جداً وغير ممكن.

فسألت ناستاسيا قائلة:

- ولكن هل نجحت؟

فقال فيردشنكو:

- تلك هي المشكلة! إنها لم تنجح فعلاً، وإنما فشلت فشلاً ذريعاً. إن كل شخص في الواقع قال شيئاً. وكثيرون قالوا الحقيقة. وبعضهم أحب هذه اللعبة فعلاً، ولكنهم جميعاً خجلوا منها فيما بعد. إنهم لم يستطيعوا احتمالها. ولكنها في جملتها أثارت موجة كبيرة من المرح والطرافة بطبيعة الحال.

فقالت ناستاسيا وقد انتعشت فجأة:

- أعتقد أنها جميلة، هلم نحاولها أيها السادة والسيدات. فنحن في الواقع في حاجة إلى الانتعاش، أليس كذلك؟ فماذا لو وافق الجميع على أن يقول كل منهم شيئاً من هذا النوع، وطبعاً بمحض إرادته، إنها على كل حال لعبة مبتكرة تماماً.

فقال فيردشنكو:

- نعم، هذه فكرة رائعة. وسوف نستثنى السيدات منها. وليبدأ الرجال. ولا حاجة إلى أحد طبعاً أن يقص شيئاً إذا فضل ألا يشترك. ويجب أن نقترح الآن. ضعوا قصاصات أوراقكم أيها السادة في هذه القبة. وسوف يسحب

الأمير الأسماء بالدور. إنها لعبة بسيطة جدًا. إن ما على كل لاعب هو أن يسرد علينا أسوأ شيء فعله في حياته. إنها بسيطة كأى شيء. ولسوف أنبه كل من ينسى أن يلتزم بالقواعد.

ولم يحب أحدهم هذه الفكرة كثيرًا ، ولكن بعضهم ابتسم، وقطب بعضهم الجبين واعترض بعضهم- ولكن في حذر- خوفًا من معارضة رغبات ناستاسيا فيليوفا ذلك أنه بدا أنها أعجبت بهذه الفكرة الجديدة، وكانت لا تزال في حالة من الاهتياج والانفعال العصبي وتضحك عاليًا بسبب وبلا سبب. وكانت عيناها تتوهجان، وعلى كل وجنة من وجنتيها الشاحبتين علامة حمراء متألقة، وكان مظهر الكآبة المرتسمة على بعض ضيوفها قد زاد من شعورها بالتهكم والمرح، وربما أبهجها ما تنطوي عليه هذه اللعبة التي اقترحها فيردشكو من خبث وقسوة، وأيًا كان الأمر، فقد استهوتها الفكرة، وبدأ الضيوف يقتربون منها تدريجيًا، وكانت اللعبة في رأيهم جديدة، وربما تغدو مسلية. وفجأة سأل الشاب الصامت المستكين:

- ولنفرض أن شيئًا ما في الحديث، لا يستطيع المتحدث أن يذكره أمام السيدات؟

فقال فيردشكو:

- عجبًا! إذن لا تذكر طبعًا حادثًا من هذا النوع. وكأنما ليس بين خطاياك الشيء الكثير الذي يمكن أن تقوله بلا حرج أمام السيدات.

وقالت الممثلة اللامعة:

- ولكنني في الواقع لا أدري أي تصرفاتي أسوأ من الآخر؟

- إن السيدات مستثنيات من الاشتراك في هذه اللعبة إذا أردن.

وقال جانيا:

- وكيف يمكنك أن تعرف أن المتحدث لا يكذب؟ وإذا كذب، فإن الكيان الكامل للعبة ينهار.

- أوه، ولكن تصور فقط مدى المتعة التي يحسها الإنسان وهو يسمع أصدقاءه يكذبون أمامه! ولكن، لا حاجة بك إلى أن تخاف شيئاً يا جانيا، فكل إنسان يعرف أسوأ ما فعلت في حياتك دون أن تضطر إلى الكذب. ولكن فكروا فقط أيها السادة..

وهنا ازداد فيردشكو حماسة وهو يردف قائلاً:

- فكروا فقط كيف سينظر كل منا إلى الآخر غداً بعد أن نسرد أحاديثنا. وهنا قال توتسكي:

- ولكن الأمر كله دعاية بلا شك يا ناستاسيا فيليوفنا! فإنك لا تقصدين حقاً أن نلعب هذه اللعبة.

فقالت ناستاسيا باسمه:

- إن الذي يخاف الذئاب، فخير له ألا يدخل الغاب.

فعاد توتسكي يقول بإصرار وهو يزداد قلقاً:

- ولكن معذرة، يا مستر فيردشكو، هل يمكن أن تقوم لعبة ما على شيء كهذا؟ أؤكد لك أنها لا يمكن أن تنجح.

- ولماذا لا؟ لقد تحدثت في آخر مرة لعبت فيها هذه اللعبة عن كيف سرقت ثلاثة روبلات.

- ربما. ولكن من المحتمل جداً أنك سرقتها لكي تبدو في ثوب

الحقيقة، أو لكي تجعل المستمعين يصدقونك. ولكن أقل احتمال في كذب المتحدث يجعل اللعبة تنهار كما قال جانيا، ويبدو لي، من ناحية أخرى، أن أمانة السرد لا تتم إلا على حساب الذوق السليم وهو ما ليس له مجال هنا.

فصاح فيردشنيكو قائلاً:

- يا لك من داهية يا مستر توتسكي؟ إنك تدهشني. فأنتم تلاحظون أيها السادة أنه يشير بأني غير قادر على سرقة ثلاثة روبلات في قوله إنني لم أستطع إقناع المنصتين إليّ بصدق حديثي «واتهامه لي علناً بالعجز عن سرقة ثلاثة روبلات يعتبر قلة ذوق في حد ذاته» هذا مع أنه من المحتمل جداً في نفس الوقت أنه يعتقد في قرارة نفسه أنني جد قادر على هذا النوع من السرقة، ولكن هيا الآن إلى العمل أيها السادة ضعوا قصاصاتكم أيها السادة والسيدات. هل وضعت قصاصتك يا مستر توتسكي؟ حسناً. جميعنا إذن مستعدون. والآن أيها الأمير، اسحب الورق..

ووضع الأمير يده بهدوء في القبعة، وراح يسحب الأسماء، فجاء اسم فيردشنيكو أولاً، ثم بيتسين، ثم الجنرال، ثم توتسكي، ثم اسمه هو، الخامس ثم جانيا، وهكذا.. ولم تشترك السيدات في اللعبة.

وصاح فيردشنيكو:

- أوه، ويحي، ويحي، كنت أمل أن يكون الأمير أولاً، ثم الجنرال. حسناً أيها السادة، أعتقد أنه من واجبي أن أضرب المثل الطيب. ولكن ما يسخطني كثيراً أنني لست إنساناً له أهميته بحيث يهتم أحد في كثير أو قليل بما إذا كنت قد ارتكبت أموراً سيئة أم لا. وعدا هذا، فأني أعمالي السيئة أختار؟ إنها مشكلة عويصة. هل أذكر كيف أصبحت لصاً في ذات مرة لكي أقنع المستر

توتسكي أنه من الممكن أن يسرق الإنسان دون أن يصبح لصاً؟

فقالت ناستاسيا فيليوفنا:

- أرجوك أن تستمر في حديثك يا فيردشنكو، ولا داعي لهذه المقدمة التي لا ضرورة لها، وإلا فإنك لن تنتهي.

ولاحظ الجميع كيف عادت ناستاسيا إلى حالة التوتر العصبي والجفاء منذ آخر نوبة ضحك استبدت بها. ولكنها لم تتزحزح قيد أنملة عن إصرارها في التثبت بنزوتها الغريبة بشأن هذه اللعبة. وقد جلس توتسكي وهو أشد ما يكون بؤساً. وأخذ الجنرال يحسو كأسه متمهلاً وقد لاح أنه يفكر في قصة يسردها عندما يأتي عليه الدور.



الفصل الرابع عشر

وبدا فيردشكو الحديث بقوله:

- إنني لست ذكيًا ألمعيًا يا ناستاسيا فيليوفنا، ولعل هذا هو السبب في أنني أكثر من الحديث. فلو أنني كنت ألمعيًا، مثل المستر توتسكي الآن، أو الجنرال، لكان من المحتمل أن ألتزم الصمت طيلة المساء، كما يفعلان. والآن ما رأيك أيها الأمير؟ ألا يوجد في هذا العالم من اللصوص أكثر كثيرًا من الشرفاء الأمناء؟ ألا ترى أنه يمكن القول بأنه لا يوجد شخص واحد بلغ من الأمانة أنه لم يسرق شيئًا أبدًا كان في حياته.

فقال الممثلة:

- يا له من رأي سخيف. طبعًا ليس الأمر كذلك. فأنا كإنسانة، لم أسرق شيئًا قط.

- هه! حسنًا جدًّا يا داريا ألكسينا. إنك لم تسرقي شيئًا، اتفقنا. ولكن كيف الحال مع الأمير! انظروا كيف يضطرم وجهه.

فقال الأمير الذي كان وجهه، حقًّا قد اضطرم فجأة لسبب أو لآخر:

- أعتقد أنك على صواب نسبيًا، ولكنك تبالغ.

وهنا قالت ناستاسيا المتوترة الأعصاب لفيردشنيكو بصوت حاد قاطع:

- فيردشنيكو. إما أن تحدثنا بقصتك أو تسكت وتعني بأمورك الخاصة.

لقد أفرغت جعبة صبرنا.

- حالاً حالاً، أيها السادة، فإنها أسخف وأغرب من أن أذكرها. وأؤكد لكم أنني لست لصاً، ومع ذلك فقد سرت، ولا أستطيع أن أشرح السبب، لقد حدث الأمر في يوم أحد بالمنزل الريفي لسيميون إيفانوفيتش إيشنكا، حيث كان يقيم وليمة عشاء. وبعد الفراغ من الطعام، بقي الرجال حول المائدة يشربون. وخطر لي أن أطلب من ابنة رب البيت أن تعزف لنا شيئاً على البيانو. ومن ثم مررت من غرفة ركنية لأنضم إلى السيدات، وهناك، في الغرفة الركنية، رأيت على مكتب ماريا إيفانوفنا ورقة مالية من فئة ثلاثة الروبلات. ويبدو أنها تناولت هذه الورقة النقدية لغرض ما، ثم تركتها على المكتب. ولم يكن بالغرفة أحد، فأخذت الورقة النقدية ووضعتها في جيبِي، لماذا؟ لا أستطيع أن أعرف، إنني لا أعرف ماذا دهاني لكي أفعل هذا، ولكن ما حدث قد حدث، وعدت مسرعاً إلى قاعة الطعام، حيث جلست، أنتظر، في حالة انفعال شديد. وتحدثت كثيراً، وسردت الكثير من الأقاصيص وضحكت كالمجانين، ثم انضممت إلى السيدات. وبعد نصف ساعة أو نحو ذلك، اكتشفت السرقة، ووضع الخدم موضع الاتهام. وحامت الشبهات حول داريا، الخادمة. وأظهرت أنا أشد الاهتمام والعطف. وأذكر أن داريا المسكينة فقدت السيطرة على زمام أعصابها، وإنني بدأت أؤكد لها، أمام المدعويين جميعاً، أنني سأضمن لها صفح سيدتها عنها إذا هي اعترفت بالسرقة، وكانوا جميعاً يحملقون في الفتاة، وأذكر أن الموقف بالنسبة لي كان مثيراً جداً وأنا أتخذ سمت الواعظ بينما المال المسروق في جيبِي طيلة

الوقت. وقد أنفقت الروبلات الثلاثة في مطعم، في ذلك المساء نفسه. لقد دخلت المطعم، وطلبت زجاجة شراب، وشربتها؛ لأنني أردت أن أتخلص من هذا المبلغ. ورغم أنني لم أشعر بندم شديد عندئذ أو بعد ذلك، إلا أنني قررت ألا أكرر هذا العمل أبداً. صدقوني إن شئتم أو لا.. فهذا هو كل شيء.

وهنا قالت الممثلة بوجه ينم عن النفور الواضح:

- إلا أن هذا طبعاً ليس أسوأ ما فعلت في حياتك!

وقال توتسكي:

- هذه ظاهرة نفسية، وليست حدثاً.

وقالت ناستاسيا فيليوفنا باحتقار واضح:

- وماذا عن الخادمة؟

- أوه. لقد طردت من الخدمة طبعاً في اليوم التالي؛ لأن أصحاب البيت كانوا حازمين جداً في هذه المسائل.

- وقت تركت أنت هذا يحدث؟

فضحك فيردشنكو قائلاً وقد لاحت عليه بعض الدهشة للأثر السيئ الذي تركته قصته في نفوس الجميع:

- نعم، طبعاً، فلم يكن من المعقول أن أعود في اليوم التالي وأعترف.

وقالت ناستاسيا:

- يا لك من دنيء!

- عجباً!! أتريدون أن تسمعوا رجلاً يتحدث عن أسوأ أفعاله، ثم تتوقعون أن تكون القصة عذبة طريفة؟! إن أسوأ أعمال الإنسان يكون عادة

عملاً صغيراً. ولسوف نرى ماذا سيقول الجنرال عن نفسه الآن. فليس كل ما يلمع ذهباً كما تعلمون. وليس من المحتم أن يكون الرجل الذي يمتلك مركبة خاصة، طاهراً جداً! أوكد لكم أن كثيراً من مختلف الناس يمتلكون مركبات خاصة، ولكن كيف حصلوا عليها؟!

وعلى الجملة، كان فيردشنيكو قد اشتد غضبه، وبسرعة نسي نفسه. وبدأ وجهه كله مشدوداً بالانفعال الشديد؛ ذلك أنه، وقد يبدو هذا عجيباً، كان يتوقع نجاحاً أكثر لهذه القصة. وكانت هذه الأخطاء الصغيرة التي يرتكبها فيردشنيكو في مجال الذوق السليم كثيراً ما تحدث. أما ناستاسيا فقد ارتعدت بالغضب، وركزت نظراتها عليه، بينما استكن هو في صمت مشوب بالجزع بعد أن أدرك أنه تمادى أكثر مما ينبغي.

وقال توتسكي:

- ألا يحسن أن نضع حدًا لهذه اللعبة!

وقال بيتسين:

- إنني التالي. ولكنني أرجو إعفائي.

فقالت ناستاسيا:

- ألا يهملك أن تجاملنا؟

- لا أستطيع، أوكد لك، أنني أعترف بأنني لا أفهم كيف يستطيع أي شخص أن يقوم بهذه اللعبة؟

فقالت ناستاسيا للجنرال:

- إذن هذا دورك يا جنرال. فإذا رفضت، فسوف تنهار اللعبة من أساسها

وهذا ما سوف يكدرني جدًّا؛ لأنني أنوي أن أسرد صفحة معينة من حياتي،
إنني فقط منتظرة أن تفرغ أنت والمستر توتسكي من دوريكما.

ثم أضافت قائلة وهي تبسم:

- لأنني في حاجة إلى من أحذو حذوه.

فهتف الجنرال بانفعال:

- أوه، إن كان الأمر كذلك، فأنا مستعد أن أسرد قصة حياتي بأكملها،
ولكن ينبغي أن أعترف أنني أعددت قصة قصيرة لأذكرها في دوري.

وابتسمت ناستاسيا له في تلفظ، ولكن كان الواضح أن حالة الضيق
والتوتر العصبي تزداد معها لحظة بعد أخرى. أما توتسكي فقد اشتد جزعه
حين سمعها تتعهد بأن تكشف عن جانب من حياتها.

وبدأ الجنرال الحديث بقوله:

- إنني، كأني شخص آخر، قد ارتكبت أعمالاً معينة لا تليق، إن صح
هذا التعبير، في خلال مرحلة حياتي. ولكن أعجب شيء في الموضوع
كله، هو اعتباري لهذه النادرة الصغيرة التي سأعترف لكم بها الآن، أسوأ
ما ارتكبت في حياتي من أعمال. لقد مضى على حدوثها الآن نحو خمسة
وثلاثين عامًا، ومع ذلك، فأنا لا أستطيع، حتى اليوم أن أذكر ظروفها دون أن
أشعر بانتفاضة ندم مفاجئة في قلبي.

كانت المسألة في ذاتها تافهة. وكنت عندئذ برتبة ملازم ثان. وأنتم
تعرفون أن الشاب في هذه المرحلة تكون دماؤه حارة كالماء المغلي، وجيبه
عادة خالي الوفاض. وكان لديّ خادم يدعى نيكيفور يقوم على خدمتي في
المعسكر. وكان يعمل على تدبير وتوفير كل شيء لي، ولا يتورع عن أخذ

أي شيء يعثر عليه «ولو كان ملكًا للغير» لكي يضيفه إلى ما في مسكني من أشياء. ولكنه في جملته أمين مخلص.

وكنت، حازمًا مع تحري العدل. وكنا في ذلك الحين معسكرين في مدينة صغيرة حيث اتخذت محلًا لإقامتي في بيت أرملة، أرملة ضابط تبلغ من العمر ثمانين عامًا. وكانت تقيم في بيت صغير حقير من الخشب، وليس لديها خادم لشدة فاقتها.

وكان جميع أقاربها قد ماتوا جميعًا- وزوجها كان قد مات ودفن منذ أربعين عامًا، كما ماتت أيضًا ابنة أخت لها عاشت معها ثلاثة أعوام أسوأ عيشة. ومن ثم غدت وحيدة تمامًا.

وأحسست بالضجر الشديد في حياتي معها، لا سيما وقد كانت صبيانية السلوك بحيث لم أستطع أن أستريح في التعامل معها- ثم حدث أن سرقت دجاجة مني. والواقع أن المسألة كلها لا تزال غامضة حتى اليوم. ولكن لم يكن من الممكن أن يسرقها أحد غيرها. ومن ثم طلبت أن أنقل للسكنى في مكان آخر، فانتقلت إلى الطرف الآخر من المدينة، إلى بيت تاجر كبير الأسرة، طويل اللحية كما أتذكره. وقد ابتهجت أنا ونيكيفور بهذا الانتقال، ولكن الأرملة العجوز لم تبتهج.

وبعد يوم أو اثنين، كنت عائداً من التدريب عندما قابلني نيكيفور وقال لي:

«ما كان ينبغي أن تترك وعاء الحساء عند السيدة العجوز، فإنني لا أجد شيئاً أضع فيه الحساء».

فسألته كيف حدث؟ إننا تركنا وعاء الحساء عندها، فقال: إنها رفضت

أن تعطيه له، قائلة: إننا كسرنا وعاء مماثلاً له، وأن الواجب أن تأخذ وعاءنا بدلاً عنه. وقالت أيضاً: إنها سوت هذا الأمر معي أنا.

وبطبيعة الحال، أثارت دناءتها هذه دمائي الحارة إلى درجة الغليان، فوثبت، وانطلقت إليها، ولما وصلت إلى بيتها كنت قد فقدت زمام السيطرة على أعصابي، وكانت هي جالسة في الركن وحيدة، معتمدة بوجهها على يدها، فحططت عليها كهدير الرعد وقلت لها: «أيتها العجوز التعسة» وأخذت أشتمها بصوت مرتفع، بالأسلوب الروسي الصميم.

ولكن عندما بدأت في صب اللعنات عليها، حدث أمر عجيب. لقد نظرت إليها، ونظرت هي إليّ محملقة بعينين جاحظتين دون أن تلفظ بكلمة. وبدالي أنها تترنح في جلستها وهي ممعنة في التحديق إليّ في أغرب سمت، حسناً. وتوقفت بسرعة عن شتمها، ثم نظرت إليها من قرب، وألقيت عليها بعض الأسئلة. ولكن كلمة واحدة لم تصدر عنها.

وكان طنين الذباب الذي يملأ الغرفة، هو الصوت الوحيد الذي يقطع السكون، أما في الخارج، فكانت الشمس تنحدر نحو المغيب، ولم أدر ماذا أفعل، فخرجت.

وقبل أن أصل إلى مسكني، استدعيت لمقابلة الميجور، ومن ثم تأخرت في العودة إلى المسكن بعض الوقت. ولما عدت استقبلني نيكيفور وقال لي: «هل سمعت يا سيدي أن السيدة العجوز ماتت!» فقلت: «ماتت! متى؟» فقال: «منذ ساعة ونصف ساعة» ومعنى هذا تمامًا أنها كانت تحتضر وأنا أنهار عليها بالشتائم واللعنات.

ترك هذا أثراً كبيراً في نفسي، وقد اعتدت أن أرى هذه المرأة العجوز

المسكينة في أحلامي.. وأنا في الواقع، لا أؤمن بالأوهام والخرافات. ولكنني بعد يومين حضرت جنازتها، ثم أخذت أزداد تفكيراً فيها يوماً بعد يوم، وكنت أقول لنفسي: لقد عاشت هذه المرأة، هذه المخلوقة الآدمية، عمراً مديداً، وكان لها أبناء وزوج وأسرة وأقارب. وكانت ناعمة بالوجوه الباسمة حولها، وكل ما في بيتها ينم عن السعادة والرضى. ثم إذا بهم جميعاً يموتون، وتبقى هي بمفردها كالذبابة الوحيدة. كالذبابة التي تنوء بالشيخوخة.

وأخيراً يدعوها الله إليه في ساعة الغروب من يوم صيف جميل تصعد روحها إلى بارئها. وهي حالة كما ترون، تثير الشيء الكثير من التأمل. ثم انظروا بدلاً من الدموع والصلوات التي تصحب روحها في رحلتها الأخيرة، إذا باللعنات وعبارات السخرية والتهكم تنصب عليها من ضابط شاب يقف أمامها، ويدها في جيبه. يثير ضجة هائلة بسبب وعاء حساء!

وشعرت بالندم طبعاً، بل إنني الآن، كلما رجعت بذاكرتي إلى ذلك الحادث، بهدوء، أحسست بالعطف على تلك المسكينة العجوز. وأكرر القول بأنني ما زلت أعجب من نفسي لهذا؛ لأنني في الواقع لم أكن مسئولاً عن هذا كله، فلماذا مثلاً قررت أن تموت هي في هذه اللحظة بالذات، ولكنني كلما فكرت في الأمر، ازدادت إحساساً بثقل الندم على نفسي، ولم أستطع أن أتحرر من هذا الشعور حتى أدخلت امرأتين عجوزين في ملجأ خاص وأبقيتهما فيه على حسابي. هذه هي قصتي. ويمكنني القول إنني ارتكبت الكثير من الخطايا في حياتي، ولكنني لا أستطيع إلا أن أعتبر هذه الحادثة أسوأ ما فعلت.

وقال فيردشنكو:

- ها! بدلاً من أن تذكر لنا عملاً سيئاً، أخذت فخامتكم تقص علينا

تفاصيل أنبل عمل قمت به! لقد ضاع فير دشنكو!

وقالت ناستاسيا بصوت حالم:

- ويحي يا جنرال، إنني لم أكن أتصور أن لك مثل هذا القلب الطيب!
وضحك الجنرال في غبطة بالغة، ثم عاد إلى كأس شرابه.

وجاء الدور عندئذ على توتسكي، وأخذ الجميع ينتظرون قصته بفضول وهم يركزون أنظارهم على ناستاسيا فيليوفنا وكأنما يتوقعون أن حديثه لا بد أن يكون له علاقة بها. وكانت هي، طوال سرده لقصته، تجذب النمنمة التي تزين كم ثوبها، دون أن تلقي نظرة واحدة على المتحدث. وكان توتسكي رجلاً وسيماً متين الأسر، مهذب الطباع، وقور السميت. وكانت له يدان بضتان بيضاوان يزين إصبع إحدهما خاتم ماسي فاخر.

وقد بدأ حديثه بقوله:

- إن ما يخفف الأمر إلى حد كبير في نظري، هو أنني مضطر لأن أتذكر وأسرّد أسوأ عمل في حياتي. وليس ثمة شك فيما ينبغي أن يقال في ظروف كهذه. فإن ضمير الإنسان سرعان ما يخبره بما ينبغي أن يقول. وأنا أعترف بأن من بين الأفعال الكثيرة الحمقاء الطائشة التي ارتكبتها في حياتي، ذكرى حدث يتقدمها جميعاً، ويذكرني بأنه لا يزال يحط كالصخرة على قلبي. فقد حدث منذ عشرين عامًا تمامًا أنني زرت بلاتون أورووزيرف في بيته الريفية. وكان قد انتخب حديثاً كبيراً للطبقة الراقية في المجتمع. وكان قد ذهب إلى بيته الريفية لقضاء العطلة الشتوية مع زوجته الشابة أنفيزا ألكسينا. وحدث أن اقترب يوم عيد ميلادها في ذلك الحين أيضًا، فتمت الاستعدادات لإقامة حفلين راقصين، وكانت تحفة إسكندر ديماس الصغير «غادة الكاميليا»-

وهي رواية خالدة في رأيي - قد أصبحت يومذاك حديث المجتمع. وكانت السيدات في الأقاليم مجنونات بها، أو على الأقل، اللاتي قرأنها. وأصبحت زهور الكاميليا أيضًا أطروفة الموسم، الجميع يبحثون عنها، والجميع يريدونها، والجميع يتسابقون في الحصول على كميات هائلة منها في المدينة، لا سيما والاستعدادات تجري لإقامة حفلين راقصين، وكان بيتر فوخوفسكوي المسكين غارقًا إلى أذنيه في حب أنفيزا ألكسينا. ولم أكن أدري مدى تطور هذا الحب - أعني لم أكن أعرف ما إذا كان في مقدوره أن يأمل منها في شيء، وكان المسكين يوشك أن يفقد عقله في سبيل الحصول على باقة من زهور غادة الكاميليا ليقدمها إليها. وكانت الكونتس سوفسكي، وصوفيا بسيلوفا - كما عرف الجميع - ستقدمان باقتين من زهور الكاميليا البيضاء. ولكن أنفيزا كانت تهفو إلى زهور حمراء لدلالاتها على الحب. وراح زوجها، بلاتون، يبذل كل ما في وسعه ليظفر لها بما تريد. وفي اليوم السابق على الحفلة، استطاعت منافسة أنفيزا - في المجتمع - أن تظفر - دون بلاتون - بكل زهور الكاميليا الحمراء الموجودة في المنطقة. وأحس بلاتون، المسكين، أن نجمه قد أفل مع زوجته. ولو أن بيتر استطاع في تلك اللحظات أن يتقدم إليها بباقة من الزهور الحمراء، لقفزت آماله الضعيفة خطوات واسعة معها. فإن إحساس المرأة بالجميل في ظروف كهذه لا حدود له. ولكن الحصول على زهور الكاميليا الحمراء عندئذ كان في حكم المستحيل.

ولكنني التقيت ببيتر في الليلة السابقة على الحفلة، فوجدته متألق الوجه بشراً، فقلت له: «ماذا حدث؟» فقال: «وجدتها.. وجدتها..» «عجباً! أين؟» «في مدينة إيكسايسكي (وكانت مدينة صغيرة تبعد خمسة عشر ميلاً)

وقد وجدت فيها تاجرًا عجوزًا ثريًا يهوى تربية العصافير المغردة، وليس له أبناء، ويشغف مع زوجته بالزهور شغفًا شديدًا، وقد وجدت لديه بعض زهور الكاميليا الحمراء» فقلت: «وماذا لو أنه رفض أن يعطيك بعضها؟» فقال: «سوف أركع أمامه وأتوسل إليه حتى يعطيني بعضها وإلا رفضت الانصراف من بيته»، «ومتى ستذهب إليه؟»، «غداً في الخامسة صباحاً» فقلت: «امض في سبيلك، وليكن الحظ معك».

وعدت إلى بيتي وأنا مبتهج لصاحبي هذا المسكين. ولكن لم ألبث أن خطرت ببالي فكرة ما. ولست أدري لماذا. وكانت الساعة قد قاربت الثانية بعد منتصف الليل. فدققت الجرس، وطلبت إلى الخدم إيقاظ سائق المركبة وإرساله إليّ، ولما حضر، منحته خمسة عشر روبلاً، وطلبت إليه أن يعد المركبة فوراً. وفي نصف ساعة كانت معدة، فركبتها، وانطلقت بها.

وفي الخامسة صباحاً كنت قد وصلت إلى حانة مدينة إيكسيسكي، وهناك انتظرت حتى أسفر الفجر، وبعد السادسة، انطلقت في طريقي إلى بيت التاجر الثري حيث قلت له: «أبي، أنقذني، أنقذني بزهور الكاميليا، إنني في حاجة إلى باقة منها» وكان سيّداً طويل القامة، عجوزاً، أشيب الشعر، رهيب المنظر. وقد أجاب قائلاً: «ولا زهرة واحدة» فركعت أمامه وتوسلت قائلاً: «لا، لا تقل هذا. فكر فيما أنت فاعل بي، إنها مسألة حياة أو موت» وعندئذ قال: «إن كان الأمر كذلك، فخذها جميعاً» فنهضت، وقطفت باقة فاخرة من الزهور الحمراء، وكان لديه بيت نبات زجاجي مليء بزهور الكاميليا. ولما حاولت أن أقدم إليه مائة روبل، عندما رأيته يتنهد، قال: «لا، لا.. لا تهني هكذا» فقلت: «أوه، إذا كان الأمر كذلك، فيمكنك أن تتبرع لمستشفى القرية بهذا المبلغ» فقال: «آه، هذه مسألة أخرى مختلفة تماماً،

وإنه لجميل منك هذا الكرم. ولسوف أدفع المبلغ للمستشفى باسمك بكل سرور». وأحبيت ذلك الرجل العجوز، الروسي الصميم. وعدت إلى بيتي منتشيًا. وحرصت على أن أتخذ طريقًا آخر أثناء العودة حتى لا ألتقي ببيتر. وبمجرد أن وصلت أرسلت باقة الزهور إلى أنفيزا لتراها حين تفتح عينيها في الصباح.

ويمكنكم أن تتصوروا مبلغ ذهولي من فرط البهجة وعمق عرفانها بجميلي. أما بلاتون المسكين، زوجها الذي كاد يموت من فرط ما انهال عليه من ملام وتوبيخ في اليوم السابق، فقد وضع رأسه على كتفي وبكى، وأما بيتر البائس، فقد ضاع كل أمل له بعد ذلك.

وظننت في بادئ الأمر أنه سيقتلني، فحرصت على أن أذهب للقائه مسلحًا، ولكن وقع الأمر كان عليه مختلفًا. فقد سقط فاقد الوعي حين علم بالأمر، وأصيب بالحمى في رأسه، وبالاختلاجات العصبية في جسمه. وبعد شهر استرد صحته ورحل إلى القرم حيث مات في الحرب الدائرة فيها.

وأؤكد لكم أن ما حدث لم يدعني أشعر بسلام أعوامًا عديدة. إذ كنت أتساءل: لماذا فعلت هذا؟ إنني شخصيًا لم أكن أحبها. وأخشى أن أقول إنني فعلت هذا بدافع من الشر.. والشر فقط.

فلو لم أخدعه وأظفر دونه بتلك الباقة، لكان من المحتمل أن يبقى على قيد الحياة الآن. وأن يكون سعيدًا أيضًا. وربما نجح في حياته ولم يذهب إلى محاربة الأتراك في القرم».

واختتم توتسكي حديثه بنفس اللهجة الجادة الوقورة التي تميزت بها البداية وكانت عينا ناستاسيا الآن تتوهجان بطريقة واضحة تمامًا، وشفثاها

تختلجان عندما فرغ توتسكي من قصته.

وأخذ جميع المدعوين يرقبون الاثنين مستطلعين، وأخيراً صاح فيردشكو بصوت داعم وهو يدرك أن عليه أن يقول شيئاً:
- لقد خُدع فيردشكو.. خُدع خديعة فاضحة! نعم.. خُدع بطريقة كلها العار.

فقالت داريا ألكسينا بصوت ينم عن الانتصار:

- ومن قال لك أن تكون أحمق مأفوناً! لهذا يحسن بك أن تتلقى الدروس عن الناس الأذكياء.

وهنا قالت ناستاسيا فيليوفنا بصوت عادي:

- صدقت يا توتسكي، إنها حقاً لعبة سخيفة وحمقاء... ولسوف أسرد قصتي ثم نلعب جميعاً الورق.

وصاح الجنرال:

- نعم، ولكن، لنسمع القصة أولاً.

وفجأة التفتت ناستاسيا فيليوفنا نحو الأمير ميشكين وقالت له:

- ها هما ذان أيها الأمير صديقي القديمان: توتسكي، والجنرال إيبانشين اللذان يريدان أن يزوجاني. أخبرني برأيك؟ هل أتزوج أم لا، لسوف أفعل ما تراه.

وامتنع وجه توتسكي حتى غدا كالصفحة الناصعة. وجمد الجنرال في مكانه لا ينطق وانتفض الجميع وأرهفوا الأذان، والتصق جانبا بمقعده.

وسأل الأمير في خفوت:

- بمن تتزوجين؟

فقالت ناستاسيا بثبات وحزم:

- بجافريلا أرداليونوفيتش إيفولجين

ومرت لحظات من الصمت المطبق.

وحاول الأمير أن يتكلم، ولكنه لم يستطع أن يجمع الكلمات، وكأنما ثمة عبء ثقيل يحط على صدره ويخنق أنفاسه..

وأخيرًا همس وهو يلتقط أنفاسه بجهد:

- لا، لا تتزوجي به.

- ليكن ما تقول إذن.

ثم استدارت إلى جانبا وأردفت قائلة بوقار وحزم:

- جافريلا أرداليونوفيتش، لقد سمعت قرار الأمير، اعتبره قراري أيضًا.

ولندع الأمر ينتهي عند هذا الحد تمامًا.

وصاح توتسكي بصوت مرتعش:

- ناستاسيا فيليوفنا!

وصاح الجنرال بصوت إغرائي، مليء بالانفعال:

- ناستاسيا فيليوفنا!

وأخذ كل شخص في الغرفة يتململ في مقعده، ويتنظر ما سوف يحدث بعد ذلك.

واستطردت تقول وهي تلفت حولها في دهشة واضحة:

- حسناً أيها السادة؟ لماذا يلوح عليكم الجزع إلى هذا الحد؟ لماذا أنتم مهمومون هكذا؟

فقال توتسكي متلعثماً:

- ولكن تذكر يا ناستاسيا فيليوفنا! لقد وعدتنا.. وعداً حرّاً؟ وكان يمكنك أن تجنبينا هذا. إنني أعرف أنني مرتبك، وحائر.. ولكنك في لحظة واحدة، وبكلمة واحدة، وأمام الجميع، وبغير تمهيد أو ترتيب، تنهين اللعبة بمثل هذا القرار الخطير الذي يتعلق بالشرف وبالحب...

- إنني لا أفهم ما تعني يا مستر توتسكي، فأنت في الواقع لا تدري ماذا تقول، فأولاً ماذا تعني بقولك: «أمام الجميع»! ألا ترى أن هؤلاء الجميع جديرون بالتصريح أمامهم بشيء كهذا؟ ثم ما كل هذا الحديث عن «اللعبة» لقد أردت أن أقول لكم قصتي القصيرة، وقد قلتها لكم. لقد سمعت ما قلته أنا للأمير: «لسوف أفعل ما تراه» ولو أنه قال «نعم» لوافقت على الزواج، ولكنه قال: «لا» ولهذا رفضت. لقد تعلقت هنا بحياتي كلها بكلمة منه، فلا شك أنني كنت جادة إذن!

وصاح الجنرال قائلاً بعد أن عجز عن الاستمرار في كبت غضبه:

- الأمير! وما شأن الأمير، وأيم الله، بهذا الأمر؟ ومن هو هذا الأمير بحق الشيطان؟

- إن للأمير شأنًا في هذا. لقد رأيت فيه، لأول مرة في حياتي، الرجل الموهوب بالروح الصادقة الأصيلة، وإنني لأثق فيه، وقد وثق بي منذ اللحظة الأولى ووثقت به.

وهنا قال جانيا بشفتين مرتعدتين وعلى وجهه صفرة الموت:

- لم يبق أمامي إذن إلا أن أشكر ناستاسيا فيليوفنا على الرقة البالغة التي عاملتني بها. هذا هو واجبي طبعًا. ولكن الأمير ما شأنه بالأمر؟
فقالت ناستاسيا فيليوفنا:

- إنني أدرك ما تهدف إليه، إنك تومئ بأن الأمير، يسعى وراء الخمسة والسبعين ألف روبل. إنني أفهمك تمامًا. وقد نسيت أن أقول لك يا مستر توتسكي «خذ روبلاتك الخمسة والسبعين ألفًا» إنني لا أريدها، وسوف أحرك بلا ثمن. استمتع بحريتك فلا شك أنك في حاجة إليها. إن عبودية تسعة أعوام وثلاثة أشهر جد كافية لأي إنسان. وغدًا سأبدأ حياة جديدة، أما الليلة فأنا إنسانة حرة لأول مرة في حياتي.
ثم أردفت قائلة للجنرال:

- وأنت يا جنرال، يجب أن تسترد عقدك اللؤلؤي أيضًا - قدمه لزوجتك، هذا هو. وغدًا سأرحل عن هذا المسكن، ولن يكون ثمة اجتماعات لطيفة كهذه بعد اليوم أيها السادة والسيدات.

قالت هذا وهي تنهض في احتقار، وكأنما تنوي الانصراف.

- ناستاسيا فيليوفنا، ناستاسيا فيليوفنا.

انطلقت هذه الكلمات بلا وعي من أفواه الجميع. وانتفض جميع الحاضرين في حيرة وانفعال، وتحلقوا حولها؛ وكانوا جميعًا قد أنصتوا إلى عباراتها المتقطعة العنيفة، وكانوا جميعًا قد شعروا بأن شيئًا ما قد حدث.. شيئًا قد بلغ في مضمار الخطأ شوطًا بعيدًا. ولكن لم يستطع أحد أن يعرف للموضوع رأسًا من عقب.

وفي تلك اللحظة سمع الجميع جرس الباب الخارجي يصلصل بعنف

شديد، مصحوبًا بطرقات عالية، تمامًا كالطرق التي انتفض لها الجميع في بيت جانبا بعد ظهر اليوم.

وصاحت ناستاسيا قائلة:

- آها، ها هي ذي آخرة المطاف! أخيرًا بعد منتصف الليل بنصف ساعة. اجلسوا أيها السادة، أرجوكم، إن شيئًا ما يوشك أن يحدث.

قالت هذا وعادت تجلس وقد تلاعبت على شفيتها ابتسامة غريبة. وظلت ساكنة في مكانها ترقب الباب بلهفة محمومة.

وغمغم بيتسين قائلاً لنفسه:

- لا شك أنه روجوجين وروبلاته مائة ألف.



الفصل الخامس عشر

أقبلت كاتيا- الخادمة- وهي في حالة خوف شديد، تقول لسيدتها
ناستاسيا:

- لا يعلم غير الله معنى هذا كله؟ لقد حضرت مجموعة كاملة من
الرجال، وكلهم من الغوغاء، ويريدون مقابلتك، وهم يقولون: «إنه
روجوجين وهي تعرف كل شيء عن الموضوع».
- حسنًا يا كاتيا، دعيهم يدخلون فورًا.

- ليسوا جميعًا طبعًا يا سيدتي، فإنهم كما يبدو من الصعاليك، وإن
منظرهم لمخيف.

- أدخليهم جميعًا يا كاتيا- كل واحد منهم- دعيهم يدخلون، وإلا
فإنهم سيأتون سواء رضيت أم رفضت. اسمعوا، يا لها من ضجة يحدثونها!
لعلكم تستاءون أيها السادة إذ أستقبل مثل هؤلاء الضيوف في حضوركم؟
إنني آسفة جدًا وألتمس منكم الصفح، ولكن ليس ثمة مندوحة من هذا، وإنه
ليسرني جدًا إذا استطعتم أن تبقوا جميعًا لتشهدوا الختام، وعلى كل حال،
فأنتم وما تحبون طبعًا.

وتبادل الضيوف النظرات، وكان ما قد حدث قد أثار استيائهم وحيرتهم ولكن كان من الواضح أن ناستاسيا فيليوفنا قد أعدت هذا كله من قبل وتوقعته وأنه ليس ثمة جدوى من محاولة وقفها عند حد الآن؛ لأنها قاربت حد الجنون.

وعدا هذا، فقد كانوا جميعاً، بطبيعة الحال، تواقين ليروا ماذا سيحدث. ولم يكن بينهم من يحتمل أن يشعر بالجزع الشديد. إذ لم يكن هناك غير سيدتين: إحداهما الممثلة الرشيقة التي لا يسهل إفزعها، والأخرى، الحسنة الألمانية الصامته، التي ظهر أنها لا تعرف كلمة روسية واحدة، والتي يلوح أن لها من الغباء بقدر ما لها من جمال.

وكان معارفها يدعونها إلى بيوتهم كلون من ألوان الزينة. كانوا يعرضونها على ضيوفهم كلوحة فنية ثمينة، أو زهرية بديعة، أو تمثال جميل، أو ستار منقوش. أما عن الرجال، فقد كان بيتسين أحد أصدقاء روجوجين، وفيردشنكو بدا مطمئناً بينهم كأنه السمكة في الماء. وبدا جانيا الذي لم يكن قد أفاق بعد من دهشته، كأنه مشدود إلى آلة التشهير، وكان ناظر المدرسة العجوز لا يكاد يفهم من الأمر شيئاً البتة. ولكنه حين لاحظ مدى اضطراب ربة البيت والمدعويين، بدا كأنه على وشك البكاء، وراح يرتعد من الخوف. ولكنه كان يفضل أن يموت على أن يترك ناستاسيا فيليوفنا في مثل هذه المحنة؛ لأنه كان يحبها كما يحب حفيدة له. أما توتسكي، فرغم كراهيته الشديدة للاشتراك في هذا الموضوع، فقد كان أشد فضولاً من أن ينصرف الآن رغم ذلك التحول الخطير في الأمر كله. كما أن بضع كلمات فاهت بها ناستاسيا قد حيرته كثيراً، وجعلته يشعر أنه لا يستطيع الانصراف قبل أن يعرف تفكيرها. لقد قرر من ثم أن يشهد الأمر حتى نهايته، وأن يتخذ موقف

المتفرج الصامت بقدر ما يليق بوقاره وكرامته. أما الذي قرر الانصراف، فهو الجنرال إيبانشين فقط. فقد ساءته الطريقة التي ردت بها ناستاسيا هديته، فبرغم أنه تنازل - تحت ضغط العواطف، ووضع نفسه في مستوى واحد مع بيتسين وفيردشنكو، إلا أنه قد استرد الآن احترامه لنفسه وإحساسه بما ينبغي أن يكون، مع الشعور في الوقت نفسه بأهمية مركزه الاجتماعي ومنصبه الحكومي. وعلى الجملة فقد أعرب عن اعتقاده بأن رجلاً في مثل مركزه، لا يمكن أن تكون له صلة ما بروجوجين وأصحابه. ولكن ناستاسيا قاطعت كلماته الأولى قائلة بصوت مرتفع:

- آه، جنرال، لقد نسيت! فلو أنني فقط عرفت ما هذه المنغصات، لما أصررت على إيقائك رغماً عنك، هذا وإن كنت أتمنى لو بقيت بجانبني الآن. وعلى كل حال، فإني أشكر لك جدًّا تفضلك بزيارتي واهتمامك بأمري. ولكن لم كنت خائفاً؟

فقاطعتها الجنرال قائلاً في شهامة الكرام:

- معذرة يا ناستاسيا فيليبوفنا! إلى من تتحدثين الآن! لقد مكثت هنا حتى اللحظة بسبب إخلاصي لك فقط، أما عن خوفي، فإني خائف فقط من أن السجاجيد قد تفسد، والأثاث قد تتحطم. وكان ينبغي، في رأيي، أن تصفقي الباب في وجوه الجميع. ولكنني أعترف بأنني شديد الفضول لأعرف كيف سينتهي الأمر.

وقال فيردشنكو معلناً:

- روجوجين!

وقال الجنرال لتوتسكي بصوت هامس:

- ما رأيك في هذا؟ هل هي مجنونة؟ أعني هل هي مجنونة من الوجهة
الطبية حقاً؟

فهمس توتسكي بمكر:

- كنت أقول دائماً إنها معرضة للجنون. وربما تعاني الآن من حمى.
وكانت جماعة روجوجين، منذ زيارتهم لبيت جانبا، قد ازدادوا رجلين:
أحدهما عجوز فاجر كان بطلاً لفضيحة قديمة، والثاني ضابط متقاعد برتبة
ملازم ثان. وثُروى عن الأول قصة مضحكة: فإن له، كما قيل، طاقم أسنان
صناعية، وفي ذات يوم، عندما اشتدت رغبته للسكر، رهن الطاقم، ثم عجز
بعد ذلك عن استرداده، وبدأ أن الضابط كان منافساً لذلك السيد الفخور بقوة
قبضتيه. ولم يكن معروفاً لأحد أنصار روجوجين. ولكنه انضم إلى صفوفهم
عندما مروا في شارع نيفسكي حيث كان واقفاً يتسول. وكان يبرر مطالبته
بإحسان الناس إليه؛ بأنه كان في أيام رخائه يتصدق بما لا يقل عن خمسة عشر
روبلًا لكل محتاج، وبدأ أن كلا من الغريمين كان يغار من الآخر. فصاحبنا
الملاكم رأى، كما يبدو، أن من المهانة السماح «للمتسول» بالانضمام إلى
الجماعة. ولما كان قليل الكلام بطبعه، فقد اكتفى بالدمدمة، كالدب، بين
الحين والآخر، وبالنظر شزراً إلى «المتسول» الذي راح يستغل لباقتة وتجاربه
في الحياة للظفر برضاء الدب عنه. إنه أصغر - جسماً - من غريمه الملاكم،
كثيراً، ومن ثم كان يدرك، عن يقين، كيف يقدر لقدمه قبل الخطو موضعها،
وكان يتحدث برفق وتلطف عن مميزات الطريقة الإنجليزية في الملاكمة،
قائلاً عن نفسه إنه شديد الإيمان بالأساليب الإنجليزية في الملاكمة. أما
الملاكم فقد لوى شفتيه باحتقار، واستعرض - دون أن يتنازل بمناقشة غريمه
ودون أن يبدو أنه يتعمد هذا الاستعراض - شيئاً له خصائصه الروسية، أي

قبضة يد ضخمة، قوية، صلبة العضلات، مكسوة بالشعر الأحمر. وكان منظر هذه الظاهرة الوطنية، كافيًا لإقناع أي شخص، بلا كلام، بأن من الخطر الشديد أن يتعرض أحد للكلمة منها.

ولم يكن بين الجماعة أحد مخمور إلى حد كبير، وذلك لأن كبيرهم كان يضع في حسابه طيلة اليوم هذه الزيارة المقررة لناستاسيا، ومن ثم بذل كل جهده ليمنع أصحابه من الإسراف في شرب الخمر. وكان هو متنبهاً تمامًا، ولكن انفعالاته في هذا اليوم الحافل - أعجب يوم في حياته - قد أثرت عليه بحيث بدا في حالة من الذهول والاهتياج تشبه حالة السكر إلى حد كبير.

وكان قد وضع نصب عينيه فكرة معينة طول اليوم، ومن أجلها ظل يعمل وهو في شدة القلق وحمى الترقب، وكان أعوانه قد جهدوا في العمل من الساعة الخامسة حتى الحادية عشرة، إلى أن استطاعوا جمع مائة الألف روبل، ولكن نسبة الفوائد لم تكن تذكر بينهم إلا همسًا وفي أصوات خافتة. وتقدم روجوجين، كما حدث من قبل، على رأس رجاله الذين تبعوه في خليط من التردد والثقة بالنفس. وكانوا يخافون بصفة خاصة من ناستاسيا فيليبوفنا نفسها لسبب ما.

وكان الكثير منهم يتوقعون أن يقذف بهم من فوق السلم فورًا بلا تحية أو سلام، بما فيهم الرشيق الجذاب زاليشوف. ولكن كان أفراد الفريق الذي يقوده الملاكم يشعرون بالاحتقار، بل الكراهية لناستاسيا فيليبوفنا، دون أن يظهروا هذه المشاعر على وجوههم صراحة، ومن ثم تقدموا إلى مسكنها كما لو كانوا يقتحمون قلعة عدو. ولما وصلوا، لاح أن فخامة الغرف قد أثارت في نفوسهم نوعًا من الاحترام الذي لا يخلو من الرهبة. لقد كان فيها

الشيء الكثير جدًا الذي يعتبر جديدًا عليهم - الرياش الفاخر، واللوحات الفنية، والتمثال الكبير لفينوس ربة الجمال. وعلى أية حال فقد تبعوا زعيمهم إلى غرفة الاستقبال وهم على شيء غير قليل من الحيرة وحب الاستطلاع الوقح، وهناك في الغرفة، كان منظر الجنرال إيبانشين سببًا في تقهقر عدد منهم بسرعة إلى غرفة مجاورة. وكان «الملاك» و«المتسول» من أوائل الذين تقهقروا، ولم يثبت في أماكنهم غير عدد قليل، منهم لبيديف الذي تمكن من أن يسير مع روججين جنبًا إلى جنب؛ لأنه كان يدرك تمامًا أهمية الرجل الذي ورث أكثر من مليون روبل، والذي يحمل في تلك اللحظة مائة ألف منها، ومن الممكن أن يُضاف إلى هذا، أن الصحاب جميعًا، بما فيهم لبيديف، كانت لديهم فكرة غامضة أشد الغموض عن مدى قوتهم، وعن الحد الذي يمكن أن يصلوا إليه بأمان. ففي بعض الأحيان كان لبيديف واثقًا أن الحق في جانبهم. وفي أحيان أخرى كان يحاول في قلق أن يتذكر بعض مواد القانون المدني التي يمكن أن يعتمد عليها عند الضرورة.

وعندما وقعت أنظار روججين وهو يتقدم في الغرفة على ناستاسيا، جمد في مكانه، وامتقع وجهه بعنف، وظل واقفًا يحملق فيها، وقلبه، بلا شك، ينتفض بشدة. وظل هكذا، ممعنًا النظر إليها، في شيء من الرهبة، لمدة لحظات قليلة. وكأنما فقد صوابه، تقدم وهو يترنح رغماً عنه، نحو المائدة، واصطدم في طريقه بمقعد بيتسين، وداس بطرف حذائه القذر، على الذيل الموشي لشوب السيدة الألمانية الصامتة، لكنه لم يعتذر عن هذا، بل ولم يلاحظه أيضًا.

وعندما وصل إلى المائدة، وضع عليها شيئًا غريب اللف، كان يحمله وهو يدخل الغرفة. وكان هذا الشيء عبارة عن لفافة ورقية سمكها ست أو

سبع بوصات وطولها ثمان أو تسع، مغلفة بورقة صحيفة قديمة، ومشدودة ثلاث مرات أو أربع بالخيط.

وبعد أن وضع هذا أمامها، وقف مطرق الرأس، متهدل الذراعين، كأنما ينتظر الحكم عليه!

وكانت ملابسه هي نفس ملابس الصباح، فيما عدا منديلاً حريراً جديداً حول عنقه، كان لونه أخضر زاهياً، وأحمر، ومعقود الطرفين بمشبك ضخّم من الماس، وفي أصبعه السبابة القدر، خاتم كبير من الماس أيضاً.

ووقف ليبيديف على مسافة خطوتين أو ثلاث وراء زعيمه، بينما وقف باقي الجماعة بالقرب من الباب.

وكانت الخادمتان معاً تختلسان النظر إلى الغرفة وهما بين الخوف والدهشة، من هذا المنظر العجيب الشاذ.

وقالت ناستاسيا فيليوفنا وهي تمنع النظر إلى روجوجين وتشير إلى لفافة الورق:

- ما هذا؟

فقال روجوجين في صوت هامس:

- مائة ألف روبل.

- أوه! فقد حافظ على عهده - حقاً إنه لرجل! حسناً! اجلس من فضلك - اجلس على هذا المقعد. إن لديّ ما سأقوله لك بعد قليل. وإن كل هؤلاء الذين معك، أهم نفس الصحاب! دعهم يدخلوا ويجلسوا، فإن على هذه الأريكة مكاناً، وها هي ذي بعض المقاعد، وها هي أيضاً أريكة أخرى. حسناً! لماذا لا يجلسون؟

والواقع أن بعض أصحابنا البواسل ارتبكوا تمامًا في تلك اللحظة وتراجعوا إلى الغرفة المجاورة، ولكن غيرهم، على كل حال، أدركوا دلالة الحديث، فجلسوا على أبعد مسافة ممكنة من المائدة، إذ كانوا يشعرون أن شجاعتهم تزداد بازدياد بعدهم عن ناستاسيا.

وجلس روجوجين على المقعد المقدم إليه، ولكنه لم يجلس طويلًا، إذ سرعان ما وقف مرة أخرى، ولم يعد للجلوس. وأخذ شيئًا فشيئًا يتلفت حوله ويتفحص بقية الضيوف. ولما رأى جانبا، ابتسم في خبث وحقده، وغمغم لنفسه «انظروا إليه» ثم حملق في وجه كل من توتسكي والجنرال بلا اضطراب واضح، وبشيء قليل جدًا من حب الاستطلاع. ولكن عندما لاحظ أن الأمير جالس بجانب ناستاسيا فيليبوفنا، لم يستطع أن يحول عينيه عنه مدة طويلة وقد ارتسمت الدهشة على وجهه بوضوح، إنه لم يستطع أن يبرر وجود الأمير هناك. وليس ثمة ما يدعو إلى الدهشة إطلاقًا إذا كان روجوجين، في هذه اللحظة، في حالة من الهذيان قل أو كثر؛ ذلك لأنه، عدا انفعالاته في ذلك اليوم، كان قد أمضى الليلة السابقة في القطار دون أن يختلس من النوم غير لحظات قليلة في ثمان وأربعين ساعة.

وقالت ناستاسيا موجهة الحديث إلى الجميع بوجه عام:

- هذا أيها السادة مبلغ مائة ألف روبل. هنا في هذه اللقطة القذرة. إن روجوجين قد صاح، بعد ظهر اليوم كالمجنون، قائلاً إنه سيأتي إليّ بمائة ألف روبل في هذا المساء، وقد كنت في انتظاره طيلة هذا الوقت. وكان، كما تعلمون، يساوم، فعرض عليّ أولاً ثمانية عشر ألفًا، ثم رفع المبلغ إلى أربعين ألفًا، ثم إلى مائة ألف. ولقد أوفى بعهده، أترون! يا إلهي، ما أشد امتقاع وجهه، كل هذا حدث بعد ظهر اليوم في بيت جانبا، لقد ذهبت

لزيارة أسرته - أو أسرتي في المستقبل - كما تعلمون! وهناك قالت أخته في وجهي: «لا شك أن بينكم من يستطيع أن يلقي بهذه المخلوقة الفاضحة إلى الخارج» ثم بصقت بعد ذلك في وجه جانبا، إنها فتاة ذات شخصية بلا شك. وهنا قال الجنرال في عتاب وقد بدأ يتدخل في الأمر بطريقة الخاصة:

- ناستاسيا فيليبوفنا.

- إيه، ماذا يا جنرال، إن ما أقول لا يليق؟ أوه، لغو فارغ. لقد جلست هنا مدة خمسة الأعوام الأخيرة، وكأني في مقصورة مسرح فرنسي مثل تمثال من الفضيلة التي لا يسمو إليها أحد، بعيدة عن طريق المعجبين، كأية سخيفة صغيرة بلهاء! ثم إذا بهذا الرجل يأتي ويدفع مائة ألف روبل، ويضعها على المائدة أمامكم جميعاً، وذلك رغم الأعوام الخمسة من البراءة والطهارة المترفعة ويمكنني أن أقسم أن مركبته تنتظر في الخارج ليحملني فيها. إنه يقدرني بمائة ألف روبل، وإني لأرى يا جانبا أنك لا زلت غاضباً! عجباً! إنك في الواقع لم ترغب أبداً في أن تجعلني من أفراد أسرتك؟ أنا؟ عشيقة روجوجين. ماذا قال الأمير الآن؟

فقال الأمير بصوت مضطرب:

- إنني لم أقل قط إنك عشيقة روجوجين! ولست أنت كذلك!

وهتفت الممثلة بصبر نافذ:

- ناستاسيا فيليبوفنا، يا عزيزتي. هدّئي من نفسك. إذا كان هذا كله يثير استياءك، فانصرفي واستريحي؟ إنك طبعا لن ترحلي أبداً مع ذلك المخلوق التعس رغم روبلانه مائة الألف. خذي ماله واطرده من البيت. هذه هي الطريقة التي ينبغي أن يقابل بها أمثاله. أقسم لو أن هذا الأمر يخصني،

لطردتهم جميعًا.

وكانت الممثلة سيدة طيبة القلب، سريعة التأثر، وكانت الآن شديدة الغضب.

وضحكت ناستاسيا قائلة:

- لا تحملي عليّ يا داريا ألكسينا، إنني لم أكن غاضبة وأنا أتحدث، ولم أكن ألوم جانبا على شيء. بل إنني لا أدري كيف انسقت مع هذه النزوة إلى حد الرغبة في الانتماء إلى أسرة محترمة كهذه. لقد رأيت والدته، وقبلت يدها أيضًا. ولقد ذهبت يا جانبا وأثرت كل هذه الضجة بعد الظهر لأعرف مبلغ ما يمكن أن تحتمل من أجلي. وقد أدهشتني يا صديقي؛ لأنك احتملتني كثيرًا فعلاً. ويقينًا ما كنت لتستطيع أن تتزوج امرأة تقبل مثل هذه الهدية اللؤلؤية التي كان الجنرال ينوي إهداءها لي كما تعلم، في نفس ليلة زواجنا. ثم روجوجين، عجبًا! لقد ساوم عليّ في بيتك، وأمام أخيك وأختك. ومع ذلك فقد أمكنك أن تأتي هنا متوقعًا أن يعقد زواجي بك قبل أن تنصرف. وقد كدت أن تأتي بأختك أيضًا. وإن ما قاله روجوجين عنك ليس حقًا، وأعني أنك لا تتورع أن تزحف إلى أقصى المدينة على يديك وركبتك من أجل ثلاثة روبلات.

فقال روجوجين بهدوء، ولكن في إيمان تام:

- نعم. إنه ليفعل.

- ها! رغم أنه يتناول مرتبًا كبيرًا كما سمعت. حسنًا! بماذا يمكن أن تظفر غير الفضيحة والشقاء إذا أنت ألحقت بأسرتك زوجة تكرهها؟ «لأنني أعلم تمامًا أنك تكرهني» لا، لا! إنني الآن أعتقد أن رجلًا مثلك لا يتردد

في قتل أي إنسان من أجل المال- يشحذ موسى ويتسلل وراء أخلص
أصدقائه، ويذبحه كشاة- لقد قرأت عن مثل هؤلاء الناس. يبدو أن كل
إنسان اليوم قد أصبح مجنون مال. لا، لا! إنني قد أكون امرأة فاجرة ولكنك
أسوأ مني بكثير. وأما عن السيد الذي حدثنا عن قصة الأزهار فالإقلال من
الكلام عنه خير.

فصاح الجنرال وهو يضرب كفًا بكف في حزن أصيل:

- ناستاسيا فيليبوفنا. أهذه أنت حقًا؟ أنت ذات الحديث الرقيق
المهذب! أوه. يا له من لغو، ويا لفظاعة الكلام الذي تتحدثين به!

- إنني نشوى يا جنرال، فهذا كما تعلم، هو يوم عيد ميلادي. ولطالما
هفوت إلى هذه المناسبة السعيدة. داريا ألكسينا. أترين ذلك الرجل الطروب،
سيد زهرة الكاميليا، الجالس هناك يضحك علينا!

فقال توتسكي بوقار:

- إنني لا أضحك يا ناستاسيا فيليبوفنا، وإنما أنصت بكل انتباه.

- حسنًا! لماذا بقيت أزعجه لمدة خمس سنوات دون أن أطلق له
حريره! هل هو جدير بهذا؟ إنه لا يزيد فقط عما هو في الواقع- لا شيء
بوجه خاص. وهو يرى أنني جديرة بالملام أيضًا. لقد حرص على تعليمي،
وأنشأني كنبيلة، ومن ناحية المال- ويحي! يا لكثرة ما أنفق من مال عليّ.
وقد حاول في أول الأمر أن يزوجني برجل شريف، ثم أراد أن يزوجني بجانيا
هذا. فما رأيكم؟ لقد عشت هذه السنوات الخمس كلها بعيدة عنه، ومع ذلك
أخذت أمواله وأنا أعتبر أن لي حقًا في هذا.

إنكم تقولون، خذي المائة ألف روبل، واطردي ذلك الرجل إلى

الخارج. فإن هذا في الحقيقة أمر بغضب، كما تقولون، ولقد كان في مقدوري أن أتزوج منذ أمد بعيد، لا بجانيا - أوه، لا؟ فإن هذا يكون أمرًا بغضبًا أيضًا. هل تصدقون أنه خطر لي منذ أربع سنوات الزواج بتوتسكي! وأعترف أنني أردت بهذا شرًا! ولكن كان في مقدوري أن أظفر به، وأقسم لكم على هذا. بل لقد طلب بنفسه الزواج بي. صدقوا أو لا تصدقوا... ولكنني فكرت، ورفضت؛ لأنني رأيت أن الأمر لا يستحق هذا اللون من الاستغلال وقد أصبح بغضبًا إلى حد أنه لو كان طلب مني الزواج لرفضت.

لا! خير لي أن أشرد في الطرقات، أو أتزوج روججين، أو أشتغل بغسيل الملابس، أو بأي شيء - لأنني لا أمتلك شخصيًا، شيئًا، كما تعلمون. لسوف أمضي تاركة كل شيء ورائي حتى آخر قطعة بالية، لسوف يسترد كل شيء. فمن ذا يقبلني بلا أي شيء، اسألوا جانيا ما إذا كان يقبل! عجبًا، بل إن فيردشنيكو لا يرضى بي عندئذ.

فقال فيردشنيكو:

- نعم، إن فيردشنيكو لا يقبلك؛ لأنه رجل حريص. ولكن الأمير يقبل، إنك تجلسين وتتحدثين عن آلامك، ولكن انظري فقط إلى الأمير! لقد كنت أراقبه مدة طويلة.

ونظرت ناستاسيا فيليوفنا بإمعان إلى الأمير، ثم سألته:

- أحقًا هذا؟

فهمس الأمير قائلاً:

- نعم.

- أتقبلني زوجة كما أنا، بلا شيء؟

- بالتأكيد يا ناستاسيا فيليبوفنا.

فصاح الجنرال:

- ها ذا أمر جديد! ولكنه كان متوقعًا منه على كل حال.

واستمر الأمير ينظر إلى ناستاسيا نظرات حزينة، وإن كانت مركزة نافذة، أما هي، فقد عادت تقول للممثلة:

- ها هو ذا زوج آخر لي. وهو يتقدم لي بدافع من قلبه البريء الطيب،
إنني أعرفه. لقد وجدت راعيًا، وذلك رغم أن ما يقال عنه قد يكون حقًا؛ أي
أنه - كما نعرف. ولكن بأي شيء سنعيش إذا كنت حقًا مجنونًا إلى هذا الحد
بحب عشيقة روجوجين وإذا كنت مستعدًا للزواج بها.

- أنني أقبلك كسيدة شريفة طيبة يا ناستاسيا فيليبوفنا، وليس كعشيقة
لروجوجين.

- من؟ أنا! شريفة طيبة؟

- نعم، أنت!

- أوه، لقد جئت بهذه الأفكار من الروايات كما تعلم. لقد تغير الزمن
يا عزيزي الأمير. إن العالم الآن ينظر إلى الأشياء كما هي. إن هذا الغوفارغ.
وعدا هذا كيف يمكن أن تتزوج! إنك في حاجة إلى ممرضة، لا زوجة.
فنهض الأمير وبدأ يتحدث بصوت مرتعد وادع، ولكن في لهجة الرجل
الواثق تمامًا كما يقول:

- إنني لا أعرف شيئًا يا ناستاسيا فيليبوفنا، ولم أر شيئًا. إنك على حق
حتى الآن. ولكنني أعتبر زواجي بك شرفًا لي، لا لك. فإنني لست شيئًا، أما

أنت فقد عانيت الكثير، لقد عشت في جحيم الحياة، وخرجت في النهاية نقية، وإن هذا لكثير جداً. فلماذا تجلبين العار على نفسك برغبتك في الذهاب مع روجوجين، إنك في غير وعيك. لقد أعدت الخمسة والسبعين ألف روبل إلى توتسكي، وقلت إنك سترحلين عن بيته وعن كل ما فيه. وهو نوع من السلوك لا يستطيع أحد من الحاضرين هنا أن يحذو حذوه. إنني أحبك يا ناستاسيا فيليوفنا. إنني لن أسمح لأي رجل أن يقول كلمة ضدك يا ناستاسيا فيليوفنا. وإذا كنا فقيرين، فإن في مقدوري أن أسعى لرزقنا معاً. وفيما كان الأمير ينطق بهذه الكلمات الأخيرة، صدرت من فيردشنكو ضحكة خفيفة ساخرة، وكذلك ضحك لبيديف أيضاً. ودمدم الجنرال لنفسه في توفز عصبي، وحاول كل من بيتسين وتوتسكي أن يخفي ابتسامته، أما الباقون فقد جلسوا ينصتون وأفواههم مغمورة من فرط العجب.

واستطرد الأمير يقول بنفس الصوت المرتعش الواحد:

- ولكن قد لا نكون فقيرين، وإنما قد نكون من الأثرياء يا ناستاسيا فيليوفنا. إنني لا أعرف على وجه اليقين، ويؤسفني القول إنني لم أجد الفرصة طوال اليوم لأعرف الحقيقة. ولكنني تلقيت رسالة من موسكو، عندما كنت في سويسرا، بعث بها المستر سالاسكين يعلمني فيها بأني وارث لثروة ضخمة جداً. هذه هي الرسالة.

وتناول الأمير من جيبه الرسالة، بينما كان الجنرال يقول:

- هل تراه يهذي؟ هل نحن حقاً في مستشفى للأمراض العقلية!

وخيم الصمت برهة ثم قال بيتسين:

- أعتقد أنك قلت أيها الأمير، إن الرسالة من سالاسكين، وسالاسكين

هذا رجل عظيم حقاً في ميدان عمله. إنه محام بارع جداً. فإذا كان قد أخبرك حقاً بهذا، فأعتقد أنه يمكنك أن تثقي بأنه على صواب. وأنا لحسن الحظ أعرف خطه؛ لأنني تعاملت معه منذ عهد قريب. فإذا سمحت لي بالاطلاع على الرسالة، فربما أمكنني أن أخبرك.

فمد الأمير يده بالرسالة في صمت، ولكن يده كانت ترتعد.

وقال الجنرال في انفعال شديد:

- ما هذا؟ ما هذا؟ هل هو حقاً وارث لشيء؟

وركز الجميع انتباههم على بيتسين الذي كان يقرأ الرسالة. وازاد فضول الجنرال اضطراراً. ولم يستطع فيردشنيكو أن يبقى ثابتاً في مكانه. وركز روجوجين نظراته أولاً على الأمير، ثم على بيتسين، ثم عاد بها إلى الأمير، وهو في كل هذا شديد الاهتمام. ولم يستطع لبيديف أن يكبح نفسه، فتسلل إلى بيتسين وراح يقرأ من فوق كتفه في هيئة الطفل المشاغب الذي يتوقع أن يشعر بلكمة على أم رأسه جزاءً على شغبه.



الفصل السادس عشر

وقال بيتسين أخيراً وهو يطوي الرسالة ويسلمها إلى الأمير:

- إن الأمر صحيح تمامًا! لسوف ترث بدون أقل متاعب، وبناء على وصية رسمية من خالته، ثروة ضخمة حقًا.

فوثب الجنرال واقفًا كأنما أصيب بطلق ناري، وصاح قائلاً:

- هذا مستحيل!

وراح بيتسين يشرح الأمر للموجودين قائلاً إن خالة الأمير ماتت منذ خمسة أشهر. وإنه لم يكن يعرفها أبدًا، ولكنها كانت شقيقة والدته، وابنة تاجر في موسكو يدعى بابرشين مات مفلسًا. ولكن الشقيق الأكبر لبابرشين هذا كان تاجرًا كبيرًا موفور الثراء، وقد حدث منذ عام أن مات ابنه - ولم يكن له غيرهما - في شهر واحد. وقد أثرت هذه الكارثة على الرجل العجوز فإذا هو أيضًا يموت بعدهما بقليل. وكان الرجل أرمل بلا أقارب فيما عدا خالة الأمير الفقيرة التي كانت تعيش على الصدقة. والتي كانت على وشك الموت بداء الاستسقاء، ولكنها استطاعت قبل أن تموت أن تجعل المحامي سالاسكين يبحث لها عن ابن أختها، وأن يقوم على تنفيذ وصيتها التي تركت فيها كل ثروتها الجديدة له.

وبدا أن الأمير، والطبيب الذي كان يقيم لديه في سويسرا لم يفكرا في انتظار المزيد من المعلومات، ومن ثم بادر الأمير برحلة العودة ورسالة سالاسكين في جيبه.

واختتم بيتسين حديثه قائلاً للأمير:

- يمكنني أن أذكر لك شيئاً واحداً على وجه اليقين، وهو أنه ليس هناك أدنى شك في صحة هذا الأمر، فإن كل ما يكتبه سالاسكين لك بخصوص حقك الأكيد في هذا الإرث يمكنك اعتباره كأنه مال موجود في جيبك الآن، وإنني لأهنتك أيها الأمير لأنك قد ترث مليوناً ونصف المليون من الروبلات وربما أكثر، فأنا لا أدري، ولكنني أعرف تماماً أن بابرشين كان تاجراً واسع الثراء جداً.

وصاح ليبيديف بصوت مخمور:

- يعيش. يعيش آخر فرد في آل ميشكين.

وقال الجنرال متلعثمًا وهو يكاد يفقد صوابه ذهولاً:

- ويحي، وقد أعطيته في هذا الصباح خمسة وعشرين روبلاً كأنه شحاذ! حسناً، إنني أهنتك، أهنتك.

ثم نهض عن مقعده وعانق الأمير بوقار. وقدم الجميع تهانئهم، حتى أصحاب روجوجين، الذين تراجعوا إلى الغرفة المجاورة، ثم عادوا بهدوء ليروا ماذا يجري. وحتى ناستاسيا في تلك اللحظة، نسي الجميع أمرها.

ولكن كل واحد من الموجودين لم يلبث أن عاد يتذكر شيئاً فشيئاً أن الأمير كان قد عرض من فوره الزواج على ناستاسيا. ومن ثم تضاعفت طرافة الموقف ثلاثة أمثالها عن ذي قبل.

لقد جلس توتسكي وهز كتفيه حيرة ودهشة، وكان هو الضيف الوحيد الذي ترك جالساً في ذلك الحين، أما الباقون، فقد تراحموا بلا نظام حول المائدة وراحوا يتحدثون في وقت واحد.

وتتفق آراء الجميع، وهم يتذكرون أحداث هذه الليلة فيما بعد، أن ناستاسيا فيليوفنا بدت منذ تلك اللحظة فاقدة الوعي. لقد ظلت جالسة في مكانها لا تريم وكانت تلتفت إلى الضيوف حولها بنظرات غريبة حائرة، وكأنها تحاول أن تجمع شتات أفكارها فلا تستطيع. ثم إذا هي فجأة تلتفت نحو الأمير وتحقق فيه بجبين مقطب. ولكن هذا لم يستمر غير لحظة. وربما خطر لها فجأة أن هذا كله مجرد دعاية. ولكن بدا أن وجهه أكد لها الأمر، ففكرت برهة ثم عادت تبتسم بغموض وهي تهمس لنفسها:

- إذن فأنا حقاً أميرة؟

وحانت منها نظرة عارضة إلى وجه داريا ألكسينا، ثم انفجرت ضاحكة هاتفة:

- ها ها ها، هذه هي النهاية المفاجئة بعد كل شيء. إنني لم أكن أتوقع هذا. لماذا تقفون هكذا أيها السادة، اجلسوا؟ هنثوني أنا والأمير. فيردشنيكو، امض ومُر لنا بمزيد من الشمبانيا..

ثم أردفت قائلة لكاتيا وباشا حين رأتهما واقفتين بالباب:

- أقبلا، لسوف أتزوج. هل عرفتما؟ سأتزوج الأمير. إنه يمتلك مليوناً ونصف المليون من الروبلات، وهو الأمير ميشكين، وقد عرض عليّ الزواج. هيا أيها الأمير، تعال واجلس بجانبني، وها هو ذا الشراب قد حضر. والآن أيها السادة والسيدات، أين تهانيكم لي!

وهتف عدد منهم بالتحية في صوت جماعي، ثم اندفع أصحاب روجوجين إلى الشراب، وذلك رغم ما بدا أنهم قد أدركوا بعض الإدراك أن الموقف قد تغير. ووقف روجوجين يتأمل الموقف وقد التوى جانب فمه بابتسامة حائرة.

وقال الجنرال وهو يقترب من الأمير ويجذبه من كم سترته:

- يا عزيزي الأمير، فكر فيما أنت قادم عليه، تمالك نفسك.

وسمعت ناستاسيا فيليوفنا هذه الملاحظة، فانفجرت ضاحكة وقالت:

- لا، لا يا جنرال! يحسن أن تكون على حذر. فأنا الآن أميرة كما تعلم. ولن يسمح لك الأمير بإهانتني. وأنت يا مستر توتسكي؟ لماذا لم تقدم تهنتك إلي؟ لسوف يليق بي الآن أن أجلس إلى مائدة واحدة مع زوجتك الجديدة. آها، أترى الفوائد التي عادت علي من زواجي بأمير! مليون ونصف المليون، وأمير، وأبله علاوة على الصفقة، كما يقولون، فأني شيء أتمنى أفضل من هذا؟ إن الحياة بدأت معي الآن فقط. لقد جئت يا روجوجين بعد فوات الوقت، فارحل بلفافتك هذه الصغيرة. لسوف أتزوج الأمير، وأنا الآن أوسع منك ثراء.

ولما تأكد روجوجين من الاتجاه الأخير للموقف، ارتسمت على وجهه أبلغ أمارات الألم، ثم راح يضرب كفًا بكف وهو يتأوه من أعماق روحه ويقول للأمير:

- تنازل عنها أناشدك الله.

وانفجر الجميع ضاحكين، بينما صاحت داريا ألكسينا قائلة له:

- ماذا؟ أيتنازل عنها لك؟ لشاب يأتي ويساوم على زوجته كأنها جارية!

إن الأمير يرغب في زواجها، وأنت..

- وكذلك أنا، وكذلك أنا، في هذه اللحظة إذا استطعت. إني على استعداد للتنازل عن كل قرش أمتلكه لأحقق هذا.

فعادت داريا ألكسينا تقول:

- أيها السوقي السكير. ينبغي أن تُطرد من هذا المكان.

وازداد الضحك ارتفاعاً كما كان. وقالت ناستاسيا فيليوفنا:

- أسمع أيها الأمير! أسمع كيف يستمر هذا الصعلوك في المساومة على عروسك؟

فقال الأمير بهدوء:

- إنه مخمور. وهو يحبك كثيراً.

- ألا تشعر، بعد هذا كله، بالعار وأنت تتذكر كيف كادت زوجتك أن تهرب من روجوجين؟

- أوه، كنت تهذين، كنت محمومة! بل إنك لا زلت في شبه هذيان.

- ألن تشعر بالعار عندما يقال لك فيما بعد إن زوجتك عاشت على نفقة توتسكي أعواماً عديدة؟

- لا، لن أشعر بالعار من أجل هذا. فإنك لم تعيشي هكذا بإرادتك.

- ألن تلومني على هذا أبداً؟

- أبداً.

- كن حذراً. لا تتسرع في أمر يشمل العمر كله.

فقال الأمير بهدوء وب عاطفة عميقة:

- ناستاسيا فيليوفنا، لقد قلت من قبل إنني أعتبر قبولك الزواج بي شرفاً كبيراً لي، وسوف أعتبر أنك أنت التي شرفتني، لا أنا الذي شرفتك، بهذا الزواج. إنك تضحكين من هذه الكلمات، وغيرك هنا يضحكون أيضاً، إنني أسمعهم، ومن المحتمل جداً أنني أعبر عن نفسي بطريقة مضحكة، أو أنني أبدو مضحكاً، ولكنني مع هذا كله، أعرف أين الشرف، وأن ما قلته ليس إلا الصدق الخالص. لقد كدت أن تدمري حياتك الآن وإلى الأبد؛ وما كنت أبداً لتصفحي عن نفسك إذا فعلت هذا، بعد ذلك. ومع هذا فلا لوم عليك إطلاقاً. وإنه من المستحيل أن تدمري حياتك وأنت في مثل هذه السن. وما قيمة حضور روجوجين للمساومة عليك هنا، أو أن جانبا كان ينوي خداعك إذا استطاع. لماذا تذكريننا دائماً بهذه الوقائع؟ أؤكد لك أن قليلاً جداً من الناس يستطيعون أن يتصرفوا كما تصرفت أنت اليوم. أما عن رغبتك في الذهاب مع روجوجين، فإنها ببساطة نابعة من عقل مضطرب مشئت التفكير، إنك لا زلت محمومة، وكان ينبغي أن تكوني في الفراش، وليس هنا. وأنت تعلمين تماماً أنك لو ذهبت مع روجوجين، لفضلت أن تصبحي في اليوم التالي غسالة ملابس على البقاء معه. إنك مترفعة يا ناستاسيا فيليوفنا، ولعلك تظنين نفسك، لفرط ما عانيت، أنك امرأة خاطئة جداً. إنك في حاجة إلى الشيء الكثير من التدليل والرعاية يا ناستاسيا فيليوفنا، وهذا ما سوف أفعله، لقد رأيت صورتك في هذا الصباح، وبدا لي أنك لست أبداً غريبة عني، بدا لي أن وجهك في الصورة يستغيث بي، ولسوف أخدمك يا ناستاسيا فيليوفنا طول عمري.

اختتم الأمير حديثه بهذه العبارة، وكأنما تمالك نفسه فجأة، فإذا وجهه

يضطرم وهو يذكر أنه قال هذا كله أمام الجميع.

وأطرق بيتسين برأسه.. ونظر إلى الأرض، وقد جاشت نفسه بشتى الانفعالات. وغمغم توتسكي لنفسه قائلاً:

«إنه قد يكون أبله، ولكنه يعرف أن عبارات المديح والثناء هي خير طريق للنجاح هنا» ولاحظ الأمير أن جانبا يصوب إليه نظرات نارية كأنما يريد أن يقضي عليه بها في الحال.

وقالت داريا ألكسينا التي كان غضبها يتبخر تدريجياً:

- ها هو ذا رجل طيب القلب كما تشتهين.

وغمغم الجنرال قائلاً:

- رجل مهذب، ولكنه ضائع.

وتناول توتسكي قبعته، ونهض لينصرف. وكان قد تبادل مع الجنرال النظرات التي مؤداها الاتفاق على مغادرة المسكن معاً. أما ناستاسيا فقد قالت:

- شكراً لك أيها الأمير. إن أحداً لم يتحدث إليّ هكذا من قبل، لقد كان الرجال، قبل هذا، يسامون عليّ دائماً. ولم يحدث أن عرض عليّ الزواج رجل واحد محترم. أسمع يا توتسكي؟ ما رأيك فيما قاله الأمير الآن! إن كلام الأمير يبدو غير لائق! أليس كذلك؟ وأنت يا روجوجين، انتظر برهة، لا تنصرف الآن. وعلى كل حال فأنا أرى أنك لا تنوي التحرك من مكانك. فربما قد أذهب معك رغم هذا كله. إلى أين تنوي أن تمضي بي!

فقال ليبيديف:

- إلى حدائق إيكاترينهوف.

ووقف روجوجين جاحظ العينين، مرتعد الشفتين، لا يجرؤ على تصديق أذنيه. لقد جمد في مكانه وكأنما أصيب على أم رأسه بضربة قوية.

وقالت داريا ألكسينا في جزع:

- فيم تفكرين يا عزيزتي ناستاسيا! ما هذا الذي تقولين؟ إنك لن تفقدي عقلك؟ أليس كذلك؟

فأطلقت ناستاسيا ضحكة عالية، ووثبت عن الأريكة واقفة وقالت هاتفة:

- أظنني أنني سأقبل عرض هذا الطفل البريء لأحطم حياته؟ هذه أخلاق توتسكي لا أخلاقي أنا. إنه مغرم بالأطفال. هلم يا روجوجين، جهز أموالك. إننا لن نتحدث عن الزواج الآن، ولكن دعنا نرى المال على كل حال. هلم، فإني قد لا أتزوج بك أيضًا! فأنا لا أعرف. أعتقد أنك ستحتفظ بهذا المال معك إذا أنا تزوجتك. ها ها ها، كلام فارغ، إنه لم يبق لي أي إحساس بالشرف، أقول لك أيها الأمير إنني كنت محظية توتسكي، ولهذا يجب أن تتزوج أجلايا إيبانشين، لا ناستاسيا فيليبوفنا، وإلا فإن صاحبنا فيردشنيكو هذا سيشير إليك دائمًا بأصبع الاحتقار. أنا أعرف أنك لست خائفًا من هذا. ولكنني أخشى أن أظل أشعر دائمًا بالخوف من أن أكون قد دمرت حياتك، وأنت سوف تنحي عليّ باللوم لهذا السبب. أما عن قولك بأن زواجي بك سوف يشرفك، فها هنا توتسكي يستطيع أن يصارحك بكل شيء. إن عينك على أجلايا يا جانبا، وأنت تعرف هذا. وكان يمكنك أن تتزوجها لو لم تساومها. إنكم جميعًا هكذا، بينما الواجب أن تختاروا- فورًا- بين المرأة السيئة السيرة وبين الأخرى المحترمة. وإلا اختلط عليكم

الأمر. انظر إلى الجنرال، كيف يحملق في وجهك؟

فقال الجنرال وهو ينهض واقفاً بسرعة:

- إن هذا لرهيب!

وكان الجميع الآن واقفين، وكانت ناستاسيا متمالكة نفسها تمامًا وهي

تستطرد قائلة:

- إنني رغم حقيقة حالي، شديدة الكبرياء. لقد وصفتني أيها الأمير الآن «بالكمال» وإنه لكمال من نوع لطيف ذلك الذي يلقي بأمر ومليون ونصف المليون من الروبلات لكي يزهو بذلك فيما بعد. أي زوجة يمكن أن أكون لك بعد كل هذا الذي قلت؟ أترى يا مستر توتسكي أنني قد ألقيت وراء ظهري بمليون روبل؟ بينما كنت تظن أنني سأعتبر الخمسة والسبعين ألف روبل الحقيرة، ومعها جانبا كزوج، مثل جنة من جنان الأرض؟ خذ مبلغك أيها السيد، فإنه لم يصل حتى إلى مائة ألف. لقد كان روجوجين أكرم منك. لسوف أواسي جانبا بنفسي، وأنا أعرف كيف أفعل هذا. ولكن يجب أن أمضي الآن. لقد كنت سجيناً عشر سنوات، وأخيراً تحررت. حسناً يا روجوجين؟ ماذا تنتظر. هلم نستعد ونرحل.

فهتف روجوجين وهو يكاد يخرج عن طوره بهجة:

- هيا بنا! هيا. اشربوا أيها الصحاب جميعاً، اشربوا، املاؤا الكؤوس.

ثم صاح بجنون حين رأى داريا ألكسينا تقترب لتحج على سلوك

ناستاسيا:

- ابتعدي عنها.. ابتعدي، إنها لي، كل شيء لي. إنها ملكة.. ابتعدي

عنها.

وكان يلهث بالنشوة، ويدور حول ناستاسيا أمراً الجميع بالابتعاد مسافة عنها.

وكان أصحابه جميعاً قد اجتمعوا عندئذ في غرفة الجلوس، حيث راح بعضهم يشربون، وبعضهم يتحدثون ويضحكون، وجميعهم في أشد حالات النشوة والابتهاج وكان فيردشنيكو يبذل جهده ليندمج فيهم. وكرر الجنرال وتوتسكي محاولتهما للانصراف، وكذلك وقف جانبا والقبعة في يده استعداداً للخروج، ولكن بدا أنه لم يكن قادراً على تحويل نظراته عما يحدث أمامه.

وصاح روجوجين:

- ابتعدوا.. ابتعدوا عنها.

وقالت ناستاسيا له:

- لماذا تصيح هكذا؟ إنني لم أصبح زوجتك بعد، فإني رغم كل شيء قد أطرّدك. فأنا لم أستلم مبلغك بعد، ها هو بأجمعه هنا على المائدة، سلمني هذه اللفافة، أحتوي هذه اللفافة وحدها على مائة ألف روبل. عجباً! ما أغرب منظرها. أوه، ماذا بك يا داريا ألكسينا! إنك حقاً لا تتوقعين مني أن أحطم حياته «مشيرة للأمير» تصوريه وهو يرعاني؟ عجباً! إنه في حاجة إلى من يرعاه! إن الجنرال سيكون راعيه منذ الآن، وسوف ترين، اسمع أيها الأمير، اسمع. إن عروسك تقبل المال، فما أحقرها من امرأة! ومع ذلك كنت تريد أن تتزوجها! لماذا تبكي؟ أهى جرعة شديدة المرارة، لا عليك! لسوف تضحك بعد قليل. اعتمد على الزمن.

ورغم هذه الكلمات، كانت ثمة عبرتان كبيرتان تنحدران على وجعتي

ناستاسيا وهي تستطرد قائلة.

- من الأفضل كثيرًا أن نتروى في الأمر الآن - من أن نفعل فيما بعد. أوه. لماذا تبكون جميعًا، إن كاتيا تبكي أيضًا. ماذا بك يا عزيزتي كاتيا، لسوف أترك لك، ولباشا أيضًا، الشيء الكثير من حاجياتي، وقد جهزتها لكما فعلاً. والآن ودائمًا، لقد جعلت فتاة شريفة تحب خدمة امرأة وضيفة مثلي. هذا في الواقع خير ما نفعل أيها الأمير. كنت ستحتقرني فيما بعد، ومن ثم ما كنا لنعرف طعم السعادة أبدًا. أوه، لا حاجة بك إلى أن تقسم أيها الأمير؛ لأنني لن أصدقك، كما تعلم. إن ما كنا سنفعله يوصف بالحمافة أيضًا. لا. لا، خير لنا أن نفرق صديقين. إنني أعيش حاملة أحيانًا، وقد اعتدت أن أحلم بك يومًا. وكثيرًا ما كنت أحلم وأفكر خلال السنوات الخمس التي أمضيتها في ضيعته. وكنت أتصور دائمًا أن شخصًا طيبًا، شريفًا، ساذجًا مثلك سوف يقبل إليّ ويقول لي: «إنك امرأة طاهرة يا ناستاسيا فيليوفنا، وأنا أقدّسك» كثيرًا ما حلمت بك. وكثيرًا ما اعتدت على التفكير هناك في هذا الأمر حتى خشيت أن أفقد عقلي، ثم إذا بهذا الرجل، توتسكي، يقبل إلى الضيعة التي تعود أن يقضي فيها شهرين كل عام، حيث يفضحني، ويهينني، ويغتصبني، ثم يمضي، ولهذا هفوت إلى إغراق نفسي في البركة ألف مرة. ولكنني لم أجروء على هذا. لم تكن لدي الشجاعة الكافية. والآن، هل أنت مستعد يا روجو جين؟

- نعم. ابتعدوا عنها جميعًا.

وقال عدد من أصحابه:

- إننا جميعًا مستعدون. إن الزحافات أمام الباب، بالجياد والأجراس وكل شيء.

وأمسكت ناستاسيا فيليبونا بلفة الأوراق المالية ثم قالت لجانيا:

- جانيا، لقد خطرت لي فكرة. إنني أريد أن أعوضك، فلماذا تخسر كل شيء، روجوجين، أقول إنه مستعد للزحف، من أجل ثلاثة روبلات، حتى جزيرة فاسيليوستروف؟
- نعم، بكل تأكيد.

- حسنًا، اسمع يا جانيا. إنني أرغب في النفاذ إلى أعماق نفسك مرة أخيرة، لقد سببت لي القلق خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة، وقد جاء الآن دوري. أترى هذه اللقافة، إن فيها مائة ألف روبل، لسوف ألقى بها إلى نيران المدفأة أمام الجميع، وبمجرد أن تشتعل فيها النار، مد يديك إليها والتقطها، بدون قفاز طبعًا. نعم. يجب أن تكون يداك عاريتين. وشمرك أكمامك، وسوف أقول لك، التقطها فتصبح ملكًا خالصًا لك. إنك قد تصيب أصابعك بحروق قليلة طبعًا ولكن لا تنسى عندئذ أنها مائة ألف روبل. إنك لن تستغرق فترة طويلة في تلقفها وانتزاعها من النار. ولسوف أعجب بك أشد الإعجاب إذا أنت وضعت يديك في النار من أجل مالي. وسيكون جميع من هنا شاهدين على أن لقافة المال ستغدو ملكًا خالصًا لك إذا أنت انتزعتها من النار. فإذا لم تفعل، فسوف تحترق. إنني لن أدع أحدًا يتدخل في الأمر، ابتعدوا جميعًا. ابتعدوا. إن هذا المال مالي، لقد اشترايني روجوجين به. أليس هذا المال مالي يا روجوجين؟

- نعم يا مليكتي، إنه مالك يا بهجتي!

- ابتعدوا إذن، جميعًا. لسوف أفعل ما أريد بمالي. لا تتدخلوا.
فيردشنكو، أضرم النار بسرعة.

فقال فيردشنكو في ذهول واستسلام من فرط الدهشة:

- ناستاسيا فيليوفنا. إنني لا أستطيع. إن يدي لا تطاوعني.

فقالت ناستاسيا وهي تمسك بقضيب المدفأة وتحرك قطعتين كبيرتين

من الجمر:

- هراء.

وما كادت النيران تندلع حتى ألقت فيها بلفافة المال.

وشهق الجميع، ورسم بعضهم علامة الصليب على الصدور، وارتفعت

صيحة من الجميع:

- إنها مجنونة، إنها مجنونة.

وقال الجنرال هامسا لبيتسين:

- ألا يجب أن نحجر عليها، أم نستدعي رجال السلطة؟ عجبًا. إنها

مجنونة، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

فقال بيتسين هامسا وهو يرتعد كورقة شجر وقد أصبح وجهه في بياض

منديله دون أن يستطيع تحويل نظراته عن اللفافة التي تحترق:

- لا.. لا أعتقد أنها مجنونة حقًا.

ولجأ الجنرال إلى توتسكي وهمس له:

- إنها مجنونة بكل تأكيد، أليس كذلك؟

فقال توتسكي ووجهه شاحب كوجوه الجميع:

- لقد قلت لك إنها امرأة غير عادية!

- أوه، ولكن، إن المبلغ كما تعلم مائة ألف روبل .. تمامًا.

وهتف جميع الموجودين في وقت واحد:

- يا للسماء؟ يا الله!

وكان الجميع قد تراحموا وتحلقوا حول النار ليروا ماذا يجري. وكان كل منهم يندب ويهتف بالفزع والأسى. وقفز بعضهم فوق المقاعد ليحسنوا الرؤية وهرعت داريا ألكسينا إلى الغرفة التالية وهمست بشيء لكاتيا وباشا. وكذلك اختفت الألمانية الحسنة تمامًا.

وصاح ليبيديف قائلاً وهو يركع أمام ناستاسيا باسطاً يديه نحو النار!
- يا سيدتي، يا مليكتي. إنها مائة ألف روبل، إنها كذلك حقًا. لقد لففت المبلغ بنفسني، لقد رأيت هذا المال. يا مليكتي، دعيني أفتح النار لأنقذه، أصدري الأمر، لسوف أضع رأسي الأشيب كله في النار من أجله. إن لديّ زوجة عرجاء وثلاثة عشر طفلاً. وقد مات أبي جوعاً في الأسبوع الماضي. ناستاسيا فيليوفا، ناستاسيا فيليوفا.

وراح الرجل الشقي يبكي ويتأوه ويزحف نحو النار.

وصاحت ناستاسيا:

- ابتعدوا، ابتعدوا جميعاً.. افسحوا المجال جميعاً. جانبا؟ ماذا تنتظر. دعك من الرسميات، ضع يدك في النار. إن سعادتك كلها تحترق، انظر أسرع.

ولكن جانبا كان قد احتمل كثيرًا في ذلك اليوم، لا سيما في ذلك المساء، ولم يعد مستعدًا لاحتمال هذا الاختبار الأخير المفاجئ.

وافترق الجمع عن جانبيه، وتركوه وجهًا لوجه مع ناستاسيا فيليبوفنا، لا يبعد عنها بأكثر من ثلاث خطوات. ووقفت هي بجانب النار تنظر ونظراتها مركزة عليه.

ووقف جانيا أمامها، بملابس السهرة، ممسكًا بالقفاز الأبيض والقبعة، معقود اللسان، ساكن الحركة، عاقدًا ذراعيه، مثبت النظرات على النار.

وكان ثمة ابتسامة حمقاء بلا معنى ترف على شفثيه اللتين يرين عليهما شحوب الموت ولم يستطع أن يرفع عينيه للفاقة المحترقة. ولكن بدا أن شيئًا جديدًا قد انبثق في أعماق نفسه على احتمال هذه المحنة. ولم يتحرك من مكانه، وبدا للجميع بوضوح أنه لا ينوي إنقاذ المال.

وهتفت ناستاسيا قائلة:

- انظر! إن اللفاقة ستحترق في خلال لحظة أو لحظتين؟ وأنت تعلم أنك ستشئق نفسك بعد ذلك إذا حدث هذا. إنني لست هازلة.

وكانت النار التي اختنقت بين قطعتين كبيرتين من الجمر، قد خمدت في اللحظات القليلة الأولى بعد سقوط اللفاقة عليها. ولكن لسانًا صغيرًا من النار قد بدأ يلحق الورق من أسفل، ثم سرعان ما استجمع شجاعته وصعد إلى جوانب اللفاقة، وراح يزحف حولها. وما هي غير لحظة حتى اشتعلت اللفاقة بالنار، وتكررت هتافات الفرع والأسى.

وعاد ليبيديف يندب قائلاً وهو يحاول الاندفاع إلى النار:

- ناستاسيا فيليبوفنا!

ولكن روجوجين جذبه بعيدًا ودفع به مرة أخرى إلى الوراء.

وكان كيان روجوجين كله قد تركز في نظرات من النشوى والافتنان،

فلم يكن في مقدوره أن يحول عينيه عن ناستاسيا فيليوفا. فظل واقفاً يرتوي منها كما هي، وكأنما هو في السماء السابعة!

وكان بين الحين والآخر يهتف قائلاً بكلمات لا يهمنه من يتلقفها بأذنيه:

- أوه، يا لها من ملكة، هذه المرأة التي أهفو إليها. من منكم أيها الأوغاد يخطر بباله أن يفعل شيئاً من هذا القبيل.

بهذا كان يصيح وقد فقد زمام أعصابه تماماً من فرط النشوة.

وراح الأمير يرقب المنظر كله في هدوء واكتئاب، أما فيردشكو فقد قال:

- إنني مستعد أن أنقذ اللقافة بأسناني مقابل ألف روبل فقط.

وقال آخر وراءه:

- وكذلك أنا بكل سرور.

ثم أردف قائلاً في نوبة يأس:

- اللعنة على كل شيء. إنها ستحترق تماماً في لحظة، إنها تحترق، تحترق.

وردد الجميع الصيحة وهم يتزاحمون ويزدادون اقتراباً من النار أثناء انفعالهم:

- إنها تحترق، إنها تحترق.

- جانبا، لا تكن أحمق، هذه آخر مرة أقولها لك.

وصرخ فيردشكو وهو يندفع بعنف نحو جانبا محاولاً جذبته إلى النار من كم سترته:

- هلم، أسرع، أسرع أيها الصنم، إن اللفافة تحترق بسرعة. أوه، اللعنة على هذا.

ودفع جانبا فيردشنيكو بعيداً عنه بقوة، ثم استدار بعنف، واتجه نحو الباب ولكنه ما كاد يسير خطوتين حتى تعثر وسقط على الأرض.

وصاح الجميع:

- لقد أغمى عليه.

وقال ليبيديف نادباً:

- ولا تزال اللفافة تحترق.

وهتف غيره:

- وهي تحترق هباء.

وصاحت ناستاسيا فيليوفنا:

- كاتيا.. باشا، أحضرا إليه بعض الماء.

ثم تناولت ملقطاً والتقطت اللفافة من النار.

كان الجانب الأكبر من الغلاف الخارجي قد احترق تماماً، ولكن سرعان ما وضح أن محتوياتها لم تكد تمس بسوء. فقد كانت اللفافة مغلفة بثلاث طبقات من ورق الصحف، ومن ثم نجت الأوراق المالية من الدمار.

وقال ليبيديف وقد تنهد بارتياح شديد:

- قد تكون النار دمّرت ألف روبل قدرة أو نحو ذلك. ولكن الخسارة قليلة جداً على كل حال.

وصاحت ناستاسيا فيليوفنا وهي تضع اللفافة بجانب جانبا:

- إنها كلها له. كل هذا المبلغ ملكه. أسمعون جميعاً. لقد تمالك نفسه ولم يحاول إنقاذها. ومن ثم فإن احترامه لنفسه أعظم من لهفته على المال. حسناً، لسوف يفيق حالاً- ويجب أن ينال اللقافة وإلا ذبح نفسه بعد ذلك. ها.. ها هو ذا يفيق. جنرال، توتسكي، أسمعوني جميعاً. إن المال كله ملك لجانيا. إنني أعطيه له وأنا مدركة تمامًا لما أفعل - كمكافأة له على - حسناً، على أي شيء يُرضيه. أخبروه بهذا. دعوا اللقافة ملقاة بجانبه. والآن هلم يا روجوجين. وداعاً أيها الأمير. إنك أول رجل حقيقي أراه في حياتي. وداعاً يا مستر توتسكي، وشكراً.

وتبع أفراد عصابة روجوجين زعيمهم وناستاسيا فيليوفنا إلى ردهة المدخل وهم يضحكون ويصخبون ويصفرون.

وكانت الخادومات منتظرات في الردهة. فتناولت منهن معطفها الفراء، وهرعت الطاهية مارثا من المطبخ، وقبلتهن ناستاسيا جميعاً.

وقالت الفتيات الأربع وهن يبكين ويقبلن يديها:

- هل لفظتنا حقاً جميعاً أيتها الأم الصغيرة؟ إلى أين. إلى أين أنت ذاهبة؟ حتى في يوم عيد ميلادك!

- إنني ذاهبة إلى العالم يا كاتيا. وربما أصبح غسالة ثياب. فأنا لا أدري. يكفي أنني لن أرى توتسكي بعد ذلك. احملن إليه احتراماتي، ولا تسئن الظن بي يا بنات.

وأسرع الأمير في الطريق إلى الباب الخارجي حيث كان أصحاب روجوجين يستقرون في الزحافات التي كانت أجراسها تصلصل في طرب وتناسق، ولحق الجنرال به عند السلم. وصاح قائلاً وهو يمسك بذراعه:

- أيها الأمير، أيها الأمير تمالك نفسك. دعك منها أيها الأمير. لقد رأيت أي نوع من النساء هي. إنني أتحدث إليك كوالد.

ونظر الأمير إليه دون أن يقول شيئاً. ثم انتزع ذراعه من قبضته، وأسرع في الهبوط على السلم.

ووصل الجنرال في الوقت الذي رأى فيه الأمير يستقل أول زحافة مستأجرة في طريقه، وبعد أن صدر الأمر للانطلاق إلى حدائق إيكاترينهوف، اندفع للحاق بزحافات روجوجين وأصحابه. ثم مضى الجنرال في طريقه إلى البيت بزحافته التي يجرها جواده الرمادي الممتاز، وهو يشغل ذهنه بأفكار وآمال جديدة، والعقد اللؤلؤي في جيبه؛ لأنه لم ينس - كرجل عملي واع - أن يأتي به معه. وكان وجه ناستاسيا فيليوفنا قد تبدى مرة أو مرتين بين أفكاره وآرائه الجديدة، وجعله يتنهد بعمق وهو يغمغم لنفسه:

- إنني آسف، آسف حقاً! إنها امرأة ضائعة. مجنونة.. مجنونة! وعلى كل حال فإن الأمر لم يعد لها الآن، ولعل الخير في هذا.

وكان ثم اثنان آخران من ضيوف ناستاسيا فيليوفنا، يسيران على مسافة يسيرة، ويتبادلان حديثاً من هذا الطراز.

وقال بيتسين لتوتسكي:

- أتعلم يا توتسكي أن ما حدث الليلة شبيه تماماً بما يُقال عما يجري بين اليابانيين؟ يقولون إن الشخص الذي تعرض للإهانة يتقدم نحو الذي أهانه ويقول له: «لقد أهنتني ولهذا جئت لأفتح بطني أمام عينيك» وبهذه الكلمات يشق بطنه أمام غريمه، وهو لا شك يعتبر أنه قد ثار لنفسه ونال كل ما يريد من ترضية. إن في هذا العالم شخصيات عجيبة يا سيدي.

- هه! وأنت تعتقد أن شيئاً من هذا القبيل قد حدث الليلة! أهكذا؟
ويحي، إنها، كما تعلم، مقارنة قوية الدلالة! ولكن لا شك أنك لاحظت
يا عزيزي بيتسين أنني بذلت كل ما وسعني من جهد، وأنه لم يكن في
مقدوري أن أفعل أكثر مما فعلت. ولكن يجب أن تعترف بأن لهذه المرأة
بعض المميزات النادرة، لقد أحسست أنني عاجز عن الحديث في ذلك
الهرج والمرج؛ لأنني لو تحدثت لصحت بها قائلاً، عندما لامتني، أنها هي
نفسها المبرر الوحيد لما حدث مني. ففي مقدور مثل هذه المرأة أن تجعل
أي إنسان ينسى نفسه، وكل شيء! وحتى ذلك الجلف روجوجين، الذي
رأيت، قد جاء إليها بمائة ألف روبل! وإن كل ما حدث الليلة كان بطبيعة
الحال عجباً غريباً شاذاً، ومع ذلك لم تنقصه الأصالة وعناصر التشويق.
يا للسماء! ما الذي لا يمكن أن يحدث عندما تقترن مثل هذه الشخصية بمثل
هذا الجمال! ومع ذلك فرغم كل ما بذلت من أجلها من مجهودات، وبرغم
كل ما تلقته من علم وثقافة، فقد ذهب هذا كله أدراج الرياح. «إنها جوهرة
خام». هكذا كنت أقول دائماً؟

وتنهذ توتسكي بعمق.



القسم الثاني

الفصل الأول

بعد يومين من تلك النهاية العجيبة التي اختتمت بها حفلة عيد ميلاد ناستاسيا فيليوفنا، والتي سجلنا أحداثها في القسم الأول من هذه القصة، رحل الأمير ميشكين على عجلٍ من مدينة سانت بطرسبرج إلى موسكو لكي يقوم ببعض الشؤون الخاصة باستلامه لثروته غير المنتظرة.

وقيل إن هناك أسبابًا أخرى لهذا الرحيل السريع. ولكن فيما يتعلق بهذه الأسباب وفيما يتعلق بتحركاته في موسكو، وبغيته الطويلة عن سانت بطرسبرج، فإننا لن نستطيع أن نقدم غير معلومات قليلة.

لقد استمرت غيبة الأمير ستة أشهر. وحتى الذين كانوا شديدي الاهتمام بمصيره، لم يستطيعوا أن يلتقطوا إلا الشيء القليل من أخباره طيلة هذه الفترة. حقًا، لقد بلغت بعض الشائعات المعينة مسامع أصدقائه، ولكنها كانت غريبة ونادرة، ثم ظهر أنها تناقض بعضها البعض.

وبطبيعة الحال كانت أسرة إيبانشين شديدة الاهتمام بتحركاته، وذلك رغم أنه لم يجد وقتًا ليودع أفرادها قبيل رحيله. ولكن الجنرال، على كل حال، أتاحت له الفرصة ليراه مرة أو مرتين منذ تلك الليلة الحافلة، وقد

تحدث إليه في جد واهتمام. ولكنه، رغم رؤيته للأمير، كما قلت، فإنه لم يتحدث إلى أسرته عن هذا الأمر. بل إن أفراد أسرة إيبانشين، في الواقع، اتفقوا فيما بينهم على تجنب ذكر اسم الأمير طيلة شهر أو نحو ذلك بعد رحيله. ولكن مسز إيبانشين هي فقط التي أعلنت، عند بدء هذه المرحلة، أنها «أخطأت جدًّا في حسن ظنها بالأمير»! ثم أضافت قائلة بعد يوم أو يومين، مشيرة في حديثها إليه دون أن تذكر اسمه، إن من بين طباعها التي لا تتغير، خطأها في حسن الظن بالناس. ومرة أخرى، بعد عشرة أيام، وبعد أن ضاقت ذرعًا بتصرفات بناتها، قالت بإيجاز له دلالة:

«كفى ما ارتكبنا من أخطاء، لسوف أكون أشد حرصًا في المستقبل».

وأيًا ما كان الأمر، فمن المستحيل أن نتجنب القول بأن جوًّا من الكآبة كان يرين على البيت، وأن إحساسًا كان يشد أعصابهم، ويرسم على وجوه أفراد الأسرة جميعًا أمارات التجهم والتقطيب. وكان الجنرال مشغولًا أكثر من المعتاد، ومن ثم قلما كانت الأسرة تراه.

ولم يكن ثمة شيء يُقال للبنات علانية في كل الأحوال، ولكن من المحتمل أن كان يُقال لهن بعض الشيء على انفراد. لكن كن عذارى مترفعات، بل كانت الواحدة منهن تخجل عادة من أن تفضي بأسرارها لأختيها، ولكن كن يفهمن بعضهن البعض من الكلمة الأولى في جميع الظروف، بل وفي أحيان كثيرة من النظرة الأولى. ولهذا لم يكن ثمة حاجة إلى كثرة الحديث بينهن بوجه عام.

ولكن حقيقة واحدة ينبغي على الأقل أن تكون واضحة أمام أي شخص غريب تصادف أن كان موجودًا في ذلك الحين، وهي أن الأمير قد ترك أثرًا ضخمًا في محيط الأسرة رغم أنه لم يدخل البيت غير مرة واحدة، ولمدة

قصيرة. ولو أن أحداً حلل هذا الأثر طبعاً، لربما ثبت له أنه لا شيء أكثر من الفضول ولكن أيّاً ما كان الأمر، فإن هذا الأثر لا شك موجود.

وأخذت الشائعات المنتشرة بالمدينة تضيع تدريجياً في جنبات الشكوك والحيرة. فقد قيل إن أميراً شاباً أحرق غير معروف الاسم، قد استحوذ فجأة على ثروة هائلة وتزوج براقصة باليه فرنسية، وتناقضت هذه مع الشائعة التي دارت بأنه تاجر شاب هو الذي ورث أموالاً طائلة - وتزوج راقصة باليه فرنسية وأن الوارث الأحرق السكير أشعل النار في ليلة الزفاف في سبعين ألف روبل لمجرد الزهو والمباهاة.

على أن هذه الشائعات لم تلبث أن اختفت، في نفس الوقت الذي وقعت فيه حقائق كبيرة مؤكدة. فمثلاً رحل جميع أفراد جماعة روجوجين، وهو على رأسهم إلى موسكو. وذلك بعد أسبوع تماماً من الحفل الصاخب الذي أقيم في حدائق إيكاترينهوف، والذي حضرته ناستاسيا فيليوفنا. ثم عُرف من هذا الحفل الصاخب أن ناستاسيا هربت، واختفت، وأنه عُرف، أخيراً، أنها سافرت إلى موسكو، ومن ثم كان المعتقد أن رحيل روجوجين بجماعته إلى موسكو أيضاً لم يكن مجرد مصادفة.

وكان ثمة تيار آخر من الشائعات عن جانبا أيضاً. ولكن الأحداث لم تلبث أن ناقضتها. لقد سقط صريع مرض شديد، ومنعه المرض من الظهور في المجتمع، بل ومن الذهاب إلى مقر عمله، لمدة شهر. ولكن بمجرد أن استرد صحته، استقال من منصبه في الشركة العامة التي يديرها الجنرال إيبانشين بلا سبب معروف، وأسند المنصب إلى شخص آخر. وكان قد امتنع تماماً من الاقتراب من منزل إيبانشين، كما كان يبدو دائماً مكتئباً مستوفز الأعصاب.

وتزوجت فاريا أرداليونوفيتش من بيتسين في ذلك الشتاء، وقد قيل إن استقالة جانيا من عمله كانت السبب المباشر في هذا الزواج؛ ذلك لأن جانيا لم يعد عاجزاً عن إعالة أسرته فحسب، بل أصبح محتاجاً إلى من يعوله أيضاً.

ويمكننا أن نذكر أن اسم جانيا لم يعد يذكر في محيط أسرة إيبانشين، تمامًا كما حدث لاسم الأمير. ولكن حدثاً معيناً له علاقة بتلك الليلة الحاسمة في منزل ناستاسيا فيليبوفنا أصبح معروفاً للجنرال، بل لجميع أفراد أسرته، في الواقع، في اليوم التالي. ذلك الحدث الذي عُرف هو أن جانيا عاد إلى بيته في تلك الليلة، ولكنه رفض أن يأوي إلى فراشه، وراح ينتظر في لهفة محمومة عودة الأمير من حداث إيكاترينهوف.

ولما عاد الأمير في السادسة صباحاً، ذهب جانيا إليه في غرفته، حاملاً معه لفافة المال وعليها آثار الاحتراق، ثم أصر على أن يعود بها الأمير إلى ناستاسيا فيليبوفنا بلا أدنى تأخير. وقد قيل إن جانيا حين دخل غرفة الأمير لم يدخل إلا وهو يحمل كل شعور بالمودة، وإلا كل إحساس باليأس والشقاء، وأنه بعد محادثة قصيرة، مكث مع الأمير نحو ساعتين لم يكف فيهما عن البكاء المرير، ثم افترقا وهما صديقان ودودان.

وقد سمع آل إيبانشين بهذا، كما سمعوا بما حدث في مسكن ناستاسيا فيليبوفنا، ولعل من دواعي العجب أن تنتشر الحقائق بمثل هذه السرعة والدقة. ومن الممكن الافتراض، فيما يتعلق بجانيا، أن أخباره انتشرت بواسطة أخته فارفارا أرداليونوفنا التي أصبحت، فجأة، كثيرة التردد على بنات إيبانشين، لدهشة أمهن البالغة. ولكن بالرغم من أن فارفارا قد رأت أنها؛ لأسباب خاصة، جديرة بصدقاتهن، إلا أنه كان من غير المحتمل أن تتحدث إليهن

عن أخيها، إذ كانت موفورة الكبرياء، هذا عدا علمها بأنها لو فعلت هذا، لبدا أنها تلتمس رفع الكلفة بينها وبين أناس طردوا أخاها بطريقة خالية من كل ذوق سليم. وكان بينها وبين بنات إيبانشين تعارف منذ الطفولة. ورغم أنها لم تكن تلتقي بهن في السنوات الأخيرة إلا نادرًا. وأن فارفارا، حتى الآن، قلما كانت تظهر في غرفة الاستقبال بمنزل آل إيبانشين، وإنما تعودت أن تدخل من الباب الخلفي. وكانت المسز إيبانشين، التي تكره فارفارا- وإن كانت تكن أكبر الاحترام لأُمها- شديدة الاستياء لهذه الألفة المفاجئة، وقد أرجعتها إلى رغبة بناتها العامة في «المعاكسة» و«البحث دائمًا عن وسائل جديدة لمعارضتها». وأيًا كان الأمر فقد استمرت فاريبا في زياراتها لهن.

وبعد شهر من رحيل الأمير ميشكين، استلمت المسز إيبانشين خطابًا من صديقتها القديمة الأميرة بيلوكوفسكي «التي رحلت أخيرًا إلى موسكو» كان له، أي للخطاب، أثر كبير في ابتهاجها. إنها لم تذكر محتوياته لبناتها أو لزوجها الجنرال، ولكن سلوكها نحو البنات أصبح زاخرًا بأشد العطف والحنان. بل إنها أدلت إليهن بنوع ما من الاعتراف، إلا أنهن لم يفهمن شيئًا. وقد خففت أيضًا من معاملتها للجنرال الذي ركبه العار منذ تلك الليلة. ورغم أنها استطاعت أن تتشاجر مع الجميع طيلة اليوم التالي، إلا أنها لم تلبث أن استكانت، وغدا في الإمكان الاستنتاج- من تصرفاتها العامة- أن لديها أنباء سارة من نوع ما، تحبها، ولكنها لم تستطع بعد أن تقرر إبلاغها إليهم.

وعلى أية حال، فقد استلمت بعد أسبوع آخر، رسالة ثانية من نفس المصدر، وأخيرًا قررت أن تتكلم.

لقد أعلنت، بوقار، أنها تلقت من صديقتها القديمة الأميرة بيلوكوفسكي

أنباء ملأت نفسها بهجة عن «ذلك الأمير العجيب». لقد استطاعت صديقتها أن تظفر به، وأن تعرف كل ما يجرى له. وكان الأمير قد زارها وترك في نفسها تأثيراً طيباً، ومن ثم أخذت تستقبله كل يوم وتقدمه إلى كثير من الأسر العريقة.

واستطاعت البنات أن يدركن أن الأم تخفي عنهن الشيء الكثير، وأنها تركت أجزاء كبيرة من الخطاب دون أن تقرأها عليهن.

وأياً ما كان الأمر، فقد زالت حالة التوتر، وأصبح من الممكن فجأة أن يذكر اسم الأمير مرة أخرى في البيت. ومرة أخرى بدا بوضوح مدى قوة الأثر الذي تركه الشاب في جو المنزل بعد زيارة واحدة. وقد دهشت المسز إيبانشين لما تركته هذه الأنباء الواردة من موسكو من تأثير في نفوس بناتها. كما أن دهشة البنات لم تكن أقل وهن يرينها شديدة الاهتمام بوضع الأمير في رعاية سيدة قوية النفوذ مثل الأميرة بيلوكوفسكي، وذلك رغم كثرة ما كانت تردده سابقاً، عن خطئه «في حسن الظن بالناس»، وبمجرد أن زالت حالة التوتر، لم يُضع الجنرال وقتاً في أن يبدو هو أيضاً شديد الاهتمام بالأمر؛ لقد اعترف بهذا الاهتمام، ولكنه قال إنه اهتمام بالجانب المادي من الموضوع. وقد لاح أنه، بسبب اهتمامه بالأمر، قد اتخذ الترتيبات لوضع رقابة حازمة حول شئون الأمير المالية، ولا سيما حول المحامي سالاكسين. وكان قد ثبت بلا أدنى شك صحة كل ما قيل عن أن الأمير أصبح الوارث الوحيد لثروة ما. ولكن ثبت أيضاً أن هذه الثروة أقل كثيراً مما قيل عنها في أول الأمر. فالمزرعة كانت غارقة إلى حد كبير في الديون، وقد أقبل الدائنون عليه من كل جانب، وأصر الأمير رغم جميع النصائح والتوسلات أن يتولى بنفسه كل شئون الدين، ومعنى هذا إرضاء جميع الدائنين رغم أن نصفهم

محتالون تمامًا.

وأكدت المسز إيبانشين هذا كله، وقالت إن الأميرة كتبت لها بهذا المعنى، وأضافت قائلة إنه لا أمل في علاج أمر رجل أحمق. ولكن أمارات وجهها أعربت بوضوح عن مدى موافقتها التامة على تصرفات هذا الأحمق الشاب. وقد لاحظ الجنرال في النهاية أن زوجته شديدة الاهتمام بالأمير كما لو كان ابنها، وأن إحاطتها لأجلالها برعاية خاصة أصبحت حقيقة واضحة للجميع.

وقد أدى هذا كله بالجنرال لأن يبدو مهيبًا وقورًا، ولكن وأسفاه! فإن هذه الحالة الباعثة على الرضا لم تلبث أن تغيرت مرة أخرى.

فبعد مضي أسبوعين، إذ بالجنرال وزوجته يعودان فجأة إلى الاكتئاب والصمت وإذا جو التوتر العصبي يعود كأشد ما يكون. وكان الجنرال من قبل أول من عرف كيف هربت ناستاسيا فيليبوفنا إلى موسكو وكيف لحق روجوجين بها، وكيف اختفت مرة أخرى ثم عثور روجوجين عليها. وكيف أنها أوشكت أن تعده أخيرًا بالزواج؛ والذي حدث الآن أن الجنرال أيضًا قد تلقى معلومات تفيد أنها اختفت مرة ثانية في اليوم المحدد للزواج تقريبًا، وأن اختفاءها هذه المرة كان في داخل البلاد، وأن الأمير ميشكين قد ترك أعماله بين يدي المحامي سالاسكين، واختفى أيضًا.. ولكن لا أحد يعرف هل اختفى في صحبة ناستاسيا أم للبحث عنها.

وتلقت المسز إيبانشين تأكيدًا لهذه الأنباء من الأميرة - وهكذا، للأسف، عادت حالة الغموض والخفاء تغلف تحركات وتصرفات الأمير بعد شهرين من رحيله عن مدينة بطرسبرج، وعاد جو التوتر والصمت فيما يتعلق بهذا الموضوع يخيم على أسرة إيبانشين. ولكن فاريا أخبرت البنات على كل

حال بالأمر بعد أن تلقت مثل هذه الأنباء من زوجها بيتسين الذي يعرف عادة أكثر مما يعرف معظم الناس.

ويمكن في النهاية، أن نقول إنه حدثت تغييرات كثيرة في محيط أسرة إيبانشين في فصل الربيع، بحيث لم يعد من العسير نسيان أمر الأمير نفسه، الذي لم يكتب عن أخباره لأحد.

وكانت أسرة إيبانشين قد عقدت العزم أخيرًا على قضاء الصيف خارج البلاد؛ كل أفراد الأسرة، فيما عدا الجنرال الذي لم يكن في وسعه إضاعة الوقت «في رحلة للترفيه» طبعًا. وكانت هذه الترتيبات قد اتخذت بناء على إلحاح البنات اللاتي أصررن على أنهن لم يسمح لهن قط بالسفر إلى الخارج لأن والديهن جد ملهوفين أكثر مما ينبغي على تزويجهن. ومن المحتمل أن يكون والداهن رأيا أن الأزواج قد يوجدون في الخارج، وأن رحلة هذا الصيف قد تؤتي ثمارها. وكان مشروع الزواج بين توتسكي وألكسندرا قد فشل. ذلك أنه لم يجر أي مزيد من الحديث بشأنه منذ رحيل الأمير عن بطرسبرج. فقد أهمل الموضوع تمامًا، مما أبهج المسز إيبانشين وجعلها تقول إنها مستعدة «لرسم الصليب على صدرها بيديها الاثنتين» فرحة بالنجاة. ولكن الجنرال ظل مدة طويلة وهو نادم على فشل هذا المشروع، إذ كان يتنهد على «مثل هذا الثراء» وعلى «مثل هذا الرجل السهل اللطيف». وبعد حين من الزمن عُرف أن توتسكي تزوج بمركية فرنسية حملته معها إلى باريس ثم إلى بريطانيا.

وقال الجنرال لنفسه عنه:

«أوه، حسنًا. لقد ضاع منا إلى الأبد الآن».

وهكذا أخذت أسرة إيبانشين في الاستعداد للرحيل.

ولكن وقع الآن حدث غيّر كل المشروعات، وأجل الرحلة المزمعة إلى حين؛ مما أبهج الجنرال وزوجته كثيرًا.

فقد وصل أمير معين «س» إلى بطرسبرج من موسكو، وكان شابًا عظيم الشأن، كريم المحتد. كما كان واحدًا من أولئك الموفوري النشاط الذين يجدون دائمًا عملاً طيبًا يشغلون به أنفسهم. وكاد هذا الأمير الشاب، الوديع غير المتطفل كثير الاهتمام بما يجرى في الدنيا عادة، أن يفرض اسمه على الرأي العام.

وكان قد خدم، في أول الأمر، بالمصالح الحكومية، ثم اهتم بعد ذلك بالشئون الخاصة بالحكم المحلي في المدن الإقليمية، ثم أصبح عضوًا مراسلًا للكثير من الجمعيات العلمية المهمة، وكان رجلًا عريق الأسرة، موفور الدخول، في نحو الخامسة والثلاثين من العمر.

وتعرف هذا الأمير «س» بأسرة الجنرال إيبانشين، حيث تركت الابنة الوسطى أدليدا، في نفسه أثرًا عميقًا. ولما فاتحها في أمر الزواج، عند اقتراب فصل الربيع، وافقت، وابتهج الجنرال وزوجته، وتأجلت الرحلة إلى الخارج، وتحدد الزواج يوم غير بعيد.

وكان من الممكن أن تكون الرحلة إلى الخارج، فيما بعد، ممتعة للمسز إيبانشين وابتيتها، لولا أن وقع حدث آخر.

فقد حدث أن قدم الأمير «س» لأسرة إيبانشين قريبًا له من بعيد يدعى إيفيني بافلوفيتش، وهو ضابط شاب في الثامنة والعشرين من عمره، كانت مغامراته في الوسط النسائي بموسكو مضرب الأمثال. هذا السيد الشاب،

ما إن وقعت أنظاره على أجلايا حتى أصبح زائراً مستديماً لأسرة إيبانشين. وكان خفيف الظل، موفور الثقافة، كثير المال كما عرف الجنرال في أسرع وقت. ولم يكن يؤخذ عليه شيء غير ماضيه المعروف.

ولم يدر الحديث عن الموضوع، بل لم يلمح أحد بشيء عنه. ومع ذلك فقد رأى الوالدان أنه من الأفضل عدم الاستطراد في الحديث عن الرحلة إلى الخارج في ذلك الموسم بأية حال. ولكن ربما كان لأجلايا نفسها رأي آخر. حدث هذا كله قبل أن يظهر بطلنا على مسرح الأحداث مرة أخرى، وكان الأمير ميشكين المسكين عندئذ، إذا حكمنا بالظواهر، قد أصبح نسياً منسياً في بطرسبرج. فلو أنه ظهر فجأة بين معارفه؛ لاستقبلوه كأنه شخص آت من السماء. ولكن يحسن أن نلقي نظرة على حقيقة أخرى قبل أن نختم هذه المقدمة.

لقد استأنف كوليا إيفولجين حياته القديمة فترة ما بعد رحيل الأمير. أي أنه كان يذهب إلى المدرسة، ويرعى والده، ويساعد فاريا في شئون المنزل، ويلبي مطالبها من الخارج، ويزور بين الحين والآخر صديقه إيبوليت..

وكان نزلاء الغرف المستأجرة قد اختفوا بسرعة: إذ ما لبث فيردشكو أن رحل بعد الذي حدث في مسكن ناستاسيا، بينما سافر الأمير إلى موسكو كما علمنا. وذهب جانيا ووالدته للإقامة مع فاريا وزوجها بيتسين عقب الزواج مباشرة، بينما أقام الجنرال سجيناً لأحد الدائنين، بسبب «كمبيالات» أعطاهها لأرملة الضابط - صديقه - وهو يظن أنها لن تستغلها ضده قانونياً. وقد أدهش هذا التصرف القاسي، المسكين أرداليون ألكسندروفيتش إيفولجين - الضحية، كما يسمي نفسه، «لثقة التامة في نبل الطبيعة الإنسانية». ذلك أنه لم يكن يحلم أبداً، حين دفع هذه «الكمبيالات» أنها ستكون مثار متاعب له

في المستقبل، ولكن الذي حدث أثبت أنه كان مخطئاً. وكان يصبح دائماً بلهجة مريرة وهو جالس بين أصدقائه الجدد في السجن :

«لا تتق في أحد بعد هذا، وكن على أشد الحذر من كل رجل أو امرأة» ثم يروح يسرد عليهم أفاصيصة المحبة عن حصار فارس، وعن الجندي الذي عاد إلى الحياة. وكان على الجملة قد كيّف نفسه تماماً في وضعه الجديد، وقد أعلن كل من بيتسين وفاريا أنه في المكان الملائم له، وكذلك كان رأي جانيا. وكانت الشخصية الوحيدة التي حزنت على مصيره، هي زوجته المسكينة نينا ألكسندروفنا التي بكت بدموع مريرة عليه، مما أدهش أهل منزلها. ورغم أن صحتها كانت دائماً ضعيفة، إلا أنها حرصت على أن تزوره كلما أمكنها ذلك.

ومنذ «محنة» الجنرال كما يسميها كوليا- ومنذ زواج أخته أتاح، الغلام لنفسه في هدوء مزيداً من الحرية، فلم يعد أقاربه يرونه إلا قليلاً؛ لأنه قلما كان يبيت في البيت. لقد تعرف بعدد كبير من الأصدقاء الجدد، وعدا هذا كان دائم الزيارة لأبيه في سجن الدائن الذي كان كثيراً ما يصحب إليه أمه. أما فاريا التي كانت لا تكف عن زجره، فإنها الآن لم تحدثه قط عن موضوع كثرة غيابه، وكانت الأسرة كلها قد دهشت وهي ترى جانيا- رغم حالة اكتتابه- قد أصبح على علاقة طيبة تماماً بأخيه، وكان هذا شيئاً جديداً لأن جانيا قد اعتاد أن ينظر إلى كوليا على أنه نوع من الخدم، فكان يعامله باحتقار، ويهدده «بنزع أذنيه» وعلى الجملة كان يثيره بالمضايقات إلى حد الانفجار. ولكن بدا الآن أن جانيا في حاجة ماسة إلى أخيه، وأن هذا الأخير أحس- من جانبه- بأن في مقدوره أن يغفر الكثير لجانيا منذ رد مائة ألف الروبل الممنوحة له من ناستاسيا فيليوفنا، وبعد ثلاثة أشهر من رحيل

الأمير، اكتشفت أسرة إيفولجين أن كوليا قد تعرف بآل إيبانشين، وأنه على علاقة من المودة الأكيدة بالبنات. وقد سمعت فاريا بهذا أولاً، رغم أن كوليا لم يطلب منها أن تقدمه إليهن. وشيئاً فشيئاً أصبحت الأسرة شديدة التعلق به. وكانت المسز إيبانشين تنظر إليه في أول الأمر بازدراء ونفور، وتستقبله ببرود، ولكنه بعد وقت قصير استطاع أن يرضيها؛ لأنه كما قالت هي «صريح وغير منافق» وهي صفة حقيقية تماماً. وقد جعل نفسه منذ اللحظة الأولى في مستوى واحد مع أصدقائه الجدد. وإذا كان في بعض الأحيان يقرأ الصحف والكتب لربة البيت؛ فإنما لأنه يحب أن يكون مفيداً.

وعلى أية حال فقد حدث بينه وبين المسز إيبانشين ذات يوم خلاف شديد عن «مشكلة المرأة» في أثناء مناقشة حادة حول هذا الموضوع الحيوي. وقد قال لها إنها مستبدة، وإنه لن يضع قدمه مرة أخرى في البيت، وإن ما حدث بعد ذلك قد يبدو عجيباً، ولكن المسز إيبانشين أرسلت يوماً أو اثنين خادماً يحمل رسالة إلى كوليا ترجوه فيها العودة، وقد لبى كوليا رجاءها فوراً دون أي مساس بكرامته.

وكانت أجلايا هي الوحيدة بين أفراد الأسرة التي لم يستطع أن يكتسب مودتها، والتي كانت تتحدث معه دائماً في ترفع وكبرياء. ولكن حدث أن استطاع الغلام ذات يوم أن يقدم لهذه العذراء المتكبرة مفاجأة.

كان ذلك عند حلول عيد الفصح، إذ انتهز فرصة حديثه معها على انفراد، وسلم لها رسالة قائلاً: «إن لديه تعليمات بأن يسلمها إليها على انفراد». وحملت في وجهه دهشة، ولكنه لم ينتظر حتى يسمع ما ستقوله، وانصرف. وفضت أجلايا خاتم الرسالة، وقرأت ما يلي:

«حدث فيما مضى أن شرفيتني بوضع ثقتك في شخصي. ولعلك قد

نسيت هذا تمامًا الآن. كيف حدث أنني أكتب إليك؟ إنني لا أدري. ولكنني أشعر برغبة مستبدة في أن أذكرك بوجودي، لا سيما أنت! كم من مرة احتجت إليك أنتن الثلاث جميعًا، ولكنك أنت فقط التي كنت تقيمين في قرة عيني دائمًا، إنني في حاجة إليك، في أشد الحاجة إليك. إنني لن أكتب عن نفسي، فليس لديّ ما أقوله لك. ولكنني أتوق إلى أن تكوني سعيدة، فهل أنت سعيدة؟ هذا كل ما أريد أن أقوله لك - أخوك: الأمير ل. ميشكين».

واضطرم وجه أجلايا فجأة عند قراءتها لهذه الرسالة القصيرة المضطربة، واستغرقت في تفكير عميق.

وإن من العسير أن تصف أفكارها في تلك اللحظة، ومن هذه الأفكار «هل أطلع أحدًا على هذه الرسالة؟» ولكنها كانت تشعر بالخجل من إطلاع أحد عليها. وهكذا انتهى بها الأمر إلى أن أخفتها في درج النضد وقد رنت على شفتيها ابتسامة غريبة متهكمة.

وفي اليوم التالي أخرجتها، ووضعتها في كتاب كبير كما تعودت أن تفعل مع الأوراق التي تريد أن تتمكن من العثور عليها بسرعة. وقد ضحكت عندما حدث، بعد أسبوع، أن لاحظت عنوان الكتاب، ورأت أنه «دون كيشوت» ولكن قد يبدو من العسير أن نعرف على وجه التحديد سبب الضحك.

ولا أستطيع أيضًا أن أعرف هل أطلعت أخواتها على الرسالة أم لا. ولكن عندما قرأت الرسالة مرة أخرى، خطر لها فجأة أن ذلك الغلام المغرور كوليا ليس بالتأكيد هو الوحيد الذي اختاره الأمير ليراسله طيلة هذه المدة، ومن ثم قررت أن تسأله في هذا الشأن وقد فعلت هذا وهي تبالغ في

التظاهر بعدم الاهتمام. وقال لها في ترفع إنه على الرغم من إعطائه للأمير عنوانه الدائم، عند رحيل هذا الأخير عن المدينة، وعرضه خدماته عليه، إلا أن الأمير لم يكلفه بأداء أية مهمة من قبل، ولم يكتب إليه إلا هذه الأسطر التالية مع رسالة أجلايا. وتناولت أجلايا الرسالة وقرأت فيها ما يلي:

«عزيزي كوليا: أرجو أن تتكرم وتسلم الرسالة المختومة المرفقة بهذه إلى أجلايا إيفانوفنا. والسلام. المحب الأمير ل. ميشكين».

وقالت أجلايا وهي تعيد الرسالة إلى الغلام:

- إن من دواعي الغرابة أن يضع الأمير ثقته في غلام صغير أبله مثلك.

ثم انصرفت مبتعدة عن «الصغير الأبله» وعلى وجهها أبلغ أمارات الاحتقارات.

وكان هذا أكثر مما يستطيع كوليا أن يحتمله، ذلك أنه كان في الواقع قد استعار عناقة «كرافت» جانبا الخضراء لهذه المناسبة - دون أن يذكر السبب - حتى يؤثر عليها، وكانت النتيجة أن أحس بجرح عميق في كرامته.



الفصل الثاني

كان ذلك في مستهل شهر يونيه، وقد ظل الطقس في مدينة بطرسبرج رائعاً لمدة أسبوع كامل. وكان لآل إيبانشين بيت ريفي فاخر في بافلوفسك^(١). وقد قررت المسز إيبانشين أن تمضي الأسرة إلى هذه المنطقة بلا أدنى تأخير. وخلال يومين كانت الاستعدادات قد تمت، ورحلت الأسرة عن المدينة! وبعد يوم أو يومين من الانتقال إلى بافلوفسك، وصل الأمير ميشكين إلى بطرسبرج بقطار الصباح من موسكو. ولم يكن أحد في استقباله، ولكنه حين هبط من المركبة، لمح فجأة عينين متوهجتين تتركزان عليه بين الجموع التي جاءت في انتظار القطار. وعندما حاول أن يعيد البحث عن هاتين العينين؛ ليتعرف على صاحبهما، لم يجد ما يهديه في هذا الشأن. لا شك أن الأمر تهاويل خيال، ولكن الأثر السيئ ظل باقياً في نفسه، وكان بدون هذا، يشعر فعلاً بالأسى، مستغرقاً في التفكير، وكان يبدو فعلاً مشغول الذهن حقاً.

وحملته المركبة إلى فندق صغير حقير بالقرب من شارع ليتاينايا؛ وهناك استأجر غرفتين مظلمتين رديئتي التأثيث. وبعد أن اغتسل وغير ملابسه، انصرف عن الفندق مسرعاً مرة أخرى، كأنه مشوق إلى عدم إضاعة

(١) أحد المصايف الأنيقة بالقرب من بطرسبرج.

أي وقت. وإن أي شخص يراه لأول مرة منذ رحيله إلى بطرسبرج، يمكنه أن يحكم أنه تحسن كثيرًا فيما يتعلق بالمظهر الخارجي، فقد كانت ملابسه جد مختلفة حقًا، فهي حديثة الطراز، بل ربما مسرفة في هذه الناحية. وإن أي شخص يميل إلى التندر قد يجد شيئًا في مظهره يدعو إلى الابتسام. ولكن أين ذلك الشيء الذي يثير ضحك الناس.

واستقل الأمير مركبة ومضى بها إلى شارع بالقرب من ناتيفيتي، حيث ما لبث أن اكتشف المنزل الذي كان يبحث عنه. وكان عبارة عن دار «فيللا» من الخشب، صغيرة الحجم، وقد دهش لمظهرها النظيف الجذاب، إذ كانت تقوم في حديقة صغيرة زاخرة بالأزهار. وكانت نوافذها المطلة على الشارع مفتوحة، ومنها تنساب نبرات صوت يقرأ أو يتحدث في رنين مرتفع. وكان الصوت يرتفع أحيانًا إلى طبقة الصباح، ثم تقطعه بين الحين والآخر نوبات من الضحك.

ودخل الأمير ميشكين الفناء، وصعد الدرجات، وفتحت له الباب طاهية مشمرة عن أكمامها حتى المرفقين، وقد سأل الزائر هل المستر ليبديف موجود بالبيت؟

وأشارت الطاهية إلى غرفة الاستقبال:

- إنه هناك.

وكانت جدران الغرفة مكسوة بالورق الأزرق - حسنة الرياش إلى حد التكلف، بنصدها المستدير، ومتكأها الوثير، وساعتها البرونزية تحت ظلّتها الزجاجية. وكانت ثمة مرآة حائط، وثرّيا محلاة بالبللور ومعلقة في السقف بسلسلة برونزية.

وكان ليبيديف، عندما دخل الأمير، واقفًا في وسط الغرفة، وظهره إلى الباب. وكان خالماً سترته بسبب الحر الشديد، ويبدو أنه وصل إلى ذروة حديثه، فراح من فرط التأثر يضرب على صدره.

وكان جمهوره يتكون من غلام في نحو الخامسة عشرة من عمره، ذكي الملامح، يمسك كتابًا، وإن كان لا يقرأ، وشابة في نحو العشرين من عمرها، ترتدي ملابس حداد شديدة القتامة، وتحمل بين يديها طفلة، وفتاة أخرى في الثالثة عشرة، ترتدي ملابس الحداد أيضًا، وتضحك عاليًا بفم شديد الاتساع. وعلى المتكأ رقد شاب وسيم يشعر أسود وعينين سوداوين، وبوادر لحية وسوالف. وكان يقاطع المتحدث كثيرًا ويناقشه، فيثير بذلك بهجة الآخرين. وهتفت الطاهية قائلة:

- مستر ليبيديف.. مستر ليبيديف، ها هنا زائر يريد أن يراك، النفث إلينا، إن سيدًا يريد أن يتحدث إليك.

ثم أردفت قائلة وهي تنصرف وقد اضطرم وجهها غضبًا:

- حسنًا.. هذه ليست غلطتي.

وجفل ليبيديف، ثم تسمر في مكانه برهة عندما رأى الأمير، ثم تقدم منه وعلى شففيه ابتسامة ترحيب ثم توقف مرة أخرى وهو يقول متلعثمًا:

- الأمير...! صاحب الفخامة!

ثم اندفع فجأة نحو الفتاة التي تحمل الطفلة، وقد فاجأها بحركته هذه، فتراجعت مرتبكة؛ ولكنه في اللحظة التالية راح يتوعد الطفلة الأخرى التي كانت واقفة بالباب ولا تزال تضحك، فصرخت وهرعت نحو المطبخ. وضرب ليبيديف الأرض بقدمه في غضب، ثم تمت معنذرًا حين رأى الأمير

يتأمله في تعجب:

- معذرة- لكي تظهر الاحترام... ها... ها..

فبادره الأمير قائلاً:

- إنك جد مخطئ..

- حالاً، حالاً.. في لحظة واحدة.

ثم اندفع منصرفاً من الغرفة كالزوبعة، بينما نظر الأمير إلى الآخرين متسائلاً!

وكانوا جميعاً يضحكون، وقد شاركهم الضيف هذا الضحك الجماعي.

وقال الغلام:

- لقد ذهب ليأتي بسترته..

وقال الأمير:

- إنني جد آسف.. لقد ظننت.. أخبروني، هل هو..؟

فهتف الرجل الراقد على المتكأ:

- أتحبسه سكران! لا، لا أبداً. إنه لم يشرب غير ثلاث أو أربع كؤوس صغيرة، وربما خمسة. ولكن ماذا في هذا؟ إنه الشيء المعتاد.

وفيما كان الأمير يفتح فمه ليحجب، قاطعته الفتاة التي كان وجهها الجميل ينم عن أمارات من الصراحة المطلقة، إذ قالت:

- إنه لا يشرب كثيراً في الصباح أبداً. فإذا كنت قد جئت لتتحدث معه في شأن من شئون العمل، فافعل الآن. فهذا هو أنسب وقت؛ لأنه أحياناً يأتي في المساء مخموراً. أما في الوقت الحاضر، فإنه يقضي الجانب الأكبر من

المساء في البكاء، وفي قراءة فصول من الكتاب المقدس بصوت مرتفع؛
وذلك لأن أمنا ماتت منذ خمسة أسابيع.

وقال الشاب الراقد في المتكأ:

- لا شك أنه انصرف بسرعة؛ لأنه لم يعرف ماذا يقول لك. وأرى أنه
يحاول أن يحتال عليك، وهو يفكر الآن في أحسن وسيلة ليفعل هذا.
وفي تلك اللحظة عاد ليبيديف بعد أن ارتدى سترته، ثم قال وهو يمسخ
الدموع عن عينيه:

- خمسة أسابيع! خمسة أسابيع فقط يا لليتامى المساكين!

وسألته الفتاة قائلة:

- ولكن لماذا تردي سترتك البالية ذات الثقوب بينما سترتك الجديدة
معلقة وراء الباب؟ ألم ترها؟
فزجرها قائلاً:

- أمسكي عليك لسانك أيتها الحرة!

ثم ضرب الأرض بقدمه وقال بغضب:

- أي طاعون أنت؟

ولكنها ضحكت وقالت:

- هل تحاول أن تخيفني؟ إنني لست تانيا، كما تعلم، ولست أنوي
أن أهرب من وجهك. انظر، إنك توقظ لابوشكا، وسوف تعود إليها نوبة
الانتفاض مرة أخرى، فلماذا تصرخ هكذا؟

فقال رب البيت وهو يحاول ملهوفاً أن يسيطر على أعصابه:

- حسنًا، حسنًا، إنني لن أفعل هذا مرة أخرى.

ثم تقدم إلى ابنته، وتطلع إلى الطفلة بين يديها مشوقًا لأن يرسم علامة الصليب عليها ثلاث مرات وهو يهتف بانفعال:

- ليباركها الله، ليباركها الله.

ثم وجه الحديث إلى الأمير قائلاً:

- إن هذه المخلوقة الصغيرة هي ابنتي لوبوف، وقد ماتت زوجتي هيلين في أثناء ولادتها، وهذه ابنتي الكبيرة فيرا، وهي كما ترى في ملابس الحداد. وهذا. وهذا، أوه.. وهذا..

وكان يشير إلى الشاب الراقد على المتكأ والذي قال له متهمًا:

- استمر في حديثك، ولا تخف.

وعلى حين غرة صاح ليبديف:

- يا صاحب الفخامة، هل قرأت ما نشر في الصحف عن جريمة القتل التي وقعت في أسرة زيمارين؟

فقال الأمير في شيء من الدهشة:

- نعم.

- حسنًا. هذا هو القاتل، إنه هو.. في الواقع..

فسأل الأمير قائلاً:

- ماذا تعني؟

- إنني طبعًا أتحدث بالتشبيه والاستعارة، ولكنه سيكون في المستقبل مثل قاتل أسرة زيمارين. وهو الآن في طريق الإعداد..

وضحك الجميع. وخطر للأمير أن ليبيديف ربما يلغو على هذا النحو لأنه يتوقع منه أسئلة محرجة، ومن ثم يريد أن يكتسب وقتًا.

وصاح ليبيديف وقد بدا أنه فقد كل سيطرة على نفسه:

- إنه خائن. متآمر! إنه وحش! إنه سفاح! فهل ينبغي أن أعامله كابن لأختي أنيسيا!

- أوه، التزم الهدوء! يبدو ولا شك أنك سكران! لقد وضع في ذهنه أيها الأمير أن يلعب دور المحامي، ومن ثم فهو يتمرن على الخطابة والحديث، ويردد دفاعه البليغ على مسامع أطفاله. ومن تظنه كان عميله الأخير؟ إنها امرأة عجوز سرق منها ثروتها كلها، وهي خمسمائة روبل، مراب جشع. وقد طلبت منه أن يتولى الدفاع عنها، ولكنه بدلًا من هذا، دافع عن المرابي، وهو يهودي يُدعى زيدلر؛ لأن هذا وعد بإعطائه خمسين روبلاً.

وهنا قال ليبيديف بصوت خفيض شديد الاختلاف عن صوته السابق:

- الاتفاق هو خمسون روبلاً إذا ربحت القضية، وخمسة إذا خسرتها.

- حسنًا! وكان طبيعيًا أن يقع في الحرج، والأمور مختلفة الآن عما كانت من قبل، وقد انهالت عليه ضحكات السخرية لما قدمه من جهد، ولكنه كان رغم هذا شديد الرضا عن نفسه. لقد قال: «يا سيدي القاضي الحكيم، تصور هذا الرجل البائس العاجز بالشيخوخة والعاهات الذي يكتسب رزقه بالجهد الشريف.. أقول مرة أخرى تصوره وهو يُحرم من كل شيء، حتى من كسرة الخبز الأخيرة- تذكر.. أبتهل إليك بعبارة ذلك المشرع الحكيم «لتكن الرحمة صنوًا للعدالة في ساحات القضاء». والآن، أيها الأمير، هل تصدق أنه يلقي علينا هذا الحديث في كل صباح، من أوله إلى آخره، تمامًا

كما كان يفعل أمام القاضي! وقد سمعناه اليوم للمرة الخامسة. وكان قد بدأ يكرره مرة أخرى اليوم عندما وصلت. إلى هذا الحد الكبير هو معجب به. وهو يستعد الآن ليتولى أمر قضية أخرى، وبهذه المناسبة أعتقد أنك الأمير ميشكين. إن كوليا يقول لي إنك أبرع رجل عرفه في حياته.

فقاطعه خاله بسرعة قائلاً:

- أبرع رجل في العالم!

واستطرد الشاب قائلاً بهدوء:

- إنني لا أعير هذا الرأي اهتماماً كبيراً. إن كوليا شديد التعلق بك، ولكن هذا..

ثم أشار إلى ليبيديف وأردف قائلاً:

- يداهنك. ولكن يمكنني التأكيد لك إنني لا أنوي مداهنتك، أو مداهنة أي شخص آخر، إلا أنك، على الأقل، على شيء من الفطنة. حسناً! هل تحكم بيننا؟

ثم استطرد قائلاً لخاله:

- هل نطلب من الأمير أن يكون حكماً.. إنني لجند سعيد بالمصادفة التي جاءت بك إلينا.

فقال ليبيديف بحزن وهو يتلفت، رغماً عنه، إلى ابنته التي اقتربت لتنصت بانتباه إلى المحادثة:

- موافق.

فقال الأمير بجبين مُقْطَب:

- وما هو الموضوع؟

وكان يشعر بألم في رأسه، وباليقين من أن ليبديف يحاول أن يخدعه بطريقة ما، وأنه يستطرد في الحديث ليؤجل الإجابة عن الأسئلة التي جاء من أجلها.

- سوف أحدثك بالقصة كلها، فأنا ابن أخته، وقد صدق في حديثه الآن، رغم أن من عادته التحدث كذبا. إنني طالب بالجامعة، ولم أفرغ بعد من دراستي، وأنوي أن أفعل هذا، وسأفعله؛ لأنني قوي الإرادة. ولكن يجب، على كل حال، أن أبحث عن عمل في الوقت الحاضر. وقد وجدت عملاً في إدارة السكة الحديدية نظير أربعة وعشرين روبلاً في الشهر. وأنا أعترف أن خالي ساعدني من قبل مرة أو مرتين. حسناً! وكان معي عشرون روبلاً، وقد قامرت بها. فهل يمكن أن تصدق أنني أنحدر إلى هذا الحد من الحسارة والإسفاف بحيث أضيع المال هكذا؟

وهتف ليبديف قائلاً:

- والرجل الذي ربح هذا المبلغ وغد، وغد كان ينبغي ألا تعطيه له.

فقال الشاب:

- نعم. إنه وغد، ولكنني اضطررت لأن أدفع له. أما عن كونه وغد، فهو قطعاً كذلك، ولست أقول هذا لأنه ضربك. لقد كان أيها الأمير ضابطاً سابقاً وفُصل من الخدمة العسكرية، ثم مدرّباً للملاكمة، وأحد أتباع روجوجين. إنهم جميعاً يتسكعون الآن على الأرصفة بعد أن طردهم روجوجين من خدمته. وإن أسوأ ما في الأمر طبعاً هو أنه مع علمنا بأنه محتال ولاعب ورق.. غشاش، فقد لاعبته، رغم هذا لعبة «البالكي» وقامرت معه بآخر

روبل. واعترافاً بالحقيقة فقد قلت لنفسي: «إذا أنا خسرت، فسوف أذهب إلى خالي، وهو قطعاً لن يرفض معاونتي» وكانت هذه دناءة.. جبنًا ودناءة. فقال ليبيديف مؤكداً:

- نعم، تماماً.. جبنًا ودناءة.

فقال ابن أخته بعنف، وقد بدا أن هذه الكلمات أثارتة:

- حسنًا! انتظر لحظة قبل أن تبدأ في المباهاة.

ثم أردف قائلاً للأمير:

- إنه مبتهج. لقد جئت إليه هنا وأخبرته بكل شيء. لقد تصرفت بشرف؛ لأنني لم ألتمس العذر لنفسي. لقد تحدثت بأشد قسوة عن تصرفي، ويمكن لأي شخص هنا أن يشهد. ولكن ينبغي أن أهيئ نفسي، قبل أن ألتحق بعملتي الجديد؛ لأنني في الواقع أبدو كصعلوك أفاق، انظر فقط إلى حذائي، إنني لا أستطيع أبدًا أن أظهر على هذا النحو. وإذا لم أذهب إلى مكتبي في الموعد المحدد، فسوف يُعطى العمل لشخص آخر، وعندئذ ينبغي عليّ أن أبحث عن غيره. وأنا الآن لا أرجو الحصول إلا على خمسة عشر روبلاً، وأتعهد بأن لا أطلب منه شيئاً أبدًا مرة أخرى. وأنا كذلك مستعد لتسديد الدين في مدة ثلاثة أشهر، وسوف أبر بوعدي ولو عشت على الماء والخبز. إن قيمة مرتبي في الشهور الثلاثة يبلغ نحو خمسة وسبعين روبلاً، وإن المبلغ الذي أطلبه الآن، بالإضافة إلى ما اقترضته فعلاً يبلغ في مجموعه نحو خمسة وثلاثين روبلاً، ومن هذا ترى أنه سيكون لديّ ما يكفي لتسديده، عليه اللعنة! وإذا أراد فائدة، فسوف أدفعها أيضاً.

ألم أسدد له دائماً المبالغ التي سبق أن اقترضتها منه! فلماذا يُصبح دنيئاً

الآن إلى هذا الحد؟ إنه حاقد عليّ لأنني سددت دين ذلك الضابط السابق.

فليس هناك سبب آخر. إنه من هذا النوع.. كلب خانع.

وصاح ليبيديف:

- ومع ذلك فهو لا يرحل، إنه قد ثبت أقدامه هنا، وهنا سوف يبقى.

- لقد قلت لك فعلاً إنني لن أرحل حتى أظفر بما أريد. لماذا تضحك أيها الأمير، إنك تبدو كأنك غير موافق على تصرفاتي.

فقال الأمير في غير اهتمام:

- إنني لا أبتسم، ولكنني أرى أنك حقاً مخطئ بعض الشيء.

- لا تراوغ! قل بصراحة إنك تراني مخطئاً تماماً، بدون «بعض الشيء».

فلماذا «بعض الشيء» هذه؟

- سأقول إنك مخطئ تماماً إذا شئت.

- إذا شئت؟ شيء جميل! هذا ما يجب أن أقول! هل تعتقد أنني مخدوع أو غافل عن سلوكي الممعن في الخطأ؟ إنني مدرك تماماً أن هذا المال ماله، وإنني بتصرفي هذا كالذي يحاول أن يسلب غيره. ولكنك أنت لا تعرف ما هي الحياة. وإذا كان الناس لا يتعلمون بالتجارب، فإنهم لن يفهموا أبداً. وإن الواجب أن يتعلموا. لقد كانت مقاصدي شريفة تماماً، وأقسم بضميري أنه لن يخسر شيئاً، وسوف أسدد له الدين بالفوائد، هذا بالإضافة إلى شعوره بالرضا والغبطة لرؤيته لي مجللاً بالعار. فماذا يريد أكثر من هذا؟ وما جدواه إذا لم يكن فيه نفع لأحد ألبتة؟ انظر إلى ما يفعله هو نفسه؟ أسأله فقط عن معاملاته مع الآخرين، وعن كيف يخدع الناس، وكيف استطاع أن يشتري هذا البيت. يمكنك أن تقطع رأسي إذا ما ثبت أنه

لم يستقبلك الآن إلا لغرض خاص، وأنه لا يحاول أن يخدعك مرة أخرى.
إنك تضحك! إنك لا تصدقني!

فقال الأمير:

- يلوح لي أن هذا كله لا علاقة له بشئونك الخاصة.

فصاح الشاب دون أن يلحظ هذا:

- إنني مقيم هنا منذ ثلاثة أيام، وقد رأيت الشيء الكثير. تصوّر! إنه يشك في ابنته، هذه الملاك اليتيمة، ابنة خالي. إنه يشك فيها، وفي كل مساء يفتش غرفتها! وهو أيضًا يأتي هنا متسللاً على أطراف أصابعه، بخفة.. أوه، وما أشدها خفة، ثم ينظر إلى ما تحت المتكأ، والسريّر، وما إلى هذا. إنه مجنون بالشك، ويخيل إليه أنه يرى لصاً في كل ركن. إنه يجري هنا وهناك طيلة الليل؛ لقد استيقظ ونهض سبع مرات في الليلة الماضية ليطمئن إلى أن النوافذ والأبواب مغلقة بالقضبان الحديدية، ولينظر داخل الفرن. هذا الرجل الذي يدافع في المحاكم عن المجرمين والأراذل، يندفع عائداً إلى هنا في المساء، ليصلي ويبتهل، وليطرح نفسه على الأرض حيث يضرب رأسه مدة نصف ساعة. ولمن تظن كل هذه الصلوات؟ لقد سمعته بأذني ذات مرة يصلي من أجل سلام روح الكونتيسة دي باري، وقد سمعه كوليناً أيضًا. إنه مجنون تمامًا.

وهنا قال لبيديف وهو يوشك أن يجن من فرط الغضب:

- أترى كيف يسبني أيها الأمير؟ لعلي أن أكون سكيراً، أو خاطئاً، أو لصاً، ولكنني أستطيع على الأقل أن أفخر بشيء واحد يعوض هذا كله. إنه لا يعرف، وكيف لمثل هذا العايب المتندر أن يعرف أنني الذي غسلته - حين

جاء إلى هذا العالم - وألبسته ملابس؛ لأن أختي أنيسيا كانت قد ترملت، وأصبحت على جانب كبير من الفاقة. ولم أكن أنا أحسن حالاً منها، ولكنني ظللت أجلس الليلة بعد الليلة معها لأرعاها وأرعى وليدها، وقد اعتدت أن أهبط وأسرق الوقود من أجلهما من بواب المنزل. كم مرة غنيت لله لينام وأنا أكاد أموت جوعاً! وعلى الجملة، كنت له أكثر من والد. والآن.. الآن يسخر مني! وحتى لو رسمت علامة الصليب على صدري، وصليت من أجل سلام روح الكونتيسة دي باري، فماذا في هذا؟ لقد قرأت منذ ثلاثة أيام سيرة حياتها في معجم تاريخي. فهل تعرف من كانت؟ أنت هناك..

ووجه الحديث إلى ابن أخته قائلاً:

- تحدث.. هل تعرف؟

فغمغم الشاب في صوت لا يخلو من رنين السخرية:

- طبعاً لا يعرف أحد عنها شيئاً إلا أنت.

- كانت كونتيسة نهضت من العار لتحكم كملكة. لقد كتبت إليها إمبراطورة بخط يدها تقول: «يا ابنة العم العزيزة». وفي إحدى حفلات البلاط، هل تعرف ما هي «حفلات البلاط»، تقدم كاردينال المندوب البابوي، ليساعدها على ارتداء جواربها. إن رجلاً رفيع المركز مقدس المكانة كهذا يرى في هذا العمل شرفاً له! فهل تعرف هذا؟ إنني أرى من أمارات وجهك أنك لا تعرف. حسناً! وكيف ماتت! أجب؟

- أوه، كفى! إنك غريب الأطوار أكثر مما ينبغي.

- هكذا ماتت! فبعد كل هذا المجد والرفعة، وبعد أن عاشت كملكة تقريباً، ماتت على قطع المقصلة بيدي ذلك الجزار سامسون. وكانت بريئة

تمامًا، ولكن كان عليهم أن يعدموها إرضاء لفساد الغوغاء في باريس. وقد بلغ منها الخوف حدًا جعلها لا تفهم ماذا يجري حولها، ولكن عندما أمسك سامسون برأسها ودفع بها بقدمه إلى سكين المقصلة، صاحت به: «انتظر لحظة، انتظر لحظة يا سيدي» ومن أجل هذه اللحظة من العذاب المرير، عسى الله أن يغفر لها ذنوبها الأخرى؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يتصور عذابًا أقسى من هذا. لقد كان قلبي يدمي وأنا أقرأ قصتها. فما شأنك أنت، أيتها الدودة الصغيرة، إذا كنت أسأل الله لها الرحمة - رغم أنها خاطئة كبيرة - في أثناء صلواتي في المساء! ولعلي أقوم بهذا لأنني أشك في أن هناك من طلب من أجلها الرحمة في هذه الدنيا. ولعلها سوف تسعد في العالم الآخر عندما تجد مذبذبًا مثلها يتهلل إلى الله من أجل خلاص روحها. لماذا تضحك؟ إنك لا تؤمن بشيء، أيها الملحد! بل إن حديثك عني ليس صحيحًا. فلو أنك أحسنت الإنصات إلى ما كنت أقول؛ لسمعت أنني لم أكن أبتهل من أجل الكونتيسة دي باري فقط، وإنما كنت أقول: «يا إلهي، أسبغ رحمتك على روح الكونتيسة دي باري، تلك الخاطئة الكبيرة، وعلى أرواح جميع البؤساء مثلها» ومن هذا نرى أن الأمر مرجعه مختلف؛ فكم عدد الأثمين، وكم عدد النساء اللاتي خرجن من دنيا الشقاء، وأصبحن الآن في دار الآلام والعذاب بالعالم الآخر؟ لقد كنت أبتهل من أجلك أيضًا رغم وقاحتك وبذاءتك، وكذلك من أجل أصحابك الأشرار مثلك. وقد كان ينبغي عليك أن تشق على نفسك قليلًا وتحسن الإنصات إليّ كيف أبتهل.

- حسنًا، حسنًا، هذا يكفي. ابتهل لكل من تريد. وليأخذهم الشيطان جميعًا معك. عندنا هنا رجل واسع الاطلاع، ألا تعرف هذا أيها الأمير؟
ثم استطرد قائلاً بابتسامة ساخرة:

- إنه يقرأ كل الكتب والمذكرات.

وقال الأمير الذي أرغم نفسه على الحديث إلى ابن الأخت رغم نفوره الشديد منه:

- إن خالك على كل حال طيب القلب.

- أوه، أناشذك الله أن لا تمتدحه كثيرًا! أترى كيف يضع يده على قلبه في سعادة وابتهاج! إنني لم أقل أبدًا إنه إنسان بلا قلب، ولكنه وغد. وتلك هي المشكلة. ثم إنه مدمن على الشرب، وقد أصبح عقله مختلًا، مثل معظم الذين يشربون أكثر مما ينبغي لمدة أعوام. إنه يحب أبناءه.. نعم، فأنا أعرف هذا تمامًا. وكان يحترم زوجته الراحلة، بل إنه يحمل لي بعض الحب، فقد تذكرني في وصيته.

فقال خاله في غضب:

- إنني لن أترك لك شيئًا.

وهنا قال الأمير للبيديف بصوت حاسم بعد أن أولى ظهره للشاب:

- أنصت إليّ يا لبيديف. لقد عرفت بالتجربة أن في مقدورك أن تكون رجل أعمال إذا أردت، وأن وقتي ضيق جدًا، فإذا.. حسنًا، ما اسمك المجرّد بهذه المناسبة وأرجو المعذرة! لقد نسيت.

- تي، تي، تيموفي.

- وماذا؟

- لو كيانوفيتش.

وبدأ كل من في الغرفة في الضحك، وقال ابن الأخت صائحًا:

- إنه يكذب. حتى في هذه اللحظة لا يستطيع أن يكون صادقاً. فهو لا يدعى تيموفي لوكيانوفيتش، وإنما لوكيان تيموفيفيتش. والآن قل لنا ما الذي يرغمك على الكذب في هذا؟ إن لوكيان أو تيموفي سواء بالنسبة لك، فما هو الفرق بينهما للأمير؟ إنه يكذب دون أدنى سبب، وإنه مدفوع بقوة العادة، أوكد لك.

فقال الأمير في ضجر:

- أحقاً هذا؟

فقال ليبيديف وهو يغضي بعينه ويضع يده على قلبه:

- إن اسمي لوكيان تيموفيفيتش حقاً.

- إذن ما الذي جعلك بحق الله تقول غير هذا؟

فغمغم ليبيديف قائلاً:

- لأذل نفسي.

- ماذا تعني بحق السماء!

ثم نهض الأمير واقفاً كأنما يهم بالانصراف وأردف قائلاً:

- أوه، لو أنني فقط أعرف أين كوليا الآن؟

فقال الشاب:

- أستطيع أن أخبرك بكل شيء عن كوليا.

وأسرع ليبيديف يقول:

- أوه، لا، لا..

- لقد أمضى كوليا ليلته هنا، وفي هذا الصباح ذهب للحاق بأبيه الذي أخرجه أنت من السجن بعد أن سددت ديونه. ولا يدري أحد لماذا فعلت هذا؟ لقد وعد الجنرال أمس أن يأتي ويقيم هنا، ولكنه لم يظهر، ومن المحتمل جداً أنه أمضى ليلته في الفندق القريب. ولا شك أن كوليا هناك، ما لم يكن قد ذهب إلى بافلوفسك ليزور آل إيبانشين. كان معه قليل من المال، وكان ينوي أن يزورهم أمس. ومن ثم فهو إما أن يكون في بافلوفسك، أو في الفندق القريب..

وقاطعه ليبيديف قائلاً:

- في بافلوفسك! لا شك أنه في بافلوفسك. ولكن، هلم إلى الحديقة، وسوف نشرب القهوة فيها.

وأمسك ليبيديف بذراع الأمير، وانصرف به من الغرفة، وبعد أن عبرا الفناء، وجدا نفسيهما في حديقة جميلة صغيرة، أشجارها قد اكتست فعلاً بنضرة الصيف، وذلك بفضل الطقس الذي كان طيباً على غير العادة. ودعا ليبيديف ضيفه للجلوس على مقعد أخضر اللون، أمام منضدة من نفس اللون، وكلاهما مثبتان في الأرض. ثم جلس هو في مقعد مواجه له، وبعد لحظات قليلة، ظهرت القهوة، ولم يرفض الأمير تناولها، وظل المضيف مركزاً نظراته على الضيف، وقد نَمَّ وجهه عن كل أمارات الخضوع والاستكانة.

وقال الأمير بذهن شارد كأنما يفكر في شيء آخر:

- إنني لم أكن أعرف شيئاً عن بيتك من قبل.

فبدأ ليبيديف يقول وقد اتخذ وجهه سمت الحزن:

- اليتامى المساكين..

ثم توقف فجأة؛ لأن الأمير كان ينظر إليه بلا انتباه، وكأنما قد نسي ملاحظته هو. وظل الاثنان جالسين في صمت، بينما استمر ليبيديف مركزاً عينيه في حزن على وجه الأمير الشاب.

وأخيراً قال الأمير مستجمعاً شتات أفكاره:

- حسنًا، آه، نعم، أتعرف لماذا جئت يا ليبيديف. لقد جاءت بي رسالتك، تحدث. ماذا حدث؟

وحاول الكاتب، في ارتباك، أن يقول شيئاً، ثم تردد، ثم بدأ يتحدث، ثم توقف مرة أخرى. ونظر الأمير إليه وهو يتسم في حزن. وأخيراً قال:

- أعتقد أنني أفهم الموقف يا لوكيان تيموفيفيتش. إنك لم تكن واثقاً من حضوري. إنك لم تكن تظن أنني سأتي عند أول كلمة منك، ولهذا فلقد كتبت فقط لإرضاء ضميرك. وعلى أية حال، فأنت ترى أنني جئت، وأني قد سئمت أساليب الخداع. وعليك الآن أن تقلع، أو تحاول أن تقلع عن خدمة سيدين في وقت واحد. لقد كان روجوجين هنا في هذه الأسابيع الثلاثة. فهل استطعت أن تبعيها له كما فعلت من قبل. أخبرني بالحقيقة.

- لقد اكتشف كل شيء، ذلك الوحش.. بنفسه.

- لا تشتمه، وإن كان يمكنني القول إن لديك ما تشكو منه.

فقال ليبيديف بحرارة:

- لقد ضربني.. انهال عليّ ضرباً بلا رحمة. وفي موسكو أطلق عليّ كلباً.. من النوع الوحشي. وقد طاردني هذا الوحش الرهيب طول الشارع.

- يبدو لي أنك تظنني طفلاً يا ليبيديف. أخبرني، هل حقاً هجرته في أثناء وجودهما في موسكو؟

- نعم، إن هذه هي الحقيقة. ودعني أقول لك، إنها تركته هذه المرة في نفس اليوم المحدد للزواج. وكانت مسألة دقائق عندما انفلتت هاربة إلى بطرسبرج. وقد جاءت إليّ بمجرد وصولها، وقالت: «أنقذني يا لوكيان، ابحث لي عن ملاذ، ولا تقل شيئاً للأمير» إنها خائفة منك، بل إنها تخافك أنت أكثر مما تخافه، وهي في هذا قد كشفت عن موفور حكمتها.

ووضع ليبيديف إصبعة، في مكر، على جبينه وهو ينطق بالكلمات الأخيرة.

- والآن فهو أنت الذي جمعت بينهما مرة أخرى!

- كيف أستطيع يا صاحب الفخامة.. كيف أستطيع أن أحول بينهما؟!!

- هذا يكفي. إنني قادر على معرفة الحقيقة بنفسني. أخبرني فقط، أين هي الآن؟ أفي بيته؟ أمقيمة معه؟

- أوه، لا. يقيناً لا. لقد قالت: «إنني حرة» وأنت تعرف كيف تؤكد حديثها في هذا المعنى «إنني حرة تماماً» وكانت تكرر هذه العبارة المرة بعد الأخرى. وهي تقيم الآن في ضواحي بطرسبرج، مع أخت زوجتي كما ذكرت لك في الرسالة.

- وهل هي هناك الآن؟

- نعم، إلا إذا كانت قد ذهبت إلى بافلوفسك. ولعل الطقس الجميل قد أغراها بالذهاب إلى الريف مع الممثلة داريا ألكسينا. وكانت تقول: «إنني حرة تماماً». وحتى أمس كانت تفخر بحريتها لكوليا.

ثم أردف قائلاً وهو يتسهم:

- وهذا فال سبيء.

- إن كوليا يذهب لزيارتها كثيرًا. أليس كذلك؟
- إنه غلام عجيب طائش يميل إلى أن يكون فضوليًا.
- هل رأيته منذ فترة طويلة؟
- إنني أذهب لزيارتها كل يوم. كل يوم.
- إذن فقد كنت هناك أمس؟
- لا.. لم أذهب إليها في هذه الأيام الثلاثة الأخيرة.
- إنه لأمر مؤسف أن تسرف في شرب الخمر يا لبيديف. وأنا أريد أن أسألك عن شيء، ولكن...
- فقال الكاتب وهو يعد لنفسه للإنصات:
- حسنًا، حسنًا. إنني لست سكران.
- أخبرني، كيف كان حالها عندما انصرفت عنها آخر مرة؟
- تركتها امرأة تلتمس..
- تلتمس..؟
- يبدو أنها تلتمس شيئًا، كأنما تبحث عن شيء فقدته. وأن مجرد تفكيرها في الزواج من روججين يشير اشمئزازها.. إنها تعتبر هذا الزواج إهانة. إنها لا تحفل بأمره أكثر مما تحفل بقشرة برتقالة ولا أكثر. ومع ذلك فأنا لا أخطئ إذا قلت إنها تشعر بالخوف والرهبة منه. إنها ترفض أن يذكر اسمه أمامها. وإنها لا تلتقي به إلا إذا لم يكن ثمة مفر من اللقاء. وهو يدرك حقيقة الأمر تمامًا، ولكنه مُصر على إتمام الزواج! وهي قلقة، ساخرة، خادعة، عنيفة..

- خادعة، عنيفة!

- نعم، عنيفة. إنني أستطيع أن أثبت هذا بالدليل. لقد حاولت منذ أيام قليلة أن تنتزع شعري من رأسي؛ لأنني قلت شيئاً ساءها. وقد حاولت أن أهدئ نائرتها بأن أقرأ لها في سفر يوحنا بصوت مرتفع.

فقال الأمير وقد حسب أنه لم يحسن الإنصات:

- ماذا؟

- بالقراءة في سفر الرؤيا. إن للسيدة فعلاً غير مستقرة.. ها..! ها وهي تميل إلى مناقشة الموضوعات الجادة من أي نوع. والواقع أن هذه الموضوعات تنشرها بحيث تشعر بالرضى عن نفسها وهي تناقشها. وأنا من ناحيتي قد أمضيت خمسة عشر عاماً في دراسة سفر الرؤيا، وهي تتفق معي في الرأي بأن هذا الوقت الحاضر، هو الحقبة التي يرمز لها الجواد الثالث، الجواد الأسود الذي يمسك راحته بمقياس بين يديه. فإنه يبدو لي أن كل شيء يحكم بمقياس في عصرنا هذا. فإن جميع الناس يطالبون بحقوقهم؛ «مقياس من القمح بقرش وثلاثة مقاييس من الشعير بقرش» ولكن بالإضافة إلى هذا، فإن الناس ينشدون حرية التفكير والجسم، ينشدون القلب النقي، والحياة الطيبة، وجميع هبات الله ونعمه. وهم بالمطالبة بحقوقهم فقط، لن يستطيعوا تحقيق هذا الهدف، ومن ثم فإن الجواد الأبيض براكبة الموت، يأتي بعد ذلك، ثم يعقبه الجحيم. لقد تحدثنا في هذا الأمر عندما التقينا، وترك في نفسها أثراً عميقاً.

فقال الأمير ميشكين وهو ينظر إليه فيقول:

- أو تعتقد في هذا كله؟

- إنني أومن به وأفسره. فما أنا إلا مخلوق مسكين، متسول، ذرة في ميزان الإنسانية، من ذا الذي يكن أقل احترام لليبيديف! إنه هدف لكل العالم، إنه ألعوبة لكل مافون ليركلها. ولكنني ند لكل إنسان مهما عظم في تفسير الوحي؛ لأنه العقل يا سيدي! العقل! لقد جعلت سيدًا عظيمًا يرتعش وهو جالس في مقعده الوثير، وذلك بمجرد الحديث عن أشياء تتعلق بالروح. فمند عامين، وفي يوم عيد الفصح، أراد صاحب الفخامة نيل ألكسيوفيتش، الذي كنت أعمل مرؤوسًا له عندئذ، أن يسمع ما أقول، فأرسل مع بيتر زاخارتيش رسالة يطلب فيها مني أن أذهب إلى غرفته الخاصة. وهناك قال لي على انفراد: «لقد أخبروني أنك تفسر النبوءات التي وردت قبل المسيحية، فهل حقًا هذا؟» فأجبت قائلاً بلا تردد: «نعم» ثم بدأت ببعض التعليقات عن رؤيا الرسول الرمزية. وقد ابتسم في أول الأمر، ولكن عندما وصلنا إلى المطابقات العددية التقديرية، شحب وجهه وارتعد. ثم رجاني أن أغلق الكتاب وأنصرف بعد أن وعد بوضع اسمي في قائمة الفائزين بالجوائز. وقد حدث هذا، كما قلت، في يوم عيد الفصح، وبعد ثمانية أيام صعدت روحه إلى بارئها.

- ماذا؟

- هذه هي الحقيقة، ففي ذات ليلة، بعد العشاء، تعثرت قدمه وهو يهبط من المركبة، وسقط، واصطدمت رأسه بالرصيف، فمات فورًا. وكان في الثالثة والسبعين من عمره، أحمر الوجه، أبيض الشعر، مسرفًا في استعمال العطور، دائم الابتسام كالطفل. وقد تذكر بيتر زاخارتيش مقابلي معه، وقال: «لقد تنبأت بموته».

وهنا نهض الأمير واقفًا، ودهش لليبيديف وهو يرى ضيفه يستعد

للاانصراف بهذه السرعة، فقال في صوت ينم عن الاحترام - ألا يعجبك هذا الموضوع؟

فقال الأمير مقطب الجبين:

- إنني لست كما ينبغي، وأشعر بوجع في الرأس. ولا شك أن هذا بسبب السفر.

وقال ليبيديف بإشفاق:

- ينبغي أن نمضي إلى الريف.

وبدا أن الأمير يفكر في هذا الاقتراح. وعندئذ قال ليبيديف:

- أترى. إنني ذاهب بنفسي إلى الريف في خلال ثلاثة أيام، مع أبنائي ومتاعي. إن الطفلة الوليدة رقيقة الصحة، وهي في حاجة إلى تغيير في الهواء. وفي خلال غيابنا، سأغلق أبواب هذا المنزل؛ لأنني ذاهب إلى بافلوفسك. فقال الأمير بحدة:

- أذهب أنت أيضًا إلى بافلوفسك! يبدو أن كل إنسان ذاهب إلى هناك. ألدبك بيت قريب من هذا المكان؟

- إنني لا أعرف أن عددًا كبيرًا من الناس ذاهبون إلى بافلوفسك، أما فيما يتعلق بالسكنى، فقد استأجرت من إيفان بيتسين داره «فيللا» بأجر زهيد، إنها لمكان جميل، راقد على أكمة، ومحاط بالأشجار، ويستطيع الإنسان أن يعيش فيها بأقل النفقات. وهناك أيضًا يمكن سماع الموسيقى العذبة. فلا عجب أنه مكان مشهور. ولسوف أقيم في الكوخ الملحق بالفيللا. أما الفيللا نفسها..

- هل أجرتها لأحد؟

- لا.. لم أؤجرها على وجه التحديد.

فقال الأمير:

- دعني أستأجرها.

وكان هذا في الواقع ما قرره ليبيديف في ذهنه خلال الدقائق الثلاث الأخيرة. ولا يرجع هذا إلى أنه سيعسر عليه الحصول على مستأجر؛ وإنما لأن البيت، في الحقيقة، كان مشغولاً في الوقت الحاضر بضيف عابر كان قد أخبر ليبيديف بأنه ربما يستأجر البيت لمدة الصيف. وكان ليبيديف يعرف تمامًا أن «ربما» هذه معناه «بالتأكيد»، ولكنه رأى أنه يستطيع الاستفادة أكثر من مستأجر مثل الأمير. ولهذا رأى أنه على حق في حديثه المبهم عن نيات «الساكن الحالي» وقال لنفسه: «إنها لمصادفة كاملة». ولما جرى الحديث عن موضوع الإيجار، لَوَّح ليبيديف بيده، كأنما هذا الأمر لا أهمية له.

وقال الأمير:

- أوه، حسنًا. كما تحب. لسوف أفكر في الأمر، ولن تخسر أنت شيئًا.

وكانا يسيران ببطء في الحديقة.

وقال ليبيديف متعثرًا:

- ولكن إذا.. أستطيع.. إذا سمحت لي بالحديث أيها الأمير عن

موضوع قد يهتمك أمره، فإني واثق..

وكان يتحدث بنبرات مضطربة ويتلوى في مشيته.

وتوقف الأمير بينما قال ليبيديف:

- إن لداريا ألكسينا فيللا أيضًا في بافلوفسك!

- حسنًا!

- وثمة شخصية وطيدة الصداقة معها تنوي أن تزورها كثيرًا.

- حسنًا.

- إنها أجلايا إيفانوفنا..

فقاطعه الأمير وهو يشعر كأن يدًا لمست جرحًا في نفسه داميًا:

- أوه، كفى يا لبيديف! ليس.. ليس لهذا الأمر شأن بي. وإني أحب أن أعرف متى ستبدأ الرحلة. وكلما بكرت بها، كان ذلك أفضل، فيما يتعلق بي؛ لأنني أقيم في فندق.

وكانا قد تركا الحديقة عندئذ، وراحا يجتازان الفناء في الطريق إلى البوابة.

وقال لبيديف:

- حسنًا، اترك الفندق فورًا وتعال هنا. وعندئذ يمكننا أن نرحل معًا إلى بافلوفسك بعد غد.

فقال الأمير في شرود ذهن قبل أن ينصرف:

- لسوف أفكر في الأمر.

ووقف الكاتب يرنو إلى الأمير المنصرف الذي استغرق مرة أخرى في شروده الفكري. إنه لم يتذكر حتى أن يقول له وداعًا. وقد ازدادت دهشة لبيديف لهذا التصرف لأنه يعرف بالتجربة مدى حرص الأمير عادة على آداب السلوك.

الفصل الثالث

كانت الساعة أخيرًا توشك على الثانية عشرة.

وأدرك الأمير أنه إذا ذهب إلى بيت آل إيبانشين، فإنه لن يجد به غير الجنرال، وأن من المحتمل أن يمضي به هذا الأخير فورًا إلى بافلوفسك، بينما كان هو مشوقًا للقيام بزيارة معينة بلا تأخير.

ورغم المخاطرة بعدم لقاء الجنرال بوجه عام، وبالتالي تأجيل زيارته إلى بافلوفسك يومًا على الأقل، فقد قرر الأمير أن يمضي ويبحث عن المنزل الذي يريد العثور عليه.

وكانت الزيارة التي ينوي القيام بها لا تخلو، على نحو ما، من المخاطرة. وكان مترددًا بشأنها، ولكن لما كان يعرف أن المنزل في شارع جوردهوفايا، غير بعيد من شارع ساودفايا، فقد قرر أن يمضي في ذلك الاتجاه، وأن يحاول الاستقرار على رأي أثناء الطريق.

ولما وصل إلى النقطة التي يتقاطع فيها شارع جوردهوفايا بشارع ساودفايا دهش حين وجد نفسه في حالة انفعال شديد. ولم يكن يعرف من قبل أن لقلبه القدرة على هذه السرعة في النبض.

ولفت انتباهه منزل معين في شارع جوردهوفايا فترة طويلة قبل أن يصل إليه، وإن الأمير ليذكر فيما بعد أنه قال لنفسه: «هذا هو البيت، إني واثق منه». واقترب منه وهو جد مشوق ليعرف هل صدق حدسه، ثم شعر أنه لن يكون راضياً إذا وجد أنه صادق الحدس فعلاً. وكان المنزل كبير الحجم، كثيب المنظر، ليست فيه أية سمات من جمال الهندسة المعمارية، وهو من جهة اللون أخضر قذر. وكان ثمة عدد قليل من هذه المنازل القديمة التي شيدت في أواخر القرن السابق، لا تزال قائمة في ذلك الجانب من بطرسبرج، دون أن تختلف عن شكلها، أو لونها الأصلي. كانت صلبة البناء، متميزة بجدرانها السميكة، وبقلة نوافذها التي يغطي الكثير منها قضبان حديدية. وفي كل طابق أرضي منها حانوت صراف مالي يقيم صاحبه فوقه. وتبدو المنازل من خارجها، وكذلك من داخلها، قابضة غامضة.. وهو أثر في النفس من العسير تفسيره، ما لم يكن له علاقة بطرازها الهندسي. ويسكن هذه المنازل بصفة عامة طبقة التجار.

ولما وصل الأمير إلى البوابة، رفع عينيه إلى اللافتة الموجودة في أعلاها، والتي كانت كما يلي:

«منزل روجوجين، مواطن وارث شريف».

ولم يتردد بعد ذلك، وإنما فتح الباب الزجاجي في أسفل الدرجات الخارجية، ثم صعد إلى الطابق الثاني، وكان المكان مظلمًا، كثيب السم، وجدران السلم الحجري مطلية بلون أحمر قاتم؛ وكان روجوجين وأمه يقيمان في الطابق الثاني كله. أما الخادم الذي فتح الباب للأمير، فقد تقدمه دون أن يسأله عن اسمه، عبر غرفات عديدة وصعد به وهبط درجات كثيرة، حتى وصل معه إلى باب راح ينقر عليه.

وفتح الباب بارفين روجوجين نفسه.

وما إن رأى الأمير حتى اكتسى وجهه بصفرة الموت، وجمد، كما يلوح، إلى الأرض، فأصبح، من ثم، أقرب إلى تمثال رخامي، منه إلى مخلوق بشري. وكان الأمير يتوقع أن يدهش روجوجين لهذه الزيارة بعض الشيء، ولكن يلوح أن روجوجين اعتبر هذه الزيارة حدثًا مستحيل الوقوع، أو في حكم المعجزات. وقد راح يحملق فيه بأمارات تكاد تبلغ حد الفرع، بينما التوت شفتاه في ابتسامة حائرة.

وقال الأمير أخيرًا في شيء من الحرج:

- بارفين! لعل زيارتي ليست في الوقت المناسب. وأنا.. أنا أستطيع أن أعود أدراجي إذا أردت.

فقال روجوجين وهو يستجمع شتات نفسه:

- لا، لا، ادخل، إنني مبتهج لرؤيتك.

وكانا يتحدثان كصديقين، ذلك أنهما تقابلا في موسكو في مناسبات كثيرة. بل كان لبعض هذه المقابلات، في الواقع، أثر عميق في نفس كل منهما. ولكنهما على كل حال، لم يكونا قد تقابلا أخيرًا لمدة ثلاثة أشهر.

ولم يفارق شحوب الموت وجه روجوجين، لا ولا تلك الاختلاجات الخفيفة في شفتيه، رغم أنه رحب بضيفه، فقد ظل كما يبدو، شديد الاضطراب، وفيما هو يدعو الأمير للجلوس بالقرب من المائدة، تصادف أن استدار هذا الأخير نحوه، ففوجئ بغرابة السمات المرتسمة على وجهه. وومضت في ذهنه ذكرى مؤلمة، فوقف ينظر مباشرة إلى روجوجين الذي كانت عيناه تتوهجان كالجمر؛ وأخيرًا ابتسم هذا رغم أنه بقي مضطربًا

مهتاج النفس .

وقال مغمغماً:

- لماذا تحملق في وجهي هكذا؟ اجلس .

وتناول الأمير مقعداً وهو يقول:

- بارفين! أصدقني القول. هل كنت تعرف أنني سأتي إلى بطرسبرج!

فقال روجوجين وعلى شفثيه ابتسامة تهكمية:

- أوه، كنت أظن أنك آت. وقد صدق ظني كما ترى. ولكن أنني لي أن

أعرف أنك ستأتي اليوم!

وكان ثمة نوع من الغرابة والتوفز في سلوكه، ترك في نفسية الأمير أثراً عميقاً. ولكنه يسأل في شيء من الدهشة الهادئة:

- ولو أنك عرفت أنني آت اليوم، فلماذا كل هذا الانفعال؟

- ولماذا تسألني؟

- لأنني حين هبطت من القطار في هذا الصباح، شعرت بعينين تتوهجان

بالنظر إليّ كما كنت تفعل منذ لحظة.

فقال روجوجين في ارتياب وقد لاحظ الأمير أنه يرتعد:

- ها! ومن قد يكون صاحب العينين؟

- إنني لا أدري! لقد خطر لي أن الأمر هلوسة؛ وإن الهلاوس لتتأبني

بكثرة في هذه الأيام. إنني أشعر تمامًا بنفس الحالة التي انتابتني منذ خمسة أعوام، أي عندما أوشكت نوبات الصرع أن تعتريني.

فقال روجوجين:

- حسنًا، ربما كان الأمر اهتلاسا حقًا. فإني لا أعرف.
وحاول أن يتسم للأمير في مودة، ولكن بدا للأخير أن في ابتسامته هذه شيئًا قد انكسر وأنه لم يستطع إصلاحه رغم جميع محاولاته.
وسأله روجوجين:

- إذن هل ترحل إلى الخارج مرة أخرى؟
ثم أردف قائلاً فجأة:
- أتذكر كيف جئنا في قطار واحد من بزكوف! أنت بمعطفك
وسراويلك؟

وانفجر روجوجين ضاحكًا في خبث وشر لم يحاول إخفاءهما، وكأنما
هو مغتبط لاستطاعته أن يجد فرصة التنفيس عن حقه.
وسأله الأمير قائلاً:

- هل قررت الإقامة في هذا البيت؟
- نعم، في بيتي، وإلا فأين ينبغي أن أذهب؟
- إننا لم نلتق منذ فترة طويلة، وقد سمعت عنك أشياء لا أعتقد أنها
صحيحة.

فقال روجوجين بجفاء:
- وماذا في هذا؟ إن الناس سيقولون أي شيء.
- إنك، على كل حال، قد سرحت أتباعك، وأنت الآن تقيم في بيتك
بدلاً من الانطلاق هنا وهناك بلا ضوابط أو قيود، وهذا كله حسن. هل كل
البيت ملك لك أم ملك مشاع لكم جميعًا.

- إنه منزل والدتي، وذاك الدهليز يؤدي إلى شقتها.

- وأين أخوك؟

- في الجناح الآخر.

- أهو متزوج؟

- أرمل، لماذا تريد أن تعرف هذا كله؟

ونظر الأمير إليه، ولكنه لم يقل شيئاً؛ ذلك لأنه استغرق فجأة في حالة من الشرود الذهني والتفكير، ومن المحتمل أنه لم يسمع السؤال إطلاقاً. ولم يصبر روجو جين على أن يتلقى الإجابة، ومن ثم ساد الصمت بضع لحظات. وأخيراً قال الأمير:

- لقد عرفت منزلك بالتخمين على بعد مائة ياردة منه.

- كيف هذا؟

- إنني لا أدري على وجه التحديد. إن لمنزلك سمات من نفسك ومن كل أسرتك. إنه يحمل طابع حياة روجو جين. ولكن إذا سألتني لماذا فكرت في هذا، فلن أستطيع الإجابة. إن الأمر مجرد لغو طبعاً. فأنا لم أتخيل أبداً من قبل نوع المنزل الذي يمكن أن تقيم فيه، ومع ذلك، فما إن وقعت أنظاري على منزلك هذا، حتى قلت لنفسني إنه لا بد أن يكون منزلك.

فقال روجو جين بغموض دون أن يستوعب ماذا يعني الأمير من ملاحظاته المبهمة هذه:

- أحقاً!

وكانت الغرفة التي يجلسان فيها عندئذ، كبيرة، رحيبة، ولكن مظلمة،

حسنة الرياش، أهم ما فيها مناضد الكتابة والمكاتب المغطاة بالأوراق والكتب. وكان ثمة أريكة عريضة مكسوة بجلد أحمر اللون، يبدو أن روجوجين يستعملها للنوم. وكان على المائدة التي دُعي الأمير للجلوس بجانبها، بعض الكتب: في أحدها مؤشر موضوع حيث توقف القارئ عن القراءة، وكان كتاب «التاريخ الروسي لسولوفيف». وكان ثمة لوحات زيتية في إطارات مذهبة كالحلة معلقة على الجدران. ولكن كان من المستحيل أن تعرف ماذا تصور هذه اللوحات بسبب قدمها ولما كساها من سواد الدخان. وقد أثارت انتباه الأمير لوحة منها لصورة رجل بالحجم الطبيعي. كانت صورة لرجل في الخمسين من عمره، يرتدي حُلّة ركوب طويلة ألمانية الطراز، وعلى صدره ميداليتان، ولحيته بيضاء وجسمه قصير نحيل ووجهه شاحب مجعد، وتطل من عينيه أمارات تنم عن الدهاء والشك.

وسأله الأمير قائلاً:

- هذا والدك؟ أليس كذلك!

فأجاب روجوجين بابتسامة كريمة كأنما كان يتوقع هذا السؤال من ضيفه، ومن ثم يستعد للإدلاء بملاحظة بغیظة:

- نعم، إنه هو.

- وهل كان واحداً من قدامى المؤمنين؟

- لا. كان يذهب إلى الكنيسة، ولكن إذا شئت الحقيقة، فقد كان يفضل الديانة القديمة. وهذه الغرفة كانت مكتباً له، وهي الآن لي. لماذا تسأل هذا السؤال؟

- هل تنوي أن تتزوج هنا؟

فقال روجوجين وهو دهش لهذا السؤال المفاجئ:

- نعم - نعم!

- في وقت قريب؟

- أنت تعرف بنفسك أن هذا الأمر ليس بيدي.

- بارفين! إنني لست عدوًا لك، ولا أنوي أن أعترض سبيلك بأية حال. وأنا أكرر لك هذا القول الآن كما سبق أن قلت لك هذا ذات مرة في مناسبة مماثلة. فعندما كنت تعد مشروع زواجك في موسكو، لم أتدخل في الأمر.. وأنت تعرف أنني لم أفعل، وفي المرة الأولى التي هَرَبْتُ فيها منك إليّ، من أمام محراب الزواج تقريبًا، ابتهلت إلى الله «لأنقذها منك». وبعد ذلك هَرَبْتُ مرة أخرى مني، وقد عثرت أنت عليها، وشرعت في إعداد زواجك بها مرة أخرى. وقد سمعت أخيرًا أنها هربت منك وجاءت إلى بطرسبرج. فهل حقًا هذا؟ لقد كتب ليبيديف إليّ بهذا المعنى. وهذا ما حدا بي إلى المجيء هنا. أما عن ترتيباتك مرة أخرى التي اتخذتها مع ناستاسيا فيليبوفنا للزواج، فقد علمت بأمورها الليلة الماضية فقط من صديق لك كان في القطار، هو زاليشوف.. إذا شئت أن تعرف.

وأنا أعترف أنني جمْتُ هنا لغرض معين. فإني أريد أن أقنع ناستاسيا بالسفر إلى الخارج للاستشفاء. إنها في أشد الحاجة إلى هذا. فإن كلاً من عقلها وجسمها أحوج ما يكون إلى تغيير الجو. وأنا لا أنوي أن أصحبها إلى الخارج بنفسي، وإنما سأخذ الترتيبات لسفرها بدوني. والآن سأقول لك بصراحة وصدق يا بارفين، إذا كانت الأمور قد سُويت بينكما حقًا، فإني لن أفكر في رؤيتها أبدًا، كما أنني لن آتي لزيارتك مرة أخرى.

وأنت تعرف تمامًا أنني صادق في حديثي؛ لأنني كنت دائمًا صريحًا معك. إنني لم أخف أبدًا رأيي الخاص عنك. فقد قلت لك دائمًا إنني أعتبر زواجك بها دمارًا لها. وكذلك سيكون هذا الزواج دمارًا لحياتك، وربما على نطاق أوسع وأسوأ. وأنا أعتزف بأنني سأبتهج كثيرًا إذا فشل مشروع هذا الزواج. ولكن ليس لدي في الوقت نفسه أية نية لمحاولة التفريق بينكما. ويمكنك أن تطمئن تمامًا من هذه الناحية، ولا حاجة بك إلى أن ترتاب في أمري. وأنت نفسك تعرف ما إذا كنت حقًا غريمك أم لا، حتى عندما هربت منك ولجأت إليّ.

ها أنت ذا تضحك ساخرًا مني.. وأنا أعرف لماذا تضحك. فإنها حقيقة أكيدة أننا عشنا بعيدًا عن بعضنا البعض كل هذا الوقت في مدن مختلفة. وقد قلت لك من قبل إنني لا أحبها بدافع الحب، وإنما بدافع الشفقة! وقلت عندئذ إنك تفهمني. فهل أنت حقًا تفهمني أم لا؟ أي حقد هذا الذي يطل من عينيك الآن! لقد جئت لأطمئنك لأنك عزيز عليّ أيضًا. إنني أحبك كثيرًا يا بارفين. والآن سوف أنصرف ولن أعود أبدًا. وداعًا..

ونهض الأمير.

وقال روجوجين دون أن ينهض عن مقعده، وكان يريح رأسه على يده اليمنى:

- انتظر برهة. إنني لم أرك منذ أمد بعيد.

وجلس الأمير مرة أخرى، وخيم عليهما الصمت لحظات قليلة.

وأخيرًا قال روجوجين:

- عندما لا تكون معي، أشعر بالكراهية نحوك يا ليو نيكولايفيتش. لقد

كنت أكرهك في كل يوم خلال هذه الأشهر الثلاثة التي مرت منذ آخر لقاء بيننا وأقسم على ذلك. وما كنت لأتردد في قتلك بالسهم في أية لحظة. أما الآن وأنت لم تمكث معي أكثر من ربع ساعة، أشعر كأن كل كراهيتي لك قد ذابت، وأنت أصبحت جد عزيز عليّ. امكث معي فترة أخرى.

فقال الأمير وهو يبتسم محاولاً أن يخفي تأثره:

- إنك تثق بي حين أكون معك. ولكنك تبدأ الشك في أمري بمجرد انصرافي عنك.

- إنني أتق في صوتك حين أسمعك تتحدث. وأنا أعرف طبعاً أنني لا يمكن أن أوضع معك في مستوى واحد.

فقال الأمير محيراً:

- ولماذا تضيف هذه الكلمات؟ ها أنت ذا تعود إلى خشونتك..

- إن رأينا لم يؤخذ - كما ترى - لقد خلقنا مختلفين، بأذواق ومشاعر مختلفة، دون أن نستشار. أنت تقول إنك تحبها بدافع العطف. وأنا لا أشعر بالعطف عليها. إنها تكرهني، وتلك هي الحقيقة الصريحة في الموضوع. وأنا أحلم بها كل ليلة، وأراها دائماً تسخر مني مع رجل آخر. ومن ثم فهي تسخر مني فعلاً. وهي لا تفكر في الزواج بي إلا كما تفكر في استبدال حذاءها. فهل تصدق أنني لم أرها منذ خمسة أيام، وأني لا أجرؤ على الاقتراب منها. لقد سألتني عن سبب حضوري، وكأنها لم تكتفِ بفضيحتي..

- بفضيحتك؟ كيف؟

- لكأنما أنت لا تعرف؟ عجباً! لقد هربت مني، وذهبت إليك، لقد اعترفت أنت بهذا الآن.

- ولكنك يقيناً لا تعتقد أنها..!

- إنها لم تجلب على رأسي العار في موسكو مع الضابط زيمتوزيكوف؟
إنني أعرف على وجه اليقين أنها فعلت، بعد أن حددت بنفسها يوم الزواج.
فصاح الأمير قائلاً:

- هذا مستحيل!

فقال روجوجين بلهجة اليقين:

- إنني أعرف هذا كحقيقة. أنت تقول إن هذه ليست طبيعتها. وهذا ما
يشير العجب يا صديقي. ولعلها لو كانت معك لأفزعها مثل هذا التصرف،
ولكن الوضع سيكون مختلفاً فيما يتعلق بي. إنها تعتبرني كحشرة. وإن ما
حدث بينها وبين كيللر كان المقصود به جعلي موضع الضحك والسخرية
من الجميع. إنك لا تعرف أي مغفل جعلت مني في موسكو. وأي مال أنفقته
عليها. المال.. المال..

وقال الأمير بصوت فيه رنة خوف وتوجس:

- وهل تستطيع أن تتزوجها الآن يا بارفين؟ إلى أي شيء سينتهي هذا
كله؟

ونظر روجوجين إليه في اكتئاب وقد أطلت من عينيه نظرات رهبة،
ولكنه لم يفعل شيئاً. وبعد برهة من الصمت، قال مكرراً:

- لقد فرضت عليّ الامتناع عن رؤيتها خمسة أيام. وأنا أخشى أن
تطردني لأنها، كما تقول، لا تزال سيدة نفسها، وأنها قد تنبذني نهائياً، وتسافر
إلى الخارج. لقد قالت لي هذا بنفسها.

قال روججين هذا وهو يرسل نظرة خاصة إلى الأمير، ثم يستطرد قائلاً:

- وأعتقد أنها تفعل هذا كله لمجرد إفزاعي. إنها دائماً تسخر مني لسبب أو لآخر. ولكنها في أحيان أخرى تغضب، وترفض أن تلفظ بكلمة، وهذا ما يخيفني. لقد حملت إليها ذات يوم مطراً ربما لم يسبق أن رأت له مثيلاً، رغم أنها عاشت مترفة. وقد أعطت المطرف لخدامتها كاتيا. وعندما أعجز أحياناً عن البقاء بعيداً عنها، كنت أتسلل بالقرب من منزلها. وقد بقيت أرقب بوابة المنزل ذات مرة حتى مطلع الفجر. وكان قد خطر لي أن شيئاً ما يجري في المنزل. ورأتني من النافذة، وسألتنني ماذا يمكن أن أفعل إذا وجدت أنها تخدعني، فقلت: «أنت تعرفين تماماً»..

وهنا هتف الأمير قائلاً:

- ما الذي تعرفه؟

فأجاب روججين بضحكة غاضبة:

- كيف يمكنني أن أقول! لقد بذلت كل ما في وسعي لأضبطها في وضع لا يليق، ولكنني لم أستطع. وعلى كل حال، لقد أمسكت بها ذات يوم وقلت لها: «إنك مخطوبة للزواج من رجل له أسرة محترمة. فهل تعرفين أي نوع من النساء أنت! أنت امرأة كذا وكذا»..

- هل قلت لها هذا؟

- نعم.

- حسناً.. استمر!

- وعندئذ قالت لي: «إنني لا أقبل أن تكون لي خادماً، لا زوجاً» فقلت لها: «إنني لن أغادر البيت، ومن هذا ترين الأمر سواء» فصاحت قائلة: «إذن

سأستدعي من يطردك» وعندئذ اندفعت إليها، وظللت أضربها حتى ملأت جسمها بالكدمات.

فصاح الأمير مأخوذاً:

- مستحيل!

فقال روجوجين بهدوء ولكن عينيه كانتا تتوهجان كالجمر:

- أقول لك إن هذه هي الحقيقة.

ثم استطرد قائلاً:

- ثم أمضيت يوماً ونصف يوم بلا طعام أو شراب أو نوم. ولم أستطع أن أفارقها، بل ركعت عند قدميها وقلت لها: «لسوف أموت هنا إذا لم تصفحي عني، وإذا طردتني، فسوف أغرق نفسي؛ لأن ما قيمتي بدونك» وكانت طيلة اليوم تبدو كامرأة مجنونة، تصرخ حيناً، وتهددني حيناً بسكين، وأحياناً تسبني. ثم استدعت زاليشوف وكيللر وأطلعتهما عليّ، وفضحني في حضورهما، وقالت: «هلم نذهب جميعاً إلى المسرح، ولندعه هنا إذا أبى أن يذهب. فليس هذا شأني، إنهم سيقدمون لك بعض الشاي يا بارفين سيميونوفيتش أثناء غيبتني؛ لأنك ولا شك جائع». ثم عادت من المسرح بمفردها، وقالت: «إن الجبانين ألبا أن يعودا معي. إنهما خائفان منك، وقد حاولا أن يخيفاني أيضاً- لقد قالوا لي: «إنه لن ينصرف كما جاء، إنه سيذبحك، ولسوف ترين» والآن سأذهب إلى مخدعي، ولن أغلق عليّ الباب بالمفتاح؛ لأبين لك فقط إلى أي حد أنا أخافك. ويجب أن أبين لك هذا للمرة الأولى والأخيرة. هل تناولت الشاي؟». فلما قلت: «لا، ولا أقوى أن أشرب» ضحكت قائلة: «ها، ها، إنك تغلب كبرياءك على معدتك. ولكن

هذا النوع من البطولة لا يناسبك».

وقد فعلت بعد هذا ما قالت، ذهبت إلى مخدعها ولم تغلق الباب من الداخل بالمفتاح. وفي الصباح خرجت وقالت في حدة: «هل أنت مجنون؟ عجباً! لسوف تموت جوعاً إن بقيت على هذا الحال» فقلت لها: «اصفحي عني» فقالت: «لا، إنني لن أفعل، ولن أتزوج بك. هذا ما قلته، ولا شك أنك لم تجلس طيلة الليل بلا نوم على هذا المقعد؟» فقلت لها: «إنني لم أنم» فقالت: «هه! ما أعقلك؟ وهل تنوي ألا تتناول إفطاراً أو غداء اليوم؟» فقلت: «قلت لك إنني لن أفعل ما لم تصفحي عني» فقالت: «إنك لا تدري إلى أي حد لا يليق بك هذا التصرف، إنك كمن يضع سرج الجواد على ظهر بقرة. أعتقد أنك تخيفني؟ ويحي؟ ما أفزع أن تجلس هنا بلا أي طعام؟ لشد ما أفرعني حقاً؟» ولكنها لم تستمر في غضبها طويلاً، وبدا أنها لم تعد تذكر إساءتي لها إطلاقاً، وقد دهشت لهذا؛ لأنها بطبيعتها امرأة عنيفة عنيدة، ولكن خطر لي أنها ربما كانت تمنعني في احتقاري إلى حد عدم الشعور بالاستياء مني. وتلك هي الحقيقة.

وجاءت إليّ وقالت لي: «هل تعرف من هو بابا روما؟» فقلت لها: «لقد سمعت عنه» فقالت: «أعتقد أنك قرأت كتاب التاريخ العالمي يا بارفين سيميونوفيتش، أليس كذلك!» فقلت لها: «إنني لم أعلم شيئاً على الإطلاق» فقالت: «لسوف أعيره لك لتقرأه، إذ ينبغي أن تعلم أنه كان ثمة بابا لروما، وكان شديد الغضب على إمبراطور معين. ومن ثم أقبل عليه هذا الإمبراطور وامتنع عن الطعام والشراب، وظل راکعاً أمام القصر البابوي حتى يظفر بالغفران. فهل تعرف أية تعهدات كان ذلك الإمبراطور يقطعها على نفسه في أثناء الأيام التي أمضاها راکعاً؟ انتظر، لسوف أقرأها لك»

ثم راحت تقرأ لي كمية كبيرة من الشعر، جاء فيه أن ذلك الإمبراطور كان يتوعد البابا بالانتقام طيلة الوقت. ثم قالت لي: «إنك لا تعني القول بأنك غير راض عن هذه القصيدة يا بارفين سيميونوفيتش؟» فقلت لها: «إن كل ما قلته صحيح تمامًا». فقالت: «آها؟ إنك لا تعترف بصحته! أليس كذلك؟ وأنت تتوعدني في قرارة نفسك بأنك حين تتزوجني سوف تذكرني بهذا كله، وتنقم لنفسك منه!» فقلت: «إنني لا أدري، ربما فكرت هكذا، وربما لا، وكل ما أعرفه أنني لا أفكر في شيء الآن» قالت: «إذن فيم تفكر؟» قلت: «أفكر في أنني سوف أربك حين تنهضين من هذا المقعد وتمرين أمامي، وأنني سأتبعك بنظراتي، وإذا صدر مجرد حفيف لثوبك، فسوف يهوي قلبي، وإذا انصرفت عن الغرفة، فسوف أتذكر كل حركة صغيرة وكلمة، وكيف كان رنين صوتك، وماذا قلت. إنني لم أفكر في شيء طوال الليلة الماضية، وإنما جلست أنصت إلى أنفاسك وأنت نائمة، وسمعتك تتقلبين في فراشك مرتين» فقالت: «وبشأن ضربك لي، أعتقد أنك لم تفكر في هذا الأمر قط؟» فقلت: «ربما فكرت في هذا، وربما لا» فقالت: «وماذا لو أنني لم أصفح عنك أو أتزوج بك؟» قلت: «قلت لك إنني سأمضي وأغرق نفسي» فهممتم ثم لزمنا الصمت. وفجأة غضبت ونهضت لتنصرف وهي تهتف قائلة: «أعتقد أنك ستقتلني قبل أن تغرق نفسك» وبعد ساعة، عادت إليّ وقد بدت محزونة السميت. وقالت: «لسوف أتزوج بك يا بارفين سيميونوفيتش؛ لا لأنني خائفة منك، وإنما لأنه لم يعد يهمني كيف أحطم حياتي. أو ما هي أفضل طريقة لأن أفعل هذا. اجلس لسوف يأتون لك ببعض طعام الغداء فورًا. وأنا إذا تزوجت بك، فسوف أكون زوجة وفيه لك. ولا حاجة بك إلى أن ترتاب في هذا» ثم فكرت برهة وأردفت قائلة: «وأيًا ما كان الأمر، فأنت

غير دنيء». لقد ظننت في أول الأمر أنها لا تفضل أي شخص دنيء، ثم تحدثت في تلك اللحظة نفسها عن ترتيبات الزواج وحددت اليوم.

ثم إذا بها تهرب مرة أخرى بعد أسبوع، ثم تأتي هنا لائذة بيت لبيديف، ولما عثرت عليها قالت لي: «إنني لن أرفضك تمامًا، وإنما أريد أن أؤجل الزواج بعض الوقت. أؤجله أطول فترة أريدها؛ لأنني الآن سيدة نفسي. ويمكنك من ثم أن تنتظر إذا شئت» وهكذا انتهى الأمر بيننا الآن، فما رأيك في هذا كله يا ليو نيكولايفيتش؟

فأجاب الأمير وهو ينظر بحزن إلى روجوجين:

- ما رأيك أنت في هذا كله؟

- لكننا يمكنني أن أفكر أي تفكير فيه..

وأوشك أن يزيد القول ولكنه أمسك عن الحديث يأسًا.

ونهض الأمير واقفًا كأنما يهم بالانصراف، ثم غمغم قائلاً كأنه يجيب عن أسئلة لأفكاره الخاصة:

- إنني على أية حال لن أتدخل في شئونكما.

وصاح روجوجين وقد توهجت عيناه كالنار:

- سأكون صريحًا معك! إنني لا أفهم معنى تنازلك عنها لي هكذا!

إنني لا أفهم هذا! هل أقلعت عن حبها نهائيًا. لقد عانيت من حبها في أول الأمر بقسوة. لقد عرفت هذا، ورأيت. وعدا هذا، فلماذا لحقت بنا بمثل هذه السرعة البريدية؟ أهو دافع الشفقة! هه ها ها ها..

والتوى فمه بضحكة ساخرة.

فسأله الأمير قائلاً:

- أعتقد أنني أخدعك؟

فقال روجوجين وقد أطلت من عينيه رغبة عارمة للإفصاح عن ذات نفسه، مقرونة بالغضب الشديد:

- لا! إنني أثق فيك؟ ولكنني عاجز عن الفهم. فإنه يخيل لي أن شفقتك أكبر من حبي.

فقال الأمير:

- إن حبك ممتزج بالكراهية، ومن ثم فعندما يتلاشى، فسوف يبقى الشقاء الأكبر، وأقول لك يا بارفين..

- ماذا؟ أتعني أنني سأذبحها؟

فسرت في بدن الأمير رعدة وقال:

- لسوف تكرهها بقدر ما تحبها الآن، وبقدر ما تعانیه من عذاب بسببها في الوقت الحاضر. وإن ما يبدو لي أنه من العجب العجائب هو موافقتها مرة أخرى على الزواج بك رغم كل ما حدث بينكما. وعندما سمعت أمس بما حدث، وجدت من العسير أن أصدق. عجباً! لقد هربت منك مرتين، وكانت في كل مرة تكاد تكون بجوار قضبان محراب الزواج قبل أن تهرب. ولا شك أنها تتوقع الشر من وراء هذا الزواج. فماذا يمكن أن تريد منك الآن؟ المال؟ هراء! وعدا هذا فأنا أعتقد أنك ولا شك قد ضيعت جانباً كبيراً من ثروتك فعلاً. وهي بالتأكيد ليست جد ملهوفة للبحث عن زوج؟ ففي استطاعتها أن تجد الكثير غيرك. وأي شخص سيكون خيراً منك؛ لأنك سوف تقتلها. وأنا واثق أنها تعرف هذه الحقيقة تماماً وبلا أدنى شك، الآن. فهل يكون السبب

أنك تحبها كل هذا الحب العارم؟ ربما يكون هذا هو السبب في الواقع. فقد سمعت أن هناك نساء يرغبن في هذا النوع من الحب. ومع ذلك..

وأمسك الأمير عن الحديث برهة، مفكرًا؟ بينما سأله روجوجين فجأة:
- لماذا تبتسم من صورة أبي مرة ثانية؟

وكان يراقب بعناية كل تغيرات تبدو على وجه الأمير الذي قال:

- إنني أبتسم لأنه خطر لي أنه لولا عاطفتك التعسة هذه، لكان من الممكن، بل من المؤكد، أن تغدو تمامًا مثل أبيك، وفي أسرع وقت. كان من الممكن أن تستقر في بيتك هذا مع زوجة هادئة مطيعة، وأن تتحدث بقدر، وأن لا تثق بأي شخص، وأن لا تهتم بأي إنسان، وأن تركز تفكيرك في جمع المال.

- اضحك سخريةً مني إذا شئت! لقد قالت تمامًا مثل هذا القول، كلمة كلمة تقريبًا، عندما رأت صورة أبي. وإنه لأمر ملفت للنظر أن تتطابق آراؤكما إلى هذا الحد في هذه الآونة!

فسأله الأمير بفضول:

- ماذا؟ هل جاءت هنا؟

- نعم. وتأملت الصورة طويلاً، وسألته عن كل شيء عن أبي، وأخيرًا قالت ضاحكة: «كان يمكن أن تكون مثله تمامًا.. فإن لك نفس الانفعالات الحادة يا بارفين، بحيث كان من الممكن أن ينفوك إلى سيبيريا لو لم يكن لك ذكاء حاد أيضًا لحسن الحظ» قالت لي هذا سواء صدقتني أم لا، وكانت تلك أول مرة أسمع منها شيئًا من هذا القبيل. ثم أردفت قائلة: «كان من الممكن أن تقضي سريعًا على كل مشاعرك الهمجية البدائية هذه التي

تستغرقك الآن، وأن تستقر في حياة هادئة مضطربة لجمع المال؛ لأنك قليل الحظ من التعليم، ومن ثم كان يمكنك أن تبقى هنا تمامًا كما كان والدك من قبل. وكان من الممكن أن تحب أموالك بحيث لا تجمع منها مليونين فقط، كما فعل هو، وإنما عشرة ملايين، ثم تموت أخيرًا من الجوع فوق أكياس أموالك، حتى تصل بالأمر إلى نهايته، لأنك لا تعرف الوسط في أمورك»، ذلك هو حديثها كما قالته لي كلمة كلمة. إنها لم تتحدث إليّ هكذا أبدًا من قبل. كانت دائمًا تلغو بالحديث وتضحك كلما كانت معي. وقد طفنا معًا في أنحاء هذا البيت القديم. وقلت لها: «سوف نغير هذا كله، أو أشتري بيتًا جديدًا للزواج» وقالت: «لا، لا، لا تلمس شيئًا فيه بالتغيير، دع كل شيء فيه كما هو، لسوف أعيش مع والدتك عندما أتزوج بك».

ومضيت بها لرؤية أمي، وقد عاملتها باحترام وعطف وكأنما هي ابنتها. وكانت أمي في حالة أشبه بالجنون منذ وفاة أبي، فهي امرأة عجوز. وهي تجلس دائمًا وتنحني برأسها، من مقعدها، لكل شخص تراه، وأعتقد أنك لو تركتها بمفردها بلا طعام ثلاثة أيام، لما أحست بشيء ينقصها. حسنًا! لقد تناولت يدها وقلت لها: «أسبغي بركاتك على هذه السيدة يا أماه؛ لأنها ستكون زوجتي». وهكذا قبلت ناستاسيا يد أمي بتأثر شديد، ثم قالت: «لا شك أنها عانت الشيء الكثير. أليس كذلك؟» ثم رأت هنا كتابًا ملقى، فقالت: «عجبًا؟ هل بدأت تقرأ التاريخ الروسي؟». وكانت قد قالت ذات مرة في موسكو، كما تعلم، أنه يحسن بي أن أظفر بكتاب التاريخ الروسي لسولوفيف، وأقرأه؛ لأنني لا أعرف «شيئًا له قيمته» كما قالت: «وعليك أن تستمر على هذا النحو، في قراءة الكتب، ولسوف أعد لك قائمة بالكتب التي ينبغي أن تقرأها أولاً، فهل أفعل؟» ولم تكن أبدًا قد تحدثت إليّ هكذا من

قبل . وكانت تلك أول مرة أستطيع أن أتنفس فيها، أمامها، كمخلوق حي .

فقال الأمير بإخلاص حقيقي :

- إنني سعيد جداً جداً إذ أسمع هذا يا بارفين . فمن يدري، لعل الله أن يجمع شملكما أخيراً .

فهتف روجوجين قائلاً في انفعال :

- أبداً، أبداً ..

- اسمع يا روجوجين، إذا كنت تحبها إلى هذا الحد، فلا شك أنك تتوق إلى اكتساب احترامها؟ وإذا كانت هذه رغبتك، فلا شك أنك قد تأمل في تحقيقها . وقد قلت لك الآن فقط، إنه لعجب عجاب أن تظل هي مستعدة للزواج بك، حسناً! فبرغم أنني حتى الآن لا أفهم حقيقة الأمر، إلا أنني أشعر باليقين بأن لديها ولا شك سبباً قوياً، وإلا لما أقدمت على هذا . إنها واثقة من حبك . ولكن بجانب هذا، لا شك أنها تجد فيك بعض الخصائص - أو الصفات الطيبة . وإلا لما كان الأمر هكذا . وإن ما قلته أنت الآن ليؤكد رأيي هذا . لقد قلت بنفسك إنها وجدت من الممكن أن تتحدث إليك بطريقة تختلف عما اعتادت عليه معك . وإنك متشكك، كما تعرف، وغيور . ولهذا فإذا حدث ما يشير استيائك، فإنك تبالغ في دلالتك . إنها طبعاً، طبعاً، لا تسيء الرأي فيك كما تقول أنت . نعم، فلو أنها سيئة الظن بك، لكأنها، ببساطة، تسير إلى حتفها غرقاً أو ذبحاً مفتوحة العينين عندما تتزوجك، وهذا هو المستحيل ! وإلا فأين ذلك الإنسان الذي يرحب عامداً بالموت غرقاً أو ذبحاً؟

وأنصت روجوجين إلى كلمات الأمير الحماسية بابتسامة مريرة . وكان

يقينه في الموضوع، كما يبدو، لا يتزحزح.

وقال الأمير وقد خامره إحساس بالرعب:

- ما أظع نظراتك يا بارفين!

وقال روجوين أخيراً:

- بالماء أو بالسكين! ها ها، إن هذا هو السبب الحقيقي لزواجها بي؛

لأنها تعرف على وجه اليقين أن السكين في انتظارها. أيها الأمير، أيمن

أنك لم تعرف بعد ما يكمن وراء هذا كله؟

- إنني لا أفهمك!

- ربما لا يفهم حقاً! إنهم يقولون إنك أنت - أتعرف ماذا؟ إنها تحب

شخصاً آخر، ويمكن أن تفهم هذا على الأقل. وبمقدار ما أحبها أنا، تحب

هي رجلاً آخر. وذلك الرجل الآخر هو... أتعرف من هو؟ إنه أنت! أما كنت

تعرف هذا؟ إه!

- أنا؟

- نعم، أنت، أنت! لقد أحبتك منذ ذلك اليوم، عيد ميلادها. إنها ترى

فقط أنها لا تستطيع أن تتزوجك؛ لأنها ستكون سبباً في دمار حياتك، وهي

في هذا تقول: «إن الجميع يعرفون أية امرأة أنا». لقد قالت هذا كله بنفسها

لي، وفي وجهي! إنها تخشى أن تجلب عليك العار والدمار كما تقول.

ولكنها لا تهتم بشيء من هذا من ناحيتي. إنها تستطيع أن تتزوجني فعلاً!

فهل رأيت أي تقدير تكنه لي!

- ولكن لماذا تراها تهرب مني، ثم منك مرة أخرى إليّ؟

- منك إليّ؟ ها ها؟ لا شيء في هذا! إنها تتصرف كما لو كانت في حالة هذيان الآن! فهي إما أن تقول: «هلم، لسوف أتزوجك! هيا نشرع في الزواج بسرعة!» ثم تحدد يوم الزواج، وتبدو متعجلة عليه، وعندما يقترب اليوم المحدد يخامرها الخوف، أو تخامرها فكرة أخرى، الله أعلم، فإنك قد رأيتها، وأنت تعرف كيف تعيش: ضاحكة، أو باكية، أو نائرة. فليس ثمة غرابة في كونها تهرب منك. إنها تهرب عندما تكتشف قوة حبها لك. إنها لا تطيق أن تغدو قريبة منك. لقد قلت أنت الآن إنني عثرت عليها في موسكو عندما هربت منك. إنني في الواقع لم أفعل هذا، وإنما جاءت هي بنفسها إليّ رأسًا من عندك، وقالت: «حدد اليوم؛ فإني مستعدة! هيا نشرب بعض الشمبانيا، ثم نمضي لنسمع أغاني الغجر» وأؤكد لك أنها ما كانت لتتردد في إغراق نفسها منذ أمد بعيد لولا وجودي أنا، وهي لم تفعل هذا ربما لأنني أقسى عليها من الموت غرقًا. إنها ستتزوجني بدافع من الاشمئزاز. نعم، أؤكد لك أنها إذا تزوجتني، فسيكون السبب هو الاشمئزاز.

فبدأ الأمير يقول وهو يحملق في رعب وفزع إلى روجوجين:

- ولكن كيف.. كيف يمكن أن ..

- لماذا لا تتم حديثك؟ هل أقول لك ماذا يدور بخلدك في اللحظة الراهنة؟ إنك تقول لنفسك: «كيف يمكنها أن تتزوجه بعد هذا؟ كيف يمكن أن يسمح بمثل هذا الزواج؟» أوه، إنني أعرف ماذا يدور بذهنك.

- إنني لم آت هنا- لهذا الغرض يا بارفين. لم يكن هذا بذهني.

- ربما! ولعلك لم تأت وهذه الفكرة في ذهنك، ولكنها بالتأكيد في ذهنك الآن! ها، ها! كفى هذا الآن! ماذا يثير استياءك الآن؟ أما كنت تعرف

هذا حقاً من قبل ؟ إنك تدهشني .

فقال وهو شديد الانفعال :

- إن هذا كله مجرد غيرة . إنها نوع من المرض تعانيه يا بارفين . إنك
تبالغ في كل شيء ، ما هذا الذي ستفعله .. ؟

- ضع هذه مكانها .

قال بارفين هذا وهو يمسك من يد الأمير سكيناً كان قد تناولها في تلك
اللحظة من المائدة حيث كانت موضوعة بجانب كتاب التاريخ . وأعادها
بارفين إلى حيث كانت .
وقال الأمير :

- يخيل إليّ أنني أعرف هذا ، وأني شعرت به عندما عدت إلى بترسبرج .
ولم أكن أريد أن أعود ، وإنما تمنيت لو أنسى هذا كله ، أن أنتزعه من أعماق
ذكرياتي تماماً ! حسناً . وداعاً .. ماذا حدث ؟

وكان في شروده قد تناول السكين مرة أخرى ، ومرة أخرى اختطفها
روجوجين من يده وألقى بها على المائدة . وكانت سكيناً عادية الشكل ، ذات
مقبض من العظم ، ونصل طوله ثماني بوصات ، متناسق العرض ، لا ينطوي .
ولما رأى الأمير قد بلغ به التأثير حد إمساك السكين في ذهول مرتين ،
فقد تناولها روجوجين ووضعها في الكتاب بشيء من التوفز العصبي ، وألقى
بالأخير إلى مائدة أخرى .

وقال الأمير وهو لا يزال شارد الذهن ، وكأنما مستغرق الفكر في
الموضوع الذي ألفت به إليه المحادثة :

- أقطع بهذه السكين الأوراق أم ماذا؟

- نعم.

- إنها سكين حديقة، أليس كذلك؟

- نعم. ألا يمكن للإنسان أن يقطع الأوراق بسكين حديقة؟

- إنها جديدة تمامًا.

فصاح روججين بعنف وقد أخذت أعصابه تزداد توفراً مع كل كلمة:

- وماذا في هذا؟ ألا يمكنني شراء سكين جديدة إذا شئت؟

وارتعد الأمير، وحملق بشدة في وجه بارفين، ثم إذا به يضحك فجأة

ثم يقول:

- عجباً! ما أغرب حديثنا هذا؟ إنني لم أكن أعني أن أسألك أي سؤال

من هذه الأسئلة. لقد كنت أفكر في شيء مختلف تمامًا. ولكن رأسي ثقيل،

ويبدو أن ذهني يشرد كثيراً في هذه الأيام. حسناً، وداعاً، إنني لا أستطيع أن

أذكر ماذا أردت أن أقول لك - وداعاً.

فقال روججين:

- ليس من هذا الطريق.

- آه، لقد نسيت هذا أيضاً.

- من هذا الطريق، هلم - لسوف أمضي معك.



الفصل الرابع

ومرّا من خلال الغرفات نفسها التي عبرها الأمير عند حضوره، وكانت على جدران أكبرها حجماً، صور معلقة، ولوحات، ومناظر طبيعية مصورة ذات قيمة بسيطة. ولكن كان ثمة شيء على كل حال فوق الباب له منظر غريب الشكل مثير. كان طوله ست أو سبع أقدام، ولا يزيد على قدم ارتفاعاً. وكان يمثل السيد المسيح عقب رفعه من الصليب.

وألقى الأمير عليه نظرة عابرة دون أن يكررها، ثم تحرك بسرعة، كأنما هو ملهوف على الانصراف من البيت. ولكن روجوجين توقف فجأة تحت الصورة وقال:

- لقد التقط أبي كل هذه الصور وغيرها من المزايدات بأثمان زهيدة. وهي جميعها تافهة فيما عدا تلك التي فوق الباب. فإنها ثمينة. لقد عرض رجل خمسمائة روبل ثمناً لها في الأسبوع الماضي.

فقال الأمير وهو يعيد النظر إليها:

- نعم، إنها نسخة من لوحة هولبين. وهي حسنة التقليد أيضاً، بقدر ما أستطيع أن أحكم. لقد رأيت اللوحة الأصلية في الخارج، ولم أستطع أن أنساها.. ماذا حدث!

وكان روجوجين قد أغفل موضوع الصورة، وتقدم في سيره. وبطبيعة الحال كانت حالته الفكرية الغريبة كافية لتبرير تصرفاته. ولكن بدا للأمير - مع هذا - أنه من العجيب أن يغفل فجأة موضوعًا للحديث كان هو البادئ فيه. ولم يحفل روجوجين بالسؤال إطلاقًا، وإنما قال بعد برهة صمت كان الاثنان خلالها قد تقدما في سيرهما:

- ليو نيكولايفيتش! طالما رغبت في أن أسألك: هل تؤمن بالله؟

فقال الأمير بلهجة لا إرادية:

- ما أعجب حديثك، وما أغرب منظرك!

فغمغم روجوجين قائلاً دون أن يلحظ - كما يبدو - أن الأمير لم يجب عن سؤاله:

- إنني أحب التطلع إلى هذه الصورة.

فهتف الأمير وقد مضت في ذهنه فكرة:

- الصورة! عجباً! إن إيمان الرجل قد يتحطم بالنظر إلى هذه الصورة!

فقال روجوجين بلا توقع:

- نعم. إن الأمر لكذلك.

وكانا قد بلغا الباب الخارجي أخيراً. وقال الأمير وهو يتوقف عن المسير:

- كيف؟ ماذا تعني؟ لقد كنت أمزح فقط، ولكنك اتخذت حديثي جدياً. ولماذا تسألني هل أؤمن بالله؟

- لا لسبب معين. وكنت أنوي أن ألقى عليك هذا السؤال من قبل. فإن

كثيرًا من الناس غير مؤمنين في هذه الأيام، لا سيما الروسيين، هكذا قيل لي ولا شك أنك أعلم، فقد عشت في الخارج.

وضحك روججين بمرارة وهو ينطق بهذه الكلمات، ثم فتح الباب وأمسكه للأمير لكي يمر. وبدا الأمير مدهوشًا، ولكنه مضى إلى الخارج، وتبعه الآخر حتى مهبط الدرجات الخارجية، ثم أغلق الباب وراءه. ووقف الاثنان عندئذ يواجه أحدهما الآخر، وكأنما لا يشعران أين هما أو لا يعرفان ماذا يفعلان بعد ذلك.

وقال الأمير باسطًا يده:

- حسنًا، وداعًا!

وضغط روججين على يده، ولكن بطريقة آلية وقال:

- وداعًا.

وتقدم الأمير خطوة، ثم استدار وابتسم قائلاً وكأنما لا يريد - كما يبدو - أن يترك روججين على هذه الحالة.

- أما عن العقيدة.. أما عن العقيدة، فقد جرت معي أربع محادثات عجيبة في يومين منذ أسبوع أو نحو ذلك. ففي ذات صباح التقيت برجل في القطار وتعرفت به فورًا. وكنت كثيرًا ما سمعت عنه كرجل موفور الثقافة ولكنه ملحد. وقد شعرت ببالغ السرور لهذه الفرصة التي أتاحت لي للتحدث مع مثل هذا الرجل المهم البارع. إنه لا يؤمن بالله، وقد تحدث كثيرًا عن هذا الموضوع. ولكن بدا لي طيلة الوقت أنه يتحدث خارج الموضوع. وإنه ليخطر لي دائمًا كلما تحدثت مع أمثال هؤلاء الرجال أو قرأت كتبهم، أنهم في الواقع لا يلمسون جوهر الموضوع وإن بدا ظاهريًا أنهم يفعلون هذا. وقد

ذكرت له هذا، ولكن أستطيع القول إنني لم أحسن التعبير عن نفسي؛ لأنه لم يستطع أن يفهمني.

وفي ذلك المساء نفسه، نزلت في فندق إقليمي صغير، وحدث أن جريمة قتل رهيبة وقعت فيه في الليلة السابقة، وكانت مدار حديث الجميع: لقد جلس في الفندق رجلان ريفيان في منتصف العمر، تربطهما صداقة قديمة، يشربان الشاي، وكان ذلك في الليلة السابقة على وصولي، وكانا ينزلان في غرفة نوم واحدة. ولم يكونا مخمورين، ولكن أحدهما لاحظ أن الآخر يمتلك ساعة فضية معلقة في سلسلة. ولم يكن لصًا بأية حال، بل كان رجلًا ثريًا بمفهوم الثراء بين الريفيين. ولكن تلك الساعة خلبت لبه بحيث لم يستطع أن يكبح جماح نفسه! وتناول سكينًا، ولما استدار صاحبه بظهره، تسلل بحذر وراءه، ورفع عينيه إلى السماء، ورسم علامة الصليب على صدره، وابتهل بحماسة قائلاً: «يا رب اغفر لي، من أجل السيد المسيح»، ثم ذبح صديقه ذبح الشاة، وأخذ ساعته.

وانفجر روجوجين بضحك عاصف، وظل يضحك حتى كاد أن تعثره نوبة عصبية. وكان منظره، وهو يضحك، عجيبيًا بعد تلك الحالة من الاكتئاب التي كان غارقًا فيها من قبل.

وهتف مختلج الجنبات لاهت الأنفاس:

- أوه، إنني أحب هذا؟ إنه أعجب شيء. واحد ملحد تمامًا، والآخر بلغ من قوة إيمانه أنه ذبح صديقه، وهو يبتهل في طلب المغفرة! أوه، أيها الأمير، إن هذا أروع ما سمعت! لا يمكن أن يكون من بنات أفكارك؟ إنه أحسن ما سمعت.

واستطرد الأمير قائلاً بمجرد أن هدأ روجوجين قليلًا، وإن ظل ينفجر

ضاحكًا بين الحين والآخر:

- وفي صباح اليوم التالي، خرجت لأتمشى في جوانب المدينة، وسرعان ما لاحظت جنديًا مخمورًا يترنح على الطوار. وأقبل نحوي وقال: «اشترِ يا سيدي صليبي الفضي! لسوف أبيعك لك بأربعة قروش. إنه من الفضة الحقيقية» ونظرت إليه، فوجدته ممسكًا بصليب كان قد تناوله فورًا من عنقه. وكان واضحًا أنه من الصفيح المصنوع على الطراز البيزنطي. وتناولت من جيبى أربعة قروش، وعلقت الصليب في عنقي أنا، وأمكنني أن أرى من أمارات وجهه أنه أشد ما يكون سرورًا لنجاحه في خداع سيد مغفل، وانطلق ليشرب بثمرن صليبه. وكان كل شيء أراه في ذلك الحين يترك في نفسي أعمق الأثر وأعنفه، ذلك أنني لم أكن فهمت شيئًا عن روسيا من قبل، وإنما كانت لي بعض الذكريات الغامضة الخيالية عنها. ومن ثم قلت لنفسي: «لسوف أترث قليلاً قبل أن ألعن يهوذا هذا؛ فالله وحده يعلم ماذا يكمن في أعماق قلوب السكارى» حسنًا! ومضيت في طريق العودة، وبالقرب من الفندق، التقيت بامرأة مسكينة تحمل طفلًا لا يتجاوز عمره ستة أسابيع. وكانت الأم نفسها في سن الصبا الباكر. وكان الطفل في تلك اللحظة يبتسم لها، لأول مرة في حياته. وفيما أنا أرقب الفتاة الأم، رأيته ترسم فجأة علامة الصليب على صدرها في خشوع ورهبة، فقلت لها: «ماذا جرى يا سيدتي الطيبة؟» - وكنت عندئذ أقصر فقط على إلقاء الأسئلة - وقالت هي: «بقدر بهجة الأم عندما يبتسم في عينيها طفلها لأول مرة، تكون بهجة الرب عندما يعود أحد عباده ويبتهل إليه بكل قلبه لأول مرة في حياته» هذا ما قالته لي كلمة كلمة - وإنه لرأي ديني عميق مهذب صادق - إنه رأي يعبر في ومضة عن روح العقيدة المسيحية. وذلك هو المبدأ الأساسي للسيد

المسيح وكانت امرأة ريفية بسيطة - أمّا، فهذه حقيقة. ومن يدري، فلعلها أن تكون زوجة لذلك الجندي المخمور!

اسمع يا بارفين؟ لقد وجهت إليّ الآن سؤالاً، وهذه إجابتي: إن روح الشعور الديني لا شأن له بالمنطق، ولا بالإلحاد، ولا بالجريمة، ولا بأية تصرفات من أي نوع - ليس له شأن بهذا كله - ولم يكن له قط شأن به. فإن هناك شيئاً آخر بجانب هذا كله، شيئاً لا يستطيع أبداً أن يلمسه منطق الملحدين، ولكن الأمر الأساسي، ونهاية حديثي، وهو ما يبدو بوضوح في قلب الشخص الروسي. إنه يقين استطعت أن أكتسبه في أثناء وجودي في وطني، روسيا هذه. نعم يا بارفين! إن هناك عملاً ينبغي أن يؤدّى. إن هناك عملاً ينبغي أن يؤدّى في هذا العالم الروسي. أتذكر نوع أحاديثنا ونحن في موسكو؟ إنني لم أرغب في الحضور إلى هنا قط، ولم يخطر ببالي قط أنني سألتقي بك على هذا النحو. حسناً يا بارفين، حسناً. وداعاً.. وداعاً، وليكن الله معك.

وصاح بارفين قبل أن يصل الأمير إلى المهبط الثاني للسلم:

- ليو نيكولايفيتش! ألدريك ذلك الصليب الذي اشتريته من ذلك الجندي!

فقال الأمير وقد توقف مرة أخرى:

- نعم، إنه لديّ.

- هل يمكن أن تطلعني عليه!

«أهي نزوة جديدة!» هكذا فكر الأمير في نفسه. ثم عاد وصعد الدرجات وانتزع الصليب من عنقه. وقال بارفين:

- أعطه لي .

- لماذا؟ .. هل ..

وكان الأمير يؤثر أن يحتفظ بهذا الصليب بالذات . وقال روجوجين :

- لسوف أتقلده، وسأعطيك صليبي، سأنتزعه فوراً .

- أتريد أن تتبادل الصليبان؟ حسنًا يا بارفين . فإن كان الأمر كذلك، فإنني سعيد جدًا . فإن هذا يجعلنا أخوين كما تعلم .

وتناول الأمير صليبه الصغير، ونزع بارفين صليبه الذهبي، وتمت عملية التبادل .

ووقف بارفين صامتًا . ولاحظ الأمير في دهشة حزينة، أن أمارات الشك والمرارة مع البسمة التهكمية لم تتلاش تمامًا عن وجه ذلك الأخ المكتسب حديثًا . وكانت هذه الأمارات في بعض اللحظات، وفي جميع الأحوال، تكشف عن نفسها بأوضح ما يكون .

وأخيرًا تناول روجوجين يد الأمير، وظل واقفًا هكذا للحظات، كأنما هو عاجز عن أن يستقر بذهنه على رأي، ثم إذا هو يجذبه قائلًا بصوت خافت لا يكاد يُسمع :

- هلم !

وتوقفا عند المهبط، ودق روجوجين جرس باب مواجه لباب مسكنه، ففتحته لهما امرأة عجوز، وانحنت لروجوجين الذي وجه إليها بعض الأسئلة السريعة، إلا أنه لم ينتظر حتى يسمع إجابتها . وإنما مضى مع الأمير عبر غرفات عديدة مظلمة باردة، بالغة النظافة، ذات أغشية بيضاء فوق جميع الأثاث .

وبدون أن يطرق روجوجين على الباب، كمقتضيات اللياقة، دخل مسكنًا صغيرًا مؤثثًا على هيئة غرفة جلوس، ولكن لها فاصل من خشب الموجنة المصقول يقسمها إلى نصفين أحدهما يبدو كغرفة نوم. وفي أحد أركان هذه الغرفة، جلست سيدة عجوز في مقعد وثير، بالقرب من المدفأة. ولم تكن تبدو عجوز جدًّا، وكان وجهها لطيفًا مستديرًا، إلا أن شعرها كان أبيض. كما يمكن للرائي أن يلحظ من النظرة الأولى أنها تعيش في دور طفولتها الثانية. وكانت ترتدي ثوبًا أسود من الصوف وتضع حول عنقها وعلى كتفها مطرّفًا أسود، وعلى رأسها «كاب» أبيض له شرائط سوداء. وكانت قدمها مرفوعتين على مقعد صغير. وبجانبتها جلست سيدة أخرى عجوز، في ملابس الحداد أيضًا، ترفو جوربًا في صمت، ويبدو أنها رفيقتها. وكانت كل منهما تبدو كأنها لم تقطع أبدًا حبل الصمت. ولكن ما إن رأت السيدة الأولى روجوجين والأمير حتى ابتسمت وأحنت رأسها بضع مرات إعرابًا عن تقديرها واحترامها لزيارتهما لها.

وقال روجوجين وهو يقبل يدها:

- أماه! هذا هو صديقي الكبير الأمير ميشكين. لقد تبادلنا الصلبان وكان لي في موسكو يومًا أخًا حقيقيًّا، وقد فعل من أجلي الشيء الكثير. باركيه يا أماه كما لو كنت تباركين ابنك. انظري برهة، دعيني أرتب يديك لك.

ولكن السيدة العجوز رفعت يدها اليمنى قبل أن يجد روجوجين وقتًا ليلمسها، ثم رسمت بثلاثة أصابع مرفوعة علامة الصليب، في حماسة وابتهاال ثلاث مرات فوق رأس الأمير. ثم أوامت برأسها إليه مرة أخرى في عطف.

وقال روجوجين:

- ها يا ليو نيكولايفيتش . هلم، هذا هو كل ما جئت بك لأجله.

ثم أضاف قائلاً حين عاد إلى السلم:

- إنها لم تفهم شيئاً مما قلت لها، ولم تعرف ماذا أردت منها أن تفعل، ومع ذلك فقد باركتك، وهذا يدل على أنها أرادت هذا بنفسها. حسناً! وداعاً، لقد آن لك أن تمضي، كما يجب أن أمضي أنا أيضاً.

وفتح بابه فهتف الأمير قائلاً وهو ينظر إلى روجوجين في عتاب لطيف ويتقدم نحوه:

- حسناً! دعني على الأقل أعانقك وأودعك أيها الصاحب العجيب؟

ولكن روجوجين ما كاد يرفع ذراعيه حتى أخفضهما مرة أخرى، إنه لم يستطع أن يستجيب لهذا الرجاء، واستدار بظهره عن الأمير حتى يتجنب النظر إليه؛ إنه لم يستطع أن يعانقه.

وغمغم بصوت خافت:

- لا تخف! فرغم أنني أخذت منك صلييك، فلن أذبحك لأخذ منك ساعتك.

قال هذا ثم ضحك فجأة وبغراية. ثم إذا بوجهه يتجمد، وإذا هو يكتسي بشحوب الموت، وإذا شفتاه ترتعشان، وعيناه تتوقدان كالنار، ومد ذراعيه أخيراً، وضم الأمير إليه بقوة وهو يقول بصوت مختنق:

- حسناً! خذها، إنه الغدر، وإنها لك. إنني أسلمها إليك، تذكر روجوجين.

ثم دفع الأمير بعيداً عنه. ودون أن ينظر إليه، أسرع ودخل مسكنه الخاص، وصفق الباب وراءه.

الفصل الخامس

كان الوقت الآن متأخرًا، يقرب من الثانية والنصف، ولم يجد الأمير الجنرال إيبانشين بيته؛ فترك له بطاقة، وقرر زيارة كوليا الذي كان يقيم في غرفة بفندق صغير قريب. ولم يجد كوليا في غرفته، ولكنه علم بأنه سوف يعود في وقت قريب، وأنه ترك وراءه خبرًا بأنه إذا لم يعد في الثالثة والنصف فيكون مفهومًا أنه ذهب إلى منزل الجنرال إيبانشين في بافلوفسك، وأنه سيتناول طعام الغداء هناك. وقرر الأمير أن ينتظر حتى النصف بعد الثالثة، وطلب أن يؤتى له بطعام الغداء. ولكن كوليا لم يحضر في الثالثة والنصف، وانتظر الأمير حتى الرابعة، ثم راح يسير - في اكتئاب - إلى حيث تقوده قدماءه. والمعتاد أن تشهد مدينة بطرسبرج في بكور الصيف أيامًا رائعة الجو مشرقة دافئة ساجية. وقد حدث أن ذلك اليوم كان من هذه الأيام.

وظل الأمير يسير على غير هدى فترة من الوقت. ولم يكن على دراية تامة بنواحي المدينة، فكان يتوقف ليتلفت حوله فوق المعابر المائية «الكباري» وفي جوانب الطريق. ودخل دكان أحد بائعي الحلوى مدة ليستريح به، وبسبب ما كان عليه من انفعال عصبي واضطراب ذهني، لم يستطع أن يلاحظ أو يرى أحدًا. وشعر باللهفة إلى العزلة والانفراد بأفكاره وعواطفه وتسليم

نفسه لها تمامًا. وكان يشمئز من مجرد التفكير في محاولة الإجابة عن الأسئلة التي تتردد في قلبه وذهنه، وكان يقول لنفسه وهو في شبه ذهول:
«لست أنا المعلوم عن هذا كله».

وفي نحو السادسة مساءً، وجد نفسه في محطة سكة حديد زارسكو-سيلسكي.

إنه الآن قد سئم الوحدة، فقد استبد به فيض جديد من المشاعر، وانطلق ضوء وضاح يطارد ظل الكآبة، برهة، من أعماق نفسه، واشترى تذكرة إلى بافلوفسك وقد قرر أن يذهب إليها بأسرع ما يمكن. ولكن شيئاً ما منعه. شيء حقيقي وليس وهمًا كما رأى في ذات نفسه. فبينما هو يوشك أن يتخذ مكانه في المركبة، إذا به يرمي بالتذكرة فجأة، ويغادر المركبة مضطرب النفس مشغول الفكر. لقد وجد نفسه مستغرقاً في مهمة تذكر الآن أنه انشغل بها بين الحين والآخر في الساعات القليلة السابقة، وكانت مهمة التلفت حوله باحثاً عن شيء لا يدري ما هو. لقد نسى تلك المهمة حيناً، نصف ساعة أو نحو ذلك، ثم إذ هو يعاود فجأة ذلك البحث المشوب بالقلق.

إلا أنه ما كاد يحس بهذه الظاهرة العجيبة حتى وجد ذكرى أخرى تطفو على ذهنه وتثير أشد اهتمامه برهة. لقد تذكر أنه في آخر مرة انشغل فيها بالبحث حوله عن ذلك الشيء المجهول، كان واقفاً أمام متجر أدوات قاطعة، وكانت واجهة المتجر تعرض نماذج من سلعه، وأنه الآن أشد ما يكون لهفة ليعرف هل كان لهذا المتجر وما فيه من سلع وجود حقيقي أم أن الأمر كله كان وهمًا.

إنه يحس اليوم في قرارة نفسه بحالة جد غريبة.. حالة مماثلة لتلك التي كانت تسبق نوبات الصرع في السنوات الماضية.

لقد تذكر أنه في تلك الأوقات كان يعاني من شرود الذهن بصفة خاصة، وكان لا يستطيع التفرقة بين الأشياء والأشخاص ما لم يركز انتباهه إليهم.

وتذكر أنه رأى في واجهة ذلك المتجر سلعة معروضة ثمنها ستون كوبكا؛ ومن ثم فإذا كان المتجر موجودًا حقًا، وإذا كانت تلك السلعة معروضة حقًا في واجهته، فمن الممكن أن يثبت هذا أنه قادر على تركيز انتباهه على تلك السلعة في نفس الوقت الذي كان شرود ذهنه - بصفة عامة - قد بلغ الحد الذي يجعله عاجزًا عن مثل هذا التركيز. وهذا يعني، بالتالي، أن تلك السلعة قد أثرت فيه بحيث جذبت انتباهه رغم حالة الارتباك الشديد التي انتابته عقب انصرافه من محطة السكة الحديدية فورًا.

وهكذا عاد أدراجه لبحث عن ذلك المتجر وقلبه يخفق في لهفة عارمة. آه، ها هو ذا المتجر بعينه، وها هي ذي السلعة وعليها الثمن «٦٠ كوبكا». وقال لنفسه: «طبعًا إن الثمن ستون كوبكا، فهي حقًا لا تساوي أكثر من هذا». وسره هذا التفكير، فضحك.

إلا أنها كانت ضحكة عصبية؛ لأنه كان يشعر بأشد حالات الانقباض. فقد تذكر بوضوح أنه هنا، أمام هذه الواجهة بالذات، كان واقفًا في صباح اليوم بعد هبوطه من القطار، عندما استدار فجأة ليرى عيني روججين الرهيبتين مركبتين عليه. ولما اقتنع من ثم بأنه لم يكن واهمًا في هذا الشأن بأية حال من الأحوال، انصرف عن المتجر، ومضى في سبيله.

ورأى أنه ينبغي أن يمعن التفكير في هذا الأمر. فقد وضح له أيضًا أنه لم يكن ثمة اهتمامات ذهنية عند انصرافه من المحطة عندئذ. أي أن شيئًا ما، في الواقع، قد حدث له في كلتا المناسبتين وليس ثمة شك في هذا. ولكن الإحساس بالاشمئزاز من كل إجهاد فكري عاد واستبد به. ومن ثم فلن

يفكر في هذا الآن، لسوف يرجئه ويفكر في شيء آخر. لقد تذكر أنه في أثناء نوبات الصرع أو على الأصح قبلها مباشرة، كان دائماً يشعر، لمدة لحظة أو لحظتين، أن كل قلبه، وكل عقله، وكل جسمه، قد استيقظ للحياة والنور، فإذا به ممتلئ النفس بالبهجة والأمل، وإذا بجميع هواجسه تبدو كأنما زالت تماماً وإلى الأبد. كانت تلك اللحظات مجرد تمهيد في الواقع للحظة الأخيرة «التي لم تكن تزيد على ثانية» والتي تفاجئه فيها النوبة. وكان عندما يفيق منها ويفكر في أعراضها يقول لنفسه عادة «إن هذه اللحظات - رغم قصرها - التي يبلغ فيها شعوري بذاتي ذروته، والتي من ثم يزداد إحساسي فيها بالحياة عن أي وقت آخر، ترجع فقط إلى المرض - إلى التمزق المفاجئ للحالات العادية. ولهذا فهي ليست في الواقع نوعاً رفيعاً من الحياة، وإنما نوعاً هابطاً» ويبدو أن هذا التفكير كان ينتهي إلى تناقض يؤدي به إلى مزيد من التأمل «وماذا يهم لو أن الأمر مجرد مرض فقط، مجرد مؤثر غير عادي في الذهن - ما دامت هذه اللحظة، حين أتذكرها وأحللها، تبدو لوناً من التناقض والجمال في أعلى درجة.. إنها لحظة من الإحساس العميق المغمور بفيض من البهجة العارمة، والنشوة، والهناء الخالصة والإحساس الكامل بالحياة» ورغم ما قد يبدو في هذا من غموض وإبهام، فقد كان شديد الوضوح في ذهن ميشكين وإن كان يعرف أنه مجرد تعبير بسيط عن إحساسه.

إنه لا يستطيع أبداً أن يشك، أو يفكر في مجرد احتمال الشك، بأن هناك تناسقاً وجمالاً في هذه اللحظات غير العادية، وأنها مفعمة بأعلى درجات البهاء في الحياة. فهو يشعر أنها لم تكن مشابهة لتلك الرؤى من الأوهام والأحلام الناشئة عن خدر الحواس بالمخدرات والخمر. كان في مقدوره أن يتبين هذا بعد أن تنتهي النوبة. فقد كانت لتلك اللحظات خصائصها التي يمكن تحديدها بهذه العبارة - وهي السرعة البالغة في الشعور بالشخصية

الذاتية، وما دام في مقدوره في اللحظة الأخيرة من التنبه التي تسبق النبوة أن يقول لنفسه وهو شديد الفهم لما يقول، هذه الكلمات «لسوف أكرس كل حياتي لهذه اللحظة» فلا شك عندئذ في أن تصبح هذه اللحظة بالنسبة له عمرًا كاملاً. أما فيما عدا هذا، فإنه يرى أن الجانب الجدلي في الموضوع غير ذي قيمة كبيرة. إنه يرى فقط، وبوضوح شديد، أن هذه اللحظات الهائلة تنتهي بالإغماء، والغباء. وبالانطفاء الذهني. وليس ثمة مجال للجدل في هذه الناحية. ولا شك أن استقراءه أو تقديره «لذلك اللحظة» ينطوي على بعض الخطأ، ومع ذلك فإن واقعية إحساسه بها تثير في نفسه الاضطراب. وأي شيء أمنع على الإجابة من الحقيقة؟ وقد حدثت الحقيقة! لقد اعترف الأمير بلا تحفظ لنفسه أن إحساسه هذا بذلك الجمال المركز في تلك اللحظة الحافلة جعلها تساوي عمرًا كاملاً. وقد قال ذات يوم لزوجين في موسكو: «إنني أشعر عندئذ كأنني فهمت هذه الكلمات الرائعة: الوقت يومئذ بلا نهاية» وقد أضاف إلى هذا قوله وهو يبتسم: «لا شك أن بعض الذين رأوا ملكوت السماء قد عاشوا هذه اللحظة عندما قالوا إنهم طافوا بذلك الملكوت في وقت أقل مما يستغرقه شرب كوب ماء» نعم. إنه كثيرًا ما التقى بزوجين في موسكو، وإنها لموضوعات كثيرة ناقشوها معًا. وقال الأمير لنفسه: «لقد قال لي إنني أصبحت أخًا له، قال لي هذا اليوم لأول مرة».

وكان الأمير جالسًا في حديقة صيفية على مقعد تحت شجرة، وكان تفكيره مركزًا في هذا الموضوع. وكانت الساعة في نحو السابعة مساءً، والحديقة خالية. ودل الجو الساكن الخافق على اقتراب عاصفة وشعر الأمير بنوع من المتعة في هذه الحالة التأملية التي استغرقته. وقد وجد المتعة أيضًا في النظر إلى الأشياء الخارجية المحيطة به. وكان يحاول طيلة الوقت أن ينسى شيئًا وأن يهرب من فكرة ما كانت تضيق عليه الخناق. ولكن الأفكار

الحزينة ارتدت إليه، رغم أنه كان يتمنى الهرب منها. وتذكر فجأة كيف كان يتحدث مع النادل- في أثناء تناوله طعام الغداء- عن جريمة قتل وقعت حديثاً وكانت موضع أحاديث أهل المدينة جميعاً. وفيما هو يفكر فيها حدث له شيء عجيب، لقد استبدت به رغبة عارمة بلغت حد الغواية وعبثاً حاول مقاومتها.

ووثب واقفًا، ومضى سائرًا بأسرع ما يستطيع في اتجاه «ضاحية بطرسبرج»- وكان قبل ذلك بقليل قد سأل أحد المارة ليرشده عن مكان ضاحية بطرسبرج من ضفة نهر نيفا- إنه على كل حال لم يكن قد سبق له الذهاب إلى هناك. وكان يعرف تمامًا أنه لا جدوى من الذهاب الآن، إذ كان متأكدًا بأنه لن يجد قرية لبيديف في البيت. وكان العنوان معه، ولكنه كان يعتقد أنها ولا شك ذهبت إلى بافلوفسك، وإلا لأخبره كولييا بالأمر. وإذا كان عليه أن يذهب الآن، فإنما سيكون هذا بدافع الفضول فقط. ولكن فكرة طارئة خطرت بذهنه على حين غرة.

وأيًا ما كان الأمر، فقد وجد في هذا شيئًا يجعله يستمر في السير وهو يعرف أين يمضي، وبعد لحظة كان مستمرًا في مسيره، ولكن دون أن يعرف شيئًا. إنه لم يعد قادرًا على الاستمرار في إبراز فكرته الجديدة. وحاول أن يثير اهتمامه في كل ما يرى؛ في السماء، وفي نهر النيفا. وتحدث إلى بعض أطفال التقى بهم. وأحس أن نوبة الصرع تزداد اقترابًا بين لحظة وأخرى. وكان المساء قد أمسى جد قريب، وهدير الرعد يُسمع من بعيد.

وكان الأمير طيلة اليوم عاجزًا عن التخلص من شبح وجه ابن أخت لبيديف الذي رآه لأول مرة في ذلك الصباح، تمامًا كما يعجز الإنسان عن التخلص أحيانًا من بعض النغمات الملحة السخيفة. ومن العجيب أنه ظل

يفكر فيه على أنه القاتل الذي تحدث لبيديف عنه، وهو يقدم الشاب إليه. نعم؛ لقد قرأ شيئاً عن تلك الجريمة، ومنذ عهد قريب. ومنذ جاء إلى روسيا سمع الشيء الكثير عن مثل هذه الحالات، وشعر بالاهتمام بها. وقد تصادف أن كان حديثه مع نادل المطعم - منذ ساعة - عن جريمة آل زيمارين هذه، واتفق رأي النادل معه بشأنها، وفكر مرة أخرى في هذا الأخير، وقرر أنه ليس غيباً مافوناً. وإنما رجل ذكي متزن، وإن كان - كما قال لنفسه: «الله وحده يعلم حقيقة أمره. فإن من العسير على الإنسان في بلد لم يعيش فيه طويلاً أن يعرف حقيقة الناس الذين يلتقي بهم». ولكنه، على أية حال، بدأ يشعر بإيمان عميق بالروح الروسية. وإن ما تبينه في خلال الشهور الستة الأخيرة كان شيئاً لم يتوقعه. ولكن الروح، أية روح، هي سر غامض؛ وإن الروح الروسية لأشدّها غموضاً. فمثلاً كان وثيق الصلة بروجوجين، وقد نشأت بينهما صداقة وطيدة، ومع ذلك فهل هو حقاً يعرفه! ما أكثر ما يمتلئ به العالم أحياناً من خبث وجحود! وما أشد الرضا عن النفس الذي يحسه ذلك الوغد ابن أخت لبيديف! واستطرد الأمير يقول لنفسه: «ما هذا التفكير؟ هل استطاع حقاً أن يرتكب تلك الجريمة؟ هل قتل أولئك الأشخاص الستة؟ يبدو أنني أخلط بين الأشياء. فما أغرب هذا كله؟ إن رأسي يدور - وابنة لبيديف؟ لشد ما كان وجهها لطيفاً جذاباً، وهي تحمل الطفلة بين ذراعيها! ويا لنظراتها البريئة وضحكات الشبيهة بضحكات الأطفال! إنه لأمر عجيب أن أنساها حتى الآن! أظن أن لبيديف يهيم بها. وإذا اعتقد حقاً أنه يحب ابن أخته أيضاً وبفسس اليقين الذي نعرف به أن اثنين واثنين يساويان أربعة».

حسناً! فلماذا هو يتسرع هكذا في الحكم عليهم! أيستطيع حقاً أن يعرف حقيقة أمرهم بعد زيارة واحدة قصيرة! حتى لبيديف قد بدا اليوم لغزاً. فهل

كان يتوقع أن يراه هكذا؟ إنه لم يره على هذا النحو أبداً من قبل؟ لبيديف والكونتييسة دي باري! يا للسماء! إذا كان على روجوجين أن يقتل شخصاً ما، فإن جريمته لن تكون على أية حال عملاً طائشاً رهيباً! سكين صُنعت على طراز خاص، وستة أشخاص يُقتلون بطريقة محمومة! ولكن هل لدى روجوجين أيضاً سكين ذات طراز خاص؟ أيمكن أن يكون روجوجين راغباً في قتل شخص ما! وبدأ الأمير يرتعد بعنف. «إن من الإجرام أن أفكر في أمر دنيء كهذا وبمثل هذه الصراحة الشريرة» واحمر وجهه خجلاً لهذه الفكرة. ثم إذا بذكري ما حدث في ذلك الصباح بمحطة بافلوفسك وبالمحطة الأخرى، تلتصع في ذهنه كالوميض. والسؤال الذي ألقاه على روجوجين بشأن «العنين»، وصليب روجوجين الذي يتقلده الآن! والبركة التي نالها من أم روجوجين، وعناقه له على مهبط السلم المظلم، وذلك الوفاق الرائع الأخير... ثم ها هو ذا أخيراً مستغرقاً في فكرته الجديدة، محملاً في واجهات المتاجر، مستطلعاً الأشياء حوله.. فما أسفله!

واستبد اليأس بروحه. إنه لن يستمر في السير قدماً، بل إنه سيقفل عائداً إلى الفندق. واستدار وبدأ السير في الطريق المضاد. ولكنه بعد لحظة، غير فكره، واستأنف السير في طريقه السابق.

عجباً! ها هو ذا قد وصل فعلاً إلى ضاحية بطرسبرج، وأمسى جد قريب من المنزل، فأين ذهبت «فكرته»؟ إنه يسير قدماً بدونها الآن، نعم، إن مرضه في طريق العودة إليه، فهذا واضح تماماً. فإن كل هذا الاكتئاب، وكل هذا الإحساس بالضيق، وكل هذه «الأفكار» ليست أكثر أو أقل من نوبة مقبلة. ولعلها قد تحدث في هذا اليوم نفسه.

ولكن حدث الآن أن انقشعت فجأة عن نفسه غيوم الكآبة والظلام،

وأحس بقلبه يمتلئ بالبهجة والأمل، ولم يعد فيه شيء من الشك. إنه حقًا لم يرها منذ فترة طويلة، ومن ثم ينبغي أن يراها الآن. وتمنى لو أنه استطاع الالتقاء بروجوجين، إنه عندئذ ليأخذ يده ويذهبان معًا إليها. لقد أصبح قلبه نقيًا، ولم يعد يشعر أنه غريم لروجوجين؛ لسوف يذهب إليه في الصباح ويقول له إنه رآها، عجبًا! إنه لم يقطع كل هذه المسافة من موسكو إلا لرؤيتها فقط! ومن يدري، فلعلها لم تزل موجودة هنا. ومن المحتمل أنها لم ترحل بعد إلى بافلوفسك.

نعم! يجب أن يعالج الأمر كله بصراحة ووضوح، ولا ينبغي أن يكون هناك المزيد من تلك التنازلات المحزنة العاطفية، كالتى يقوم بها روجوجين. وإنما ينبغي أن يكون الأمر في وضوح ضوء النهار. ألا يمكن لنفس روجوجين أن تحتمل الضوء؟ لقد قال إنه لم يحبها بدافع من العطف والإشفاق. وأنه حقًا أضاف إلى هذا قوله: «إن عطفك عليها أقوى من حبي». ولكنه لم يكن منصفًا لنفسه تمامًا في هذا الشأن. ها! وماذا عن قراءة روجوجين لكتاب ما! ألا يدل هذا على بدء التعاطف! ألا يبين هذا أنه فهم كيف ينبغي أن تكون علاقته بها! ثم حديثه عن قضاء الأيام والليالي في انتظار صفحتها وعفوها. إن هذا يدل على أن الأمر لا يقتصر على عاطفة الحب وحدها.

ووجهها! ألا يمكن أن يوحى بشيء غير عاطفة الحب! وهل في مقدور وجهي أن يوحى بأية عاطفة من الحب الآن! أوه! إنه يوحى بالعذاب والحزن، حزن الروح العارم. وإن الأمير ليشعر بالذكرى الأليمة تدمي قلبه.

نعم أليمة. لقد تذكر كيف تعذب في ذلك اليوم عندما ظن أنه يرى أعراض الجنون تبدو عليها. لقد كاد عندئذ أن يقع صريع اليأس. وكيف أمكنه يدعها تفر منه بعد أن لجأت إليه هاربة من روجوجين؟ كان ينبغي أن

يمضي وراءها بنفسه بدلاً من انتظار الأخبار عنها، كما فعل. وهل يمكن أن يكون روجوجين قد فاتته حتى الآن أن يلاحظ أنها مجنونة؟ إن روجوجين يرجع غرابة أطوارها إلى أسباب أخرى.. إلى أهوائها وعواطفها! فيا لها من غيرة مخبولة؟ ترى ما الذي ألمح إليه في اقتراحه ذاك؟ واضطرم وجه الأمير فجأة، وإن الرعدة لتسري في جسمه حتى قلبه.

ولكن لماذا هذا كله؟ إن هناك جنوناً من الجانبين. فمن جانبه هو «الأمير» يعتبر حبه لهذه المرأة حباً عاصفاً وأمرًا غير معقول. إنه أقرب أن يكون حباً قاسياً خالياً من الإنسانية. وأما من جانب روجوجين، فهو ليس منصفاً لنفسه، فإن له قلباً كبيراً، وإن لديه القابلية للعطف والإشفاق. فهو حين يعرف الحقيقة ويدرك حقيقة أمر هذه المخلوقة البائسة الجريحة النفس الكسيرة الجناح، نصف المجنونة، فإنه سيغفر لها كل ما لقيه على يديها من عذاب. لسوف يغدو أسيرها، وأخاها، وصديقها. إن الحنان يمكن أن يروض حتى نفسية روجوجين، ويمكن أن يعلمه كيف يحسن التفكير. إن الحنان هو القانون الأساسي للوجود البشري. أوه، لشد ما يحس بالخطأ في حق روجوجين «أخاً» له. بينما هو - ولكن لا، لقد كان هذا هذياناً، لسوف ينتهي الأمر كما ينبغي! وإن ذلك المكتتب بارفين روجوجين قد لمح بأن إيمانه يضعف، وهذا يعني أنه يعاني ولا شك الشيء الكثير. لقد قال إنه يحب النظر إلى تلك الصورة. ولا يعني هذا أنه يحبها، وإنما كان يشعر بالحاجة إلى النظر إليها. وليس روجوجين بالرجل الحاد العواطف فقط، وإنما هو مكافح عنيد. إنه يكافح لاسترداد إيمانه المنهار. إن عليه أن يلتمس شيئاً يعتمد عليه ويؤمن به، وشخصاً يثق فيه. فما أعجب صورة هولبين هذه؟ عجباً! هذا هو الشارع، وهذا هو المنزل، رقم ١٦.

ودق الأمير الجرس، وسأل عن ناستاسيا فيليبوفنا. وأقبلت ربة البيت وقالت إن ناستاسيا فيليبوفنا قد ذهبت للإقامة مع داريا ألكسينا في بافلوفسك، وأنها قد تمكث هناك بضعة أيام.

وكانت مدام فيليزوف ، ربة البيت، سيدة صغيرة الجسم، في نحو الأربعين من عمرها، ماكرة الوجه؛ ذات عينين فاحصتين خادعتين. ولما سألته بطريقة غامضة عن اسمه، رفض أن يجيب في أول الأمر، ثم غير بعد لحظة رأيه، وأصدر تعليمات مشددة بأن تذكر اسمه لناستاسيا فيليبوفنا. وبدأ أن حاسته في هذا الطلب تركت تأثيرها في نفس مدام فيليزوف، فعبرت بوجهها عن الفهم التام كأنما تقول له «لا حاجة بك إلى الخوف، فإني فاهمة تمامًا». ويلوح أن اسم الأمير كان مفاجأة لها، هذا بينما وقف هو ينظر إليها شارد الفكر لحظة، ثم استدار وعاد في الطريق إلى الفندق. ولكنه كان في طريق الإياب غيره في طريق الذهاب. لقد طرأ عليه فجأة تغيير كبير. ومضى في طريقه قدمًا على غير هدى. وأحس بركبتيه ترتعشان أسفل منه، وأخذت الأفكار «تعذبه» وصبغت الزرقة شفتيه وهما ترتعدان بابتسامة واهنة لا معنى لها. إن لعنة النوبة تهاجمه مرة أخرى.

ماذا جرى له؟ لماذا يتفصد جبينه بقطرات العرق؟ إن ركبتيه ترتعشان تحته، وإن روحه لتنوء بثقل هذا الشعور المقبض البارد! أكان هذا لأنه رأى عندئذ هاتين العينين الرهيبتين مرة أخرى؟ عجبًا! لقد غادر الحديقة الصينية قاصدًا رؤيتهما. فقد كانت تلك هي «فكرته». لقد أراد أن يؤكد لنفسه أنه سيراهما مرة أخرى في ذلك المنزل. إذن فلماذا ركبه الارتباك الآن بعد أن رآهما كما توقع؟ لكنهما كان لا يتوقع رؤيتهما؟ أجل! إنها نفس العينين، لا شك في هذا. إنهما نفس العينين اللتين رآهما في زحام المحطة صباحًا،

نفس العينين اللتين فاجأهما ينظران إليه في مسكن روجوجين قبل ذلك بساعات، عندما أجاب هذا ساخرًا عن سؤاله «حسنًا، ومن كان صاحب هاتين العينين؟» ثم ظهرتا للمرة الثالثة وهو يستقل القطار في طريقه لرؤية أجلايا. لقد أحس برغبة مستبدة للاندفاع إلى روجوجين ليكرر عليه سؤال الصباح: «من صاحب هاتين العينين؟» وبدلاً من هذا، فر من المحطة، ولم يعد يدري شيئاً أكثر من هذا، حتى وجد نفسه يحملق في واجهة متجر الأدوات القاطعة، ويتساءل هل تساوي السكين ذات المقبض المصنوع من قرن الوعل أكثر من ستين كوبكا؟ وفيما كان الأمير جالساً يحلم في الحديقة الصينية تحت شجرة زيزفون، أقبل إليه شيطانه الخبيث وهمس في أذنه «إن روجوجين يتجسس عليك ويراقبك منذ الصباح وهو في حالة يأس قاتل، فإذا وجد أنك لم تذهب إلى بافلوفسك وسيكون هذا بلا شك اكتشافاً رهيباً له- فسوف يمضي فوراً، وبالتأكيد، إلى منزل ضاحية بطرسبرج ليراقبك هناك، وذلك رغم أنك وعدت بشرفك في هذا الصباح أن لا تراها، وأقسمت أنك لم تأت إلى بطرسبرج لهذا الغرض». ومن هنا أسرع الأمير في طريقه إلى ذلك المنزل؛ ثم ماذا لو أنه التقى بروجوجين هناك فعلاً؟ إنه لم ير غير ذلك الرجل البائس الذي كانت تنم حالته الفكرية عن البؤس والاكتئاب، ولكن لم يكن من الصعب فهمها. لقد حاول روجوجين في الصباح، كما بدا له، أن يتجنب طريقه، أما في المحطة بعد الظهر فقد كان ظاهراً، بل إنه في الواقع كان أقل محاولة لإخفاء نفسه من الأمير نفسه. والآن، عند المنزل، كان واقفاً على بعد خمسين ياردة، عند الجانب الآخر من الطريق، عائداً ويدها على صدره، مراقباً، راغباً بوضوح في أن يكون مرئياً، لقد وقف هناك كموجه الاتهام.. كالقاضي.. وليس مثل، مثل ماذا..؟

ولكن لماذا لم يقترب الأمير منه ليتحدث إليه؟ لا بد من أن يستدير

ويمضي متظاهراً بأنه لم ير شيئاً رغم التقاء نظراتهما! «نعم، فقد تلاقت عيونهما ونظر كل منهما إلى الآخر». عجباً، لقد رغب بنفسه أن يأخذ يد روجوين وأن يمضي معه إليها، بل إنه بنفسه قرر أن يذهب إليه في الصباح التالي وأن يخبره بأنه ذهب لرؤيتها! لقد نفّض عنه شيطانه وهو في طريقه إلى المنزل، وامتلاً قلبه بالبهجة والسرور.

هل كان في هيئة روجوين العامة، اليوم، ما يبرر فزع الأمير، ويشير شكوك شيطانه الرهيبة؟ إن شيئاً ما رآه، ولا يستطيع أن يصنعه. هو الذي ملأه بهذه الهواجس؟ أجل... إنه مقتنع تماماً بهذا.. مقتنع بماذا. أوه، ما أحقره وأدناؤه إذ يشعر بهذا الاقتناع، وبهذه الهواجس؟ ولشد ما يلوم نفسه عليها، ثم أخذ يكرر القول لنفسه: «تحدث إذا استطعت وأخبرني، ما هي هذه الهواجس؟ صغها في كلمات، تحدث عنها بوضوح وجلاء. أوه، يا لي من جبان تعس!» واضطرم وجه الأمير خجلاً من ذنائه. وعاد يقول لنفسه: «كيف يمكن أن أواجه ذلك الرجل مرة أخرى؟ يا إلهي؟ يا له من يوم، ويا له من كابوس... يا له من كابوس».

لقد جاءت لحظة على الأمير في أثناء سيره الطويل المؤلم من ضاحية بطرسبرج، أحس فيها برغبة قوية مستبدة لكي يذهب مباشرة إلى منزل روجوين، ويتنظره هناك، ويعانقه بدموع الندم والتوبة، ويصارحه بشكوكه، وينهي الأمر معه بطريقة حاسمة.

ولكن ها هو ذا قد عاد إلى الفندق.

كم من مرة في أثناء اليوم فكر في هذا الفندق بتقزز واشمئزاز- في دهليزه، وغرفته وسلالمه. لشد ما كان يفرغ من فكرة العودة إليه. لبعض الأسباب.

وكان في كل مرة يقول لنفسه في استياء: «أية امرأة عجوز حمقاء أنا اليوم؟ إنني اليوم أؤمن بكل نذير شؤم يخطر ببالي».

وتوقف لحظة أمام الباب، وشعر فجأة بفيض من العار يغرقه، ثم قال لنفسه وهو يتحرك إلى الأمام: «إنني جبان، جبان تعس!» ثم أمسك عن المسير مرة أخرى.

إن من جميع أحداث يومه، برز حدث معين بينها، فرغم أنه الآن قد استرد ثقته بنفسه، ولم يعد خاضعاً لتأثير ذلك الكابوس؛ فقد أصبح قادراً على التفكير في هذا الحدث بهدوء: وكان الأمر يتعلق بالسكين الموضوعة على مائدة روجوجين «لماذا لا يكون لروجوجين الحق في وضع ما يشاء من سكاكين على مائدته؟» هكذا فكر الأمير لنفسه وهو يعجب لشكوكه، كما فعل حين رأى نفسه ينظر إلى واجهة متجر الأدوات القاطعة وعاد يقول لنفسه: «ولكن أية علاقة يمكن أن يكون لهذا كله بي؟» ثم توقف كأنما تسمر في مكانه بنوع من شلل الأطراف الذي يهاجم أناساً يعانون من ذكريات مهينة.

وكان المدخل، في المعتاد مظلماً كثيفاً، ولكنه كان في تلك اللحظة ضعف هذه الحالة لسبب بسيط، وهو انطلاق العاصفة الراعدة، وانهمار الأمطار كالسيول.

وتبين الأمير في تلك الظلمة رجلاً واقفاً بالقرب من السلم، يبدو في حالة انتظار.

ولم تكن ثمة دلالة معينة في وقوف رجل بمدخل السلم يتأهب للخروج أو للصعود، ولكن الأمير أحس بيقين لا يقاوم بأنه عرف هذا الرجل، وبأنه

روجوجين. وتحرك الرجل صاعداً السلم. وبعد لحظة تجاوز الأمير مدخل السلم أيضاً. ثم تجمد قلبه في جوفه وهو يقول لنفسه: «في لحظة أو لحظتين سوف أعرف كل شيء».

وكان السلم يؤدي إلى دهليزي الطابقين الأول والثاني للفندق، حيث تقع غرفات نوم النزلاء. وكما هو الشأن في بيوت مدينة بطرسبرج، كان الدهليز ضيقاً، مظلماً جداً، ويدور حول عمود حجري ضخمة.

وفي مهبط الطابق الأول الذي كان ضيقاً بقدر ما يسمح به دوران السلم، كان ثمة فجوة طولية في العمود الصخري يبلغ اتساعها نحو نصف ياردة. وأحس الأمير باليقين بأن في هذه الفجوة وقف رجل مختبئ. أو خيل إليه أنه تبين وجود شخص واقف بها. وقرر أن يمضي بسرعة دون أن يلتفت. وسار خطوة إلى الأمام؛ ولكنه لم يقو على احتمال الشك أكثر مما فعل، فاستدار برأسه.

والتقت بعينيهِ العيانان، تلكما العيانان نفساهما! وكان الرجل المختبئ في الفجوة قد تقدم أيضاً خطوة إلى الأمام. ووقف الاثنان لحظة وجهاً لوجه. وفجأة أمسك الأمير بالرجل من كتفه ولواه في اتجاه الضوء؛ لكي يتمكن من رؤية وجهه بوضوح.

ومضت عينا روجوجين، والتوى وجهه بابتسامة مجنونة. وارتفعت يده اليمنى وقد التمع شيء فيها، ولم يفكر الأمير في محاولة مقاومته. وكل ما تذكره بعد ذلك هو أنه - كما بدا له - صاح به:

«بارفين... إنني لا أصدق هذا!!».

وفي اللحظة التالية، لاح أن شيئاً قد انفجر أمامه: إن نوراً خفياً رائعاً

قد أضاء روحه. وربما استمر هذا نصف ثانية. ومع ذلك فقد تذكر بوضوح
بداءة تلك الصيحة من العويل... صيحة ذلك العويل الغريب الرهيب الذي
ند عن شفثيه رغبًا عنه، وبدون أن يبذل أي جهد إرادي من جانبه ليقفه.
وفي اللحظة التالية كان مغشيًا عليه تمامًا، وقد غرق كل شيء بالنسبة
إليه في دياجير الظلام.

لقد انتابته نوبة صرع.

وكما هو معروف، فإن هذه النوبات تحدث على حين غرة، ويلتوي
الوجه - ولا سيما العينان - بشكل رهيب وتستبد الرعدة بالأطراف. وتنطلق
صيحة رهيبة من الصريع، وهي صيحة عويل يُخيل للمرء أنها قضت على
كل جانب إنساني، بحيث يستحيل الاعتقاد بأن الرجل الذي صُرع من فوره
هو نفسه الذي أرسل هذه الصيحة - بل يبدو على الأرجح كأن مخلوقًا آخر
داخل الرجل المصروع هو الذي أرسلها. إن كثيرًا من الناس قد شعروا بهذا
الأثر، وإن كثيرًا لا يستطيعون احتمال منظر نوبة صرع دون أن يشعروا بنوع
من الفزع والرعب الخفي.

مثل هذا الشعور - كما ينبغي أن نفترض - قد استبد بروجوجين في
تلك اللحظة، وأنقذ حياة الأمير. ولكونه لا يعرف أنها نوبة صرع، ولرؤيته
الضحية يغيب بكل كيانه في عالم الظلمات، وسماعه لرأس الأمير وهو
تصطدم بدرجات السلم الصخرية أسفل اصطدامًا مدويًا، اندفع روجوجين
هابطًا السلم، متجنبًا جسم الأمير، ملقيًا بنفسه رأسًا خارج الفندق كرجل
مجنون نائر.

وظل جسم الأمير ينحدر، مرتعدًا، على درجات السلم حتى استقر في المهبط الأخير. وسرعان ما اكتشف أمره، بعد خمس دقائق أو نحو ذلك، وإذا بجمع من الناس يتزاحمون حوله.

وأثارت بركة صغيرة من الدماء على السلم بجانب رأسه، مخاوف خطيرة في النفوس.. ترى هل الأمر حدث عارض أم جريمة؟ ولكن سرعان ما تبين أنها حالة صرع. ولم تلبث عملية التعرف على الأمير، وإجراءات إسعافه أن أعقبت الواحدة الأخرى بسبب ظروف طيبة. ذلك أن كوليا كان قد عاد إلى الفندق في نحو الساعة مساءً، بناء على إحساس خفي مفاجئ جعله يرفض تناول العشاء عند آل إيبانشين. حتى إذا وجد رسالة من الأمير في انتظاره، أسرع ذاهبًا إلى محل إقامة الأخير. ولما وصل إلى الفندق، طلب قدحًا من الشاي وجلس يشربه في غرفة القهوة. وقد سمع أثناء وجوده همسات تنم عن الانفعال بشأن وجود شخص ما عند مهبط السلم في حالة صرع. ومن ثم هرع إلى هناك وقد توقع شرًا، ثم سرعان ما تعرف على الأمير. وحمل المريض فورًا إلى غرفته، ورغم أنه استرد صوابه جزئيًا، فقد ظل راقدًا مدة طويلة في شبه ذهول.

وقرر الطبيب أنه لا خطر يخشى منه بسبب جرح رأسه، وبمجرد أن أصبح الأمير قادرًا على إدراك ما حوله، استأجر كوليا مركبة وحمله فيها إلى بيت لبيديف حيث استقبل بترحاب، وحيث تمت الاستعدادات للرحيل إلى الريف في سرعة لهذا السبب. وبعد ثلاثة أيام، كانوا جميعًا في بافلوفسك.



الفصل السادس

لم يكن بيت لبيديف الريفي كبيرًا، ولكنه جميل ومناسب، لا سيما الجانب الذي أجره للأمير.

وكان ثمة صف من أشجار البرتقال والليمون والياسمين منزرعة في أصص خضراء، موضوعة في الشرفة المتوسطة الاتساع. وكانت هذه الأشجار، في رأي لبيديف، تضيف على البيت مظهرًا رائع البهجة، وكان بعضها موجودًا عندما اشتراه، وقد بلغ من افتنانه بها أن بادر إلى زيادة عددها. ولما وصلت الأصص المحتوية على هذه الأشجار إلى البيت وُصِفَتْ في أماكنها، ظل لبيديف يجري بين الحين والآخر إلى الشارع ليستمتع بمنظر البيت، وكان كلما فعل هذا قفزت إلى أعلى قيمة الإيجار التي سيطالب بها المستأجر المنتظر.

هذا البيت الريفي أبهج إلى حد كبير الأمير وهو في تلك الحالة من الإعياء البدني والذهني، وفي اليوم الذي رحلوا فيه إلى بافلوفسك، أي في اليوم التالي على نوبة الصرع، بدا ظاهريًا في حالة تكاد تكون طيبة، وإن كان في الواقع أبعد ما يكون منها. لقد تركت الوجوه المحيطة به في خلال

الأيام الثلاثة الأخيرة أثرًا طيبًا في نفسه. وشعر بالسعادة لأنه لم يكن يرى كوليا فقط، الذي أصبح رفيقه الدائم، وإنما لبيديف أيضًا وكل أفراد أسرته، فيما عدا ابن أخته الذي كان قد غادر البيت. وكذلك سعد بزيارة الجنرال إيفولجين له قبل مبارحته لبطرسبرج.

ورغم أنهم وصلوا إلى بافلوفسك في ساعة متأخرة، فقد أقبل الكثيرون لرؤية الأمير، وتجمعوا في الشرفة. وكان جانبا أول الحاضرين. وكان قد غدا شاحب اللون، نحيل الجسم، بحيث كاد الأمير أن ينكره. ثم أقبلت فاريا وزوجها بيتسين اللذان كانا يتريضان أيضًا في بافلوفسك، أما عن الجنرال إيفولجين، فإنه قلما كان يغيب عن بيت لبيديف، وقد بدا كأنه رحل معه إلى بافلوفسك وبذل لبيديف جهده ل يبقى الجنرال إيفولجين معه، حتى يمنع من الإغارة على مسكن الأمير. وكان يتحدث معه في ألفة بحيث يظن من يراهما أنهما صديقان قديمان. وقد لاحظ الأمير في خلال هذه الأيام الثلاثة أنهما كثيرًا ما يتبادلان الحديث مدة طويلة وكثيرًا ما سمع أصواتهما تعلقو في مناقشة موضوعات ثقافية عميقة. والواضح أنها كانت مبعث سرور للبيديف. وبدا أنه، أي لبيديف، لا يستطيع أن يفعل شيئًا بدون الجنرال. ولكن لم يكن الجنرال إيفولجين فقط هو الذي حرص لبيديف على إبعاده عن طريق الأمير، وإنما راح يعامل أسرته بنفس المعاملة منذ جاء إلى البيت. وقد حرص على أن يجعل الأمير يعيش في عزلة، بحجة أنه يريد الهدوء، وعبثًا حاول الأمير أن يحتج بدوره ضد هذا الإسراف في الحرص على راحته! لقد كان لبيديف يضرب الأرض بقدمه ليترد بناته بعيدًا كلما حاولن الانضمام إلى الأمير في الشرفة. وحتى فيرا، لم تكن مستثناة من هذا.

وقد قال أخيرًا وهو يجيب عن سؤال مباشر من الأمير في هذا الشأن:

- لسوف يفقدون كل احتراماتهم لك إذا تركتهم يعاملونك بحرية وبساطة. وعدا هذا فإنه غير لائق بهم.

فقال له الأمير:

- لماذا لا يليق بحق السماء؟ حقاً إنك تعرف أنك تجعل من نفسك سبباً لمتاعبي، وذلك بوضعك الحراسة عليّ هكذا. لقد أصبحت ملولاً بوحدتي. وقلت لك هذا المرة بعد الأخرى. ولكنك زدت أعصابي توتراً باستمرارك في التلويح بيديك، وتسللك في الدخول والخروج على هذا النحو الخفي.

وكانت الحقيقة أن لبيديف، رغم لهفته الشديدة ليمنع أيّاً كان من إزعاج الأمير، ظل مستمراً في الدخول إلى غرفة الأمير والخروج منها بنفسه. وقد بدأ هذا بفتح الباب قليلاً واستراق النظر ليرى هل الأمير موجود بها أم هرب؟ ثم زاد وراح يتسلل في حذر ليجلس في مقعد وثير، جاعلاً الأمير أحياناً يجفل من ظهوره المفاجئ. وكان دائماً يسأل ما إذا كان المريض يريد شيئاً. وعندما يجيب هذا بأنه لا يريد إلا أن يُترك في سلام، يستدير في خضوع ويمضي إلى الباب على أطراف أصابعه معرباً بالحركات والإيماءات أنه دخل فقط ليطمئن، وأنه لن يلفظ بكلمة، وأنه سينصرف دون أن يعود إلى التطفل مرة أخرى، ولكن هذا لم يكن يمنعه من العودة مرة أخرى في خلال عشر دقائق أو ربع ساعة. أما كوليا فقد كانت له حرية زيارة الأمير، وكان لبيديف شديد الاستنكار لهذه الحرية والاشمئزاز منها. وكان يسترق السمع نحو نصف ساعة في كل مرة ينفرد فيها الأمير بالحديث مع كوليا. وقد اكتشف كوليا هذه الحقيقة وأبلغها للأمير بطبيعة الحال.

وقال الأمير للبيديف:

- أظن نفسك سيّدًا لي بحيث تحاول أن تجعلني تحت رحمتك
هكذا؟ إنني أنوي في الريف، على الأقل، أن أكون حرًّا. ويمكنك أن تعد
نفسك لتعرف أنني أزمع أن أرى من أريد، وأن أذهب إلى حي أشاء.

وقال الكاتب وهو يلوح بيديه:

- نعم؛ طبعًا.

وقاسه الأمير بنظراته في حزم وقال:

- حسنًا يا لوكيان تيموفيوفيتش، هل أحضرت معك إلى هنا خزانة
الملابس الصغيرة التي كانت عند رأس سريرك؟

- لا. لقد تركتها حيث هي.

- مستحيل!

- لم يكن من الممكن تحريكها. إن عليك أن تهدم الجدار؛ لأنها شديدة
الالتصاق به.

- لعل لديك خزانة مثلها هنا؟

- لديّ واحدة أفضل منها، أفضل كثيرًا، وهي في الواقع السبب في أنني
اشتريت هذا البيت.

- آه، من هو الزائر الذي صرفته عن بابي منذ ساعة؟

- ال... الجنرال. إنني لم أكن أسمح له بالدخول. فليس ثمة ما يدعوه
إلى زيارتك أيها الأمير. إنني أحمل له أعمق التقدير. إنه.. إنه رجل عظيم.
إنك لا تصدق هذا؟ حسنًا، سوف ترى، ومع ذلك، فيحسن بك يا فخامة
الأمير ألا تستقبله.

- أيمكنني أن أسأل لماذا؟ وأن أسأل أيضًا لماذا تسير دائمًا على أطراف أصابعك وتبدو كأنك ستهمس في أذني بسر كلما اقتربت مني؟

فصاح ليبيديف وهو يضرب صدره في هيئة النادم:

- إنني حقير، حقير، وأنا أعرف هذا. ولكن أليس الجنرال كريمًا إلى درجة قد لا تحتملها؟

- كريم أكثر من اللازم!

- نعم، أولًا إنه يقترح أن يأتي للإقامة في بيتي، حسنًا، ولا بأس. ولكنه لا يتعفف عن شيء. إنه ليجعل نفسه فورًا أحد أفراد الأسرة. لقد تحدثنا في أمر علاقاتنا العائلية المحترمة كثيرًا، واكتشفنا أننا مرتبطان بالنسب، ويبدو أيضًا أنك قريب له من ناحية أمه. فإذا كنت قريبًا له، فلا بد أن أكون أنا أيضًا، بالتالي، قريبًا لك يا فخامة الأمير. ولا عليك من هذا، فإن هذا كله شائبة أو ضعف، ولكنه أكد لي أخيرًا فقط، أنه طوال حياته، من يوم التحاقه بالجيش حتى اليوم الحادي عشر من شهر يونيه الماضي، كان يستقبل على مائدته كل يوم ما لا يقل عن مائتي ضيف. وقد بلغ به الأمر أخيرًا إلى القول بأنهم لم يكونوا يغادرون المائدة، فكانوا يتناولون الغداء والعشاء والشاي مدة خمس عشرة ساعة متواصلة كل يوم، وقد استمر هذا الحال ثلاثين سنة بلا انقطاع. ولم يكن ثمة وقت يكاد يكفي لتغيير مفرش المائدة. فبمجرد أن ينصرف أحد الضيوف، يحل آخر محله، وقد بلغ عددهم في أحد هذه الأيام ثلاثمائة ضيف، وفي الاحتفال بمناسبة مرور ألف عام على قيام الإمبراطورية الروسية، كان عدد ضيوفه سبعمائة. وقد أصبح شديد الشغف بهذا النوع من الحديث. وإنه ليجعل المرء يشعر بالضيق وهو ينصت إليه. وإنه لأمر فظيع أن يستقبل الإنسان أشخاصًا يتحدثون على هذا النحو، أو يفعلون أشياء على

هذا النطاق. وهذا ما يجعلني أتساءل: أليس هو أكرم من أن تحتمله أنت أو أنا؟

- ولكن يبدو أنك على وفاق معه؟

- نعم، إننا متآخيان تمامًا. فأنا أعتبر أقواله فكاهة. ولكنك أنسباء، فإن هذا لا يضيرني، بل لعله أن يكون شرفاً لي. ولكن على الرغم من مائتي الضيف والاحتفال بالعيد الألفي للإمبراطورية الروسية، ففي مقدوري أن أرى أنه رجل ممتاز حقاً. وأنا جد مخلص فيما أقول. وقد قلت الآن إنني دائماً أبدو كما لو سأهمس لك بسر. وإنك على صواب. فإن لدي سرّاً أريد أن أفضي به إليك. فإن ثمة شخصية معينة عرفتنى بأنها تتوق إلى مقابلة سرية معك.

- ولماذا تكون المقابلة سرية؟ لا، إطلاقاً، لسوف أقوم بزيارتها غداً.

فصاح ليبيديف ملوحاً بيديه:

- أوه، لا لا. إنها إذا كانت خائفة، فليس للسبب الذي تظن. وبهذه المناسبة، أتعرف أن الوحش يأتي كل يوم ليسأل عن صحتك؟
- إنك تكثر من تسميته وحشاً بحيث أصبحت أشك في الأمر.

فقال ليبيديف:

- لا حاجة بك إلى الشك، أيّا كان ما يدعو إلى الشك. إنني أريد فقط أن تعرف أن الشخصية التي أحدثك عنها ليست خائفة منه، وإنما من شيء مختلف تمام الاختلاف.

فقال الأمير وقد ضاق صدرًا بإيماءات الآخر الخفية:

- إذن من أي شيء تخاف بحق السماء؟

فقال لبيديف باسمًا:

- آه، هذا هو السر.

- سر من؟

فغمغم لبيديف قائلاً:

- سرّك أنت. لقد حرمت عليّ بنفسك أن أذكره أمامك يا فخامة الأمير.

ثم أردف قائلاً حين اقتنع أنه وصل بفضول الأمير إلى الذروة:

- إنها خائفة من أجلايا إيفانوفنا.

وقطب الأمير جبينه برهة في صمت، ثم قال فجأة:

- ينبغي عليّ حقاً يا لبيديف أن أرحل عن بيتك. أين جانيا وأخته فاريا

وزوجها بيتسين؟ هل هم هنا، أم طردتهم أيضاً؟

فقال لبيديف فجأة بصوت خفيض وقد استبد به الخوف وهو يجري

من باب إلى باب ملوحاً بذراعيه:

- إنهم آتون.. إنهم آتون، والجنرال معهم. لسوف أفتح جميع الأبواب،

لسوف أستدعي جميع بناتي، جميعهن، في هذه اللحظة.

وكان كوليا في تلك اللحظة قد ظهر في الشرفة وأعلن أن المسز

إيبانشين وبناتها الثلاث مقبلات وراءه مباشرة.

وهرع لبيديف إلى الأمير منفِعلاً بهذا النبأ وقال:

- هل أستدعي فاريا وبيتسين، وجانيا؟ هل أسمح بدخول الجنرال

أيضاً؟

- فأجاب الأمير في بـشـر:

- لِمَ لا؟ دع كل من يريد أن يزورني يدخل، أوكد لك يا ليبيديف أنك لم تحسن فهم مركزي منذ اللحظة الأولى، إنك مخطئ على طول الخط، فليس هناك أدنى سبب يدعوني إلى إخفاء نفسي عن أحد.

ولما شاهد ليبيديف الأمير يضحك أيضًا. ورغم احتياج مشاعره، فقد كانت غبطته جد واضحة.

وكان كوليا صادقًا: فإن سيدات آل إيبانشين كن فقط على مسافة خطوات قليلة وراءه. وفيما هن يقتربن من الشرفة، ظهر زائرون آخرون من الجانب الآخر لمنزل ليبيديف، وكانوا: فاريا وزوجها، وجانيا، والجنرال إيفولجين.

وكان آل إيبانشين قد علموا أخيرًا بمرض الأمير وبوجوده في بافلوفسك من كوليا، وكانوا حتى ذلك الحين في حالة من الارتباك الشديد بشأنه. وكان الجنرال قد أحضر بطاقة الأمير من المدينة، وأحست المسز إيبانشين باليقين بأن الأمير سوف يأتي وراء بطاقته فورًا، واشتد بها الانفعال من ثم.

وعبثًا حاولت البنات أن يؤكدن لها أن رجلًا لم يكتب إليهن لمدة ستة أشهر، لن يكون شديد اللفتة إلى الإسراع لزيارتهم، وأن من المحتمل أن يكون لديه في المدينة من الأعمال ما يمنعه من الإسراع إلى بافلوفسك لزيارتهم. وكان الغضب يستبد بأمنهن لمجرد التفكير في أمر كهذا، وأعلنت عن يقينها التام بأنه سوف يأتي لزيارتهم في اليوم التالي على الأكثر.

وهكذا أصبحت زيارة الأمير متوقعة طيلة اليوم التالي؛ في الصباح. وفي الظهر، وفي موعد الشاي، وفي موعد العشاء، ولما جن الليل دون أن

يحضر، تشاحت المسز إيبانشين مع كل شخص في المنزل، وقد وجدت لإثارة المشاحنات أسبابًا كثيرة دون أن يأتي ذكر الأمير على لسانها.

وفي اليوم الثالث لم يأت ذكره على لسان أحد إطلاقًا حتى قالت أجلايا وهم على مائدة العشاء:

- إن أمي مغضبة لأن الأمير لم يأت.

وقد أجاب الجنرال على هذا بقوله: إن الذنب ليس ذنبه.

وأخطأت المسز إيبانشين فهم هذه العبارة، ومن ثم نهضت عن مقعدها وانصرفت عن الغرفة في غضب وترفع. ولكن كوليا، على أية حال، جاء في المساء يحمل أنباء مغامرات الأمير، بقدر ما عرف عنها، وأحست المسز إيبانشين بالزهو، رغم أن كوليا اضطر إلى سماع محاضرة طويلة، منها قولها عنه: «إنه يتسكع هنا طيلة اليوم، ولا يستطيع أحد التخلص منه، ثم عندما يريد أحد لا يأتي. قد كان في مقدوره أن يخبرنا بهذه الأنباء في رسالة إذا رأى أن الأمر لا يحتاج إلى تشریفنا بزيارته».

وأحس كوليا بالغضب عند سماعه هذه الكلمات «لا يستطيع أحد أن يتخلص منه» واستبدت به ثورة غضب شديد. ولكنه قرر أن يتمالك نفسه في ذلك الوقت، وأن يظهر استنكاره فيما بعد. وقد كان من الممكن أن يغفر لها هذه الكلمات لو لم تكن مؤلمة إلى هذا الحد؛ وذلك لأنه ابتهج أشد الابتهاج وهو يراها على هذه الحالة من القلق بسبب مرض الأمير.

وكادت أن تصر على تكليف جراح مشهور في بطرسبرج لرعاية الأمير فورًا، ولكن بناتها أقنعنها بالترث، رغم أنهن لم يكن راغبات في التخلف عندما استعدت هي في الحال للقيام بزيارة المريض. واقرحت أجلايا، على

كل حال، أنه ليس من حسن اللياقة أن يذهبن لزيارته جماعة.

وهنا قالت المسز إيبانشين:

- حسنًا جدًا إذن، يمكنك أن تبقي في البيت، وخيرًا تفعلين؛ لأن إيفيني بافلوفيتش سوف يأتي، ولن يكون هناك أحد في البيت لاستقباله.

وكان طبعيًا بعد هذا أن تذهب أجلايا معهن. ولم يكن لديها في الواقع أية نية أن تفعل غير هذا.

والتمس من الأمير س- الذي كان بالبيت، أن يصحبهن. وكان قد اهتم بالأمير كثيرًا عندما سمع عن الأمير لأول مرة من آل إيبانشين، وبدا أن كلاً منهما قد عرف الآخر من قبل، وأنهما أمضيا معًا بعض الوقت في مدينة إقليمية صغيرة منذ ثلاثة أشهر. وكان الأمير س- قد مال إليه كثيرًا، وابتهج للفرصة التي أتحت لكي يراه مرة أخرى، ولم يكن الجنرال قد عاد بعد من المدينة، وكذلك لم يصل إيفيني بافلوفيتش.

وكانت المسافة لا تزيد على مائتي أو ثلاثمائة ياردة من بيت آل إيبانشين إلى بيت ليبيديف. وكان أول أثر سيئ خامر نفس المسز إيبانشين أنها وجدت الأمير محاطًا بجمع آخر من الزائرين - لا سيما وقد كان بين هؤلاء أشخاص محتقرون في نظرها. وكان الأثر السيئ التالي عندما رأت شابًا تبدو عليه أمارات الصحة والقوة، باسم الثغر، أنيق الملابس يتقدم لاستقبالها في الشرفة، بدلًا من الشاب المحتضر البائس الذي كانت تتوقع أن تراه.

لقد دهشت واستاءت، وشعر كوليا بالسرور الشديد لاستيائها. وقد كان في مقدوره بطبيعة الحال أن يصارحها بالحقيقة قبل أن تبدأ الزيارة، ولكن الغلام الماكر كان حريصًا ألا يفعل هذا، متنبئًا بما سيبدو عليها من امتعاض

مضحك حين تجد صديقها العزيز - الأمير - في حالة صحية طيبة. ولم يتوان كوليا عن الإعراب عن شعور البهجة الذي خامره لنجاحه في تنغيص المسز إيبانشين التي كان يحب دائماً إثارتها رغم ما بينهما من علاقة طيبة. وقد قالت له وهي تهتم بالجلوس على المقعد الوثير الذي قدمه الأمير لها:

- انتظر برهة يا ولدي! لا تكن شديد الثقة من انتصارك.

وسارع لبيديف وبيتسين والجنرال إيفولجين لتقديم المقاعد إلى الأخوات الشابات، وحيتهن فاريا بابتهاج، وأخذت تتهامس معهن كالمعتاد بعبارات المودة.

وقالت المسز إيبانشين للأمير:

- ينبغي أن أعترف أيها الأمير، أنني فوجئت بعض الشيء حين رأيته هكذا، كنت أتوقع أن أراك طريح الفراش. ولكنني أقسم لك أن استيائي لم يستمر غير لحظة، استطعت بعدها أن أستجمع أفكاري كما ينبغي. إنني دائماً أكثر حكمة بعد أن أراجع أفكاري. ويمكنني القول إن هذا هو نفس الحال معك أيضاً. وأؤكد لك أنني سعيدة برؤيتك في حالة طيبة وكأنك ابني - نعم وأكثر. وإذا كنت لا تصدقني فسيكون هذا عاراً عليك، لا ذنباً أنا. ولكن هذا الغلام الخبيث البغيض يتهج بتدبير كل أنواع الأحابيل! ويبدو أنك راعيه، ولكنني أحذرك بأنني سأنفض يدي في ذات صباح جميل، من كل صلة به.

وصاح كوليا قائلاً:

- ولكن ماذا فعلت الآن؟ وما جدوى أن أقول لك إن الأمير قد استرد صحته تقريباً مرة أخرى؟ إنك ما كنت لتصدقين. وإنه لأمتع للخيال أن

تتصوريه وهو على فراش الموت.

وقالت المسز إيبانشين للأمير:

- كم ستبقى هنا أيها الأمير؟

- طوال فصل الصيف، وربما أطول.

- وأنت تعيش بمفردك، أليس كذلك، بلا زواج!

فقال الأمير باسمًا من سداجة هذا الاستفسار:

- لا. لم أتزوج.

- أوه، لا حاجة بك إلى الضحك، فإن مثل هذه الأمور تحدث عادة كما

تعلم، والآن، لماذا لم تأت إلينا؟ إن لدينا جناحًا خاليًا. ولكن، كما يحلو لك
طبعًا. هل استأجرت هذا المسكن منه، من هذا الشخص.. أعني..

وأومأت برأسها إلى ليبيديف وأردفت قائلة:

- ثم لماذا يتلوى هكذا دائمًا؟

وفي تلك اللحظة أقبلت فيرا، حاملة الطفلة كالمعتاد، من البيت إلى
الشرفة. وراح ليبيديف يتحرك متململاً بين المقاعد وكأنما لا يدري ماذا
يفعل بنفسه، وذلك رغم أنه لم يكن ينوي الانصراف. ولكن ما إن وقعت
نظراته على ابنته حتى اندفع في اتجاهها وهو يلوح بذراعيه ليعدها، بل لقد
نسى نفسه إلى حد أن راح يضرب الأرض بقدمه مما جعل المسز إيبانشين
تسأل فجأة:

- هل هو مجنون؟

- لا، إنه....

- لعله سكران!..!

ثم أضافت قائلة وهي تلقي نظرة على الزائرين الآخرين:

- إن زائريك شخصيات عجيبة! لكن ما أجمل هذه الفتاة؟ من تكون؟

- إنها ابنة لبيديف، فيرا لوكيانوفنا.

- أحقًا! إنها تبدو جذابة جدًا، وأحب أن أتعرف بها.

وما كادت تنطق بهذه الكلمات حتى كان لبيديف يجر ابنته ليقدمها وهو يقول بصوت محزون:

- أيتام، أيتام مساكين، وإن الطفلة التي تحملها يتيمة أيضًا، إنها أخت فيرا ابنتي لونوف. إن اليوم الذي ولدت فيه هذه الطفلة، منذ أسابيع ستة، ماتت فيه زوجتي بقضاء الله وقدره... نعم.. إن فيرا تحل الآن محل أمها، رغم أنها لا تزيد عن أخت لها، لا أكثر، لا أكثر.

فقالت السيدة في استنكار:

- وأنت، أنت لا شيء أكثر من أحمق مأفون إذا سمحت لي بهذا القول، حسنًا حسنًا! أنت نفسك أدرى بهذا كما أعتقد.

فانحنى لبيديف وقال في احترام شديد:

- هذه هي الحقيقة!

وسألته أجلايا قائلة:

- أوه، قيل لي يا مستر لبيديف إنك تحاضر عن سفر الرؤيا! أحقًا هذا؟

- نعم، هذا صحيح.. منذ خمسة عشر عامًا حتى اليوم.

- لقد سمعت عنك، وأعتقد أنني قرأت عنك في الصحف.

فقال ليبيديف في ابتهاج شديد:

- لا، إن الذي كتبت عنه الصحف محاضر آخر، وهو على كل حال قد مات وحللت أنا محله.

وقالت أجلايا:

- إننا جيران، ومن ثم فهل تتكرم وتأتي ذات يوم لتشرح لي سفر الرؤيا، فأنا لا أفهمه إطلاقاً.

وهنا تدخل الجنرال إيفولجين قائلاً، وقد كان قد اتخذ مقعداً بجوار الفتاة وأمسى شديد اللهفة إلى الحديث:

- اسمحي لي أن أحذرك. فهو أكبر دجال على وجه الأرض.
ثم استطرد قائلاً:

- لا شك أن للحياة الريفية مباهجها وألوان تسليتها الخاصة بها، وأن الإنصات إلى تلميذ مدع يزعم القدرة على تفسير كتاب الوحي أو سفر الرؤيا، قد يكون كأى لون من ألوان التسلية، وربما كان لوناً أصيلاً في ذاته. ولكن.. يلوح لي أنك تنظرين إليّ في شيء من الاندهاش - هل يمكن أن أقدم نفسي؟ الجنرال إيفولجين. لقد حملتك بين ذراعي وأنت طفلة.

فقالت أجلايا وهي تحاول جاهدة أن تمنع نفسها من الانفجار في الضحك:

- إنني سعيدة بلقائك يا سيدي، وإنني أعرف السيدة زوجتك وابتنتك.

واضطربت المسز إيبانشين، وتحفزت للنضال. فقد كان ثمة شيء في أعماقها يغلي ويفور ويحتاج إلى الانطلاق. ولم يكن في مقدورها أن تصبر على احتمال هذا الجنرال إيفولجين الذي عرفته ذات مرة، منذ أمد بعيد، في

الوسط الاجتماعي الراقي .

وأخيراً قالت وهي تغلي بالاستنكار :

- إنك تتجنب الصدق كالمعتاد يا سيدي . فأنت لم تحمل ابنتي أبداً بين يديك .

فقالت أجلايا فجأة :

- لقد نسيت يا أمه ، لقد حملني حقاً - في مدينة تفير كما تعلمين ، وكنت في السادسة من عمري كما أذكر . وقد صنع لي قوساً وسهماً ، وصدت بهما حمامة ، ألا تذكر كيف صدنا ، أنت وأنا ، حمامة ذات يوم ؟
وقالت أدليدا :

- نعم ، وقد صنع لي خوذة من ورق صناديق مقوى ، وسيفاً من الخشب .
إنني أتذكر هذا .

وقالت ألكسندرا :

- وأنا أتذكر أيضاً أنكما تنازعتما بشأن الحمامة ، وقد أمر بوقف أدليدا في الركن ، بخوذتها وسيفها وكل شيء .

وكان الجنرال المسكين قد تحدث فقط عن حمله لأجلايا بين ذراعيه ؛ لأنه دائماً يبدأ حديثه مع الشباب بمثل هذه العبارة . ولكن حدث هذه المرة أنه أصاب الحقيقة وإن كان هو نفسه قد نسي الأمر تماماً . ولكن عندما ذكرت كل من أجلايا وأدليدا حادث الحمامة ، وازدحمت الذكريات برأسه . وأن من المستحيل أن نصف كيف تأثر هذا العجوز المسكين ، نصف السكران دائماً ، بهذه الذكريات .
فقد صاح قائلاً :

- إنني أتذكر، إنني أتذكر كل شيء. لقد كنت يومذاك برتبة كابتن. وكنت أنت شيئاً لطيفاً صغيراً، اسمعي يا نينا ألكسندروفنا وأنت يا جانيا لقد استقبلني يومذاك الجنرال إيبانشين.

فقاطعته المسز إيبانشين بقولها:

- نعم. ولكن انظر كيف أصبحت الآن! ولكنني على كل حال أرى أنك لم تُذب مشاعرك الطيبة في الخمر. إلا أنك حطمت قلب زوجتك يا سيدي، وبدلاً من أن تعني بأبنائك، تضيع وقتك في الحانات وسجون الدائنين. اذهب يا صديقي، وانعزل في أحد الأركان وابك واندب كرامتك الضائعة، فعسى أن يغفر الله لك. اذهب، اذهب. فإني جادة فيما أقول. فليس هناك وسيلة للتوبة أفضل من تذكر الماضي في حسرة وندم.

ولا حاجة بنا إلى تكرار القول إنها كانت جادة في حديثها. وكان الجنرال- مثل جميع السكيرين- شديد التأثير وسريع الانفعال عند تذكر أيامه الطيبة الماضية، ومن ثم نهض، ومضى في هدوء واستكانة إلى الباب، بحيث شعرت المسز إيبانشين بالأسف من أجله، فهتفت به قائلة:

- أرداليون ألكسندروفيتش، انتظر برهة، فإننا جميعاً مذنبون. وعندما تشعر أن ضميرك لم يعد يؤنبك كثيراً، فتعال إليّ، وسوف نتحدث معاً عن الماضي! ويمكنني القول إنني أكثر ذنباً منك خمسين مرة.

ثم أردفت قائلة في قلق حين رآه يستدير كأنما يهيم بالعودة:

- والآن اذهب. اذهب، وداعاً، فالأفضل ألا تبقى هنا.

وقال الأمير لكوليا حين رآه يهرع وراء أبيه:

- لا تذهب وراءه الآن يا كوليا، وإلا فإنه سيستاء وتضيع فائدة هذه اللحظة.

وقالت المسز إيبانشين:

- هذه هي الحقيقة. والأفضل كثيرًا أن تمضي إليه بعد نصف ساعة أو نحو ذلك.

وقال ليبيديف:

- هذه نتيجة قول الصدق ولو مرة واحدة في الحياة، لقد أدى به إلى البكاء.

وقالت المسز إيبانشين:

- كفى كفى! من الخير أن لا تكثري أنت بالذات من الحديث، فإن ما سمعته عنك يجعلني أعرف من أنت.

وانتهز الأمير أول فرصة سانحة ليخبر آل إيبانشين أنه كان ينوي زيارتهن في ذلك اليوم لو لم يأتين بعد الظهر، وأجابت المسز إيبانشين عن هذا بقولها إنها لا تزال تأمل أن يقوم بهذه الزيارة.

وكان بعض الزائرين عندئذ قد انصرفوا. إذ تراجع بيتسين بلباقة إلى جناح ليبيديف، وسرعان ما لحق به جانيا.

وكان هذا الأخير قد تصرف بأدب، مع الاحتفاظ بالكرامة، في هذا اللقاء الأول مع آل إيبانشين منذ انقطاع العلاقات بينه وبينهن. وقد احتوته المسز إيبانشين بنظراتها عمداً مرتين من رأسه إلى قدميه، ولكنه صمد أمامها دون أن يختلج في وجهه غضب. وكان في الحقيقة قد تغير كثيراً كما يمكن أن يلحظ أي إنسان لم يره منذ مدة طويلة. ويلوح أن هذه الحقيقة تركت في نفسية أجلايا كثيراً من الغبطة والرضا.

وقد قاطعت فجأة حديث أحد الحاضرين لتقول:

- أليس هذا جافريلا! أرداليونوفيتش الذي انصرف الآن؟
فقال الأمير:

- نعم، إنه هو.

- كدت لا أعرفه! لقد تغير كثيرًا، إلى الأحسن!
فقال الأمير:

- إنني سعيد جدًا لهذا.

وأضافت فاريا قائلة:

- لقد كان مريضًا جدًا.

وتساءلت المسز إيبانشين قائلة:

- كيف تغير إلى الأحسن! إنني لا أرى أي تغير فيه إلى الأحسن! ماذا
فيه أحسن مما كان؟ من أين جئت بهذه الفكرة؟ ما هو الأحسن فيه؟

وهنا قال كوليا الذي كان واقفًا بجانب مقعد المسز إيبانشين:

- ليس هناك أحسن من «الفارس المسكين».

فضحك الأمير «س» وقال:

- إنني أوافق معك في هذا.

وقالت أدليدا بلهجة جادة:

- وأنا أيضًا.

وتساءلت المسز إيبانشين وهي تنتقل بنظراتها من وجه أحد المتحدثين
إلى وجه الآخر:

- أي فارس مسكين تعنون؟

ولما رأت وجه أجلايا يضطرم خجلًا، أردفت قائلة في غضب:

- ما هذا اللغو الذي تتحدثونه؟ ماذا تعنون بقولكم «الفارس المسكين»؟

وقالت أجلايا في استعلاء:

- ليست هذه هي المرة الأولى التي يكشف فيها هذا الغلام - الأثير

لديك - عن وقاحته في إفساد حديث غيره.

وكانت أجلايا كلما أعربت عن غضبها «وكثيرًا ما كانت تفعل» لوت

شفتيها بطريقة صبيانية، وظهرت في غضبها «كتلميذة مستاءة» بحيث

يستحيل على الإنسان أن يمنع نفسه من الابتسام لاستنكارها الشديد. وفي

مثل هذه المناسبات كانت تقول: «كيف يستطيعون، كيف يجرؤون على

الضحك مني؟».

وفي هذه المرة ضحك الجميع منها: أختاها، والأمير «س» والأمير

ميشكين «رغم أن وجهه أيضًا اضطرم خجلًا لسبب ما» وكوليا. واستنكرت

أجلايا الموقف بشدة، ولكن جمالها تضاعف وهي في سورة الغضب.

وصاحت قائلة:

- إنه دائمًا يدير المعنى فيما يقوله غيره.

وهنا قال كوليا:

- إنني فقط أردت التعبير الذي قلته بنفسك. فمنذ شهر كنت تتصفح

كتابك «دون كيشوت»، ثم إذا بك تهتفين فجأة قائلة: «ليس هناك أفضل

من الفارس المسكين». ولم أكن أعرف عندئذ، بطبيعة الحال، هل كنت

تقصدين بهذه العبارة دون كيشوت، أو إيفيني بافلوفيتش، أو شخصًا آخر،

ولكنك نطقت بهذه العبارة يقيناً، ثم أعقب هذا محادثة طويلة.

وقالت المسز إيبانشين في شيء من الامتعاض:

- إنك تميل إلى المبالغة في الاستنتاج يا ولدي الطيب.

فصاح كوليا:

- لم أكن وحدي في هذا الشأن، لقد كانوا جميعاً يتحدثون عن هذا الموضوع، ولا يزالون. بل لقد كان الأمير «س» الآن فقط يعلن مع أدليدا أنهما ناصرا «الفارس المسكين». وفي هذا الدليل على أن «الفارس المسكين» موجود. ولولا أدليدا لأمكننا أن نعرف منذ أمد بعيد من هو هذا «الفارس المسكين».

فتساءلت أدليدا باسمه:

- عجباً وما ذنبي أنا؟

- ذنبك أنك لم ترسمي لنا صورة له! لقد طلبت منك أجلايا أن ترسمي لوحة تمثله، وزودتك بتفاصيل الرسم كله مع الفكرة - لقد ابتكرت هي هذه الفكرة. ولكنك لم ترسميها.

- ماذا كان يمكنني أن أرسم، لقد وصفت لي وجهه بشطرتين من الشعر تمثلت بهما قائلة:

«أبدًا لم يرفع عن وجهه..

ذلك القناع الحديدي الخالد...».

فأي وجه هذا الذي كان عليّ أن أرسمه؟ وأنني ما كنت لأستطيع رسم قناع.

فقال المسز إيبانشين في توفز عصبي:

- إنني لا أعرف ماذا تقصدون، وأي قناع تعنون؟

ولكنها مع هذا كانت قد بدأت تدرك الأمر بوضوح، وتعرف من ذا الذي يعنون حين يذكرون في حديثهم «الفارس المسكين». ولكن الذي أثار استياءها بوجه خاص، هو أن الأمير كان يبدو مضطرباً بعض الشيء، ووجهه يضطرم خجلاً كوجه صبي في العاشرة من عمره. ومن ثم أردفت أخيراً قائلة:

- هل فرغتم من دعابتكم الحمقاء! وهل ستذكرون لي من هو «الفارس المسكين» الذي تعنونه؟ أم أن الأمر سر خطير لا يجوز إفشاؤه بسهولة. ولكنهم ضحكوا جميعاً.

وبدأ الأمير س - الحديث قائلاً وقد ظهر بوضوح أنه يغير الموضوع :
- المسألة ببساطة هي أن هناك قصيدة روسية عجيبة ليس لها بداية أو نهاية، وتدور كلها حول «فارس مسكين». ومنذ شهر أو نحو ذلك، كنا جميعاً نتحدث ونضحك ونفكر في موضوع ترسمه أديليدا، وأنت تعرفين أن الشغل الشاغل لهذه الأسرة هو البحث عن موضوعات لصور أديليدا. وقد حدث أننا فكرنا في موضوع «الفارس المسكين» ولا أذكر من هو الذي فكر فيه أولاً.

- فقال كوليا:

- إنها أجلايا إيفانوفنا.

فاستطرد الأمير س - في حديثه قائلاً:

- من المحتمل جدًا. فأنا لا أذكر. ولكن بعضنا ضحك من الموضوع، وحبذه بعضنا، ولكنها قالت إن عليها أولاً أن ترى وجه ذلك السيد قبل أن ترسم صورته. وعندئذ بدأنا نفكر في وجوه جميع أصدقائنا لنرى أيهم يصلح للموضوع، ولم نجد بينهم من يصلح. ووقف الأمر عند هذا الحد. هذه هي المسألة كلها. ولست أدري لماذا أثار كوليا هذه الدعابة الآن. فإن ما كان يبدو عندئذ طريفاً مستساغاً، قد فقد مع مرور الوقت أهميته كلها.

فقالت المسز إيبانشين في تهكم:

- ربما لا يزال في الأمر مزيد من الحماقة.

فقالت أجلايا في لهجة جادة كل الجد:

- ليس ثمة حماقة إطلاقاً في هذا الموضوع، وإنما أشد الاحترام.

وكانت قد تماكت نفسها تماماً. بل من الإنصاف القول إنها أحست، حقاً - من دلائل معينة - بالبهجة حين رأت الدعابة تبلغ هذا المدى. ومن الممكن للمراقب الحريص أن يدرك أن غببتها ترجع إلى اللحظة التي وضح فيها اضطراب الأمير وارتبأكه.

وقالت الأم:

- الاحترام الشديد! ما هذا اللغو؟ أولاً تضحكون بحماقة، ثم إذا الأمر يتحول فجأة إلى «أشد الاحترام»! ما معنى هذا؟ أخبريني فوراً لماذا تحولت الدعابة إلى «أشد الاحترام»؟

فقالت أجلايا بوقار:

- لأن القصيدة تصف الفارس بقولها إنه إنسان يستطيع أن يعيش حياته كلها متمسكاً بمثل أعلى. ومثل هذا لا يوجد كل يوم بين الرجال في هذا

الوقت. ولم يرد في القصيدة تحديد صريح لذلك المثل الأعلى. ولكن يبدو أنه نوع من الحلم أو الوحي عن الجمال المطلق. والفارس في القصيدة لا يضع حول عنقه مطرفاً، وإنما مسبحة. وقد حفر على درعه هذه الحروف الثلاثة: «أ. ن. ب» ولم تشرح لنا القصيدة معناها.

فقال كوليا مصححاً:

- لا، بل «أ. ن. د».

فصاحت أجلايا في ضيق:

- قلت: «أ. ن. ب» وهذا ما قصدت أن أقول. وعلى أية حال. فإن «الفارس المسكين» لم يكن يهمله من تكون محبوبته أو ماذا حدث منها. لقد اختارها مثلاً أعلى وقرر أن يكرس حياته من أجلها، وأن يبارز الأقران في سبيلها، وأن يُنصّبها على عرش الجمال المطلق مهما يكن ما قد تقوله أو تفعله فيما بعد، فإذا رأت أن تحترف السرقة، وجب عليه أن يحميها على السواء. وأعتقد أن الشاعر أراد أن يرمز بهذه الصورة الوحيدة عن الروح الكاملة لفروسية القرون الوسطى، وعن الحب الأفلاطوني النقي الذي يخفق به قلب فارس رفيع الإحساس. والأمر كله بطبيعة الحال مجرد أنموذج أو مثل أعلى ارتفع بروح ذلك الفارس المسكين إلى ذروة التعبد. إنه «دون كيشوت» جاد، وليس مثاراً للسخرية. وإني الآن أحب هذا «الفارس المسكين» وأحترم تصرفاته.

وهكذا ختمت أجلايا حديثها، ولكنك إذا تطلعت إليها، فسوف يشق عليك حقاً أن تعرف هل كانت جادة أم هازلة.

وقالت المسز إيبانشين:

- هراء! لقد كان أحمق، وكانت تصرفاته تصرفات إنسان أحمق، أما أنت أيتها الشابة، فيحسن بك أن تكوني أكثر فطنة. ولا ينبغي بأية حال أن تتحدثي هكذا مرة أخرى. ما هي تلك القصيدة؟ اقرأيها! إنني أريد أن أسمعها. إنني أكره الشعر طيلة حياتي، ويجب أيها الأمير أن تغفر لنا هذا اللغو. فإن كلاً منا في الواقع لا يحب هذا، أرجو أن تتذرع بالصبر.

وكان كل منهما حقاً قد ضاق صدرًا بهذا كله.

وحاول الأمير أن يقول شيئاً، ولكنه كان في أشد حالات الارتباك، فلم يستطع أن يُخرج الكلمات من فمه. أما أجلايا التي كانت صريحة في «محاضرتها الصغيرة»، الشخصية الوحيدة تقريباً من بينهم التي لم تشعر بأي ارتباك. بل لاح عليها في الواقع أنها شديدة السرور.

لقد نهضت الآن في وقار من مكانها، وسارت إلى منتصف الشرفة ووقفت أمام مقعد الأمير. وتطلع الجميع إليها في اندهاش، واستبد القلق الشديد بالأمير «س» وبأختيها وهم يتساءلون! أية دعاة جديدة ستقوم بها. ذلك لأن الأمر، في رأيهم، قد بلغ مداه فعلاً. ولكن كان يبدو أن أجلايا مستمتعة بالطريقة المثيرة التي ستلقي بها القصيدة.

وبينما كانت المسز إيبانشين تفكر فيما إذا كان ينبغي أن تأمرها بعدم إلقائها، بدأت أجلايا بالإلقاء فعلاً، ولكن حدث في نفس اللحظة أن أقبل من الشارع ضيفان جديدان يتحدثان بصوت مرتفع، وكان الوافدان الجديدان هما الجنرال إيبانشين، وأحد الشبان.

وأدى دخولهما إلى شيء من الاضطراب والارتباك.

الفصل السابع

كان الشاب المرافق للجنرال في نحو الثامنة والعشرين من عمره، طويلاً، متين البنية، له وجه وسيم ذكي وعينان سوداوان نجلاوان زاخرتان بالذكاء وحب المرح.

ولم تُلَقَّ أجلايا ولو نظرة عابرة على الوافدين الجديدين، وإنما استمرت في إلقائها للقصيدة وهي تحديق النظر إلى الأمير، وإلى الأمير وحده، بطريقة مؤثرة. وكان الواضح أنها تفعل هذا كله لغرض معين.

ولكن الوافدين الجديدين على أية حال خففا بعض الشيء من المركز الحرج للأمير. فعندما رآهما يقتربان، نهض عن مقعده، وأوماً في تلطف للجنرال، وأشار له أن لا يقاطع الإلقاء، ثم استدار ووصل إلى ما وراء مقعده ووقف معتمداً بذراعه اليسرى على ظاهره، وقد أمكنه بفضل هذا التغيير في الموضع، أن ينصت إلى الملحمة وهو أقل إحساساً بالحرج والارتباك مما كان من قبل. وكذلك أشارت المسز إيبانشين مرتين للوافدين الجديدين أن يلتزما الهدوء، وأن يبقيا حيث هما.

وبدا الأمير شديد الاهتمام بالشاب الذي أقبل من فوره. وقد استنتج ببساطة أن هذا هو إيفيني بافلوفيتش رادوفسكي، الذي سبق أن سمع بأمره مرات عديدة. إلا أنه تعجب لملابس الشاب المدنية العادية؛ لأنه كان يسمع أن إيفيني بافلوفيتش من رجال العسكرية. وكانت الابتسامة التهكمية ترف على شفتي إيفيني في أثناء إلقاء القصيدة، مما دل على أنه أيضًا كان يعرف سر فكاهة «الفارس المسكين» ولكن الأمر غدا جد مختلف بالنسبة لأجلاليا ذلك أن كل مظاهر الاصطناع التأثيري التي أبدتها في أول الأمر، اختفت في أثناء استمرارها في عملية الإلقاء. فقد أخذت تلقي أبيات الشعر بطريقة جادة مؤثرة، وبأسلوب ينم عن التذوق، بحيث بدا أنها على حق لإسرافها في هذا السمت الجاد كلما استمرت في الإلقاء. وغدا من المستحيل أن يستشف أحد الآن في أعماق نفسها شيئاً غير الإحساس العميق بروح القصيدة التي أخذت على عاتقها أن تنقلها إليهم.

وكانت عيناها متألفتين بالإلهام، وكان ثمة اختلاجة رقيقة من النشوة تطوف بملامحها مرة أو مرتين وهي مستطردة في الإلقاء:

«إنها رؤيا رائعة حدثت ذات يوم،

خفية، رهيبة، باهرة الجمال،

صهرت نفسها في أعماق روحه،

وهناك استقرت إلى الأبد؛

«ولم يعد أبداً، منذ تلك اللحظة الممتعة،

يرنو طويلاً إلى جنس النساء،

فقد صُمّت أذناه عن الحب والغزل،

وأُغلقت عيناه عن كل مفاتن الإناث!

«وبقلب مفعم بتلك الرؤيا العجيبة،

وبالشجاعة والطهر نزل إلى الميدان؛

وبدمائه القانية كتب هذه الأحرف،

ن. ب. ب. على صفحة الدرع!

«وباسم القديسة روزا، أرسل صيحته،

إنها صيحة القتال التي واجه بها الأعداء،

إنها صيحة حرب دوت كقصف الرعد،

ومرت فوق صفوف الأعداء الخائفين!

«ثم هناك، في قلعته النائبة،

عاد ليقضي أيامه حالماً..

في صمت وحزن، حتى إذا أدركه الموت

كان قد جُن، هكذا تقول الأسطورة.

وكان الأمير وهو يتذكر هذا كله فيما بعد، لا يستطيع بأية حال من الأحوال، أن يدرك كيف يوائم بين طبيعة هذه الفتاة النقية الوفية الجميلة، وبين قسوة التهكم في هذه الدعابة. ذلك أنه لم يكن ثمة شك ألّبتة في أنها دعابة. فقد كان يعرف هذا عن يقين. كما كان لديه أيضًا السبب القوي المبرر لهذا اليقين. ذلك أن أجلايا كانت قد غيرت عامدة هذه الأحرف «أ. ن. ب» وكان جد واثق أنها لم تفعل هذا عفوًا، وأن أذنيه لم تخدعاه. وعلى أية حال فقد كان أداؤها لهذا الدور - الذي كان بطبيعة الحال دعابة، ومن

النوع الثقيل - معداً من قبل. ومن الواضح أنهم تحدثوا «وضحكوا» أيضاً عن «الفارس المسكين» مدة تزيد على شهر.

ومع ذلك فقد نطقت أجاليا بهذه الأحرف «ن. ب. ب» بلا أي ظل من التهكم، بل ولا بأي تغيير مقصود في النبرات، وإنما نطقتها بكل مظاهر الثبات والجدية؛ بحيث قد يظن أي إنسان، بالتأكيد، أن هذه هي الأحرف الأصلية الواردة في القصيدة. وقد ترك هذا في نفسية الأمير أثراً غير طيب. وبطبيعة الحال لم تر المسز إيبانشين شيئاً، سواء في تغيير الأحرف، أو في الدلالة التي ينطوي عليها هذا التغيير. ولم يعرف الجنرال إيبانشين شيئاً أكثر من أن قصيدة ما تكفى، ولم يزد اهتمامه بالأمر عن هذا. أما بقية المستمعين، فقد فهم الكثيرون منهم هذا «التلميح» وتعجبوا من جرأة الفتاة، وتساءلوا عن الهدف المقصود من هذا، ولكنهم حاولوا ألا يظهروا ما ينم عن إحساساتهم. إلا أن إيفيني بافلوفيتش «والأمير متأكد من هذا» فهم الهدف المقصود، وبذل كل جهده ليبين للجميع أنه فاهم. إذ كانت ابتسامته التهكمية لا تدع مجالاً للشك في هذه الحقيقة.

وهتفت المسز إيبانشين في إعجاب حقيقي:

- ما أجمل هذه القصيدة؟ لمن هي؟

فقالت أدليدا:

- إنها لبوشكين طبعاً يا أماه، لا تخجلينا جميعاً بإظهار جهلك!

- اعطيها لي لأقرأها بمجرد أن نعود إلى البيت.

- لا أظن أن لدينا نسخة من كتاب بوشكي في البيت.

فقالت ألكسندرا:

- يوجد هناك مجلدان ممزقان في مكان ما. وأعتقد أنهما بقيا في مكانهما منذ زمن لا أدري مداه.

وقالت الأم:

- أرسلوا فيودور أو إليكسي إلى أول قطار يصل لشراء نسخة من هذا الكتاب. أجلايا، تعالي هنا، قبليني يا عزيزتي، لقد أحسنت الإلقاء، ولكن... ثم أردفت هامسة:

- إذا كنت صادقة الإحساس، فأنا آسفة من أجلك، أما إذا كان الأمر مجرد دعاية، فأنا لا أَرْضَى عن الشعور الذي دفع بك إلى هذا. وكان الأفضل كثيرًا، على أية حال، أن لا تلقىها إطلاقًا. هل تفهمين؟ والآن هلم أيتها الشابة، فقد جلسنا هنا أطول مما ينبغي، وسوف أتحدث معك عن هذا الأمر في وقت آخر.

وفي الوقت نفسه، انتهز الأمير الفرصة ليحيي الجنرال إيبانشين الذي قدم إليه إيفيني بافلوفيتش للتعارف. وقد قال الجنرال في هذا الشأن:

- لقد التقيت به في الطريق إلى بيتك. وكان قد سمع أنهم جميعًا هنا. وأضاف إيفيني إلى هذا قوله:

- نعم، وسمعت أنك هنا أيضًا. ولما كنت قد مَنَيْت نفسي منذ أمد بعيد، لا بالتشرف بمعرفتك فحسب، وإنما بصداقتك أيضًا، فإنني لم أرغب في إضاعة الوقت، وإنما جئت فورًا، وإنني لآسف إذ أسمع أنك على غير ما ينبغي صحياً.

فقال الأمير ميشكين:

- أوه، ولكنني في أحسن حال الآن، شكرًا لك، وإني لسعيد جدًا بمعرفتك، فقد حدثني الأمير س - عنك كثيرًا.

وهنا تبادل الاثنان، لمدة لحظة، نظرات مركزة.

ولاحظ الأمير أن ملابس إيفيني بافلوفيتش المدنية قد تركت، كما يبدو، أثرًا كبيرًا في نفوس الحاضرين، ويلوح أن هذه الملاحظة أزال كل اهتمامات أخرى إزاء هذه الحقيقة المفاجئة.

ويبدو أن تغييره لملابسه كان أمرًا له أهميته، إذ أخذت أدليدا وألكسندرا تنهالان عليه بالأسئلة، وأظهر الأمير «س» - قريب الشاب - استياءه، وبدأ الجنرال في حالة انفعال شديدة، وكانت أجلايا فقط هي التي لم تهتم بالأمر، لقد تأملت إيفيني برهة، كأنما تحاول أن تعرف أيهما أنسب له، الملابس العسكرية أم المدنية، ثم أشاحت بوجهها ولم تُعر مزيدًا من الاهتمام به أو بملابسه. ولم تُلق المسز إيبانشين أية أسئلة، ولكن كان الواضح أنها في حالة قلق. وقد خُيِّل للأمير أن إيفيني لا يتمتع بعطفها.

وقال الجنرال عن هذا الموضوع:

- لقد أدهشني، بل كدت أسقط على الأرض من فرط الدهشة. لقد أبيت أن أصدق عيني حين التقيت به الآن في بطرسبرج. فلماذا هذا التعجل؟ ذلك ما أريد أن أعرفه. لقد كان دائمًا يقول إنه لا حاجة بالإنسان إلى التعجل في التخلي عن مستقبله في الجيش.

وظهر من ثنايا حديث إيفيني بافلوفيتش أنه تحدث منذ مدة طويلة عن نيته في ترك الخدمة العسكرية. ولكنه كان دائمًا يتخذ من هذا الموضوع مجالًا للدعابة والمزاح، مما جعل الجميع يحسبونه غير جاد. إلا أنه في

الواقع كان يمزح في كل شيء، فكان أصدقاؤه لا يعرفون أبداً حقيقة ما يدور بنفسه، لا سيما إذا كان لا يريد أن يجعلهم يفهمونه.

وقال ضاحكاً:

- إنني تقاعدت فقط إلى حين. لمدة أشهر قليلة، أو لمدة عام على الأكثر.

فقال الجنرال عاتباً:

- ولكن ليس هنا ما يدعو إلى تقاعدك إطلاقاً بقدر ما أعرف.

فقال إيفيني:

- إنني أريد أن أمضي لأشرف على ممتلكاتي الزراعية. وقد نصحتني أنت بذلك، ثم أريد بعد ذلك أن أقوم برحلة إلى الخارج.

وبعد عبارات أخرى قليلة من النقاش والعتاب، تحول مجرى الحديث إلى نواح، ولكن الأمير، الذي كان ينصت بانتباه شديد، رأى أن هذه الانفعالات الكثيرة حول موضوع بسيط كهذا، أمر يثير العجب. ومن ثم قال لنفسه: «لا بد أن الأمر ينطوي على شيء أخطر من هذا؟».

وقال إيفيني وهو يتقدم ويقف بجانب أجلايا:

- أرى أن «الفارس المسكين» قد ظهر على المسرح مرة أخرى.

ولدهشة الأمير، الذي سمع الملاحظة، رأى أجلايا تنظر إلى المتحدث في ترفع وتساؤل، كأنما تريد أن تجعله يعرف، للمرة الأولى والأخيرة، أنه لا يمكن أن يكون ثمة حديث بينهما عن «الفارس المسكين» بعد اليوم، وأنها من ثمة لم تفهم سؤاله.

وكان كوليا يقول بصوت مرتفع في تلك اللحظة:

- ولكن ليس الآن، لقد فات الوقت لإرسال أحد إلى المدينة الآن للحصول على نسخة من كتاب بوشكين. أقول إن الوقت قد فات تمامًا. لقد قلت لك هذا أكثر من مائة مرة.

وقال إيفيني بافلوفيتش الذي هرب من جانب أجلايا بأسرع ما يستطيع:
- نعم، إن الوقت جد متأخر لإرسال أحد إلى المدينة الآن. إنني واثق أن المتاجر الآن مغلقة في بطرسبرج.

ثم أضاف قائلاً وهو ينظر في ساعته:

- لقد تجاوزت الساعة الآن الثامنة مساءً.

وقال كوليا:

- وعدا هذا، فليس من المعتاد، بل ليس من اللائق تقريباً، لأناس في مثل مركزنا أن يهتموا بالثقافة. اسألوا إيفيني بافلوفيتش إن كنت مخطئاً. إنه لأكثر مسaire للمودة أن يقود الإنسان مركبة أنيقة بعجلات حمراء.
فقلت أدليدا:

- لقد جئت بهذا الرأي من بعض المجلات يا كوليا.

فضحك إيفيني بافلوفيتش وقال:

- إنه يأتي بمعظم أحاديثه عن هذا الطريق. إنه يستعيد عبارات بأكملها من التعليقات. وإن لي منذ أمد بعيد شرف التعرف بكل من كوليا ووسائله. ولكنه في هذه المرة لا يكرر شيئاً سبق أن قرأه. إنه ولا شك يشير إلى مركبتي الصفراء التي لها أو كان لها عجلات حمراء. ولكنني غيرتها، ومن ثم فأنت

يا كوليا لا تتابع تطور المودة.

وكان الأمير ينصت بانتباه شديد إلى حديث إيفيني، ورأى أن أسلوبه لطيف جداً. ذلك أنه رد على مداعبة كوليا له بشأن مركبته، بطريقة تنم عن المودة وروح الإخاء. وقد سر الأمير لهذا.

وفي تلك اللحظة أقبلت فيرا إلى المسز إيبانشين، حاملة عدداً كبيراً من الكتب الجميلة التجليد، يبدو عليها أنها جديدة.

وسألت السيدة قائلة:

- ما هذه؟

فأجابت فيرا قائلة:

- إنها مؤلفات بوشكين. لقد طلب مني أبي أن أقدمها إليك.

فهمت المسز إيبانشين قائلة:

- ماذا؟ هذا مستحيل!

فقال ليبيديف وهو يظهر فجأة من وراء ابنته:

- ليس كهدية، ليس كهدية، إنني ما كنت لأجرؤ على هذا. إن هذه مؤلفات بوشكين الخاصة بنا، إنها نسخة الأسرة، من مطبوعات أنينكوف. ولا يمكن شراؤها من السوق الآن، ولهذا أقترح، بكل احترام، أن تتكرم سيادتكم بشرائها، وبهذا تروين غليل رغبتك الثقافية النبيلة التي تستبد بك الآن.

- أوه، إذا كنت تقصد أن تبيعها، فلا بأس أبداً - وشكراً لك. ولن تكون الخاسر في هذه الصفقة. ولكنني أرجوك بحق السماء أن لا تتلوى في وقفتك

هكذا يا سيدي! لقد سمعت عنك، قالوا لي إنك إنسان مثقف جدًا. وينبغي أن نتبادل الحديث معًا ذات يوم. هل ستأتي بالكتب معك؟

فأجاب ليبيديف وهو يسرف في تحريك قسماات وجهه:

- بكل احترام... و.. وخشوع.

- حسنًا، أحضرها بكل - أو بلا- احترام ما دام أنك لا تسقط بعضها في الطريق. ولكن بشرط..

ثم نظرت إليه عامدة واستطردت قائلة:

- بشرط ألا تجتاز عتبة بيتي، فليس في نيتي أن أستقبلك اليوم، ويمكنك أن ترسل بها ابتك فيرا فورًا، فإني شديدة الإعجاب بها.

وقالت فيرا في ضيق لأبيها:

- لماذا لا تخبره بشأنهم؟ لقد وصلوا، وسواء أعلنت حضورهم أم لا، فإنهم بدأوا في إثارة الصخب..

ثم وجهت الحديث إلى الأمير قائلة:

- ليو نيكولايفيتش، جاء أربعة رجال يسألون عنك. لقد طال انتظارهم وبدأوا يضجون، ويرفض أبي أن يسمح لهم بمقابلتك.

وقال الأمير:

- من هم هؤلاء الرجال؟

- يقولون إنهم جاءوا لبعض المسائل العملية. وهم من نوع الرجال الذين إذا رفضت مقابلتهم، فلن يترددوا في اقتفاء أثرك في الطريق ومن ثم يحسن أن تستقبلهم، ثم تتخلص منهم، وإن كلا من جانبا ويتسبن معهم

يحاولان أن يقنعاهم بالحسنى.

وصاح ليبيديف:

- ابن بافليشيف! إن الأمر لا يستحق هذا كله. ولا داعي لأن تراهم، لأن الأمر سيكون مزعجاً جداً لفخامتك. إنهم لا يستحقون..

وهتف الأمير في اضطراب شديد:

- ماذا؟ ابن بافليشيف! إنني أعرف، إنني أعرف، لقد عاهدت بالأمر إلى جافريلا أرداليونوفيتش. وقال لي...

وفي تلك اللحظة أقبل جانبا مصحوباً بييتسين إلى الشرفة، ومن غرفة مجاورة كانت تصدر أصوات غاضبة، وصوت الجنرال إيفولجين المرتفع يبدو كأنما يحاول إسكاتهم. واندفع كوليا فوراً ليتحرى عن سبب هذه الضجة.

وقال إيفيني بافلوفيتش:

- إن هذا شيء جد مثير.

وقال الأمير لنفسه:

«أعتقد أنه يعرف كل شيء عن الموضوع».

وصاح الجنرال إيبانشين في دهشة:

- ماذا؟ ابن بافليشيف؟ ومن يكون ابن بافليشيف هذا؟

ولما تلفت حوله بفضول، وجد أنه هو الوحيد الذي لا يعرف سر الموضوع. فقد كانت أمارات الترقب والتلهف واضحة على وجوه الجميع. فيما عدا وجه الأمير الذي وقف يعجب أشد العجب لما أثاره موضوع

شخصي من الاهتمام الواسع النطاق في مثل هذا الوقت القصير .

وتقدمت أجلايا منه وقد أطلت من عينيها نظرة جادة غريبة! وقالت له:

- سيتهي كل شيء بخير إذا أنت وضعت نهاية لهذا الأمر فورًا. ولكن ينبغي أن تسمح لنا لنكون شهودًا لك. إنهم يريدون أن يهينوك ويدلوك، ومن ثم يجب أيها الأمير أن تنتصر في نضالك معهم، وإني لسعيدة مقدّمًا من أجلك.

وصاحت المسز إيبانشين:

- وأنا أيضًا أريد أن تأخذ العدالة مجراها لآخر مرة بشأن هذا الادعاء الوقح. عاملهم كما ينبغي أيها الأمير، ولا تتهاون في أمرهم. لقد ضقت ذرعًا بكل ما سمعته عن هذا الموضوع، وكثيرًا ما اشتبكت في خصومات بسبك. ولكنني أعترف أنني مشوقة لأعرف ما يحدث، ومن ثم دعهم يدخلوا، وسوف نبقي حيث نحن.

ثم أردفت قائلة وهي تستدير للأمير «س»:

- لقد سمعت الناس يتحدثون عن هذا الأمر بلا شك؟

فقال:

- نعم، طبعًا. لقد سمعت الأحاديث تدور حوله في بيتك، وإني لمشوق إلى رؤية هؤلاء الشبان.

- إنهم من أنصار مذهب العدمية!

فقال ليبيديف شارحًا وهو يبدو شديد الانفعال:

- لا، إنهم ليسوا عديمين، إنهم أنصار مذهب آخر، مذهب خاص.

وهم أكثر تقدماً من العدميين بناء على أقوال ابن أختي. إنك مخطئ تماماً يا صاحب الفخامة إذا كنت تظن أن وجودك سيخيفهم أو يقي من شرهم. فليس ثمة شيء يرهبهم. إنك قد تجد بين جماعة العدميين رجالاً متعلمين، وربما مثقفين؛ أما هذه الجماعة، فإن رجالها أعنف من هذا. إنهم رجال عمليون. وإذا شئت الحقيقة، فإن هذه الحركة مشتقة من المذهب العدمي، وذلك رغم أن القائمين به غير معروفين معرفة مباشرة، أو بمعنى آخر، معروفين بالسماع؛ لأنهم أبداً لا يعلنون عن أعمالهم في الصحف. إنهم يمضون إلى أهدافهم رأساً، إن المسألة بالنسبة لهم ليست مناقشة هل يوشكين رجل غبي؟ أم هل يجب تمزيق روسيا إرباً. لا! إنهم إذا كانت لهم رغبة قوية في عمل شيء، فإنهم يعتقدون أن من حقهم أن يحققوها ولو دفعوا في هذا السبيل حياة ثمانية رجال مثلاً، ثمناً. إنهم لا يعترفون بأية عقبات تعترض طريقهم. وأنا في الواقع أيتها الأمير أنصحك بالألا..

ولكن الأمير كان قد نهض، وسار في طريقه ليفتح الباب لزائريه وهو يقول باسمًا:

- إنك تتحامل عليهم يا لبيديف، وأنت دائماً تفكر في تصرفات ابن أختك. لا تصدقيه يا مسز إيبانشين، وأؤكد لك أن جماعتي جورسكي، ودانيلوف لهما أوضاع استثنائية، أما هؤلاء، فإنهم فقط مخدوعون. وعلى كل حال فلن يهمني أن أستقبلهم هنا علانية. ومعدرة يا مسز إيبانشين، إنهم آتون، ويمكنك أن تريهم، ثم أنصرف بهم بعد ذلك. تفضلوا بالدخول أيتها السادة.

وكان ثمة خاطر آخر يعذبه، كان يتساءل: هل هذا كله عمل مرتب ومعد سلفاً- معد ليحدث أثناء وجود الضيوف في بيته لكي يُجَلَّلَ بالعار بدلاً من

الاستمتاع بالنصر! ولكنه لم يلبث أن لام نفسه بعنف على هذا الخاطر، وأحس كأنما سيموت خجلًا لو عرف بأمره أحد. ولما أقبل زائروه الجدد، كان على استعداد تام ليقنع بأنه أقل احترامًا لنفسه من جميع الموجودين حوله.

ودخل أربعة رجال يتقدمهم الجنرال إيفولجين وهو يتحدث ببلاغة وفي انفعال شديد مما جعل الأمير يقول في نفسه وهو يتسم:

«هذا الرجل سيقف بجانبى بلا شك».

وكان كوليًا مصاحبًا لهم أيضًا، وكان يتحدث بحماسة إلى إيبوليت الذي راح ينصت إليه وعلى شفثيه ابتسامة ساخرة.

والتمس الأمير من الزائرين أن يجلسوا، وكانوا جميعًا شبانًا، مما جعل الموقف كله يبدو غريبًا شاذًا. ومن ثم شعر الجنرال إيبانشين، الذي لم يكن في الواقع يفهم شيئًا مما يجري - بأشد الاستنكار لمنظر هؤلاء الشبان، ولولا الاهتمام الشديد الذي أظهرته زوجته بالموضوع لتدخل فيه بطريقة ما ومن ثم بقي في الغرفة بسبب الفضول من ناحية، وبسبب طيبة قلبه من ناحية أخرى؛ أملًا أن يكون في بقائه بعض الفائدة. ولكن الانحناء التي حياه بها الجنرال إيفولجين، أثارت مرة أخرى، فقطب جبينه، وقرر أن يلتزم الصمت التام.

أما الباقون، فكان أحدهم رجلًا في الثلاثين من عمره، وكان نفس الضابط المتقاعد الذي أصبح ملاكمًا وواحدًا من جماعة روجوجين، الذي كان في أيامه السعيدة يتصدق على المتسولين بخمسة عشر روبلاً لكل منهم. وكان من الواضح أنه انضم للآخرين ليشجعهم وليؤيدهم بيديه إذا لزم الأمر،

وكان الشاب الذي قيل إنه «ابن بافليشيف» بينما اسمه الحقيقي «أنتيب بوردوفسكي» في نحو الثانية والعشرين من العمر، أشقر، نحيل الجسم، طويلًا، وقد تميز عنهم بفاقته، إذا لم نقل بقذارته، إذ كانت أكمام معطفه قدرة دهنية، وصداره القدر المزمر إلى عنقه لا يكشف عن قميص داخلي، وحول العنق منديل أسود قذر من الحرير مبروم حتى أصبح كالحبل. ويداه غير مغسولتين. وراح يتلفت حوله في سمت من التحدي البذيء. وكان وجهه المكسي بالثور لا ينم عن ذكاء أو حتى عن ازدراء؛ وإنما كانت ترسم عليه علامات الرضى التام لمطالبته بحقوقه، ولشعوره بأنه من الفريق المظلوم. وكان صوته يرفعه وهو يتحدث بسرعة وتلعثم شديد بحيث قد يظن السامع أنه أجنبي، رغم أن الدماء الجارية في عروقه روسية خالصة. أما الآخرا فكانا ابن أخت لبيديف الذي يعرفه القارئ، وكذلك الشاب المسمى إيبوليت تيرنتيف الذي لم يكن يتجاوز من العمر السابعة أو الثامنة عشرة. وكان له وجه ذكي رغم ما يبدو عليه دائماً من القلق والتوتر العصبي. وكان جسمه المعروف، ولونه الشاحب، وعيناه البراقتان، والعلامتان الحمراء على وجنتيه كلها أمارات تدل من النظرة الأولى على إصابته بداء الصدر. وكان يسعل دائماً، ويلهث في تنفسه، ويبدو كأنما لم يبق له غير بضعة أسابيع فقط في الحياة. وكان متعباً إلى حد الشعور بالموت، ومن ثم تهالك جالساً في مقعده، وانحنى الباقون أثناء دخولهم، وتظاهروا بالثقة التامة بنفوسهم ليخفوا ما قد يعتمل في صدورهم من الشعور بالخجل والارتباك. وعلى الجملة، كان موقفهم لا يدل - كما كان متوقعاً - على أنهم رجال صمموا على تجاهل كل شيء يعترض الطريق إلى رغباتهم.

وقال ابن بافليشيف متلعثماً معلناً اسمه:

- أنتيب بوردوفسكي.

وقال ابن أخت لبيديف بحماس وفي شيء من الكبرياء كأنه فخور
باسمه:

- فلاديمير دوكتورنكو.

وغمغم الضابط المتقاعد قائلاً:

- كيللر.

وصاح الأخير بصوت حاد:

- إيبوليت تيرنتيف.

ثم جلسوا في صف أمام الأمير، وهم يقطبون جباههم ويعبثون بقبعاتهم.
وبدا جميعهم مستعدين للحديث، ومع ذلك ظلوا جميعاً صامتين، وكانت
أمارات التحدي على وجهم كأنما تقول:
«لا أيها السيد، إنك لن تخذعنا».

وكان الواضح أن أية كلمة ينطق بها أي شخص من الحاضرين، ستؤدي
إلى سيل من الحديث المنهمر من المندوبين الأربعة.



الفصل الثامن

وبدا الأمير حديثه قائلاً:

- إنني لم أكن أتوقع زيارتكم لي أيها السادة. فقد كنت مريضاً حتى اليوم..

ثم وجه الحديث إلى أنتيب بوردوفسكي قائلاً:

- لقد وضعت مسألتك منذ شهر بين يدي جافريلا إيفولجين كما ذكرت حيثئذ. وأنا لا أعترض بأية حال على أن ألتقي بك بصفة خاصة على انفراد، ولكنك ستتفق معي على أن هذا لا يكاد أن يكون الوقت المناسب. ومن ثم أقترح أن نمضي إلى غرفة أخرى إذا كنت لا تستبقيني طويلاً؛ لأن لدي - كما ترى - أصدقاء هنا، وصدقني..

وهنا قاطعه ابن أخت ليبيديف بصوت أجش:

- ليكن عدد أصدقائك كما تحب، ولكن اسمح لي أن أقول إنه كان ينبغي أن تحسن معاملتنا أكثر من هذا وألا تبقينا في انتظارك ساعتين على الأقل.

وتلجلج أنتيب بوردوفسكي قائلاً:

- لا شك.. وأنا.. أهذا تصرف يليق بأمير.. وأنت.. قد تكون جنراً..
ولكنني.. أنا.. أنا لست خادمك الخاص.. وأنا.. وأنا..

وكان في حالة انفعال شديد، فشفتاه ترتعدان، وينم صوته عن سخط
نفس ممرورة. ولكن حديثه كان من الغموض بحيث غدا من العسير فهم
عشر كلمات معاً..

وقال إيبوليت ساخراً:

- هذا سلوك الأمراء عادة!

وغمغم الملاك قائلاً:

- لو أن أحداً عاملني هكذا.. أعني لو كنت في موضع بوردوفسكي،
ل... ل...

فقال الأمير:

- أيها السادة، إنني لم أكن أعرف أنكم هنا، لقد علمت بوجودكم الآن
فقط، أؤكد لكم هذا.

وقال ابن أخت ليبيديف:

- إننا لسنا خائفين من أصدقائك أيها الأمير؛ لأننا لم نتجاوز نطاق
حقوقنا.

وقاطعته نبرات صوت إيبوليت الحادة وهو يقول للأمير:

- أي حق لك، بأي حق تطالبنا بوضع هذه المسألة.. الخاصة
ببوردوفسكي بين يدي أصدقائك للتحكيم فيها.. إننا نعرف تماماً كيف

سيكون رأي أصدقائك فيها.

وأثارت هذه الكلمات عاصفة من الجدل، وأسقط في يد الأمير إلى حد كبير، ولكنه استطاع أخيراً أن يجعل صوته مسموعاً بين زعيق زائريه المهتاجين. فقال لبوردوفسكي:

- إذا لم تكن راغباً في الحديث هنا، فإني أعرض عليك ثانية أن أمضي معك إلى غرفة أخرى. أما عن انتظارك لرؤيتي، فإني أكرر لك القول إنني لم أعلم إلا الآن فقط..

فعاد لبوردوفسكي يلجلج في تحدٍّ وهو يتصفح وجوه المحيطين به وانفعاله النفسي يزداد:

- ليس لك أي حق.. ليس لك أي حق.. أي حق إطلاقاً.. ليس لك أي حق.

وبعد أن أنهى حديثه هكذا فجأة، انحنى إلى الأمام وهو يحملق في وجه الأمير بعينه القصيرتي النظر المرسلتين بالشرر. وبلغ من دهشة الأمير أنه لم يجب عليه، وإنما راح بدوره يحدق النظر إليه.

وتدخلت المسز إيبانشين في الحديث فجأة:

- ليو نيكولايفيتش. اقرأ هذه الآن. في هذه اللحظة، إنها تدور حول هذا الموضوع.

ومدت يدها بصحيفة أسبوعية هزلية، وهي تشير إلى مقالة في إحدى صفحاتها. وكان ليبيديف قد أراد أن يظفر بالحظوة لدى المسز إيبانشين فتناول من جيبه هذه الصحيفة عند دخول الزائرين، وقدمها إليها مشيراً إلى بضعة أعمدة فيها، عليها علامة بقلم رصاص. ووجدت المسز إيبانشين وقتاً

لقراءة جانب منها، ثم خامرها اضطراب شديد.

وقال الأمير في قلق:

- ألا يحسن قراءة هذه فيما بعد؟

وانتزعت المسز إيبانشين الصحيفة من بين يديه قبل أن يجد الأمير وقتاً ليلمسها.

وتحولت إلى كوليا قائلة:

- في هذه الحالة الأحسن أن تقرأها، اقرأها مباشرة.

ولما كانت المسز إيبانشين مندفعة بطبيعتها، فإنها كثيراً ما كانت تطلق سفينة الأحداث في بحر حياتها غير حافلة بما قد يعترضها من عواصف وأعاصير، أما الجنرال إيبانشين، فقد أحس فجأة بالجزع، بينما استبد الفضول بالآخرين فقط، مع شيء من الدهشة. وفتح كوليا الصحيفة وبدأ يقرأ ما يلي بصوت واضح مرتفع النبرات: «الشعب، وبقايا الطبقة النبيلة! حادث عن لصوصية اليوم، وكل يوم! التقدم، والإصلاح والعدالة!».

«إن أحداثاً عجيبة تجري الآن فيما يسمى بروسيا المقدسة، وفي عصر الإصلاح والمشروعات الضخمة. في هذا العصر المتسم بالوطنية، الذي يرسل فيه إلى الخارج مئات الملايين، والذي تشجع فيه الصناعات، والذي شلت فيه يد الاستغلال.. إلخ، فليس هناك نهاية لهذا كله أيها السادة، ومن ثم هلم نصل إلى لب الموضوع. لقد حدث شيء عجيب لبقايا الطبقة الأرستقراطية المنهارة، إن أجداد هذه البقايا دمروا أنفسهم على موائد الميسر، وأرغم أبائهم على الخدمة العسكرية كضباط أو صف ضباط، ومات بعضهم وهم على وشك المحاكمة بسبب سوء التصرف غير المقصود في معالجة الشؤون

العامة، ويعاني أبناؤهم أحياناً من «العبط» والبلاهة، مثل بطل قصتنا، وأحياناً يرتكبون بعض الجرائم، ثم يطلق المحلفون سراحهم على أمل إصلاحهم وتهذيبهم، وأحياناً يعلنون عن أنفسهم بغنيمة من هذه الفضائح المثيرة التي تدهش الرأي العام وتضيف نقطة سوداء إلى سجل عصرنا الملوث. فمنذ ستة أشهر، أي في الشتاء الماضي، عاد واحد من بقايا هذه الطبقة من الخارج، مرتدياً على حذائه جرموقاً مثل الأجانب ومرتعداً من البرد في معطفه الرث القديم. لقد جاء من سويسرا بعد أن نجح برنامج علاجه من البلاهة. ولا شك أن الحظ كان حليفه؛ لأنه، عدا مرضه العجيب الذي عولج منه في سويسرا «وהל هناك علاج من البلاهة!» قد أثبت بقصته صحة المثل الروسي القائل: «السعادة من حق طبقات معينة» واحكموا بأنفسكم: فإن بطلنا كان طفلاً وليداً عندما مات أبوه، وهو الضابط الذي مات قبل أن يقدم إلى المحاكمة العسكرية بتهمة المغامرة برصيد فرقته، وربما أيضاً لإسرافه في جلد أحد الجنود «تذكروا أيها السادة تلك الأيام الماضية الجميلة!». وتربى اليتيم على إحسان رجل روسي موفور الثراء بين أصحاب المزارع، وفي تلك الأيام الماضية، كان ذلك الرجل، ولنسمه «ب» يستخر في مزارعه أربعة آلاف أجير «من الأجراء أو رجال السخرة، هل يمكنكم أن تفهموا معنى هذه الكلمات أيها السادة! إنني شخصياً لا أفهمها، ومن ثم ينبغي البحث عن معناها في معاجم اللغة، فإن هذه الأشياء القديمة قد أصبحت مبهمة لنا» وكان ذلك الرجل، كما يبدو، من تلك الطفيليات التي تعيش في ترف وكسل خارج البلاد، حيث تقضي الصيف في بعض مدن المياه المعدنية، والشتاء في باريس، لفائدة متعهدي حفلات الرقص العامة. ويمكن القول بلا خطأ إن متعهد ملهى «شافو دي فلير» - ويا له من رجل سعيد الحظ - قد ظفر بثلاث

الأموال التي دفعها الفلاحون لسادتهم في عهد السخرة. وأيًا كان الأمر، فإن ذلك الثري الطروب «ب» قام على تربية اليتيم كأنه أمير، وزوده بالمدرسين والمربيات «الحسنات طبعًا»، اللاتي اختارهن بنفسه من باريس. ولكن الأرستقراطي الصغير، آخر سلالة إحدى الأسر النبيلة، كان أبله، وهكذا ذهبت معه سدى جهود المربيات المختارات من ملهى «شاتو دي فلير». ولما بلغ التلميذ العشرين من عمره، لم يكن في مقدوره التحدث بأية لغة، حتى اللغة الروسية. إلا أن من الممكن التماس العذر لجهله. وأخيرًا استبد بذهن «ب» خاطر عجيب، لقد تصور أن في إمكان الطب بسويسرا أن يحول رجلًا أبله إلى شخص عاقل. ولكن الفكرة كانت على كل حال معقولة جدًا. فمن الطبيعي أن يظن طفيلي من الإقطاعيين أن الذكاء سلعة يمكن شراؤها من السوق كأى شيء آخر، وأن من الممكن شراؤها بصفة خاصة بالمال من سويسرا، وقد عهد بالحالة إلى طبيب سويسري مشهور حيث تكلف العلاج آلاف الروبلات، واستمر خمس سنوات. ولا حاجة بنا إلى القول بأن الأبله لم يصبح ذكيًا، ولكن المزعوم أنه تحول إلى مخلوق يشبه الرجل في قليل أو كثير. وفي تلك المرحلة مات «ب» فجأة دون أن يكتب - كالمعتاد - وصية له، تاركًا شئونه نهبًا للفوضى. وهكذا ظهر عدد كبير من الدائنين المتحمسين، والمطالبين بالحقوق، الذين لم يحفلوا بأمر آخر بقايا الطبقة الأرستقراطية الذي يُعالج في سويسرا من البلاهة على نفقة المتوفى. ورغم بلاهة تلك البقية الأرستقراطية، فقد حاول أن يخدع طبيبه المعالج، ويُقال إنه نجح في جعله يواصل العلاج، مجانًا مدة سنتين، وذلك عن طريق إخفاء نبأ وفاة ولي أمره، ولكن الطبيب نفسه كان دجالًا، فلما استبد به القلق أخيرًا بسبب انقطاع المال عنه، وأهم من هذا، بسبب تفتح شهية مريضه،

قدم إليه جرموقاً قديماً لحذائه، ومعطفاً رثاً، وشحنه إلى روسيا في مركبة بالدرجة الثالثة. وربما يبدو أن الحظ قد أولى ظهره لبطل قصتنا. لا، أبداً. إن الحظ الذي يترك شعوباً بأكملها تموت جوعاً، راح يمطر هداياه فوراً على رأس صاحبنا الأرستقراطي الشاب، تماماً مثل سحابة كيرلوف التي تمر على السهل المحترق ظمأً لتفرغ ماءها في البحر. ذلك أنه ما كاد يصل إلى بطرسبرج حتى كان قد مات في موسكو قريب لأمه «كان ينحدر طبعاً من الطبقة البرجوازية». وكان تاجرًا، ومن «المؤمنين القدامى». وبلا أبناء، وقد ترك ثروة تقدر بملايين عديدة من النقد المتداول، وآل هذا كله إلى صاحبنا من البيئة الأرستقراطية، البارون ذي الجرموق، الذي كان يعالج من البلاهة في مصحة للأمراض العقلية بسويسرا. وسرعان ما تغير الحال، فإذا الأصدقاء يتزاحمون حول صاحبنا البارون الذي كان قد وقع صريع الحب لغانية مشهورة، بل لقد اكتشف لنفسه بعض الأقارب، وعدا هذا فإن عدداً من الشابات المنحدرات من أسر عريقة، أصبحن ملهوفات على الارتباط معه برباط الزوجية المقدس، فهل يمكن أن يتصور أحد زوجاً أفضل من هذا؟ أرستقراطي، ومليونير، وأبله! إنه يتمتع بكل الميزات. وعبثاً قد يحاول الإنسان أن يظفر بزواج مثله ولو استخدم في هذا مصباح ديوجينيس...

وهنا صاح الجنرال إيبانشين وقد أخرجه السخط عن طوره:

- أوه، إنني لا أعرف ماذا يعني هذا؟

وارتفعت صيحات الدهشة والتعجب من الجميع، بينما قال الأمير

لكوليا في رجاء:

- كفى يا كوليا!

وأصدرت المسز إيبانشين أمرها قائلة بعد أن بذلت جهد اليأس
للتمالك أعصابها:

- دعه يستمر في القراءة مهما يكن الأمر. اسمع أيها الأمير، لسوف
أتشاجر معك إذا توقفت القراءة.

ولم يسع كوليا إلا أن يطيع الأمر، فراح يستمر في القراءة بوجه مضطرم:
- ولكن بينما كان صاحبنا المليونير الشاب كأنه يقيم في غبطة وسعادة
وقع حدث جديد. ففي ذات صباح جميل، أقبل عليه رجل هادئ الملامح،
وقور المظهر متميز السميت ولكن عادي الملابس. وفي أسلوب مهذب،
وبسمت وقور يناسب مهمته، راح يشرح في إيجاز الهدف من زيارته. لقد
كان محامياً واسع الأفق موفور العلم، وكان عميله شاباً أراد أن يستشير في
موضوع خاص. ذلك الشاب لم يكن أحداً غير ابن ذلك الإقطاعي «ب» وإن
كان يحمل اسماً آخر. ذلك أن العابث «ب» في شبابه كان قد خدع فتاة فقيرة
ولكنها محترمة. وكانت من طبقة الأجراء المسخرين. ولكنها تلقت قسطاً
من التعليم الأوروبي. فلما وجدت أنها حامل، أسرعت بالزواج من شاب
كريم الصفات كان يحبها منذ أمد بعيد. وساعد «ب» الزوجين الشابين فترة
من الوقت، ثم سرعان ما اضطر إلى أن يكف يده؛ لأن الزوج كان كريم
النفس بحيث رفض كل مساعدة منه ولم يلبث الإقطاعي العابث أن نسي
كل شيء عن الفتاة والطفل الذي حملت به منه، ثم مات، كما علمنا، دون
أن يترك وراءه وصية ما. ولما ولد ابن «ب» بعد زواج أمه، وجد أباً حقيقياً
في الرجل الكريم الذي منحه اسمه. ولكن عندما مات هذا بعد وقت قصير،
ترك اليتيم ليعول نفسه، وكانت الأم قد أصبحت مقعدة فاقدة القدرة على
تحريك أطرافها. وبعد أن تركها في مقاطعة ريفية نائية، جاء إلى العاصمة

باحثًا عن تلاميذ يدرس لهم. وأخذ بالجهد الشديد يكسب من الرزق ما يعينه على متابعة دراسته الثانوية لكي يلحق في النهاية بالجامعة. ولكن أي شيء يستطيع الإنسان أن يحصل عليه بالتدريس لأبناء التجار الروسين نظير عشرة كوبكات عن كل درس، لا سيما وعليه أن يعول أمًا مقعدة؟ بل إن وفاتها لم تخفف من متاعب الشاب في كفاحه للحياة: والآن هذا هو السؤال: كيف ينظر صاحبنا الذي هو أحد بقايا الأرستقراطية إلى هذا الموضوع من وجهة العدالة والإنصاف؟ لا شك أن قراءنا سيعتقدون أنه سيقول لنفسه: لقد غمرني «ب» بأفضاله طوال حياتي، وأنفق عشرات الآلاف من الروبلات على تعليمي وتزويدي بالمربيات، وبوضعي تحت العلاج في سويسرا وقد أصبحت الآن مليونيرًا. وإن ابن «ب»، وهو شاب كريم غير مسئول عن أخطاء أبيه وإهماله وعبثه - يعول نفسه بتقديم الدروس نظير أجر تافه. وبناء على الإنصاف والعدالة، فإن كل ما قدم إليّ، ينبغي أن أقدم مثله إليه، إن المبالغ الضخمة التي أنفقت عليّ لم تكن في الواقع من حقي. لقد جاءني عن طريق خطأ من الحظ الأعمى. بينما كان الواجب أن تؤول إلى ابن «ب». كان يجب أن تكرر لمنفعته، لا لمنفعتي أنا الذي اهتم «ب» بأمرى بدافع من نزوة عابرة بدلًا من أن يؤدي واجبه كأب. فإذا أردت أن أنصرف بكرم وإنصاف ولباقة، فينبغي أن أهب نصف ثروتي لابن الرجل الذي أحسن إليّ. ولكن لما كان الاقتصاد وهو فضيلتي الأثيرة، فإنني لن أتنازل عن نصف ملاييني. ولكن الأمر يكون واضح الدناءة، ممجوجًا إلى أقصى حد إذا أنا لم أرد إلى ابن «ب» على الأقل عشرات الآلاف من الروبلات التي أنفقت على علاجي من البلاء. إن هذه الحالة ببساطة تتعلق بالضمير وبالعدالة المطلقة، ترى ماذا كان المنتظر من أمري لو لم يهتم «ب» بتعليمي، وأسبغ رعايته على ابنه بدلًا مني!

«لا أيها السادة، إن بقايا الأرستقراطية لا يفكرون على هذا النحو من المنطق، إن المحامي الذي تولى هذا الأمر بدافع من الصداقة الخالصة للشاب وعلى رغم إرادته الخاصة تقريباً- أخذ يشير في نفسية بطل قصتنا كل اعتبارات العدالة واللباقة والشرف، بل ومجرد أصول الفطنة والاقتصاد؛ ولكنه عبثاً كان يحاول. فقد أبى المريض السابق بمصحة الأمراض العقلية السويسرية أن يلين. كل هذا يمكن أن يمر، إلا أن العاقبة من المستحيل أن تُغتفر، كما لا يمكن التماس العذر بالمرض. هذا المليونير، الذي خلع عن قدميه منذ وقت قصير جرموق أستاذه السويسري، لم يستطع حتى أن يفهم أن الشاب الكريم الذي يعول نفسه بإعطاء الدروس الخاصة، لا يطالبه بإحسان، وإنما بحق واجب الأداء، وإن كان الدين غير قانوني. وعلى وجه الصحة، فإنه لم يطالب بشيء، وإنما الأمر فقط أن أصدقاءه هم الذين رأوا من الواجب إثارة الموضوع لصالحه. وبكبرياء الرأسمالي المنتفخ، المطمئن إلى ملايينه، تناول من جيبه في ترفع وتعال ورقة نقدية من فئة خمسين روبلاً، وأرسل بها إلى الشاب الكريم كلون مهين من الإحسان. إنكم لا تكادون تصدقون هذا أيها السادة؟ إنكم ولا شك تشعرون بالنفور والاشمئزاز، إنكم ترسلون صيحات الاستنكار! ولكن هذا ما فعل. ولا داعي للقول إن المبلغ أعيد إليه، أو، على الأصح، أُلقي في وجهه، إن هذه الحالة لا تدخل في نطاق القانون، ومن ثم يجب عرضها على محكمة الرأي العام، وهذا ما نفعله الآن ونحن نضمن صدق كل التفاصيل التي أوردناها هنا».

ولما فرغ كوليا من القراءة، سلم الصحيفة إلى الأمير، ثم لجأ في سكون إلى ركن الغرفة حيث طمر وجهه بين يديه. لقد غمره إحساس بالعار الذي لا يُوصف، وجرحت إحساساته الصيبانية المرفهة جرْحاً ليس له علاج. لقد

خُيل إليه أن شيئاً شاذاً، أو كارثة مفاجئة قد حدثت. وأنه هو نفسه يكاد يكون السبب؛ لأنه قرأ الصحيفة بصوت مرتفع.

ومع ذلك فقد كان أثر هذا كله مماثلاً في نفوس الباقين. إذ أحست الفتيات بالقلق والخجل، وتماكت المسز إيبانشين غضبها الشديد بجهد بالغ. ولعلها أحست بالندم المرير بسبب تدخلها في الموضوع. وعلى أية حال فقد التزمت الصمت مؤقتاً. ولما كان الأمير من الناس الخجلين جداً بطبيعتهم، فقد بلغ به الإحساس بالمهانة أمام ضيوفه إلى حد أنه لم يجرؤ على النظر إلى وجوههم. أما بيتسين وفاريا وجانيا وحتى ليبيديف، فقد شعروا جميعاً بالارتباك. وأعجب من هذا أن إيوليت و«ابن بافليشيف» ارتسمت عليهما - كما يبدو - الدهشة الخفيفة. بينما بدا ابن أخت ليبيديف أبعد ما يكون عن السرور، إن الملاكم فقط هو الذي بقي هادئاً تماماً. وقد أخذ يفتل شاربيه في وقار مصطنع، مغضياً بعينه، لا بسبب الارتباك طبعاً، وإنما في تواضع كريم، كأنما لا يريد أن يبدو وقحاً في انتصاره. وكان الواضح أنه شديد الابتهاج بالمقالة.

وغمغم الجنرال إيبانشين بصوت خافت:

- الشيطان وحده يعلم ماذا تعني هذه المقالة. لا شك أنها احتاجت إلى ذكاء خمسين خادماً لكتابتها.

وهنا قال إيوليت وهو يرتعد بالغضب:

- هل يمكن أن أسألك يا سيدي العزيز عن السبب الذي من أجله تُدلي بهذا الرأي المهين؟

ودمد الملاكم فجأة وهو يحرك كتفيه حركات تشنجية:

- لسوف تعترف بنفسك يا جنرال أن رأيك هذا يعتبر إهانة لرجل شريف، إذا كان كاتب هذه المقالة رجلاً شريفاً.

فقال الجنرال في عنف:

- أولاً ليس لمثلك أن يخاطبني قائلاً «يا سيدي العزيز»، وثانياً أرفض أن أقدم إليك أي إيضاح.

وبلا كلمة أخرى، نهض ومضى ووقف عند أول درجة في السلم المؤدي من الشرفة إلى الشارع، مولياً ظهره للجميع، وكان شديد السخط على زوجته التي لم تكن تفكر حتى في الانصراف بعد هذا كله.

وهتف الأمير في قلق واهتياج نفسي قائلاً:

- أيها السادة، أيها السادة، دعوني أتحدث أخيراً.. أرجو أن تسمحوا لنا بالتفاهم معاً. ليس لي ما أقوله عن المقالة أيها السادة إلا أن كل كلمة فيها كاذبة. وأنا أقول هذا لأنكم تعرفون هذه الحقيقة. كما أعرفها. إنها لفضيحة، ولا شك أنني سأدهش إذا كان أحدكم قد كتبها.

وقال إيبوليت:

- إنني لم أعرف بأمرها إلا في هذه اللحظة. ولست أوافق على ما جاء فيها.

وقال ابن أخت ليبيديف:

- عرفت أنها كُتبت، ولكنني ما كنت أنصح بنشرها؛ لأنها فجّة.

فقال «ابن بافليشيف» متلجلجاً:

- إنني أعرف هذا، ولكن لي حقاً.. أنا.. أنا..

فقال الأمير وهو يرمق بوردوفسكي مستطعاً:

- ماذا؟ هل كتبت كل هذا بنفسك؟ مستحيل!

فقال ابن أخت ليبيديف:

- ربما لا يكون ثمة من يعترف بحقك في إلقاء مثل هذه الأسئلة.

- إنني دهش فقط من أن يكون المستر بوردوفسكي هو الذي.. وعلى

كل حال هذا ما ينبغي أن أقول. وما دمت قد نشرتم الموضوع على الرأي العام، فلماذا تعترضون الآن حين أبدأ في الحديث عنه مع أصدقائي؟

وغمغمت المسز إيبانشين قائلة في استنكار:

- أخيراً!!

ولم يستطع ليبيديف أن يتمالك نفسه أكثر مما فعل، فشق طريقه بين

المقاعد وهتف قائلاً:

- أيها الأمير، لقد نسيت أنك حين تنازلت واستقبلت هؤلاء واستمعت

إليهم، إنما فعلت هذا بدافع من قلبك الطيب، الذي ليس له نظير؛ لأنهم ليس

لهم أي حق في مطالبتك بشيء، لا سيما وقد وضعت الأمر بين يدي جافريلا

أرداليونوفيتش. وهذا يعتبر أيضاً عطفاً كبيراً منك. وقد نسيت أيضاً يا فخامة

الأمير أنك بين جماعة من خاصة الأصدقاء الذين لا يمكنك التضحية بهم

إكراماً لهؤلاء السادة، وإن الأمر بيدك فقط لكي تأمر بطردهم من البيت فوراً.

وأنا، بصفتي صاحب البيت، يسرني جداً...

وأعلن الجنرال، إيفولجين موافقته بصوت مرتفع قائلاً:

- تماماً...!

فبدأ الأمير يقول:

- هذا يكفي يا لبيديف، هذا يكفي..

وهنا قطعت حديثه صيحات احتجاج ولكن ابن أخت لبيديف قال بصوت طغى على أصوات الجميع:

- معذرة أيها الأمير، معذرة. ولكن هذا لا يكفي الآن؛ لأن من الواجب بحث الموضوع بوضوح تام؛ لأن من الجلي أنه غير مفهوم كما ينبغي. إنهم يريدون أن يطبقوا علينا قانون الاحتيال، ويمكنهم على هذا الأساس أن يهددونا بالطرد من هذا البيت! أعتقد حقاً أيها الأمير أننا من الحماية بحيث لا ندرك أن الموضوع خارج عن نطاق القانون، وأنا قانوناً، لا نستطيع أن نطالبك بروبل واحد؛ ولكننا نعرف أيضاً أنه إذا لم يكن القانون الوضعي في جانبنا، فإن القانون الإنساني معنا، القانون الطبيعي، قانون المنطق والضمير الذي لا يقل قوة وتأثيراً في نفس كل إنسان كريم نبيل - أي كل إنسان عاقل فطن - حتى ولو لم يكن منصوباً عليه في بنود قوانيننا البائسة. فإذا نحن قد جئنا هنا بلا خوف من الطرد «كما سمعنا التهديد بهذا الآن» فلأننا جئنا لنطالب، لا لنرجو ونلتمس. أما عن عدم ملاءمة الوقت لمثل هذه الزيارة «رغم أن الوقت لم يكن متأخراً عندما جئنا وبقينا ننتظر في غرفة الانتظار» فإن كل ما أقوله هو أننا إذا كنا قد جئنا بلا خوف، فإنما لأننا كنا نتوقع أن نجدك رجلاً عاقلاً، أعني رجلاً شريفاً حي الضمير. والواقع، حقاً، أننا لم نتقدم إليك في تواضع كما يفعل أصحابك المنافقون الطفيليون، وإنما جئنا مرفوعي الرؤوس كما يليق بالرجال الأحرار. إننا لا نقدم إليك التماساً، وإنما مطالبة حرة مترفعة «لاحظ هذا جيداً، إننا لا نلتمس، وإنما نطالب». إننا نسألك في صراحة وإنصاف ووضوح وبطريقة كريمة: هل تعتقد أن

الحق في جانبنا بشأن موضوع بوردوفسكي؟ هل تعترف بأن بافليشيف قد غمرك بأفضاله، وربما أنقذ حياتك؟ فإذا كنت تعترف بهذا «وهو ما نعتبره أمرًا مفروغًا منه». فهل تنوي، وقد أصبحت مليونيرًا، أن ترى أن من دواعي العدالة والإنصاف الاعتراف بحق بوردوفسكي! نعم أم لا؟ فإذا كانت نعم، أو بعبارة أخرى، إذا كان لديك ما تسميه بالشرف والضمير، وما نسميه نحن بحق، فطنة وحسن تصرف، فعليك أن تحقق مطلبنا. وعندئذ ينتهي الأمر. أرض رغباتنا دون انتظار رجاء أو شكر منا: نعم، لا نتنظر منا شكرًا؛ لأن ما تفعله لن يكون من أجلنا، وإنما من أجل العدالة. أما إذا رفضت إرضاءنا، أي إذا كانت إجابتك، لا، فسوف ننصرف فورًا، وينتهي الأمر تمامًا. ولكننا سنقول لك في وجهك، وأمام هؤلاء الحاضرين، إنك رجل سوقي التفكير، ناقص العقل. سوف ننكر عليك، علانية، أي حق لك للتحدث في المستقبل عن شرفك وضميرك؛ لأنك لم تدفع الثمن المناسب لمثل هذا الحق. لم يعد لدي ما أقول أكثر من هذا. لقد وضعت السؤال أمامك. وعليك الآن أن تطردنا إذا استطعت. وفي مقدورك أن تفعل، فالقوة بجانبك. ولكن تذكر أننا لا نلتمس وإنما نطالب! إننا لا نلتمس وإنما نطالب!

وبهذه الكلمات الحماسية الأخيرة، أنهى ابن أخت ليبيديف حديثه، والتزم الصمت.

وهتف بوردوفسكي متلعثمًا وقد اربد وجهه حتى غدا كالكاپوريا:

- إننا نطالب، نطالب، نطالب لا نلتمس!

وأثار حديث ابن أخت ليبيديف موجة من الاضطراب بين الحاضرين، فسرت الغمغة في الجو، ولكن حرص كل واحد، رغم هذا، على عدم التدخل في الموضوع فيما عدا ليبيديف الذي ظل شديد الانفعال، والغريب

أنه، رغم وقوفه في جانب الأمير، بدا شديد الزهو ببلاغة ابن أخته. فقد كان هذا الشعور بالزهو والرضا واضحًا في النظرات التي كان يلقيها على الحاضرين جميعًا.

وقال الأمير في صوت خافت لابن أخت لبيديف:

- في رأيي أنك يا مستر دوكتورنكو على حق تمامًا في نصف ما تقول على الأقل، ويمكنني أن أزيد على هذا فأقول إنك على حق تمامًا، وإنني متفق معك كل الاتفاق لو لم يكن ثمة شيء ينقص حديثك هذا. وأنا لا أستطيع أن أذكر بالتحديد هذا الشيء. ولكنك، على وجه اليقين قد أغفلت شيئًا، ومن ثم فلا يمكنك أن تكون عاديًا ما دام ينقص حديثك هذا الشيء، ولكن لندع هذا جانبًا، ولنعد إلى الموضوع، قل لي: ما الذي حدا بك إلى نشر هذه المقالة. إن كل كلمة فيها زائفة، وإنني لأعتقد أيها السادة، أنكم قد ارتكبتم عملاً دينيًا.

- اسمح لي..

- سيدي..

وصاح الزائرون جميعًا في صوت واحد في حالة انفعال شديد:

- ماذا؟ ماذا؟ ماذا؟

وقال إيبوليت بصوته الشبيه بالنحيب:

- أما عن المقالة، فقد قلت لكم فعلًا إنه ليس بيننا من يوافق عليها.

ثم أردف قائلاً وهو يشير إلى الملاكم الجالس بجانبه:

- هذا هو كاتبها، وأنا أعترف أنه كتبها بأسلوبه العسكري القديم

الخالى من الجمال واللباقة على السواء. وأنا أعرف أنه شخص فى مفترق الطريق بين الحمافة والنهور. وإنى لا أتردد أبداً فى أن أقول له هذا فى وجهه كل يوم. ولكنه، مع هذا كله، على شىء من الحق، فالإعلان عن الرأى فى الصحف هو الحق القانونى لكل إنسان. وليس لبوردوفسكى أن يُستثنى فى هذا، إن عليه أن يتحمل نتائج أخطائه. أما عن الاعتراض الذى عبرت عنه الآن باسم الجميع، وفى حضور أصدقائك، فأعتقد أن علىّ تفسيره، أياها السادة، بأنى أردت فقط أن أؤكد حقوقنا رغم أننا كنا نتمنى فى الواقع أن يكون لدينا شهود. لقد اتفقنا بالإجماع على الموضوع قبل أن نجىء. ولم نحفل بمن قد يكونون شهودك، أو ما إذا كانوا أصدقاء لك أم لا، فما دام أنهم لا يستطيعون إلا الاعتراف بحق بوردوفسكى «لأنه يمكن إثباته من الوجهة الحسابية» فمن الخير لنا أن يكون الشهود أصدقاء لك. فإن الحقيقة عندئذ ستكون أقوى وأوضح.

فقال ابن أخت لبيديف مؤيداً:

– نعم، تماماً. لقد اتفقنا على هذه النقطة.

وعندئذ سأل الأمير قائلاً فى دهشة:

– ما دام الأمر كذلك، فلماذا بدأت الموضوع بكل هذه الضجة؟

وكان الملاكم يكاد يموت شوقاً لأن يقول شيئاً، وكان وجود السيدات

قد جعله ولا شك، أكثر تلطفاً ورقة. ومن ثم قال:

– أما عن المقالة أياها الأمير، فأعترف أنى كتبها رغم الانتقاد العنيف

الذى وجهه إالىّ صديقى المسكين الذى أتجاوز دائماً عن الكثير مما يقوله

لى بسبب سوء صحته. ولكننى كتبها ونشرتها فى قالب رسالة فى صحيفة

صديق لي. ولم أطلع أحداً عليها غير بوردوفسكي. ولم أقرأها كلها لأحد، حتى له هو، وقد صرح لي بنشرها فوراً، ولكنك سوف تعترف بأنه كان يمكن أن أفعل هذا بدون إذن منه؛ لأن نشر الرأي حق نبيل كريم شائع، وأنا أرجو أيها الأمير أن تكون عصرياً في تفكيرك بحيث لا تنكر هذا.

- إنني لا أنكر شيئاً، ولكن يجب أن تعترف بأن مقالتك..

- ثقيلة بعض الشيء، أليس كذلك؟ حسناً، إن الأمر من جهة ما يتعلق بالمصلحة العامة، وأنت تعترف بهذا شخصياً. ثم إن الإنسان بعد كل شيء لا يستطيع أن يغفل حقيقة صريحة. وفي هذا الشيء الكثير من السوء للأشخاص المخطئين، ولكن المصلحة العامة ينبغي أن تكون في المقدمة. أما فيما يتعلق ببعض الانحرافات عن الحقيقة وبالتشبيهاً البلاغية، إن صح هذا القول، فأنت تعترف أن الدافع والهدف والقصد هي الأمور الأساسية. إن أهم شيء هو أن نجعل الموضوع مثلاً عاماً، ومن الممكن بعد ذلك أن نبحث الحالة الفردية منه. أما عن الأسلوب...! فإن المقصود أن يكون فكاهياً، إن صح هذا، ثم إن كل إنسان يكتب هكذا. ويجب أن تعترف بهذا بنفسك! ها، ها..

فقال الأمير:

- ولكنني أؤكد لكم أيها السادة أنكم بعيدون جداً عن الحقيقة. لقد نشرت هذه المقالة على افتراض أنني لن أوافق أبداً على إرضاء رغبة المستر بوردوفسكي وبتصرفكم على هذا الأساس، حاولتم أن ترهبوني بهذا النشر، وأن تتقموا من رفضي الذي افترضتموه. ولكن ماذا عرفتم عن نواياي؟ من المحتمل أن أكون قد قررت إرضاء المستر بوردوفسكي في مطالبه. وإنني الآن أصرح علانية في حضور هؤلاء الشهود أنني سأفعل.

وهتف الملاك قائلًا:

- هذه في النهاية كلمة نبيلة بارعة من رجل بارع أشد ما يكون نبلاً.

وصاحت المسر إيبانشين رغماً عنها:

- يا إله السماء!

ودمدم الجنرال قائلًا:

- إن هذا لا يُحتمل.

وقال الأمير:

- اسمحوالي أيها السادة، اسمحوالي. فإني سأشرح لكم الأمور، لقد قام بزيارتي، منذ خمسة أسابيع مضت، المستر شياروف، وكيلك يا مستر بوردوفسكي، وقد وصفته وصفًا كله الإطراء في مقاتلك يا مستر كيلر.

قال الأمير هذه العبارة الأخيرة للملاك وهو يتسم، ثم أردف قائلًا:

- ولكنه لم يسرني على الإطلاق. فقد رأيت فوراً أنه الروح المحركة لهذا الموضوع. وأعتقد، بصراحة، أنه قد يكون الشخص الذي أغراك يا مستر بوردوفسكي، بهذه المطالبة، مستغلاً بساطتك.

فقال بوردوفسكي متأثناً في انفعال شديد:

- ليس من حقك.. إنني لست بسيطاً.

وقال ابن أخت ليبيديف في لهجة آمرة:

- ليس لك أي حق في افتراض مثل هذه الأشياء.

وصرخ إيبوليت قائلًا:

- هذه إساءة بالغة، هذا رأي مهين زائف، جاء في غير وقته.

وقال الأمير:

- معذرة أيها السادة، أرجو أن تغفروا لي. لقد ظننت أن الصراحة التامة من الجانبين هي الأفضل، ولكن حسناً، ليكن لكم ما تريدون. لقد قلت لشيباروف إنني ما دمت غير موجود في بطرسبرج، فسوف أبعث بصاديق ليتحرى الأمر بلا تأخير، وهذا ما سوف أخبرك به يا مستر بوردوفسكي، أيها السادة، إنني لا أتردد في أن أقول لكم إن المستر شيباروف في أول الأمر هو الذي جعلني أشك في أن المسألة كلها نصب واحتيال. أوه، لا تغضبوا من كلماتي أيها السادة..

ثم أردف الأمير هاتفاً حين رأى بوردوفسكي يعود إلى الانفعال، وأن الباقين يستعدون للاحتجاج:

- لا تفقدوا السيطرة على أعصابكم أيها السادة بحق السماء، فإذا قلت إنني أشك في أن الموضوع نصب واحتيال، فلا أعني شخصاً بالذات، فأنا لم أكن قد رأيت أحداً من عندكم عندئذ، بل لم أكن عرفت حتى أسماءكم. إنني فقط أصدر حكمي بما رأيت من شيباروف، وإنني لأتحدث بصفة عامة - لأنكم لا تعرفون كم عانيت من صنوف «الاحتيال» منذ هبطت عليّ الثروة.

فقال ابن أخت لبيديف في صوت ينم على التهكم:

- إنك ساذج أكثر مما ينبغي أيها الأمير.

وقال إيبوليت بصوت مرتفع:

- وعدا هذا. وبالرغم من أنك أمير ومليونير، بل والرغم من أنك قد تكون حقاً طيب القلب بسيطاً، فإنك لا تكاد تستطيع أن تخرج عن نطاق

القانون العام.

فأسرع الأمير بالموافقة قائلاً:

- ربما لا، وهذا محتمل جداً، ذلك وإن كنت لا أعرف ما هو القانون العام الذي تومئ إليه. وسوف أستمّر.. وكل ما أرجوه هو أن لا تغضبوا بغير سبب معقول. وأؤكد لكم أنني لا أقصد الإساءة إليكم إطلاقاً. حقاً! إنه من المستحيل أن يتحدث الإنسان معكم ثلاث كلمات بإخلاص دون أن يندلع غضبكم! لقد دهشت في أول الأمر عندما أخبرني شيباروف أن لبافليشيف ولداً، وأنه في مثل هذه الحالة المالية التعسة. لقد كان بابفليشيف راعياً لي، وصديقاً لأبي. أوه، لماذا تخلق في مقالاتك يا مستر كيللر أشياء عن أبي دون أن يكون لها أي أساس؟ إنه لم يذر في رصيد الفرقة، ولم يكن يسيء معاملته مرءوسيه. إنني واثق تماماً من هذه الحقيقة. ولا أستطيع أن أتصور كيف أمكنك أن تكتب مثل هذه الترهات؟ أما تأكيداتك الخاصة بابافليشيف فهي أبعد ما تكون عن الحقيقة! إنك لم تتورع عن وصف ذلك الرجل الكريم بأنه فاسد، عابث. لقد أسميته ماجناً ببرود وكأنما تذكر عنه الحقيقة. ومع ذلك فقد يكون من المستحيل أن تجد رجلاً أفضل منه. بل لقد كان موفور الثقافة. وكان يرسل عددًا كبيراً من العلماء المشهورين، وينفق مبالغ طائلة في سبيل التقدم العلمي. أما عن قلبه الطيب، وحسن تصرفاته، فقد صدقت حقاً عندما قلت إنني كنت يومذاك أبله، لا أكاد أفهم شيئاً «ومع ذلك كنت أستطيع أن أتحدث الروسية وأفهمها».. ولكنني الآن أستطيع أن أدرك قيمة ما أتذكره..

فقاطعه إيبوليت قائلاً:

- معذرة! ألا ترى أن هذه مسائل عاطفية ليس هذا مجالها! لقد قلت إنك تريد أن تصل إلى نقطة معينة، فأرجوك أن تتذكر أن الساعة قد تجاوزت

الآن التاسعة.

فأجاب الأمير قائلاً:

- حسنًا أيها السادة، حسنًا. لقد تلقيت هذه الأنباء في أول الأمر بالشك، ثم قلت لنفسني إنني قد أكون مخطئًا، وإن من المحتمل أن يكون لبافليشيف ابن. ولكنني دهشت كل الدهشة لهذا الاستعداد الذي أباه الابن للكشف عن سر مولده أمام الرأي العام على حساب سمعة أمه؛ لأن شياروف هددني في أثناء المقابلة بنشر الموضوع في الصحف..

فقاطعه ابن أخت ليبيديف قائلاً بعنف:

- ما هذا اللغو!

وصاح بوردوفسكي:

- ليس من حقك.. ليس من حقك!

وأضاف إيبوليت قائلاً بحماسة:

- إن الابن غير مسئول عن أخطاء والده، ولا ينبغي توجيه اللوم إلى الأم..

فقال الأمير بوداعة:

- وهذا، كما يبدو لي، من أقوى الأسباب للتستر عليها.

وقال ابن أخت ليبيديف بابتسامة تهكمية:

- أيها الأمير، إنك لست فقط ساذجًا، بل إن سذاجتك فاقت كل حدود.

وقال إيبوليت في صوت غريب جدًا:

- ولكن أي حق لك..

فوافقه الأمير قائلاً بسرعة:

لا شيء، إطلاقاً، فأنا أعترف أنك محق في هذا. ولكن هذا التفكير كان رغباً عني، وقد أسرعت قائلاً لنفسي إن شعوري الشخصي لا شأن له بالموضوع، وأنه إذا رأيت من الواجب إرضاء بوردوفسكي في مطالبه، إكراماً لذكرى بافليشيف، فينبغي أن أفعل هذا على أية حال، سواء كنت أشعر بالتقدير لمستر بوردوفسكي أم لا. إنني أذكر هذا فقط؛ لأنه يبدو لي من غير الطبيعي للابن أن يفشي سر أمه على هذا النحو. وعلى الجملة، فإن هذا ما أقنعني بأن شيباروف رجل وغد بلا شك، وأنه هو الذي أغرى المستر بوردوفسكي على هذا اللون من النصب والاحتيال.

وهنا صاح الزائرون، وقد همَّ بعضهم واقفين:

- إن هذا لا يُحتمل.

- أيها السادة، لقد افترضت بناء على هذا أن المستر بوردوفسكي لا بد وأن يكون شخصاً بسيط التفكير، أعزل، ولعبة سهلة في أيدي الأوغاد. وهذا ما يجعلني أرى أن من واجبي أن أحاول مساعدته «كابن لبافليشيف»، وذلك لكي أنقذه أولاً من نفوذ شيباروف، وثانياً لأجعل من نفسي صديقاً له. وقد قررت أن أعطيه عشرة آلاف روبل. وهو مبلغ يناهز في تقديري ما أنفقه بافليشيف عليّ.

وصاح إيوليت:

- ماذا! عشرة آلاف روبل فقط؟

وقال ابن ليبيديف:

- حسناً أيها الأمير، إنك غير بارع في تقديراتك الحسابية، أو لعلك

شديد البراعة رغم أنك تتظاهر بالسذاجة.

وقال بوردوفسكي:

- إنني لن أقبل عشرة آلاف روبل.

فهمس الملاك في لهفة وهو يميل وراء مقعد إيبوليت ليقدم نصيحته إلى صاحبه:

- اقبل يا أنتيب، اقبل في الوقت الحاضر، وسوف ننظر في أمر المزيد بعد ذلك.

وصاح إيبوليت قائلاً:

- اسمع يا مستر ميشكين. أرجوك أن تفهم أننا لسنا مغفلين أو بلهاء، كما يظن أصحابك هؤلاء. هؤلاء السيدات اللاتي ينظرن إلينا بكل هذا الاحتقار، لا سيما هذا السيد البديع «مشيراً إلى إيفيني بافلوفيتش» الذي لم أتشرف بمعرفته بعد، وإن كنت أظن أنني سمعت بعض الحديث عنه.

وصاح الأمير قائلاً في احتياج شديد:

- الواقع، الواقع أيها السادة أنكم تخطئون فهم حديثي مرة أخرى. فمن ناحية أولى، قد بالغت جداً يا مستر كيلر في تقدير ثروتني بمقاتلك. فأنا أبعد من أن أكون مليونيراً، إنني لا أملك عُشر ما تظن، ومن ناحية ثانية، فإن العلاج لم يستلزم أبداً إنفاق عشرات الآلاف من الروبلات. لقد كان شنيدر يتلقى من أجلي ستمائة روبل في العام، ولمدة الأعوام الثلاثة الأولى فقط. أما عن المربيات الجميلات التي قيل - زعمًا - إن بافليشيف قد آتى بهن من باريس، فإنهن غير موجودات إلا في مخيلة المستر كيلر. وهذه فرية أخرى. وطبقاً لتقديراتي، فإن المبلغ الذي أنفق عليّ يقل كثيراً عن عشرة

آلاف روبل. ولكنني قررت أن أدفعه، ولكن يجب أن تعترفوا أنني، كمُسدّد لدين، لا أستطيع أن أدفع أكثر من هذا للمستر بوردوفسكي، أيّا كانت ميولي الحميدة نحوه. إن أصول اللياقة تمنعني من هذا؛ لأنني قد أبدو كأنما أقدم إليه إحساناً بدلاً من أن أسدد له حقاً شرعيّاً. ولست أدري كيف غفلتم عن هذه الحقيقة أيها السادة! وعدا هذا، فليس في نيتي أن أدع الأمر يقف عند هذا الحد. لأنني أنوي أن أندخل في الأمر وديّاً بعد ذلك لتحسين مركز المسكين المستر بوردوفسكي. فمن الواضح أنه خُدع، وإلا لما وافق أبداً على شيء مليء بكل هذا العار الذي جلبه على أمه وأعلنه في مقالة المستر كيللر! ولكن عجباً أيها السادة، لماذا تغضبون مرة أخرى! ألن نصل أبداً إلى التفاهم والاتفاق؟ حسناً، لقد ثبت لي أنني على صواب، لقد رأيت الآن بعيني الدليل على أنني صادق في حدسي.

وكان وهو ينطق بالكلمات الأخيرة في لهفة، يقصد أن يهدئ من ثائرة المستمعين إليه، ولكن كلماته لم تزدهم إلا اهتياجاً. فراحوا يقولون:

– ماذا تعني؟ بماذا اقتنعت؟

– لقد أتيت لي الفرصة، أولاً، لأن أكوّن فكرة صحيحة عن المستر بوردوفسكي، فأنأ أرى بنفسي الآن من هو. إنه إنسان بريء، مخدوع من الجميع! إنه ضحية يستحق الرعاية والحماية! وثانياً، فإن جافريلا أردالبونوفيتش الذي وضعت الأمر بين يديه، عقد أول اجتماع معي لهذا الشأن منذ ساعة فقط ولم أكن قد سمعت منه شيئاً منذ مدة؛ لأنني كنت غائباً، وأمضيت ثلاثة أيام مريضاً في بطرسبرج. وقد أخبرني أنه كشف أمر المستر شياروف وأصبح لديه الدليل الذي يؤيد رأيي فيه. وأنا أعرف، أيها السادة، أن كثيراً من الناس يظنونني أبله. ولهذا رأى شياروف، بناء على ما يُشاع

عني كرجل كيس نقوده مفتوح، أنه لأمر سهل أن يجردني من أموالي، لا سيما عن طريق استغلال إحساسي بالفضل والجميل لبافليشيف. ولكن النقطة الأساسية هي.. اسمعوا أيها السادة، دعوني أنتهي من حديثي - النقطة الأساسية هي أن المستر بوردوفسكي ليس ابنًا لبافليشيف على الإطلاق. لقد أخبرني جافريلا أرداليونوفيتش منذ ساعة باكتشافه للحقيقة، وأكد لي أن لديه الأدلة الحاسمة، حسنًا؟ فما رأيكم في هذا؟ إنكم لا تكادون تصدقون؟ حتى بعد كل هذه الحيل التي حاولتم خداعي بها. أرجوكم إن لدينا الأدلة الحاسمة! وأؤكد لكم أنني، شخصيًا، لا أكاد أصدقها. بل إنني لم أصدقها بعد، إذ أن الشك لا يزال يساورني؛ لأن جافريلا لم يجد الوقت الكافي للحصول على التفاصيل. ولكن ليس هناك أي شك في أن شيباروف رجل وغد! لقد خدع المسكين المستر بوردوفسكي، وخدعكم جميعًا، أيها السادة، الذين تكرمتم بالمجيء لتأييد صاحبكم «وهو كما يبدو في حاجة إلى التأييد كما أرى بوضوح». لقد استغل بساطتكم وحشركم جميعًا في محاولة للنصب والاحتيال؛ لأن هذا الادعاء لا يزيد على هذه المحاولة أولاً وأخيراً.

- ماذا؟ نصب واحتيال؟ أليس ابنًا لبافليشيف؟ مستحيل!

كانت هذه العبارات من التساؤل لا تُعرب إلا عن الشيء القليل من الحيرة التي أغرقت كلمات الأمير أصحاب بوردوفسكي فيها.

- طبعًا إنها نصب واحتيال! فما دام المستر بوردوفسكي ليس ابنًا لبافليشيف فإن ادعاءه لا يزيد قليلًا أو كثيرًا على محاولة للنصب والاحتيال، «على افتراض طبعًا أنه لا يعرف الحقيقة». ولكن الحقيقة هي أنه خُدع. وإنني أصر على هذا الرأي إنصافًا له. وأكرر أن تفكيره البسيط يجعله جديرًا بالعطف

وبأنه لا يستطيع الصمود بمفرده، وإلا لتصرف في هذا الموضوع تصرف الأوغاد. لقد كنت هكذا، أنا نفسي، قبل أن أسافر إلى سويسرا. كنت أأتأني بشكل فظيع، وأعجز عن التعبير عن نفسي. إنني أدرك هذا. وإنني لأقدر الناس على الإشفاق بالمستر بوردوفسكي لأنني أعرف بالتجربة شعور الإنسان في هذه الحالة، ومن ثم فإن لي الحق فيما أقول. والآن، فبالرغم من عدم وجود شخص مثل «ابن بافليشيف»، وأن الأمر كله لا يعدو أن يكون فرية، فإني ما زلت محافظاً على قراري، ومستعداً لإعطاء المستر بوردوفسكي عشرة آلاف روبل تكريماً لذكرى بافليشيف. وقبل أن يقوم المستر بوردوفسكي بهذا الادعاء، كنت أنوي إنشاء مدرسة بهذا المبلغ، تخليداً لذكرى صاحب الفضل عليّ، ولكنني سأكرم ذكراه على كل حال بإعطاء عشرة آلاف روبل للمستر بوردوفسكي لأنه، وإن لم يكن ابن «بافليشيف» فقد عومل كأنما هو إياه. وهذا ما أتاح لذلك الوغد الفرصة لخداعه! أو جعله يعتقد حقاً أنه ابن بافليشيف. اسمعوا أيها السادة، يجب أن نضع حدًا لهذا الموضوع، اهدأوا، لا تثوروا غضباً! واجلسوا! لسوف يشرح لكم جافريلا أرداليونوفيتش كل شيء حالاً، وأعترف أنني شديد الشوق لأن أسمع بنفسي جميع التفاصيل. فهو يقول إنه ذهب إلى بركوف ليزور والدتك يا مستر بوردوفسكي، إنها ليست متوفاة كما حاولت المقالة التي قرئت علينا أن توهمنا. اجلسوا أيها السادة، اجلسوا.

وجلس الأمير، واستطاع أخيراً أن يجعل أصحاب بوردوفسكي يجلسون مثله. وكان خلال العشر أو العشرين دقيقة الأخيرة قد ضاق ذرعاً بمقاطعاتهم المستمرة لحديثه، فرفع صوته وراح يتحدث بعنف وحماسة. ولا شك أنه الآن قد ندم بمرارة على كثير من الكلمات والتعبيرات التي ندت

رغمًا عنه في أثناء انفعاله. فلو أنهم لم يثيروه إلى ما وراء حدود الاحتمال، لما جرؤ على النطق بعبارات معينة هكذا علانية ومن ثم ما كاد يجلس حتى شعر بقلبه يتمزق من فرط الندم. فعدا إهانته لبوردوفسكي بقوله له، أمام الجميع، إنه يعاني من نفس الحالة التي كان هو نفسه يعالج منها في سويسرا، فقد راح يؤنب نفسه على هذه الطريقة الفظة الخشنة التي أعرب بها عن منحه عشرة الآلاف روبل أمام الجميع، وقد قال لنفسه: «كان ينبغي أن أنتظر حتى الغد ثم أقدم له المبلغ ونحن على انفراد، ولكن الفرصة الآن قد أفلتت، والشر قد حدث. نعم، إنني أبله، أبله تمامًا».

وغمره، وهو يقول هذا لنفسه، إحساس عميق بالخجل والندم. وكان جافريلا أرداليونوفيتش، حتى هذه اللحظة، جالسًا في معزل ملتزمًا الصمت. فلما استدعاه الأمير، أقبل ووقف بجانبه، ثم راح بصوت هادئ واضح، يقدم تقريرًا عن المهمة التي عهد بها إليه. وسرعان ما خيم الصمت على الجميع، وأخذ كل واحد من الحاضرين، لا سيما بوردوفسكي، ينصت بفضول شديد.



الفصل التاسع

قال جافريلا أرداليونوفيتش وهو يستدير إلى بوردوفسكي الجالس ينظر إليه بعينين محمقتين ينمان عن الحيرة والدهشة:

- إنك لن تنكر، يقيناً، وفي جدية مطلقة، أنك وُلدت بعد عامين من الزواج الشرعي الذي عقد بين والدتك والمستر بوردوفسكي، والدك، وليس ثمة أيسر من إثبات تاريخ مولدك من المصادر المعروفة. ومن ثم يمكننا فقط أن ننظر إلى مقالة المستر كيللر على أنها من نسج الخيال، وأنها عدا هذا، إهانة بالغة لك ولوالدتك، إنه طبعاً حرّف الحقيقة لكي يدعم ادعاءك، ويخدم مصالحك. وهو يقول إنه سبق أن تفاهم معك بشأن هذه المقالة ونشرها في الصحف، ولكنه لم يقرأها لك كاملة. ولا شك أنه ما كان ليستطيع أن يقرأ عليك هذه الفقرة..

فقاطعه الملاك قائلاً:

- إذا شئت الحقيقة، فإني لم أقرأها عليه.. ولكن محتوياتها منحتني السلطة المطلقة، وأنا..

فقاطعه جافريلا أرداليونوفيتش قائلاً:

- معذرة يا مستر كيلر، دعني أنا أتحدث. وأؤكد لك أن مقالتك لن يأتي ذكرها إلا في الموضوع المناسب، وعندئذ يمكنك أن تشرح كل شيء. أما الآن فإنني أفضل أن تتبع النظام المناسب. وبمحض الصدفة وبمعاونة أختي فارفارا أرداليونوفيتش بيتسين، حصلت من صديقة حميمة لها، وهي مدام زوبكوف، على خطاب أرسله إليها- منذ عشرين عامًا- نيكولاي أندرفيتش بافليشيف الذي كان عندئذ، خارج البلاد. وبعد الاتصال بهذه السيدة، ذهبت بناء على نصيحتها لمقابلة تيموفي فيدروفيتش فيازوفكين، وهو ضابط متقاعد برتبة كولونيل، وواحد من أقدم أصدقاء بافليشيف. وقد أعطاني خطابين آخرين، كتبهما هذا الأخير عندما كان لم يزل في بلاد أجنبية. هذه المستندات الثلاثة، بتواريخها، وبالحقائق الواردة بها، تثبت بطريقة حاسمة، أن نيكولاي بافليشيف سافر قبل مولدك بثمانية عشر شهرًا إلى الخارج حيث مكث ثلاثة أعوام متصلة. وأن والدتك، كما تعلم جيدًا، لم تغادر قط الأرض الروسية. ولا يتسع الوقت المتأخر لقراءة الخطابات الآن، ويكفيني أن أقرر هذه الحقيقة. ولكن إذا شئت، فتعال غدًا صباحًا، وأحضر معك الشهود وخبراء الخط، وسوف أثبت لك صدق ما أقول تمامًا. ومنذ هذه اللحظة سوف يتقرر الموضوع نهائيًا.

وأثارت هذه الكلمات موجة من الاهتمام بين المستمعين، وسرت بينهم حركة عامة تنم عن التحرر من القلق وفجأة نهض بوردوفسكي قائلاً:

- إذا صح هذا، فأكون قد خُذعت، وخُذعت بقسوة، ولكن ليس على ידי شيباروف؛ ومنذ وقت طويل مضى.. وقت طويل. إنني لا أريد خبراء. لا، ولن آتي لزيارتك غدًا. إنني أصدقك. إنني أنفض ידי من هذا الموضوع، ولكنني أرفض العشرة آلاف روبل.. وداعًا.

فقال جافريلا أرداليونوفيتش ببشاشة:

- انتظر خمس دقائق أخرى يا مستر بوردوفسكي، فإن لديّ المزيد من القول، بعض الحقائق المهمة العجيبة التي وضحت أخيراً، وأرى أن من الأهمية بمكان أنه ينبغي أن تسمعها. وأظن أنك لن تندم إذا وضح الأمر كله أمام عينيك.

وعاد بوردوفسكي إلى مقعده صامتاً، وأحنى رأسه كأنما هو مستغرق في تفكير عميق، وجلس أيضاً صديقه، ابن أخت ليبيديف، الذي كان قد نهض لينصرف معه، وكان يبدو عليه الاستياء الشديد، أما إيبوليت، فبرغم اعتداده الدائم بنفسه، فقد بدا مكتئب السمات، ساخطاً، ومندهشاً في الوقت نفسه. وكان قد تعرض في تلك اللحظة لنوبة سعال، ومن ثم تلوث منديلته بالدماء، وبدأ الخوف الشديد على الملاكم الذي صاح قائلاً لبوردوفسكي بصوت تعس:

- أوه، أنتيب. لقد قلت لك في ذاك اليوم، أول من أمس، إنك ربما لا تكون حقاً ابن بافليشيف!

وعندئذ سرت في الغرفة أصوات ضحكات مكتومة. أما جانيا فقد استطرد قائلاً:

- هذه قطعة ثمينة من المعلومات يا مستر كيللر. وأياً ما يكون الأمر، فإن لديّ معلومات خاصة تؤكد لي أن المستر بوردوفسكي رغم أنه يعرف، ولا شك، تاريخ ميلاده، لم يكن يعرف شيئاً عن إقامة بافليشيف في الخارج. والواقع أنه أمضى الجانب الأكبر من حياته خارج روسيا، ولم يكن يعود إليها إلا في زيارات قصيرة بين الحين والآخر، وأن رحلته الخاصة بموضوعنا لم

يكن لها من الأهمية ما يجعل أصدقاءه يتذكرونها بعد أكثر من عشرين سنة. وطبعاً لم يكن في مقدور المستر بوردوفسكي أن يعرف عنها شيئاً لأنه لم يكن قد وُلِدَ بعد. ولكن لم يكن من المستحيل - كما ثبت فعلاً - العثور على الدليل الذي يثبت غيابه، وذلك رغم وجوب اعترافي بأن الصدفة وحدها هي التي ساعدتني في مهمتي التي كان من الممكن جداً أن تنتهي بلا شيء. وقد كان في حكم المستحيل تقريباً أن يكتشف بوردوفسكي أو شيباروف هذه الحقائق، حتى لو خطر ببالهما أن يحاولا. ولكنهما بطبيعة الحال لم يحلما أبداً أن...

وهنا تدخل صوت إيبوليت فجأة في الحديث، إذ قال بتوفز عصبي:

- معذرة يا مستر إيفولجين، ما جدوى هذه المحاضرة الطويلة؟ معذرة، لقد وضح الآن كل شيء، ونحن نعتزف بصدق النقطة الأساسية في حديثك. فلماذا الاستطراد في كل هذه التفاصيل المرهقة، لعلك تريد المباهاة ببراعتك في البحث والتحري، والإعلان عن مواهبك كمخبر سري! أو ربما تقصد التماس العذر لبوردوفسكي، بإقامة الدليل على أنه انغمس في الموضوع وهو جاهل! حسناً، إنني أعتبر هذا إسرافاً في الوقاحة من جانبك! إذ كان ينبغي أن تعرف أن بوردوفسكي ليس بحاجة إلى أن تعذره أنت أو غيرك أو تبرر سلوكه! فهذه إهانة! وإن الموضوع لمؤلم أشد الألم بالنسبة له دون حاجة إلى مزيد؟ ألا ثمة ما يجعلك تفهم؟

فقاطعه جانيا قائلاً:

- كفى، كفى، يا مستر تيرنتيف، لا تهيج نفسك، فأنت تبدو مريضاً، وأنا أسف جداً لهذا. وقد أوشكت أن أفرغ من حديثي، ولكن هناك بعض حقائق قليلة ينبغي أن أشير إليها بإيجاز؛ لأنني مقتنع تماماً بوجوب تفسيرها بوضوح

للمرة الأولى والأخيرة.

وسرت حركة تنم عن الضجر بين المستمعين وهو يستطرد قائلاً:

- إنني أريد فقط أن أقرر، لكي يعرف جميع المختصين بالموضوع، أن السبب الذي من أجله كان المستر بافليشيف مهتمًا بوالدتك يا مستر بوردوفسكي يرجع ببساطة إلى أنها كانت أخت فتاة قروية من طبقة الفلاحين الأجراء؛ وكان المستر بافليشيف في شبابه غارقاً إلى أذنيه في حب هذه الفتاة التي كان سيتزوجها بالتأكيد لولا وفاتها فجأة. إن لديّ البراهين على أن هذا الحدث قد كاد يطوى في غمار النسيان، إن لم يكن نُسِي تماماً. ويمكنني أن أضيف إلى هذا أن بافليشيف وضع والدتك، عندما كانت في العاشرة من عمرها - تحت رعايته، وأحسن تربيته وتعليمها، ووهبها «دوطة» كبيرة. وانزعج أقاربه، وخشوا أنه قد يتمادى ويتزوجها؛ ولكنها تزوجت موظفًا بمصلحة مساحة الأراضي يدعى بوردوفسكي عندما بلغت العشرين من العمر. بل ويمكنني أيضاً أن أقول عن يقين إن الحب كان أساس هذا الزواج. وقد استقال والدك من وظيفته بعد أن تزوج، وراح يستغل «دوطة» زوجته البالغ مقدارها خمسة عشر ألف روبل في الأعمال التجارية. ولما كان قليل الخبرة، فقد وقع في براثن المحتالين من كل نوع، ومن ثم أدمن الخمر لينسى متاعبه، وقد قصر حياته بإسرافه هذا، فمات بعد زواجه بثمانية أعوام. وقد قالت أمك بنفسها إنه تركها في حالة من الفقر المدقع، وإن كان من الممكن أن تموت جوعاً لولا بافليشيف الذي بسط لها يد الكرم وخصص لها معاشاً سنوياً مقداره ستمائة روبل. وإن كثيراً من الناس يتذكرون شدة تعلقه بك وأنت طفل صغير. وتؤكد والدتك هذه الحقيقة! ويتفق رأيها مع الآخرين في الظن بأن حبه لك كان يزداد لأنك كنت طفلاً مريضاً تتأذى في

الحديث، وتكاد تكون مشوه الجسم، ذلك أن بافليشيف كان معروفًا طيلة حياته بعطفه الشديد على البؤساء من كل نوع، لا سيما الأطفال. وهذا في رأيي أمر مهم جدًا. ويمكنني أن أضيف أنني اكتشفت حقيقة أخرى، وهي آخر شيء بذلت في سبيله أقصى مقدرتي في البحث والتحري. وبسبب حب بافليشيف لك - إذ كان هو الذي ينفق عليك في المدرسة، ويهيئ لك المدرسين الخصوصيين - ابتداءً أقاربه وخدمه في الاعتقاد بأنك ابنه، وأن والدك كان ضحية خيانة زوجته. ويمكنني أن أشير إلى أن هذه الفكرة لم تظهر بوجه عام إلا في السنوات الأخيرة من حياة بافليشيف، عندما كان جميع أقاربه يرتعدون خوفًا مما قد يكتب في وصيته، عندما نسيت الحقائق الأولى، وفاتت الفرصة لاكتشافها. ولا شك أنك يا مستر بوردوفسكي قد سمعت بهذه الشائعات وتقبلتها على أنها حقيقة. وقد أتيح لي شرف التعرف بوالدتك، ووجدت أنها على علم بكل هذا. ولكن الذي لم تعرفه هو أنك، ابنها، قد أفضيت إليّ بهذا كله بمثل هذه البساطة. لقد وجدتُ والدتك المحترمة مريضة في بسكوف وفي حالة فقر شديد، كما كان شأنها منذ وفاة راعيكم المستر بافليشيف. وقد حدثتني بدموع العرفان بالجميل عن كيف توليت رعايتها؛ وهي تتوقع لك الشيء الكثير، وتؤمن إيمانًا شديدًا بنجاحك في المستقبل.

وصاح ابن أخت ليبيديف في ضجر شديد:

- أوه، إن هذا لا يُحتمل، ما جدوى كل هذا الحديث العاطفي؟

وهتف إيبوليت وهو يثب في أشد الغضب:

- إنه لأمر منفر يثير الاشمئزاز.

وكان بوردوفسكي فقط هو الجالس في صمت وسكون، بينما استطرد
جانيا قائلاً في اندهاش مصطنع:

- ما جدوى هذا؟ حسناً! لأنه، أولاً، قد يكون المستر بوردوفسكي اقتنع
تماماً بأن حب المستر بافليشيف له نشأ، ببساطة، من قلب طيب كريم، وليس
من الشعور بالواجب الأبوي، فمن المهم جداً تأكيد هذه الحقيقة في ذهنه
باعتبار أنه وافق على المقالة التي كتبها المستر كيلر. وأنا أتحدث هكذا
لأنني أنظر إليك يا مستر بوردوفسكي على أنك رجل محترم. وثانياً لأنه يلوح
أن نية الاحتيال لم تكن متوافرة في هذه المسألة، حتى من جانب المستر
شياروف. وأريد أن أقول هذا بوضوح تام؛ لأن الأمير لمح، منذ هنيئة، بأنني أنا
أيضاً اعتقدت بأنها محاولة للسرقة والاحتيال. وبالعكس، كان كل شخص
مخلصاً في اعتقاده بشأن هذا الموضوع، وبرغم أن شياروف قد يكون وغداً،
إلا أنه تصرف في هذه المسألة كما يفعل أي محام بارع في مثل هذه الظروف.
لقد نظر إليها كقضية يمكن أن تأتي إليه بمبلغ ضخم. ولم يخطئ كثيراً في
الحساب؛ لأنه من ناحية اعتمد على كرم الأمير، وعلى اعترافه بالفضل للمستر
بافليشيف المتوفي، ومن ناحية أخرى على المبادئ النبيلة الخاصة بالضمير
والخضوع لمقتضيات الشرف. أما بالنسبة للمستر بوردوفسكي، فمن الممكن
أن نقول - بناء على مبادئه - إنه لم يشغل بهذا الموضوع إلا لأغراض شخصية
بسيطة جداً. لقد قرر بناء على تحريض شياروف وأصدقائه، أن يقوم بهذه
المحاولة من أجل الحق، والتقدم، والإنسانية. ويمكن على الجملة، أن نصل
إلى هذه النتيجة: إن المستر بوردوفسكي، رغم جميع الظواهر، شاب لا غبار
على أخلاقه. وهذا مما يضاعف استعداد الأمير أن يمنحه صداقته والمساعدة
التي تحدث عنها الآن..

وصاح الأمير في استياء، ولكن بعد فوات الأوان:

- سكوّتا. سكوّتا يا جافريلا أرداليونوفيتش..

وصاح بوردوفسكي في غضب شديد:

- لقد قلت، وأكرر القول المرة بعد الأخرى، إنني لا أريد المال، ولن أقبله، عجباً! إنني لست.. إنني سأنصرف..

وفيما هو ينصرف بسرعة من الشرفة، أمسك ابن أخت ليبيديف بذراعيه وقال له شيئاً بصوت خافت. واستدار بوردوفسكي بسرعة، ثم تناول من جيبه مظروفاً مغلقاً عليه العنوان والاسم، ثم ألقى به على نضد صغير بجوار الأمير قائلاً:

- هذا هو المال، كيف تجرؤ؟ المال؟

وقال دكتورنكو «ابن أخت ليبيديف» شارحاً الأمر:

- هذا مبلغ المائتين والخمسين روبلاً الذي تجرأت وأرسلته إليه كإحسان، على يدي شيباروف..

وصاح كوليا قائلاً:

- لقد كتب في المقالة المنشورة بالصحيفة أن المبلغ خمسون روبلاً فقط!

وقال الأمير وهو يمضي إلى بوردوفسكي:

- أرجوك المعذرة، لقد أخطأت في حقك أشد الخطأ، ولكنني لم أرسل إليك هذا المال إحساناً، صدقني. وإن اللوم ليقع عليّ مرة أخرى. لقد أسأت إليك الآن..

وكان الأمير شديد الحزن، وبدا مرهقاً بالتعب، وكان يتحدث بلا داع تقريباً:

- لقد تحدثت عن النصب والاحتيال، ولكنني لم أكن أقصدك. لقد خُذعت. وقلت إنك.. مريض.. مثلي.. ولكنك لست مثلي.. إنك تعطي الناس دروساً.. إنك تعول والدتك. لقد قلت إنك فضحت أمك، ولكنك تحبها، هكذا قالت هي بنفسها.. إنني لم أكن أعرف هذا. لم يقل لي هذا جافريلا أورداليونوفيتش. اغفر لي. لقد تجرأت وعرضت عليك عشرة آلاف روبل. ولكنني أخطأت. إذ كان ينبغي أن أفعل هذا بطريقة مختلفة. والآن، لم يعد ثمة وسيلة لأن أصلح الخطأ؛ فإنك تحتقرني.

وصاحت المسز إيبانشين قائلة:

- إنني أعلن أن هذه مصحة أمراض عقلية.

وأكدت أجلايا هذا بقولها بصوت حاد:

- طبعاً إنها مصحة أمراض عقلية.

ولكن كلماتها غرقت في خضم أصوات الآخرين، إذ كان الجميع يتحدثون بأصوات مرتفعة، ويبدون الملاحظات والتعليقات، وكان بعضهم يناقش الموضوع بوقار، وبعضهم يضحك. وكان الجنرال إيبانشين شديد السخط. لقد وقف في انتظار زوجته وعلى وجهه أمارات الكبرياء الجريحة، أما ابن أخت لبيديف، فقد عاد والتقط حبل الحديث قائلاً:

- حسناً أيها الأمير، إن الإنصاف يقتضي الاعتراف بأنك تعرف كيف تستغل إلى أقصى حد ما.. ما يمكن أن نسميه! بحكم اللياقة والذوق السليم. وقد بدأت في تقديم منحتك من المال والصدقة بطريقة لا يمكن أن يتقبلها

إنسان يحترم نفسه. إن هذا أقصى ما يمكن من الدهاء أو الخبث. وأنت أدري من غيرك بأي الكلمتين أنسب لك في هذه الحالة.

وقال جافريلا أرداليونوفيتش الذي كان قد فرغ من فحص محتويات المظروف:

- اسمحوا لي أيها السادة، لا يوجد هنا غير مائة روبل، لا مائتين وخمسين، إنني أذكر هذا فقط أيها الأمير حتى لا يحدث سوء تفاهم في المستقبل.

فقال له الأمير وهو يشير إليه بالصمت:

- لا بأس، لا بأس.

فقال ابن أخت لبيديف بحماسة:

- ولكنني أجد في هذا بأسًا، إن قولك هذا أيها الأمير إهانة لنا. فليس لدينا ما نخفيه، وإن تصرفاتنا تستطيع احتمال ضوء النهار. حقًا لا يوجد غير مائة روبل بدلًا من مائتين وخمسين. ولكن الأمر بوجه عام سواء...

فقال جافريلا أرداليونوفيتش في دهشة شديدة:

- لا يا سيدي، ليس الأمر سواء!

فصاح ابن أخت لبيديف غاضبًا:

- لا تقاطعني، فلنسا أولئك الحمقى الذين تظنهم يا حضرة المحامي! هناك طبعًا فرق بين المائة روبل والمائتين والخمسين، ولكن المبدأ في حالتنا هذه هو النقطة الأساسية، ويمكن القول إن ضياع مائة وخمسين روبلًا يعتبر موضوعًا فرعيًا أو جانبيًا. أما النقطة المؤكدة، فهي أن بوردوفسكي لن

يقبل إحسان سموك. إنه يلقي به إلى وجهك، دون أي اهتمام في قليل أو كثير بوجود مائة روبل أو مائتين وخمسين. لقد رفض بوردوفسكي، كما سمعت، قبول عشرة آلاف روبل، وما كان ليعيد حتى مائة روبل إليكم لو لم يكن أميناً شريفاً، لقد دفع المائة والخمسين روبلاً الناقصة إلى شيباروف لنفقات رحلته. إنك قد تسخر من حماقتنا ومن عدم خبرتنا بالشئون العملية، وقد بذلت كل ما في وسعك لكي تجعلنا نبدو في موقف حرج. ولكن حذار من أن تسمينا مخادعين. لسوف نوحّد نحن الأربعة جهودنا كل يوم لندفع مبلغ المائة والخمسين روبلاً إلى الأمير، ولو اضطررنا إلى دفعه على أقساط، كل قسط روبل واحد، ولكننا سندفعه بالفوائد. إن بوردوفسكي فقير، لا يملك الملايين، وإن شيباروف بعد أن سافر لمقابلة الأمير، أرسل إليه قائمة النفقات، وكنا نعتد على كسب القضية.. فمن هو الذي ما كان يفعل ما فعلنا لو أنه في مثل موضعنا؟

فقال الأمير «س»:

- من هو حقاً!!

وقالت المسز إيبانشين:

- إنني لا شك سأفقد عقلي إذا بقيت هنا!

وقال إيفيني بافلوفيتش ضاحكاً:

- إن هذا يذكرني بالدفاع المشهور للمحامي الذي دافع عن رجل متهم بقتل ستة أشخاص من أجل سرقته. لقد التمس العذر لموكله بسبب فقره. وفي ختام المرافعة قال: «إنه لأمر طبيعي جداً، إذا أخذنا في الاعتبار حالة البؤس التي كان يعانيها، أن يفكر في قتل هؤلاء الأشخاص الستة، فهل بينكم

أيها السادة من لم يكن ليفعل هذا لو أنه في موضعه!».

وصاحت المسز إيبانشين فجأة وهي ترتعد بالغضب:

- كفى! لقد قلنا كفايتنا من هذا اللغو الفارغ.

وشمخت برأسها في انفعال رهيب، وألقت من عينيها الناريتين نظرات الاحتقار والتحدي على الجميع دون أن تفرق في مجموعهم بين عدو وصديق، وكانت قد كبتت مشاعرها طويلاً بحيث أحست أنها مرغمة على سكب كل غضبها فوق رأس بعضهم. وقد أدرك الذين يعرفون المسز إيبانشين حقيقة الأمر معها، فوراً. فقال الجنرال إيبانشين للأمرس - في اليوم التالي: «إنها تندفع في مثل هذه الثورات من الغضب أحياناً، ولكنها عادة لم تكن بمثل هذا العنف الذي بدا منها أمس. إن هذا لا يحدث منها أكثر من مرة في كل ثلاث سنوات»..

وصاحت المسز إيبانشين قائلة لزوجها:

- دعني وشأني يا إيفان فيدوفيتش! لماذا تمد يدك إليّ الآن، بينما لم يكن لديك من الحكمة ما يكفي للانصراف بي من قبل. إنك زوجي، وإنك والد، وإن من واجبك أن تجرني بعيداً بالقوة إذا أبت حماقتي أن تطيعك لأمضي بهدوء. كان ينبغي على الأقل أن تفكر في بناتك. ونحن نستطيع الآن أن نهتدي إلى طريق الانصراف بدون مساعدة منك. إن ما حدث هنا من العار يكفي عاماً بأكمله! انتظري لحظة حتى أشكر الأمير! شكراً لك أيها الأمير على هذه التسلية التي قدمتها إلينا. إنها لمتعة رائعة أن تنصب إلى هؤلاء الشبان. إنها لخسة، خسة. إنها لكارثة، لفضيحة أسوأ من كابوس! أيمكن أن يوجد على ظهر الأرض عدد كبير من مثل هؤلاء الناس! صمّتا يا

أجلًا يا، صمتًا يا ألكسندرا! فلا شأن لكما بهذا! لا تهتم بأمرى هكذا يا إيفيني
بافلوفيتش! إنك تزيدني سخطًا!

ثم أردفت قائلة بصوت مرتفع للأمير:

- هكذا الأمر يا عزيزي؟ إنك تتمادى حتى تلتبس منهم الصبح
والمغفرة. إنه يقول: «اصفحوا عني لأنى أقدم إليكم ثروة».

ثم استدارت إلى ابن أخت ليبيديف فجأة وقالت:

- وأنت، أنت أيها المهرج النصاب، ما الذي يضحكك! «إننا نرفض
عشرة آلاف روبل، إننا لا نلتبس، وإنما نطالب» كأنما لا يعلم أن هذا الأبله
لن يزورهم غدًا ليكرر عرض صداقته وأمواله عليهم. لسوف تفعل، أليس
كذلك؟ لسوف تفعل! قل، هل ستفعل هذا أم لا؟

فقال الأمير في تواضع رقيق:

- نعم سأفعل.

فاستطردت قائلة وهي تستدير إلى ابن أخت ليبيديف:

- أسمعها؟ إنك تعتمد عليه أيضًا في هذا. إنك واثق الآن منه كأنما
المال في جيبك فعلاً. وها أنت ذا تقوم بدور المهرج لكي تذر الرماد في
عيوننا. لا يا سيدي العزيز؛ إنك قد تخدع أناسًا غيرنا، ولكنني أفهم كل
الأعيان وحرركاتك، وإنى لأفهم خدعتك!

وصاح الأمير قائلاً في احتجاج:

- مسز إيبانشين!

وقال الأمير س-، وهو يتسم في أشد حالات الهدوء:

- هلم يا مسز إيبانشين. لقد حان الوقت للانصراف. ولسوف نصحب الأمير معنا.

وكانت البنات قد وقفن في منعزل، تنم وجوههن عن ما يشبه الخوف، بينما كان أبوهن في جزع كامل. وكانت لهجة مسز إيبانشين قد أدهشت الجميع، فوقف بعضهم يتسمون في حرج، ويتبادلون الحديث في همس، بينما نمّ وجه ليبيديف عن أسطح أمارات البهجة والسرور.

وقال ابن أخت ليبيديف الذي كان قد أسقط في يده تمامًا:

- إن الفوضى والفضائح موجودة في كل مكان يا سيدتي.

فأجابت المسز إيبانشين في غضب هستيري:

- ولكن ليس بهذا الشكل! لا شيء يشبه هذا المنظر الذي قدمتموه إلينا الآن.

ثم صاحت بعنف للذين وقفوا حولها يحاولون تهدئتها:

- دعوني وشأني. أسمعون! لا يا إيفيني بافلوفيتش، إذا كان أحد المحامين قد قال في المحكمة، كما ذكرت أنت الآن - إنه يرى من الطبيعي أن يقتل رجل ستة أشخاص لأنه فقير بائس، فيجب أن تنتهي الحياة من الوجود. إنني لم أسمع بهذا من قبل. وقد فهمت الآن كل شيء..

ثم هتفت قائلة وهي تسير إلى بوردوفسكي الواقف يحملق فيها بذهول:

- وهذا التأناء! ألن يصبح قاتلاً؟ إنني أراهن أنه سيكون! من المحتمل أنه لن يقبل مالك، لسوف يرفضه لأن ضميره لن يسمح له بقبوله. ولكنه لن يتورع عن ذبحك ليلاً وسرقة خزانة أموالك ثم الانصراف بضمير مستريح. إنه لن يسمي هذا تصرفاً غادراً، وإنما «سورة يأس نبيل!» أو «نكران» أو ما

لا يدري أيضًا غير الشيطان. ها! إن كل شيء قد انقلب رأسًا على عقب. إن كل شيء ينحدر مقلوبًا باستمرار. إن فتاة شابة، نشأت في بيتها، تقفز فجأة إلى مركبة في الشارع وتقول لأمها: «وداعًا يا أماه، لقد تزوجت كارليس، أو إيفافيتش أول أمس» وأنتم تعتقدون أن هذا شيء سليم تمامًا. أتسمون مثل هذا التصرف طبيعيًا ومحترمًا؟ و«قضية المرأة». اسمعوا..

ثم أشارت إلى كوليا واستطردت قائلة:

- لقد أخبرني هذا الولد التافه أول أمس أن هذا هو المعنى الشامل «لقضية المرأة» وحتى على افتراض أن أم أحدكم بلهاء حمقاء، فلا يمنع هذا من معاملتها بالإنسانية. لماذا جئتم الليلة بمثل هذه الوقاحة. لقد كنتم تقولون «أعطونا حقوقنا ولا يجرؤ أحدكم على الحديث أمانا. أعربوا لنا عن أعماق احتراماتكم بينما نحن نعاملكم كخشاش الأرض» إن هؤلاء الأوغاد قد كتبوا قطعة من الوقاحة في مقالاتهم. وهؤلاء هم الرجال الذي يبحثون عن الحق، ويكافحون من أجل العدالة، ويقولون: «إننا لا نلتمس، وإنما نطالب. إنكم لن تظفروا بالشكر منا؛ لأنكم ستعملون على إرضاء ضمائركم» فيا لها من مبادئ أخلاقية! ولكن، يا للسماء! إذا كنتم تعلقون أن كرم الأمير معكم لا يثير فيكم الشعور بعرفان الجميل، فإنه لخليق به أيضًا أن ينكر فضل بافليشيف الذي كان أيضًا يرضي ضميره. ولكنكم تعتمدون على عرفان الأمير بفضل بافليشيف إنكم لم تقرضوه مالا أبدًا، وهو غير مدين لكم بشيء، إذن فعلى أي شيء تعتمدون إذا لم يكن اعتمادكم على شعوره بفضل بافليشيف. وإذا كنتم تناشدون هذا الشعور في الآخرين، فلماذا تنتظرون أن تُستثنوا من هذا؟ إنهم مجانين. إنهم يقولون إن المجتمع همجي ووحشي - لأنه يحترق الفتاة الشابة التي يُغرَّر بها. وإذا كنتم تعتبرون المجتمع وحشيًا،

فإنكم تقولون هذا لأن المجتمع يضطر الفتاة إلى احتمال نتائج طيشها. إذن كيف تعرضونها لسخرية الرأي العام بفضح أمرها على صفحات الجرائد دون أن تدركوا أنكم تزيدون بذلك من تعذيبها! مجانين! حمقى مغرورون! إنهم لا يؤمنون بالله. ولا يؤمنون بالمسيح! ولكنكم بلغتم من الغرور والكبرياء الحد الذي سيجعلكم تلتهمون بعضكم بعضاً! هذه هي نبوءتي؟ أليس هذا غريباً! أليست هذه فوضى فظيعة؟ وبعد هذا كله، سيمضي هذا المخلوق العجيب الذليل ليسألهم الصفح والغفران! أ يوجد أناس كثيرون مثلكم؟ علام تضحكون؟ ألا أني لست خجلى من فضح نفسي أمامكم؟ نعم. لقد فُضحت، ولا حيلة في هذا الآن. ولكن، لا تضحك ساخرًا مني أيها الصعلوك «وكانت هذه العبارة موجهة إلى إيبوليت». إنه يكاد يكون في لحظاته الأخيرة، ومع ذلك يفسد الآخرين. لقد أوقعت بهذا الغلام «مشيرة إلى كوليا». لقد أدت رأسه، وجعلته يعرف كيف يكون ملحدًا، فأنت لا تؤمن بالله، وأنت لم تبلغ من الكبر ما يمنع جلدك يا سيدي. فلتسقط لعنة الطاعون على رأسك! وأنت أيها الأمير ليو نيكولايفيتش، سوف تزورهم غدًا، أليس كذلك؟

وكانت هذه هي المرة الثانية التي تسأل فيها الأمير هذا السؤال بأنفاس لاهثة، وقد أجاب قائلاً:

- نعم.

- إذن فلن أتحدث إليك أبدًا بعد ذلك.

وتحركت فجأة لتنصرف، ثم استدارت بسرعة واستطردت قائلة وهي تشير إلى إيبوليت:

- وسوف نزور هذا الملحد؟ كيف تجرؤ على الابتسام سخرية مني هكذا؟

صاحت بهذه العبارة الأخيرة وهي تندفع في غضب شديد إلى الشاب العليل الذي كانت ابتسامته الساخرة قد أخرجتها عن طورها.

وارتفعت الصيحات من كل جانب:

- مسز إيبانشين، مسز إيبانشين، مسز إيبانشين!

وصاحت أجلايا:

- أماء، إن هذه فضيحة!

ووصلت المسز إيبانشين إلى إيوليت، وأمسكت بذراعه، وراحت تحمق في وجهه بنظرات تقدح بنيران الغضب.

وقال الشاب بهدوء:

- لا تزعجي نفسك يا أجلايا إيفانوفيتش! إن أمك تعرف أنه لا يوجد إنسان يستطيع أن يضرب رجلاً يحتضر. وأنا مستعد أن أشرح لماذا كنت أضحك، وإنه ليسرني لو سمحتم لي..

وعندئذ فاجأته نوبة شديدة من السعال، واستمرت دقيقة كاملة، ومنعته من أن يتم جملة، وصاحت المسز إيبانشين:

- إنه يحتضر، ومع ذلك لا يكف عن الحديث..

وكانت قد تركت ذراعه فيما يشبه الفرع حين رآته يمسح الماء عن شفثيه، ثم أردفت قائلة:

- لماذا تتحدث، يجب أن تمضي إلى بيتك، إلى فراشك.

فهمس بصوت أجش:

- هذا ما سأفعله، فبمجرد أن أعود إلى البيت، سأمضي إلى الفراش فوراً. وأنا أعلم أنني سأكون ميتاً خلال أسبوعين. لقد قال لي بوتكين بنفسه هذا في الأسبوع الماضي. وهذا ما يجعلني أريد أن أقول بضع كلمات للوداع إذا سمحتم لي بهذا.

فهمت المسز إيبانشين قائلة:

- ولكن لا شك أنك مجنون! إن هذا الأمر عجيب! إذ ينبغي عليك أن تهتم بنفسك. فما جدوى الاستمرار في المحادثة الآن؟ اذهب إلى فراشك بالبيت، فوراً أرجوك.

فقال إيبوليت باسمًا:

- إنني عندما أرقد في الفراش، فلن أنهض منه مرة أخرى أبدًا. كنت أنوي أمس أن ألزم الفراش، وأبقى فيه حتى الموت، ولكن بما أن ساقِي لا تزالان قادرتين على حملي، فقد أجلت الرقاد يومين لكي أستطيع الحضور إلى هنا معهم اليوم - ولكنني أشعر بالتعب الشديد.

فقالت المسز إيبانشين وهي تقدم له مقعدًا بيديها:

- أوه، اجلس، اجلس، لماذا أنت واقف؟

فقال لها برفق:

- شكرًا لك.. اجلسي أمامي، وهلم نتبادل الحديث. يجب أن نتحدث معًا الآن يا مسز إيبانشين، إنني جد متلهف إلى هذا..

ثم ابتسم مرة أخرى واستطرد قائلاً:

- تذكرني أنني اليوم، ولآخر مرة في حياتي، أعيش في الهواء الطلق، ومع لفيف من الصحاب، وإني، في خلال أسبوعين لن أكون في هذا العالم على وجه التأكيد. وعلى هذا، فإن حديثي الآن هو، بطريقة ما، وداع للطبيعة والناس. إنني لست عاطفياً إلى حد كبير، ولكن هل تعرفون أنني جد سعيد لأن هذا كله قد حدث في بافلوفسك حيث يستطيع الإنسان، على الأقل، أن يرى شجرة خضراء!

فقلت المسز إيبانشين وهي تزداد قلقاً:

- ولكن، لماذا الحديث الآن؟ إنك محموم تماماً. إنك لم تكن تريد أن تكف عن الصباح منذ لحظات، وها أنت ذا لا تكاد تقوى على التنفس، إنك تلهث.

- لسوف يكون لدي المتسع من الوقت للراحة، فلماذا لا تحققون لي رغبتني الأخيرة؟ هل تعلمين يا مسز إيبانشين أنني حلمت بمقابلتك منذ وقت طويل؟ لقد سمعت كثيراً عنك من كوليا. وهو يكاد يكون الشخص الوحيد الذي يحافظ على المجيء إليّ. إنك سيدة أصيلة فريدة من نوعك. لقد أدركت هذه الحقيقة بنفسني. بل لقد كنت شديد الميل إليك.

- يا إله السماوات؟ ومع ذلك كنت على وشك أن أصفعه.

- لقد منعتك عن هذا أجلايا إيفانوفنا. وأظن أنني لست مخطئاً، إنها ابنتك، أجلايا إيفانوفنا، إنها من روعة الجمال بحيث عرفتها فوراً رغم أنني لم أرها من قبل.

وابتسم قبل أن يستطرد قائلاً:

- دعيني على الأقل أطلع إلى الجمال لآخر مرة في حياتي، إنك هنا مع

الأمير، ومع زوجك، ومع جمع كبير، فلماذا ترفضين تحقيق أمنيّتي الأخيرة؟

وهتفت المسز إيبانشين قائلة:

- إليّ بمقعد...!

ولكنها تناولت بنفسها مقعداً وجلست عليه أمام أيبوليت وقالت لكوليا بلهجة آمرة:

- كوليا، يجب أن تصحبه إلى البيت، وسوف أذهب لزيارته غداً.

- اسمحي لي أطلب من الأمير قدحاً من الشاي، فإني متعب جداً. أتعلمين ماذا يمكنك أن تفعلي يا مسز إيبانشين؟ أظن أنك رغبت في أن تصحبي الأمير إلى بيتك لتقدمي إليه قدحاً من الشاي. امكثي هنا، ولنقض المساء معاً. وأنا واثق أن الأمير سوف يقدم لنا جميعاً الشاي. ومعذرة إذا كنت أتحدث بحرية وبلا كلفة- ولكنني أعرف أنكم طيبون. وكذلك الأمير طيب- ونحن جميعاً في الواقع أناس طيبون، وإنه لشيء فكه حقاً.

ونفض الأمير ليصدر الأوامر، وأسرع ليبيديف منصرفاً وتبعته ابنته فيرا.

وقالت المسز إيبانشين بلهجة حاسمة:

- تلك هي الحقيقة، تحدّث ولكن بصوت خافت، ولا تُثر انفعالاتك. لقد جعلتني آسفة من أجلك. وأنت أيها الأمير، إنك لا تستحق أن أبقى وأشرب معك الشاي، ومع ذلك، فسوف أفعل هذا، ولكنني لن أعتذر، إنني لا أعتذر لأحد، لأي أحد! وإنه لأمر عجيب! وعلى كل حال، أرجو أن تغفر لي أيها الأمير إذا كنت قد قسوت عليك في ثورتي إذا أردت طبعاً.

ثم أردفت قائلة فجأة لزوجها وبناتها بلهجة ضيق وسخط، وكأنما قد أساءوا إليها من قبل:

- ولكنني لا أريد أن أدع أحداً ينتظرني. ففي مقدوري تمامًا أن أعود إلى البيت بمفردي.

ولكنهم لم يدعواها تتم حديثها، وإنما التفوا حولها بلهفة. وسرعان ما دعا الأمير الجميع للبقاء للشاي، واعتذر عن عدم تفكيره في هذا من قبل. وغمغم الجنرال بكلمات لائقة قليلة، ثم سأل زوجته هل تشعر بالبرد في الشرفة. وكاد أن يسأل إيبوليت عن المدة التي أمضاها في الجامعة، ولكنه أمسك عن الحديث في الوقت المناسب. وارتسمت أمارات البشاشة والمرح فجأة على وجه كل من إيفيني بافلوفيتش والأمير «س». ولم تكن أدليدا وألكسندرا قد أفقتا بعد من دهشتهما، ولكنها، أي الدهشة، كانت قد امتزجت الآن بالرضا. وعلى الجملة أحس كل واحد منهم بالارتياح لأن نوبة الغضب قد زالت عن المسز إيبانشين. ولكن أجلايا فقط هي التي بقيت مقطرة الجبين، جالسة في معزل عنهم، لا تنطق بكلمة. وكذلك بقي جميع الضيوف الآخرين، فلم يكن بينهم أحد يريد أن يمضي، ولا الجنرال إيفولجين نفسه. ولكن ليبيديف قال له- وهو يمر أمامه- شيئاً يبدو أنه ساءه؛ لأنه سرعان ما انتحى ركنًا وجلس مغضبًا. وحرص الأمير على أن يقدم الشاي لبوردوفسكي وأصحابه كما قدمه للآخرين تمامًا وكانت الدعوة قد جعلتهم يشعرون بالقلق، ومن ثم غمغموا قائلين إنهم سينتظرون إيبوليت، ثم جلسوا منعزلين في ركن بعيد من الشرفة. وقدم الشاي للجميع فورًا. وكان ليبيديف ولا شك قد أمر أسرته بإعداده قبل وصول الآخرين وكانت الساعة عندئذ تعلن الحادية عشرة.



الفصل العاشر

بعد أن رطب إيبوليت شفثيه بالشاي الذي حملته إليه فيرا لبيديف، وضع القدح على النضد، وتلفت حوله. وكان يبدو عليه أنه مرتبك وفي حيرة بالغة.

وبدا حديثه بنوع من اللهفة المحمومة:

- تأملي فقط يا مسز إيبانشين: المفروض أن هذه الأقداح الخزفية ثمينة جداً. ومن عادة لبيديف أن يحفظها دائماً في خزانة الخزف، وهي جزء من «دوطة» زوجته، ومع ذلك فقد أخرجها للاستعمال الليلة، تكريماً لك بدون شك! لقد بلغ به السرور..

وكاد إيبوليت أن يضيف عبارة أخرى، ولكنه لم يجد الكلمات المناسبة، وهنا همس إيفيني بافلوفيتش فجأة في أذن الأمير قائلاً:

- ها هو ذا يشعر بالارتباك والخرج، وهذا ما كنت أتوقعه. وهي علامة سيئة. فما رأيك؟ لسوف يقول الآن، رغم كل شيء، شيئاً ممجوجاً لن يستطيع أحد، حتى المسز إيبانشين أن تحتمله.

فنظر الأمير إليه متسائلاً، فقال إيفيني مستطرداً:

- إنك لا تهتم لو أنه فعل! ولا أنا. بل لسوف أبتهج، في الحقيقة؛ لأن ما سيصدر منه سيكون مجرد عقاب مناسب لعزیزتنا المسز إیبانشین. إنني أرجو ملهوفاً أن ينزل بها بلا تأخیر، ولسوف أمكث حتى تناله. يلوح لي أنك محموم؟

فقال الأمير متضجراً وهو لا يكاد ينصت إليه لأنه سمع عندئذ إیبولیت يذكر اسمه:

- لا عليك، بعد قليل، نعم، أشعر أنني على غير ما ينبغي.
وكان العلیل يقول بضحكة عصبية:

- إنك لا تصدقین؟ لا عجب في هذا، ولكن الأمير لن يجد من العسیر عليه ألا يصدق، بل إنه لن يدهش إطلاقاً.
فقالت المسز إیبانشین مستديرة إلى الأمير:
- أسمع أيها الأمير؟ أسمع هذا؟

وانطلقت الضحكات من الجالسين حولها، بينما وقف ليبيديف يلوح بيديه في ارتباك شديد. هذا بينما استطردت المسز إیبانشین قائلة:

- يقول إن هذا المنافق ليبيديف هو الذي راجع وصحح مقالة هذا السيد، المقالة التي قُرئت علينا الآن، والتي ظفرت فيها بأوصاف ممتعة!
وتأمل الأمير ليبيديف في دهشة، بينما صاحت المسز إیبانشین وهي تضرب الأرض بقدمها:

- لماذا لا تقول شيئاً؟

فغمغم الأمير قائلاً ونظراته ما تزال مركزة على ليبيديف:

- حسنًا! أرى الآن أنه قد فعل هذا حقًا.

فسألت بلهفة:

- أحقًا هذا؟

فقال ليبيديف دون أدنى تردد:

- تمامًا يا صاحب الفخامة.

وكادت المسز إيبانشين أن تقفز من مقعدها عجبًا من إجابته، ومن لهجة التأكيد الواضحة في نبرات صوته. ثم صاحت قائلة:

- إنه كما يبدو، فخور بما فعل!

فغمغم ليبيديف قائلاً وهو يضرب على صدره ويترك برأسه:

- إنني دنيء، دنيء!

فقالت المسز إيبانشين:

- وما يهمني إن كنت دنيئًا أم غير دنيء؟ إنه يعتقد أن كل شيء ينتهي إذا قال فقط «أنا دنيء» وأنت أيها الأمير؟ ألا تشعر بالخجل والعار؟ وأكرر هذا فأقول ألا نخجل من الاختلاط بهؤلاء الغوغاء؟ إنني لن أصفح عنك أبدًا.

فقال ليبيديف في يقين صادر من أعماق نفسه:

- إن الأمير سوف يصفح عني!

وترك كيللر - الملاك - مقعده فجأة، واقترب من المسز إيبانشين، وقال بصوت رنان:

- إنني بدافع من النبل والكرم يا سيدتي، ولأنني لا أحب أن أخذل أصدقائي في موقف حرج، رأيت ألا أذكر هذه المراجعة والتصحيح من قبل،

وذلك رغم أنكم سمعتموه وهو يهددني بنفسه بالطرده من هنا. ولكي أوضح الأمر، أعلن أنني لجأت إلى مساعدته، وأنني دفعت ستة روبلات أجزًا. ولكنني لم أطلب منه أن يصحح أسلوبِي، وإنما ذهبت إليه فقط للحصول على معلومات بشأن الحقائق التي كنت جاهلاً بها إلى حد كبير، والتي كان هو قادرًا على تزويدي بها. إن قصة جرموق الحذاء، والشهية المفتوحة في بيت الطبيب السويسري، واستبدال الخمسين روبلاً بمائتين وخمسين، كل هذه التفاصيل، في الواقع، ظفرت بها منه، ودفعت له ستة روبلات ثمنًا لها. ولكنه لم يصحح أسلوبِي.

وتدخل لبيديف في الحديث قائلاً في لهفة محمومة بينما ارتفعت الضحكات من كل جانب:

- يجب أن أقرر أنني راجعت الجزء الأول فقط من المقالة. ولكننا اختلفنا في الوسط حول فكرة معينة، ولهذا لم أصحح الجزء الثاني من المقالة. ومن ثم فلا يمكن أن أكون مسئولاً عن الأخطاء النحوية الكثيرة التي جاءت بها.

وصاحت المسز إيبانشين:

- هذا هو كل ما يفكر فيه.

وسأل إيفيني بافلوفيتش كيللر قائلاً:

- هل يمكن أن أسأل متى حدثت هذه المراجعة؟

- أمس صباحًا. لقد عقدنا اجتماعًا تعهدنا فيه بشرفنا أن نكتم السر.

وقال المسز إيبانشين:

- أي في نفس الوقت الذي كان يتلوّى فيه أمامك ويقدم إليك عبارات

الولاء والوفاء! أوه، أولئك الأوغاد التعساء! لن يكون بيننا وبينك أي تعامل يا بوشكين، ولن تضع إبتك قدمها في بيتنا.

وكانت تهم بالنهوض عندما رأت إيبوليت يضحك، فالتفتت إليه في انفعال وقالت:

- حسنًا سيدي، أعتقد أنك تريد مني أن أبدو مثيرة للضحك؟

فأجاب الشاب بابتسامة مغتصبة:

- لا قدر الله. ولكن اهتمامي زاد بشخصيتك الفريدة يا مسز إيبانشين. وأنا أعترف أنني لم أذكر لك نفاق لبيديف إلا لغرض معين. كنت أعرف الأثر الذي ستركه هذا الأمر في نفسك.. نفسك فقط؛ لأن الأمير سيفصح عنه. ومن المحتمل أن يكون قد صفح عنه فعلاً، ولعله يعتصر ذهنه الآن ليلمس له الأعذار - أليست هذه هي الحقيقة أيها الأمير؟

وكان يشهق وهو يتحدث، وبدا أن انفعالاته العجيبة تتزايد. أما المسز إيبانشين، فقد قالت بغضب وقد أدهشتها نبرات صوته:

- حسنًا! وماذا أيضًا؟

واستطرد إيبوليت قائلاً:

- لقد سمعت أشياء كثيرة من هذا النوع عنك، وأبهجني ما سمعت. وقد تعلمت كيف أقدرك أعظم تقدير.

وكان يلوح أن كلماته ممزوجة بعض الشيء بلون من التهكم والسخرية، إلا أنه كان شديد الاهتمام وهو يلقي نظرات الشك حوله، ثم يزداد ارتباكًا، ويفقد تدريجيًا خيوط أفكاره. كل هذا بالإضافة إلى مظهره المصدور، وأمارات الخبل المطلة من عينيه المتوقدتين، قد اجتذب بطبيعة الحال انتباه

الجميع وهو يقول:

- ربما أكون مدهوشًا «رغم اعترافي بأنني لا أعرف شيئًا عن العالم»
ليس فقط لأنكم بقيتم الآن في صحبة جماعة من الناس مثلي ومثل أصحابي
الذين ليسوا من طبقتكم، وإنما لأنكم تركتم هؤلاء الفتيات الشابات ينصتن
إلى مثل هذا الموضوع المخجل، وذلك رغم أن قراءة الروايات قد علمتهن،
ولا شك، كل ما يمكن معرفته. وربما أكون مخطئًا، فأنا لا أكاد أعرف ماذا
أقول. ولكن ليس هناك أحد غيرك يستطيع البقاء لإرضاء غلام تافه «نعم،
غلام تافه باعترافي» وإنفاق أمسية والاشتراك في كل شيء - لكي تخجلي
من هذا كله في الصباح. «وأنا أعرف أنني لا أحسن التعبير عن نفسي» وإني
لأعجب وأقدر هذا كله أشد التقدير والإعجاب، وذلك رغم أن الأمارات
المرتبعة على وجه فخامته، زوجك، تدل على أنه يرى هذا كله غير لائق..
ها.. ها..

وانفجر ضاحكًا، ثم أخذته نوبة من السعال استمرت دقيقتين ومنعته من
الحديث.

وقالت المسز إيبانشين ببرود وهي تنظر إليه نظرة فيها من حب
الاستطلاع أكثر مما فيها من العطف:

- لقد انقطع نفسه الآن! كفى هذا يا ولدي العزيز. لنضع الآن نهاية لكل
هذا.

وتدخل الجنرال إيبانشين في الحديث بعد أن نفذ الآن صبره. فقال
بصوت زاهر بالاستياء العميق:

- دعني أدلي بملاحظة بدوري يا سيدي، ما دامت زوجتي هنا، ضيفة

على الأمير صديقنا وجارنا، فليس لك أيها الشاب، أيًا كان الأمر، أن تحكم على تصرفاتها أو تدلي بملاحظاتك بصوت مرتفع في حضوري بشأن مشاعري التي تظن أنك تقرأها على وجهي.

واستطرد الجنرال قائلاً في حلق متزايد:

- نعم. لقد بقيت زوجتي هنا، ولكنها بقيت بدافع هو أقرب إلى التعجب منه إلى أي شيء آخر. ويستطيع كل إنسان أن يدرك أن مجموعة من مثل هؤلاء الشبان الغريبي الأطوار تجتذب انتباه أي شخص عصري الحياة. لقد بقيت أنا بنفسني كما أبقى أحياناً في الطريق لأنفج على شيء قد يُعتبر - قد يُعتبر - ...

فقال إيفيني متمماً حين رأى الجنرال مشغول الذهن بمقارنة لا يستطيع إتمامها:

- قد يعتبر مثيراً للفضول.

وقال الجنرال في ارتياح:

- نعم، تماماً. هذه هي الكلمة - الفضول. ولكن أعجب شيء، إذا صح هذا التعبير، أن أشد الأمور إيلاًماً في هذا الموضوع، هو أنك لم تستطع حتى أن تدرك أيها الشاب أن زوجتي لم تبق هنا فقط إلا لأنك مريض - إن كنت حقاً في دور الاحتضار - وقد حركت مشاعر عطفها وراثتها باسترحامك لها، وإن اسمها وشخصيتها، ومركزها الاجتماعي، كل هذا يضعها فوق مستوى الشبهات.

ثم استطرد قائلاً لزوجته، وقد أربد وجهه بالغضب:

- اليزايث بروكوفينا، إذا كنت ستنصرفين، فسوف نودع الأمير و...

وقال إيبوليت في وقار غير منتظر وهو يتأمل الجنرال في تفكير:

- شكرًا لك على هذا الدرس يا جنرال؟

وقالت المسز إيبانشين لزوجها:

- أرجوك يا عزيزي أن تنتظر دقيقتين آخرين، إذ يلوح لي أنه محموم وفي حالة هذيان. ويمكنك أن ترى من عينيه في أية حالة هو. وإنه لمن المستحيل أن ندعه يعود الليلة إلى بطرسبرج. فهل يمكنك أن تأويه الليلة عندك يا ليو نيكولايفيتش.

ثم أردفت قائلة فجأة للأمير س:

- أرجو ألا تكون قد مللت هذا كله أيها الأمير. تعالي هنا يا عزيزتي ألكسندرا، إن شعرك يتهدل.

وصففت شعر ابنتها الذي لم يكن مشعًا بأية حال، ثم قبلتها، وكانت هذه القبلة في الواقع هي كل السبب الذي من أجله دعتها.

وقالت إيبوليت وهو يفيق فجأة من شروده الذهني:

- لقد خطر لي أنك قادرة على توسيع أفق تفكيرك. نعم هذا ما أردت أن أقول.

ثم أضاف قائلاً في ارتياح الإنسان الذي تذكر شيئاً كان قد نسيه:

- ها هو بوردوفسكي الملهوف بإخلاص على حماية والدته. أليس الأمر كذلك! وكان هو بنفسه سبب فضيحتها. والأمير شديد الرغبة في مساعدة بوردوفسكي، وهو يعرض عليه صداقته ومبلغاً كبيراً من المال بدافع من طيبة قلبه. ولكن ها هما يقفان كأنهما عدوان لدودان. ها ها ها.. إنكم

جميعاً تكرهون برودوفسكي لأن سلوكه نحو أمه قد صدمكم وأثار النفور في نفوسكم. أليس كذلك؟ أليس هذا حقاً؟ إنكم جميعاً تحبون الجمال والتميز في المظهر الخارجي، هذا هو كل ما تهتمون به. أليس كذلك؟ لقد خامرني الشك منذ وقت بعيد بأنكم لا تهتمون بغير هذا، حسناً. دعوني أقول لكم إنه ربما لا يكون بينكم واحد يحب أمه كما يحب برودوفسكي أمه. أما أنت أيها الأمير، فأنا أعرف أنك أرسلت في السر مالا إلى أم برودوفسكي عن طريق جانيا.

وانفجر في ضحكة عصبية وهو يستطرد قائلاً:

- حسناً! إنني أراهن أن برودوفسكي سوف يتهمك بقلّة الذوق، ويلومك على قلّة احترامك لوالدته! نعم. هذا مؤكداً! ها، ها، ها..

وكنتم أنفاسه، ثم بدأ يسعل مرة أخرى.

وقالت المسز إيبانشين دون أن تحول عينها أبداً عن الشاب العليل:

- هلم! هذا يكفي! لقد انتهى كل شيء. ولم يعد لديك ما تقوله. امض الآن إلى الفراش، فإنك تتوقد بالحمى. يا إله السماء، إنه سيبدأ الحديث من جديد!

وقال إيبوليت في حلق لإيفيني بافلوفيتش:

- إنك على ما أظن تضحك! فما الذي يجعلك تضحك دائماً مني؟

فقال إيفيني الذي كان يضحك حقاً:

- كنت أريد فقط أن أعرف يا مستر إيبوليت - معذرة، لقد نسيت بقية اسمك.. أعني الكنية..

فرد الأمير قائلاً:

- مستر تيرنتيف.

- آه، نعم، مستر تيرنتيف. شكرًا أيها الأمير. لقد سمعته فقط الآن، ولكنني نسيته. أريد أن أعرف يا مستر تيرنتيف هل حقًا ما سمعت عنك؟ يلوح أنك مقتنع بأنك إذا استطعت أن تتحدث إلى الناس من نافذتك لمدة ربع ساعة؛ لأمكنك أن تجعلهم يعتنقون آراءك ويؤيدونك!

فقال إيبوليت وكأنما يحاول أن يتذكر:

- ربما قلت هذا.

ثم أردف قائلاً بانتعاش مفاجئ وهو يركز نظراته على إيفيني:

- أجل، قلت هذا بالتأكيد، فماذا في هذا؟

- لا شيء، كنت فقط أبحث عن مزيد من المعلومات ليستقيم كل شيء لأضع اللمسة الأخيرة.

ولزم إيفيني بافلوفيتش الصمت، ولكن إيبوليت ظل مركزاً نظراته عليه، منتظراً، في ضجر، أن يسمع المزيد.

وقالت المسز إيبانشين لإيفيني:

- حسناً، هل فرغت؟ أسرع يا سيدي، لقد حان وقت ذهابه إلى الفراش.

هل لديك المزيد مما تريد أن تقول؟

وكانت تبدو غاضبة. أما إيفيني بافلوفيتش، فقد قال مبتسماً:

- نعم، ليس لدي إلا القليل. يلوح لي أن كل ما تقوله أنت وأصحابك يا

مستر تيرنتيف، وكل ما تقدمونه من آراء بمثل هذه المواهب غير المنكورة،

يمكن أن يوجز في هذه الكلمات: انتصار الحق على كل شيء، وبرغم كل شيء، وفي الواقع إبعاد كل شيء آخر، وربما ذلك قبل اختبار مناسب لطبيعة الحق. ولعلي أكون مخطئاً.

- إنك مخطئ بالتأكيد، ويلوح لي أنني لا أفهمك. وماذا أيضاً؟

وارتفعت أصوات الغمغمة بالقرب من بوردوفسكي وأصحابه، وأعرب ابن أخت ليبيديف عن سخطه في مهمة خافتة.

وأجاب إيفيني بافلوفيتش قائلاً:

- لقد فرغت من الحديث تقريباً، ولكنني سأذكر فقط أن الإنسان يستطيع - بناء على هذه المقدمات - أن ينتهي إلى نتيجة مؤداها أن القوة هي الحق، أعني حق اليد الباطشة والميول الشخصية. والواقع أن العالم كثيراً ما وصل إلى هذه النتيجة. لقد أعلن برودون أن القوة هي الحق، وخلال الحرب الأهلية الأمريكية انضم ليف من الأحرار الكبار إلى أصحاب المزارع على أساس أن السود من جنس أقل شأنًا من الجنس الأبيض، وأن القوة هي حق هذا الجنس الأخير.

- حسنًا!

- هل تعني، يقيناً، أنك لا تنكر أن القوة هي الحق؟

- وماذا بعد ذلك؟

- إنك على الأقل منطقي التفكير. ومن ثم يمكنني أن أقول إن الفرق بين نظرية القوة هي الحق، وبين حق النمرور والتماسيح أو حتى حق دانييلوف وجورسكي ليس إلا خطوة واحدة.

- إنني لا أعرف شيئاً عن هذا، وماذا بعد؟

وكان إيبوليت لا يكاد ينصت إلى ما يُقال، وإنما كان يقول «حسنًا» أو «ماذا بعد» بطريقة آلية خالية من كل فضول، وبدافع فقط من قوة العادة.

- عجبًا! لا شيء بعد، هذا هو كل شيء.

وفجأة قال إيبوليت:

- إنني، على أية حال، لا أحمل لك في نفسي شيئًا.

ودون أن يدرك، تقريبًا، ما هو فاعل، إذا به يمد يده باسمًا. وفوجئ بافلوفيتش اندهاشًا لهذه الإيماءة، ولكنه تمالك نفسه ولمس بكل وقار وجدية، اليد الممتدة إليه رمزًا للصفح. ثم قال بصوت طغت فيه لهجة الاحترام على نبرة الصدق:

- لا يسعني إلا أن أشكرك على سماحك لي بالحديث؛ لأنني كثيرًا ما لاحظت أن أنصار حزب الأحرار لا يسمحون أبدًا أن يكون لغيرهم آراؤهم الخاصة. وهم سرعان ما يردون على خصومهم بالبذاءة، هذا إذا لم يتخذوا في المناقشات مواقف أسوأ من ذلك.

وهنا قال الجنرال إيبانشين:

- إن ما تقوله هو يمين الحق.

ثم عقد يديه وراء ظهره، وعاد إلى مكانه من درجات الشرفة، حيث راح يتنأب في سمت المتضجر.

وقال المسز إيبانشين فجأة لإيفيني بافلوفيتش:

- كفى يا سيدي، هذا يكفي، لقد أضجرتني.

ونفض إيبوليت واقفًا وقد نم وجهه عن القلق الذي يكاد يبلغ حد

الخوف، ثم قال وهو يتلفت حوله في ارتباك:

- أن لي أن أمضي، لقد أخرتكم، أردت أن أقول لكم كل شيء واعتقدت أن هذا كل شيء، لآخر مرة، وكان هذا مجرد نزوة...

وكان يبدو أنه يستغرق في نوبات من الانتعاش المفاجئ بعد أن يفيق من شبه الهذيان الذي يعتره - ثم إذا هو يستطيع، بعد أن يتمالك نفسه تمامًا لبضع لحظات - أن يتحدث بعبارات غير مرتبطة بعضها ببعض لعلها كانت تثقل نفسه مدة طويلة على فراش عذابه في الليالي المرهقة التي لا نوم فيها... وقال فجأة:

- حسنًا! وداعًا.. أتظنون أن من السهل عليّ أن أقول لكم وداعًا ها.. ها..!

ولما شعر أن سؤاله شاذ بعض الشيء، ابتسم بغضب، ثم إذا به يقول بصوت مرتفع وكأنما ساءه أنه لا يستطيع أبدًا أن يعبر حقًا عما يريد أن يقول: - يا صاحب الفخامة، يشرفني أن أدعوك إلى جنازتي. هذا إذا كنت تتنازل وتشرفها بحضورك. وإني أدعوكم جميعًا، أيها السادة، كما دعوت الجنرال.

ثم انفجر ضاحكًا مرة أخرى، ولكن ضحكه كان ضحك رجل مجنون. واقتربت المسز إيبانشين منه في قلق، وأمسكت بذراعه. وحملق في وجهها برهة وهو لا يزال يضحك، ثم سرعان ما اتخذ وجهه سمة الجد. وقال هو يشير إلى أشجار الحديقة:

- أتعرفون أنني جئت هنا لأرى هذه الأشجار! ليس هذا غريبًا، أليس كذلك؟ قل لي إن هذا ليس غريبًا!

قال هذه العبارة الأخيرة بلهفة للمسز إيبانشين. ثم بدا أنه استغرق في التفكير وبعد لحظة، رفع رأسه وراح يبحث بنظراته عن شخص ما. كان يبحث عن إيفيني بافلوفيتش الذي وقف كالمعتاد، على يمينه جد قريب. ولكنه كان قد نسى هذه الحقيقة، فراحت عيناه تطوفان بالأصحاب المتجمعين. فلما رآه أخيراً، قال:

- آه! إنك لم تذهب بعد. لقد بقيت حتى الآن تضحك، لأنه خطر لي أن أتحدث إلى الناس من النافذة لمدة ربع ساعة. ولكنني لم أبلغ بعد، كما تعرف، الثامنة عشرة. إنني بالرقاد على ذلك الفراش، والنظر من تلك النافذة فكرت في مختلف الأشياء لمدة طويلة جداً... إن الرجل الميت لا عمر له، كما تعلم. كنت أقول هذا لنفسي فقط في الأسبوع الماضي، عندما كنت مؤرقاً في الليل. أتعرف ما يخيفك أكثر من غيره؟ إنكم تخافون إخلاصنا أكثر من أي شيء، وذلك رغم احتقاركم لنا. لقد خطرت الفكرة بذهني في تلك الليلة، وقد ظننت يا مسز إيبانشين أنني كنت أسخر منك من لحظات. لا! إن التفكير في السخرية منك هو أبعد شيء عن ذهني. لقد قصدت فقط أن أمتدحك. لقد أخبرني كوليا أن الأمير قال عنك إنك طفلة، حسناً جداً، ترى ماذا أريد أن أقول؟

ثم طمر وجهه بين يديه، وحاول أن يستجمع أفكاره قبل أن يستطرد قائلاً:

- آه، نعم.. كنتم في طريقكم إلى الانصراف الآن، وقد قلت لنفسني: «إنني لن أرى هؤلاء الناس مرة أخرى.. أبداً؛ وهذه هي آخر مرة أرى فيها الأشجار أيضاً! إنني لن أرى شيئاً بعد هذا غير الجدار المشيد من الآجر الأحمر لمنزل آل مايرز القائم في مواجهة نافذتي. وقلت لنفسني؛ حدثهم

عنه، حاول أن تحدثهم عنه- ها هنا فتاة جميلة شابة- إنك رجل ميت-
دعهم يفهمون هذه الحقيقة. قل لهم إن الرجل الميت قد يقول أي شيء.
ولن تكون مسز جراندي غاضبة. ها، ها..

ثم تلفت حوله في لهفة وأردف قائلاً:

إنكم لا تضحكون، ولكنكم تعلمون أن أفكارًا عجيبة تطوف بذهني
وأنا راقد في الفراش. لقد أخذت على الاعتقاد بأن الطبيعة زاخرة بألوان
السخرية والتهكم، لقد قلتُ مني الآن فقط إنني ملحد... ولكنكم تعرفون هذه
الطبيعة، لماذا تضحكون مرة أخرى؟

ثم أضاف فجأة قوله وهو يتأملهم في عتاب حزين:

- إنكم قساة! إنني لم أفسد كوليًا.

وبهذه العبارة اختتم حديثه بصوت مختلف جاد كل الجد كأنما تذكر
مرة أخرى شيئًا، وقالت المسز إيبانشين في تأثر بالغ:

- ليس هنا أحد يضحك منك، فهدئ نفسك. ولسوف تعرض نفسك
على طبيب جديد غدًا. إن الآخر مخطئ ولا شك. ولكن اجلس، لا تقف
هكذا، إنك محموم تهذي.

ثم صاحت في ألم شديد وهي تجعله يجلس مرة أخرى في مقعد وثير:

- أوه، ماذا سنفعل معه!

والتمعت قطرة دمع على وجنتها. ولاح على إيبوليت أنه دُهِش حين
رآها، ورفع يده في تردد ودعة ولمس بأصبعه قطرة الدمع وهو يتسم كطفل،
وعاد يقول بابتهاج:

- إنني... أنت! إنك لا تستطيعين أن تعرفي كم أنا... كان دائماً يشي عليك بحماسة.. كوليا هذا. وقد أجبته حماسته، إنني لم أفسده. ولكن يجب أن أتركه أيضاً- لقد أردت أن أتركهم جميعاً. فليس بينهم واحد، واحد فقط - لقد أردت أن أكون من قادة الرجال- ومن حقي أن أكون. أوه! ما أكثر الأشياء التي كنت أريدها! أما الآن، فلا أريد شيئاً، لقد تنازلت عن كل رغباتي، أقسمت لنفسي على ألا أرغب في شيء. دعوهم يبحثون عن الحقيقة بدوني! نعم إن الطبيعة ممتلئة بألوان السخريّة والتهكم. عجباً!

ثم استطرد يقول بحماسة مفاجئة:

- أتراها تخلق أفضل المخلوقات لكي تسخر منهم فقط؟ إن المخلوق الآدمي الوحيد الذي عُرف بالكمال، عندما قدمته الطبيعة إلى الجنس البشري، عهد إليه برسالة التبشير بأشياء سببت إراقة كثير من الدماء التي كان يمكن أن تغرق الجنس البشري، لولا أنها أريقَت دفعة واحدة! أوه، إنه خير لي أن أموت، وقد كان ينبغي أن أنطق بكذبة رهيبة أيضاً. وكان على الطبيعة أن تدبر أمر هذه الكذبة بعد ذلك. إنني لم أفسد أحداً، لقد أردت أن أعيش من أجل سعادة الناس جميعاً، لأبحث عن الحق وأشيّعه بين الناس. وقد تعودت أن أنظر من النافذة إلى جدار بيت ماير، وأن أقول لنفسي إنني لو استطعت أن أتحدث إلى الناس لمدة ربع ساعة لأمكنني أن أقنع العالم كله. وها أنا لأول مرة في حياتي أتصل بـ... بكم، إن لم يكن بالآخرين، فماذا كانت النتيجة. لا شيء! إن النتيجة الوحيدة هي أنكم تحتقرونني. ولهذا، فأنا ولا شك أحق، لا جدوى مني، ومن ثم فقد آن لي أن أخفي! ولن أترك ورائي حتى الذكرى؛ لا صوت، لا أثر، لا عمل واحداً. إنني لم أنشر على الملأ حقيقة واحدة! لا تضحكوا من الأحق، انسوه! انسوه. إلى الأبد! إنني

أبتهل إليكم ألا تبلغ بكم القسوة بحيث تذكرونني! ألا تعلمون أنني لو لم أكن مصدورًا، لقتلت نفسي!

ورغم ما كان يبدو عليه من الرغبة في أن يقول أكثر من هذا كثيرًا، إلا أنه التزم الصمت، وتراجع في مقعده، وأخفى وجهه بيديه، وشرع يبكي كطفل. وهتفت المسز إيبانشين قائلة:

- أوه، ماذا يمكن بحق السماء أن نفعل معه؟

وأسرعت إليه، وضمت رأسه إلى صدرها، بينما كان ينشج بالبكاء. وأخذت تقول له:

- لا لا لا. لا تبك! هذا يكفي. إنك طفل طيب، ولسوف يغفر الله لك؛ لأنك لم تكن تعرف أفضل مما عرفت، كفى بكاء الآن، كن رجلًا، وأنت تعرف أنك ستخجل من هذا البكاء بعد ذلك.

ورفع إيبوليت رأسه بجهد وقال:

- إن لديّ هناك أخوات وإخوة صغارًا أبرياء فقراء! إنها سوف تشدهم! إنك قديسة! إنك نفسك طفلة - أنقذهم! انتزعهم من ذلك... إنها.. إنها فاضحة! أوه! ساعديهم! لسوف يجزيك الله أضعافًا مضاعفة من حسن الجزاء. أناشدك بحق الله وبحق المسيح!

وصاحت المسز إيبانشين في انفعال:

- تحدث يا جنرال! ماذا تفعل؟ أرجوك أن تخرج من صمتك السامي! إنني أندرك بأنك إذا لم تستطع أن تصل إلى قرار، فسوف أبقى هنا بنفسني، لقد استبددت بأمرني بما يكفي أيها المستبد.

وكانت تتحدث في غضب، وفي انفعال شديد، وتتوقع إجابة عاجلة. ولكن الذي يحدث في ظروف كهذه، فإن الجميع، أيًا كان عددهم، يفضلون الصمت. لم يكن ثمة من يرضى أن يتحمل المسؤولية، ولكنهم جميعًا رأوا الاحتفاظ بآرائهم حتى النهاية. وكان بينهم البعض - مثل فارفارا أرداليونوفيتش - الذين قد يرتضون البقاء طيلة الليل دون أن يلفظوا بكلمة. لقد جلست فارفارا طيلة الوقت في معزل عن الجميع دون أن تفتح شفيتها بكلمة، ولكنها كانت تنصت إلى كل شيء بأشد انتباه. ولعل أن يكون لديها ما يبرر موقفها هذا.

وقال الجنرال:

- يلوح لي يا عزيزتي أننا هنا أحوج إلى ممرضة خاصة منا إلى سيدة مهتاجة الشعور مثلك. وربما يكون من الأفضل أن نستدعي رجلًا حكيمًا يمكن الاعتماد عليه لقضاء الليلة معه. وعلى أية حال ينبغي أن نستشير الأمير، وأن نترك العليل فورًا ليستريح، ويمكننا غدًا أن نفكر فيما ينبغي أن نفعل من أجله.

وقال دوكتورنكو «ابن أخت لبيديف» للأمير بغلظة:

- لقد أوشك الليل أن ينتصف. ويجب أن ننصرف، فهل ينصرف معنا أم أن عليه البقاء هنا؟

فقال الأمير:

- يمكنك أن تبقى معه هنا إذا شئت، فإن المنزل كثير الغرفات. وعلى حين غرة ولدهوة الجميع، مضى كيلر - الملاك - إلى الجنرال، وقال بحرارة:

- إذا كنت يا صاحب الفخامة تريد رجلاً موثقاً به لقضاء الليلة، فأنا مستعد للتضحية بنفسي من أجل صديقي.. بالروح التي يتمتع بها. لقد كنت أراه دائماً رجلاً عظيماً يا صاحب الفخامة! لقد دلت مقاتلي على قصور ثقافتي، ولكنه حين ينتقد تنثر اللآلئ؟

وأشاح الجنرال بوجهه عن الملاك في بأس بينما قال الأمير مجيئاً عن أسئلة المسز إيبانشين الملهوفة:

- سأكون مبتهجاً لو أنه بقي الليلة هنا، فلا شك أن من العسير عليه أن يعود إلى بطرسبرج.

فقال له:

- ولكنك نصف نائم الآن! أليس كذلك؟ فإذا كنت لا تريده، فسوف أخذه معي إلى البيت. عجباً! يا إلهي؟ إنه لا يكاد يستطيع الوقوف! ماذا بك؟ هل أنت مريض؟

وكانت المسز إيبانشين، حين لم تجد الأمير على فراش الموت كما توقعت، ظنت، خطأ، من مظهره، أنه أحسن كثيراً مما كان. إلا أن مرضه الأخير، والذكريات المؤلمة المتعلقة به، والإرهاق الذي ناله الليلة، وموضوع «ابن بافليشيف» ثم منظر إيبوليت الأخير، كل هذا قد أثر على طبيعته المرفهة جداً بحيث غدا كأنه محموم. وعدا هذا، نمت عيناه عن مشكلة جديدة تكاد تبلغ حد الخوف، ومن ثم راح يرقب إيبوليت في قلق، كأنما يتوقع منه المزيد.

وفجأة نهض إيبوليت، وكان وجهه الممتقع إلى حد مزعج، ينم عن وجه رجل تغمره مشاعر العار واليأس. وقد بدا هذا بصفة خاصة في نظرة

الخوف والحدق التي ألقى بها على المجتمعين، وفي الابتسامة الوحشية المرتسمة على شفتيه المرتعدتين. ثم أغضى بعينه. وأخذ، بنفس الابتسامة، يسير مترنحًا إلى بوردوفسكي ودكتورنكو اللذين كانا واقفين في مدخل الشرفة. لقد قرر أن ينصرف معهما.

وصاح الأمير قائلاً:

- هذا.. هذا ما كنت أخشاه. هذا ما كان لا بد أن يحدث.

واستدار إيبوليت نحوه وقد استبد به غضب وحشي جعل عضلات وجهه تختلج.

- آه، هذا ما كنت تخشاه! هذا ما كان لا بد أن يحدث، كما تقول! حسناً، دعني أقول لك إنني إذا كنت أكره أحداً هنا، فأنا أكرهكم جميعاً.

ثم أردف صائحاً بصوت أجش متوتر النبرات:

- ولكنك أنت.. أنت بروحك الجزويتية الناعمة، أنت الأبله الملعون، المليونير المحسن، إنني أكرهك أكثر من أي شيء ومن أي شخص في هذه الدنيا! إنني قد عرفت حقيقتك وكرهتك منذ أمد بعيد. منذ اليوم الذي سمعت فيه عنك. لقد كرهتك من كل قلبي. لقد دبرت أنت كل هذا؟ لقد دفعت بي إلى هذه الحالة. لقد جعلت رجلاً يحتضر يفضح نفسه. أنت.. أنت.. أنت السبب في جبني الخسيس! لو أنني بقيت على قيد الحياة لقتلتك! إنني لا أريد أفضالك، إنني لا أقبل من أحد شيئاً. أسمعون؟ من أي أحد؟ لا أريد شيئاً. لقد كنت أهذي. لا تجرأوا على الشماتة! إنني ألعنكم واحداً واحداً، الآن وإلى الأبد.

وتقطعت أنفاسه. واضطر إلى التوقف. وهمس ليبيديف إلى المسز

إيانشين:

- إنه خجلان من دموعه. لم يكن ثمة مفر من هذا! آه ما أبرع هذا الأمير!
لقد عرف هذه الحقيقة كأنما قرأ صفحة نفسه.

ولكن المسز إيانشين لم تتنازل وتلفتت إلى ليبيديف، وإنما شمخت برأسها وراحت بهذا الرأس المرفوع عاليًا ترمق «الصعاليك» بفضول واحتقار. ولما فرغ إيوليت من حديثه، هز الجنرال كتفيه، ونظرت زوجته إليه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه. كأنما تطالبه بمعنى هذه الحركة. ثم استدارت إلى الأمير وقالت له:

- شكرًا أيها الأمير، شكرًا جزيلاً يا صديق الأسرة العجيب على هذه الأسمية اللطيفة التي هيأتها لنا. وإني لوائية أنك جد مسرور إذ نجحت في أن تجعلنا نختلط بشئونك العجيبة هذه. وهذا كاف جدًّا يا صديق الأسرة العزيز. شكرًا إذ أتحت لنا فرصة معرفتك هكذا جيدًا.

وأخذت تسوي وضع معطفها بأصابع ترتعد بالغضب وهي تنتظر انصراف الصعاليك. وفي تلك اللحظة وصلت المركبة التي كان ابن ليبيديف قد ذهب لإحضارها بناء على أمر دوكتورنكو «ابن أخت ليبيديف» ورأى الجنرال أن من المناسب أن يقول هو أيضًا كلمة بعد زوجته:

- ما كان ليخطر ببالي حقًّا أيها الأمير بعد... بعد كل صداقتنا - وأنت يا إليزابيثا بروكوفينا..

وهتفت أدليدا قائلة وهي تسرع نحو الأمير وتمد يدها إليه:

- أبي، كيف يمكنك هذا؟

وابتسم الأمير إليها بشرود، ثم إذا به يشعر بإحساس ملتهب في أذنه

كأنما يهمس فيها بصوت غاضب:

- إذا لم تطرد هؤلاء الناس المزعجين من بيتك حالاً، فسوف أكرهك
طيلة حياتي.. طيلة حياتي.

وكان الصوت صوت أجلايا. وبدا له أنها في حالة انفعال شديد. ولكنها
استدارت وابتعدت عنه قبل أن يتمكن من النظر إليها. ولكن لم يكن ثمة أحد
على كل حال بالمنزل ليطرده؛ لأنهم استطاعوا عندئذ حمل إيبوليت إلى
المركبة التي لم تلبث أن انصرفت.

وقال الأمير ميشكين للجنرال:

- حسناً! إلى متى سوف تستمر هذه الحالة يا جنرال إيبانشين؟ ما
رأيك؟ هل سأتخلص بسرعة من هؤلاء الشبان الممقوتين؟

ومد الجنرال يده إلى الأمير قائلاً:

- يا عزيزي.. إنني مستعد تماماً، بطبيعة الحال... إن الأمير..

ثم قطع حديثه وأسرع وراء زوجته التي كانت منصرفة وعلى وجهها
أبلغ أمارات السخط والاستنكار، أما أدليدا وخطيبها، وألكسندرا، فقد
ودعوا الأمير بحرارة ومودة صادقة. وكذلك فعل إيفيني بافلوفيتش الذي
كان يبدو، دونهم جميعاً، في حالة معنوية طيبة.

وقد غمغم قائلاً للأمير في ابتسامة جذابة:

- إن ما توقعته قد حدث! ولكنني آسف من أجلك يا صاحبي المسكين
لأنك مضطر إلى أن تعاني هذا كله.

وانصرفت أجلايا دون أن تودعه. ولكن الليلة لم تنته دون مغامرة أخيرة

إذ كان ثم لقاء غير متوقع في انتظار المسز إيبانشين.

إنها ما كادت تهبط الدرجات المؤدية إلى الطريق الذي يحف بالحديقة العامة في بافلوفسك، حتى رأت مركبة مفتوحة أنيقة مندفة يجرها جوادان أبيضان جميلان. وبعد أن تجاوزت المركبة البيت بعشر ياردات، توقفت فجأة، والتفتت إحدى السيدتين الجالستين فيها التفاتة حادة كأنما لمحت فجأة شخصًا تعرفه وتريد أن تقابله بصفة خاصة.

وهتف صوت جميل عذب جعل الأمير - وربما شخص آخر معه - يضطرب:

- إيفيني بافلوفيتش، أهذا أنت؟ حسنًا! إنني سعيدة إذ وجدتك أخيرًا. لقد أرسلت بنفسني إلى المدينة من يبحث عنك مرتين اليوم، وكان رسولي يبحث عنك في كل مكان.

ووقف إيفيني على درجات السلم جامدًا كأنما انقضت عليه صاعقة. وتسمرت المسز إيبانشين في وقفها أيضًا، ولكن بدون أن تتجمد التعبيرات على وجهها كما حدث لإيفيني. لقد أخذت ترمق في ترفع، الشخصية الجريئة التي وجهت الحديث إلى صاحبها. ثم استدارت إلى إيفيني بافلوفيتش بنظرة كلها دهشة..

واستطرد الصوت العذب الجميل في الحديث قائلاً:

- لديّ أخبار لك. لا حاجة بك إلى القلق بسبب كميالات كييفروف، لقد اشتراها روجوجين كلها؛ لأنني أقنعته بأن يفعل هذا. ويمكنني القول إننا سنسوي ديون بيسكوب أيضًا. ومن ثم سيكون كل شيء على ما ينبغي كما ترى. إلى اللقاء غداً، ولا تجزع لشيء..

وتحركت المركبة، ولم تلبث أن اختفت.

وصاح إيفيني أخيراً وقد أربد وجهه بالغضب وهو يتلفت حوله بارتباك:

- لا شك أن هذه المرأة مجنونة. إنني لا أدري شيئاً عما تتحدث، أية كيميالات ومن هي؟

وظلت المسز إيبانشين تراقب وجهه لحظات قليلة، ثم سارت في نشاط وشموخ نحو بيتها، والباقون وراءها.

وبعد لحظة، عاد إيفيني وظهر على شرفة بيت الأمير ميشكين وهو في حالة اضطراب شديد وقال:

- أيها الأمير، أخبرني بالحقيقة، أتعرف ماذا يعني هذا كله؟

فقال الأمير الذي كان هو أيضاً في حالة من التوتر العصبي الشديد:

- إنني لا أعرف أي شيء عن هذا الموضوع.

- أبداً؟

- أبداً!!

فضحك إيفيني فجأة وقال:

- حسناً، ولا أنا! ليس لدي أية معلومات عن هذه الكيميالات التي

تحدثت عنها. وأقسم على هذا. عجباً! ماذا بك؟ هل سيُغمر عليك؟

- لا لا، إنني بخير أؤكد لك.



الفصل الحادي عشر

لم يفتأ غضب آل إيبانشين لمدة ثلاثة أيام. وكالمعتاد أنب الأمير نفسه، وتوقع العقاب، ولكنه كان يشعر في أعماق نفسه أن المسز إيبانشين لا تستطيع أن تكون جادة في غضبها منه، وأنها على الأرجح، أكثر غضباً من نفسها، ومن ثم لشد ما كانت دهشته مؤلمة عندما مرت ثلاثة أيام دون أن يسمع منها شيئاً. وكذلك أثارت أشياء أخرى الاضطراب والحيرة في نفسه، وكان أحد هذه الأشياء يزداد أهمية في نظره مع مرور الأيام. لقد بدأ يلوم نفسه لسببين متناقضين - فمن ناحية بسبب إسرافه في الثقة بالناس إسرافاً يكاد يبلغ حد «البله»، ومن ناحية أخرى بسبب الارتياح المظلم الحقيق.

وفي نهاية اليوم الثالث، كان حادث السيدة الشاذة مع إيفيني بافلوفيتش قد احتل من أفكاره مجالات خفية ضخمة. فكان يسأل عنه في حزن: هل كان هو السبب في هذه «الحادثة الشائنة» أم أن... ولكنه كان يتراجع عن ذكر من قد يكون السبب. أما بشأن الحروف «ن. ب. ب.» فقد نظر إلى هذا الموضوع على أنه فكاهة بريئة، ومجرد قطعة من العبث الصبباني الذي شعر أنه من العار، بل من الخسة تقريباً أن يقيم له أي وزن.

وعلى أية حال، فقد تشرف الأمير، في اليوم التالي لهذه الأحداث الفاضحة، بزيارة من أدليدا وخطيبها الأمير «س» لقد جاء بصفة خاصة للاستفسار عن صحته. وقالا إنهما خرجا يتجولان، ثم قاما بالزيارة «مصادفة» ودار حديثهما طيلة الوقت الذي قضياه معه تقريباً حول شجرة معينة رائعة الجمال في الحديقة العامة، وهي الشجرة التي قررت أدليدا أن تجعل منها لوحة رسم، بهذا الحديث، مع حديث آخر لطيف من جانب الأمير س - شغل الجميع وقتهم، دون أن تند من فم أحد كلمة من أحداث الليلة السابقة، وأخيراً انفجرت أدليدا ضاحكة، واعتذرت قائلة إنهما جاءا لزيارته سرّاً. وقد أدرك هو من هذا، ومن امتناعهما عن الحديث عن احتمال عودته معهما إلى البيت، أو زيارته لهما فيما بعد، أن اسمه قد وضع في قائمة المسز إيبانشين السوداء. وتحدثت إدليدا عن لوحة ألوان مائية تتوق لأن تطلعه عليها، فقالت إنها قد ترسلها إليه مع كوليا، أو تحضرها بنفسها في اليوم التالي - وقد بدا هذا للأمير واضح الدلالة جداً.

وعلى أية حال، فعندما أوشك الاثنان أخيراً على الانصراف، بدا كأن الأمير س - قد تذكر فجأة شيئاً، فقال:

- آه، نعم، وبهذه المناسبة، هل حدث أن تعرف يا عزيزي ليو نيكولايفيتش من هي تلك السيدة التي نادى على إيفيني بافلوفيتش من المركبة في الليلة الماضية؟

فقال الأمير:

- كانت ناستاسيا فيليبوفنا. ألم تكن تعرف هذا؟ ولكنني لا أستطيع أن أعرف من التي كانت معها.

فقال الأمير س - وقد بدا أنه تحت تأثير دهشة حقيقية:

- ولكن ماذا كانت تعني من حديثها بحق السماء؟ أؤكد لك أن الأمر لغز بالنسبة لي، لي أنا، وللآخرين أيضًا.

فقال الأمير ببساطة:

- كانت تتحدث عن بعض ديون إيفيني بافلوفيتش، التي اشتراها روجوجين من شخص ما، والمفهوم أن روجوجين لن يثقل عليه بالسداد العاجل.

- أوه، لقد سمعت هذا كله يا عزيزي! ولكن هذا الشيء يبلغ من الغرابة حد الاستحالة! إذ كيف يستدين رجل ثري مثل إيفيني بافلوفيتش من أحد المرابين! ثم يساوره القلق بسبب هذا الدين، إنه لأمر شاذ. وعدا هذا فليس ثمة احتمال في أن يكون على علاقة وثيقة بناستاسيا فيليوفنا كما جعلتنا نفهم! هذا هو الجانب المهم في المشكلة! لقد أقسم لي أنه لا يعرف شيئاً أياً كان عن هذا الموضوع، وبطبيعة الحال صدقته. حسنًا، الموضوع الآن يا عزيزي الأمير هو هل تعرف أنت أي شيء عنه؟ ألم يخالجك أي نوع من الشك في الأمر؟

- لا، لا أعرف شيئاً قط عن هذا الموضوع، وأؤكد، أنني ليس لدي أية علاقة به.

- أوه، ما أغرب ما أصبحت أيها الأمير، أؤكد لك أنني لا أكاد أعرف فيك شخصيتك القديمة! كيف أمكنك الظن أنني فكرت لحظة في أنه قد يكون لك يد في مثل هذه المسألة؟ ولكنك لست على طبيعتك الحقيقية اليوم، كما أرى.

ثم عانق الأمير وقبله. وسأله هذا الأمير:

- ماذا تعني بقولك «مثل هذه المسألة»؟! إنني لا أرى شيئاً خاصاً عن «مسألة» ما إطلاقاً.

فقال الأمير «س» بحفاء واضح:

- أوه، ليس ثمة شك في أن هذه السيدة أرادت لسبب ما أن تسيء إلى إيفيني بافلوفيتش بوصفه - أمام الشهود - بصفات لا يمكن أن تنطبق عليه.

وبدا الاضطراب على وجه الأمير ميشكين، ولكنه استمر يحملق بانتباه وتساؤل في وجه الأمير «س» الذي ظل، على كل حال ملتزماً بالصمت.

وأخيراً قال الأمير ميشكين في شيء من الضيق:

- إذن فليس الأمر مجرد كمبيالات! ليس كما قالت هي!

- ولكنني أسألك يا سيدي العزيز كيف يمكن أن تكون ثمة علاقة ما بين إيفيني بافلوفيتش - وبينها - ثم روجوجين! أوكد لك أن إيفيني رجل واسع الثراء - كما أعرف عن يقين. كما أن من المنتظر أن يرث أموالاً طائلة عن عمه. إذن فلا شك أن ناستاسيا فيليوفا...

وقال الأمير ميشكين بعد لحظة صمت:

- إذن فهو على كل حال يعرفها!

- أوه، قد يكون هذا! لعله قد عرفها منذ وقت مضى - منذ عامين أو ثلاثة على الأقل. لقد كان يعرف توتسكي. ولكن ليس من المحتمل أن تكون ثمة علاقة وطيدة بينهما. بل إنها لم تكن هنا إطلاقاً - وإن كثيراً من الناس لا يعرفون حتى أنها عادت من موسكو، وأنا لم ألحظ مركبتها إلا منذ

ثلاثة أيام فقط أو نحو ذلك.

فقال أدليدا:

- إنها مركبة جميلة.

- نعم، إنها مركبة فاخرة حقًا!

وغادر الزائران البيت وعلاقتهما الودية بالأمير على كل حال، ليست أقل مما كانت من قبل، ولكن الزيارة كانت ذات أهمية كبرى للأمير، من وجهة نظره، فمع الاعتراف بأن لديه شكوكه منذ اللحظة التي وقعت فيها أحداث الليلة السابقة بل وربما قبل ذلك أيضًا، في أن ناستاسيا هدفًا غامضًا نُصب عينها، إلا أن هذه الزيارة أكدت له شكوكه، وبررت مخاوفه. لقد بدا كل شيء واضحًا أمامه. ولعل الأمير «س» أن يكون مخطئًا في رأيه عن هذا الموضوع، إلا أنه قريب إلى حد ما من الحقيقة، وعلى صواب فيما يتعلق بإدراكه أن مؤامرة من نوع ما تحاك خيوطها. وربما كان الأمير «س» يرى الأمر كله بأوضح مما جعل المستمعين إليه يظنون. وعلى أية حال. فليس ثمة شيء واضح من أن أدليدا قد جاءت لتعرب عن رغبتها في الحصول على بعض التوضيحات، وأنهما يرتابان في أن لديه يدًا في هذا الأمر. فإذا كان هذا كله كذلك، إذن فلا شك أن لدى ناستاسيا هدفًا رهيبًا تسعى إليه. فما هو؟ إن الأمير ميشكين يعرف، بالتجربة أنه ليس ثمة شيء يوقف ناستاسيا عن القيام بكل ما تضعه نُصب عينها. وهكذا قال المسكين لنفسه: «أوه، إنها مجنونة.. مجنونة..».

ولكن وقعت أحداث أخرى مذهلة في ذلك اليوم، استلزمت توضيحات عاجلة، وجعلت الأمير يشعر بالحزن الشديد. ولكن زيارة

فيرا لبيديف له، شغلته بعض الشيء عن هذا كله. لقد حملت معها الطفلة الرضيع لوبوشكا كالمعتاد، وبادلتها الحديث بعض الوقت في مرح. ثم جاءت أختها الصغرى، ثم بعد ذلك أخوها الملتحق بمدرسة قريبة. لقد أخبر الأمير أن والده اهتدى منذ عهد قريب إلى تفسير جديد للنجم المسمى الشبح «ورمود» الذي سقط من السماء على ينابيع الماء كما ورد في سفر الرؤيا. لقد رأى لبيديف أن هذا يعني شبكة السكك الحديدية التي انتشرت على وجه القارة الأوروبية في الوقت الحاضر. وأبى الأمير أن يصدق أن في مقدور لبيديف أن يقدم مثل هذا التفسير، ومن ثم قرروا أن يسألوه عن هذا الموضوع في أقرب فرصة. وذكرت فيرا كيف أن «كيللر» - الملاك - بات الليلة السابقة في ضيافتهم وخطر لها أنه قد يمكث بعض الوقت لا سيما وقد سرتة صحبة الجنرال إيفولجين وأفراد الأسرة جميعاً. ولكنه أعلن أنه لم يأت إليهم إلا لاستكمال تعليمه فقط!

وكان الأمير يستمتع دائماً بصحبة أبناء لبيديف، وقد زاد ترحيبه بهم في هذا اليوم بصفة خاصة لأن كوليا لم يأت طيلة اليوم. ذلك أنه، أي كوليا، كان قد رحل في بكور الصباح إلى بطرسبرج. وكان لبيديف أيضاً متغيباً في شأن من شؤونه. ولكن جافريلا أورداليونوفيتش كان قد وعد بزيارة الأمير الذي راح ينتظر حضوره في شوق ولهفة.

وقد حضر في نحو السابعة مساءً، بعد طعام العشاء مباشرة، ومن النظرة الأولى، أدرك الأمير أن جانبا - على أية حال - لا شك يعرف كل تفاصيل موضوع الليلة السابقة. والواقع أنه كان في حكم المستحيل بالنسبة له أن يبقى جاهلاً لهذا الموضوع ولديه مساعدان مهمان هما أخته فاريا وزوجها بيتسين. ولكن برغم العلاقة الوطيدة - إلى حد ما - التي بينه وبين الأمير،

وبرغم أن هذا الأخير قد عهد إليه بموضوع بوردوفسكي - ولم يكن هذا وحده من أدلة الثقة التي وضعها فيه - إلا أنه يبدو من دواعي العجب أنهما كانا يحرصان على تجنب الحديث، بلباقة، في موضوعات كثيرة معينة. وكان الأمير يعتقد أنه كان يبدو على جانبا أحياناً أنه يرغب في المزيد من المودة والصراحة. وقد وضح له الآن، عند دخوله، أن من المؤكد أن الأوان قد آن أخيراً لإزالة عوامل التكلف من علاقتهما.

ولكن جانبا، على أية حال، كان متعجلاً؛ لأن أخته كانت تنتظره في مسكن لبيديف لتستشيريه في موضوع عملي مهم. فإذا كان جانبا يتوقع منه أسئلة متعجلة، أو ألواناً مفاجئة من الثقة المتبادلة، فسرعان ما تبين أنه مخدوع عن أمره. لأن الأمير كان متحفظاً، متأملاً، بل شارد الذهن بعض الشيء. فلم يسأل شيئاً من الأسئلة، بل ولا السؤال الخاص الذي كان جانبا يتوقعه. ومن ثم فقد قلد موقف الأمير، وراح يتحدث بسرعة وبراعة عن كل الموضوعات إلا الموضوع الوحيد الذي كان يشغل فكريهما. وقد قال جانبا لمضيفه من بين ما قال إن ناستاسيا فيليوفا لم تأت إلى بافلوفسك إلا منذ أربعة أيام، وأن الجميع قد غدوا يتحدثون عنها فعلاً. وكانت مقيمة مع داريا ألكسينا، في منزل صغير قبيح الشكل بشارع ماتروسكي، ولكنها تجول في المدينة بأشد المركبات أناقة ومنذ اللحظة الأولى تعلق بها جمع من الأتباع المعجبين، شاباً وشيئاً، وكان بعضهم يحفون بمركبها على متون جيادهم عندما تخرج للنزهة في الهواء الطلق في بكور الصباح.

وكانت هوايتها متقلبة المزاج كالمعتاد في اختيارها لمعارفها، ولكنها لم تسمح إلا لعدد قليل بدخول مجتمعتها الخاص، ومع ذلك فقد كان عدد التابعين لها والمعجبين بها كبيراً، وكذلك كان عدد المدافعين عنها الذين

يمكنها الاعتماد عليهم عند الضرورة. وبسببها فسخ شاب خطبته، وكان يقضي إجازته في بافلوفسك. ولهذا السبب أيضًا تشاجر جنرال سابق مع ابنه الوحيد.

وكانت تصحبها أحيانًا في المركبة فتاة في السادسة عشرة، تُمْتُ بوشائج بعيدة من القربى لمضيفتها. وكانت هذه الفتاة بارعة في الغناء. بل إن موسيقاها قد أضفت على البيت الصغير نوعًا من الشهرة. ولكن ناستاسيا، على كل حال كانت شديدة الحرص في سلوكها بوجه عام. فكانت ملابسها رقيقة وادعة، ولكن على ذوق رفيع كان يجعل نساء بافلوفسك يفقدن صوابهن من فرط الغيرة لا من الملابس فحسب، بل ومن جمالها الأسر، ومن مركبتها الأنيقة وجيادها الفاخرة.

واستطرد جانيا في حديثه مع الأمير قائلاً:

- أما عن حدث الليلة الماضية، فقد كان بطبيعة الحال مدبرًا.

وهنا توقف برهة كأنما كان يتوقع أن يسأله الأمير عن كيف عرف هذا. ولكن الأمير لم يسأل. أما بشأن إيفيني بافلوفيتش، فقد ذكر جانيا- دون انتظار لسؤال- أنه يعتقد أن إيفيني لم يكن يعرف ناستاسيا فيما مضى، وأن من المحتمل أن يكون بعضهم قد قدمه إليها خلال هذه الأيام الأربعة السابقة. أما عن موضوع الكمبيالات التي تحدثت عنها، فقد لا يبعد أن يكون في هذا شيء. ذلك أنه على الرغم من أن إيفيني رجل موفور الشراء بلا شك، إلا أن جانبًا معينًا من أعماله في حالة اضطراب بغير شك أيضًا. ولما وصل جانيا إلى هذا الجزء المثير من حديثه، توقف فجأة، ولم يزد كلمة فيما يتعلق بدعابة ناستاسيا في الليلة السابقة.

وأخيرًا أقبلت فاريا باحثة عن أخيها، وبقيت في الغرفة بضع لحظات. وبدون أن يسألها الأمير ميشكين عن شيء، أخبرته أن إيفيني بافلوفيتش يمضي يومه في بطرسبرج، وأنه ربما بقي هناك حتى الغد، وأن زوجها قد رحل أيضًا إلى المدينة، ربما لشأن من شئون إيفيني بافلوفيتش. وقد أضافت قائلة:

- إن المسز إيبانشين في حالة رهيبة من الضيق والتوفز العصبي. ثم استطردت قائلة:

- ولكن أعجب شيء هو أن أجلايا تشاجرت مع جميع أفراد الأسرة ، أي ليس فقط مع أبيها وأُمها، وإنما مع أختيها أيضًا. وهذه ليست دلالة طيبة..

قالت فاريا هذا كله بطريقة عادية، رغم أنه كان لما قالته أهمية كبيرة في نظر الأمير. ثم انصرفت مع أخيها. أما فيما يتعلق بموضوع «ابن بافليشيف» فقد التزم جانبا الصمت التام، بدافع من رقة زائفة، من ناحية، وربما رفقًا بمشاعر الأمير من ناحية أخرى. وعلى أية حال فقد شكره الأمير مرة أخرى لما عاناه من متاعب في بحث شئونه الخاصة.

وأحس الأمير ميشكين بالرضى التام حين تُرك بمفرده! فمضى إلى الحديقة وعبر الطريق ودخل الحديقة العامة. لقد أراد أن يتأمل، وأن يتخذ في «حظوة» معينة قرارًا.

وكانت هذه الحظوة إحدى هذه الحظوات التي لا تحتاج على كل حال إلى إمعان الفكر، بوجه عام، وإنما تتخذ- أو لا تتخذ- بسرعة، وبلا تأمل أو تفكير. والحقيقة هي أنه أحس برغبة ملحة في ترك كل شيء والرحيل

إلى الخارج - إلى أي مكان ما دام أنه بعيد جدًا، وأن يكون هذا الرحيل فورًا، وبلا وداع لأحد. لقد خامره شعور بالاستياء والسخط، بأنه إذا بقي بضعة أيام أخرى في هذا المكان، وبين هؤلاء الناس، فإنه سيمكث فيه دائمًا. ولكنه، على أية حال قرر بعد بضع لحظات أن الهرب مستحيل، وأنه قد يبدو لونا من الجبن؛ لأن لديه مشكلات ضخمة، ولأنه ليس من حقه أن يتركها بلا حل، أو على الأقل؛ لأنه يرفض أن يبذل كل جهد وقوة في محاولة حلها. وبعد أن انتهى إلى هذا القرار استدار وعاد إلى البيت بعد أن استغرقت قوة غشيته أقل من ربع ساعة. وكان في تلك اللحظة لا يشعر بالسعادة إطلاقًا.

ولم يعد ليبيديف من مهمته. وهكذا استطاع كيللر، عند اقتراب المساء التسلل إلى مسكن الأمير. ولم يكن ثملاً، وإنما كان في حالة الرغبة في الثروة والإفضاء بذات نفسه إلى الغير. وقد أعلن أنه جاء ليسرد تاريخ حياته للأمير ميشكين، وأنه لم يتخلف في بافلوفسك إلا لهذا الغرض. ولم يكن ثمة سبيل إلى طرده، لا شيء أقل من زلزال كان يمكن أن يزيله!

وبدأ سرد قصة حياته بطريقة إنسان يرى أن الوقت متسع أمامه، ولكنه لم يلبث بعد كلمات قليلة مضطربة أن قفز إلى النهاية التي كانت هكذا: «وبعد أن توقف عن الإيمان بالله، فقد كل تقديره للمبادئ الأخلاقية، وبلغ به الأمر أن ارتكب جريمة سرقة». ثم قال:

- فهل يمكن أن يتصور شيء كهذا؟

فرد عليه الأمير قائلاً:

- أنصت إليّ يا كيللر. لو أنني كنت في موضعك، لما أوجبت على

نفسى الاعتراف بهذا ما لم يكن لأمر ضروري تمامًا ولسبب ما، ولكن
لعلك تريد أن تصور نفسك أسوأ مما أنت الآن، لغرض خاص!

- ما كنت لأقول هذا لأحد غيرك أيها الأمير، وإني أقول هذا فقط الآن
كمساعدة لارتقاء روجي. وعندما أموت، فسوف يموت هذا السر معي!
ولكن لو أنك علمت يا صاحب الفخامة، لو أن لديك أقل فكرة عن كيف
أصبح من العسير الحصول على المال في الوقت الحاضر! إن المشكلة،
هي أين تجده! أطلب سلفة، فتجد الإجابة دائماً واحدة «أعطنا رهناً من
ذهب أو جواهر، أو ماس، وعندئذ يكون الأمر سهلاً» أي يريدون على
التحديد ما ليس لدى الإنسان! هل يمكن أن تصور هذا لنفسك؟ لقد استبد
بي الغضب أخيراً، وقلت للواحد منهم: «أعتقد أنك تقبل رهناً من الزمرد!»
فقال: «طبعاً، بالتأكيد، إني أقبل الزمرد» فقلت: «حسناً، لا بأس! اذهبوا
إلى الشيطان يا عصابة اللصوص» ثم تناولت قبعتي وانصرفت.

فسأله الأمير قائلاً:

- أليدك قطع من الزمرد؟

- ماذا؟ أنا لديّ زمرد! آه أيها الأمير! يا لنظرتك البسيطة، البريئة،
المتفائلة، بل التي تكاد تبلغ بساطة النظرة الريفية للحياة!!

وسأل الأمير نفسه: «ألا يمكن إصلاح شأن هذا الرجل إذا وضع في
رعاية إنسان طيب!» لأنه بدأ يشعر بلون من الإشفاق والرثاء لזائره. ولم
يكن هو يقدر كثيراً قيمة تأثيره الشخصي على الغير، لا بسبب شعور من
التواضع وإنما لطريقته الفريدة في النظر إلى الأمور بوجه عام. وعلى هذا
بدأت المحادثة تزداد إمتاعاً وانتعاشاً بحيث لم يعد يشعر أحدهما بالرغبة

في إنهاؤها. واعترف كيللر، في إخلاص واضح، أنه ارتكب كثيرًا من هذه التصرفات التي أدهش الأمير أنه قادر على الاعتراف بها، حتى له هو. ومع كل اعتراف جديد، كان يعرب عن أعماق الندم والتوبة، ويصف نفسه بإنسان «غارق في الدموع». ولكن هذا لم يكن يمنعه من التفاخر في بعض الأحيان، كما كانت بعض حوادثه مثيرة للضحك بحيث كان هو والأمير يضحكان منها بجنون!

وقال الأمير أخيرًا:

- نقطة واحدة في صالحك، وهي أن لك، كما يلوح، عقلية صبيانية، وثقة تامة في الغير، فهل تعلم أن هذا يكفر الكثير من أخطائك.

فقال كيللر وقد لان كثيرًا:

- إنني بلا شك نبيل - التفكير، وشهم إلى حد ما. ولكن هل تعلم أن نبل التفكير هذا ليس له وجود إلا في الحلم، إن صح هذا التعبير؟ إنه لا يبدو أبدًا عند العمل أو التصرف. فلماذا هذا؟ إنني لا أفهم أبدًا.

- لا تيأس. وأعتقد أنه يمكننا القول بلا خوف من خداع أنفسنا إنك قد رسمت صورة واضحة لنفسك. وأنا، على الأقل، أعتقد أنه من المستحيل أن تضيف الشيء الكثير إلى ما قلت الآن.

فصاح كيللر في إشفاق تقريبًا:

- مستحيل! آه. ما أقل أيها الأمير ما تعرفه - كما يبدو - عن حقيقة النفس البشرية.

فسأله الأمير قائلاً في دهشة خفيفة:

- أهنأك حقًا الشيء الكثير مما يمكن إضافته؟ حسنًا! ما هذا الذي

تريده حقاً مني؟ تحدث! قل لي لماذا جئت لتقدم اعترافك لي؟

- ماذا أريد؟ حسناً! أولاً فإن من دواعي البهجة أن يقابل الإنسان رجلاً مثلك. وإنها لمتعة أن يتحدث الإنسان عن أخطائه معك. فأنا أعرف أنك من أحسن الرجال.. ثم.. ثم..

وتردد برهة. وبدأ مرتبكاً إلى حد كبير بحيث ساعده الأمير في الحديث قائلاً:

- إذن فقد أردت مني أن أقرضك بعض المال.

وكان الأمير قد نطق بهذه الكلمات في نبرات جادة، بل وفي شيء من الخجل.

وجفل كيللر، وأرسل على المتحدث نظرة اندهاش، ثم ضرب النضد بجمع يده قائلاً:

- حسناً أيها الأمير، إن ما قلت يكفي لطرحي على الأرض في دهشة. لقد أذهلتني فيها أنت ذا، بسيط وطيب القلب كفارس في العصر الذهبي، ومع ذلك.. ومع ذلك.. فإنك تقرأ نفسية الإنسان كعالم نفسي! والآن أرجوك أن تشرح لي هذا الأمر أيها الأمير لأنني.. لأنني في الحقيقة لا أفهم.. طبعاً كان هدفي أن أقترض منك بعض المال بوجه عام، وأنت.. أنت ألقيت السؤال كأنما ليس في الأمر ما يشين! كأنما تراه أمراً طبيعياً.

- نعم.. إنه بالنسبة إليك أمر طبيعي!

- وأنت غير مستاء!

- ولماذا أستاذ؟

- حسنًا! اسمع إذن أيها الأمير، لقد بقيت هنا في الليلة الماضية؛ لأنني من جهة شديد الإعجاب بالأسقف الفرنسي بوردالو. لقد استمتعت بالحديث عنه حتى الساعة الثالثة صباحًا مع ليبيدف ثم.. ثم، وأقسم بكل شيء مقدس في نظري، أنني أقول لك الحق. ثم رغبت في ترقية روحي بهذا الاعتراف الصادق الصريح معك. كان هذا رأيي وأنا أنتحب باكيًا حتى نمت في الفجر، وفيما أنا أستغرق في النوم والدموع في روحي، والدموع على وجهي «وأذكر كيف كنت راقداً أبكي» خطرت ببالي فكرة جهنمية «لماذا لا تقترض بعض المال منه بعد أن تعترف إليه» أترى، إن هذا الاعتراف كان نوعاً من ضربة - معلم! كنت أرى استغلاله كوسيلة للظفر بعطفك وتقديرك، ثم، ثم كنت أنوي أن أمضي بمائة وخمسين روبلاً، والآن، هل تسمي هذا دناءة؟

فأجاب الأمير قائلاً:

- ليس هذا تصويرًا دقيقًا للموضوع! لقد خلطت دوافعك وآراءك كما يحدث كثيرًا. ولا أكاد أكون بحاجة إلى القول إن هذا كثيرًا ما يحدث لي أيضًا. وأؤكد لك يا كيللر أنني ألوم نفسي جدًا في بعض الأحيان. فعندما كنت تتحدث الآن، خيل إليّ أنني أستمع إلى شيء عن نفسي، وفي بعض الأحيان كنت أظن أن الناس جميعًا هكذا.

واستطرد يقول في لهفة، إذ كان من الواضح أنه مستمتع جدًا بالمحادثة:

- وقد عزاني هذا إلى حد ما، لأن الدوافع المزدوجة شيء من العسير جدًا مقاومته لقد حاولت هذا، وأعرف - والله يعلم - من أين تأتي هذه الأفكار التي تسميها دنيئة! وإنني الآن أخشى هذه الدوافع المزدوجة أكثر من أي وقت آخر. ولكنني لست الحكم في أمرك، ولكنك في رأيي أسرفت

كثيرًا في وصفك لهذه الحالة بالدناءة.. فما رأيك؟ لقد كنت تنوي أن تستغل دموعك كشرك لاقتراض المال. بل إنك قلت أيضًا، وفي الواقع - وفي الواقع أقسمت على صدق ما قلت - أنك، فيما عدا هذا، أدليت بهذا الاعتراف بدافع نبيل. أما المال، فأنت تريده لتسكر به، أليس كذلك؟ إن هذا، طبعًا، نوع من الضعف، بعد اعترافك! ولكن مع هذا كله، يمكن للإنسان أن يتحرر من عاداته السيئة في لحظة. إن هذا مستحيل فماذا يمكن أن نفعل؟ إن خير ما أفعله في رأيي، هو أن أدع الأمر لضميرك. فما رأيك في هذا؟

وفيما هو يختتم الحديث، نظر الأمير إلى كيللر بفضول. ويلوح أنه كان قد فكر كثيرًا في هذه الدوافع المزدوجة من قبل.

فصاح الملاكم قائلاً:

- حسنًا! كيف يمكن لشخص ما أن يقول إنك «أبله» بعد هذا؟ إن ذلك أكثر مما أستطيع أن أفهم!

واحمر وجه الأمير قليلاً، بينما استطرد كيللر قائلاً:

- إن بوردالو، الأسقف، ما كان ليغفر لرجل مثلي، ولكنك أنت.. أنت نظرت إليّ بعين الإنسانية، ولكي أبين لك مدى اعترافي بفضلك، وعقاباً لي عما دار بفكري، فلن أقبل منك مائة وخمسين روبلاً، ويكفي أن تعطيني خمسة وعشرين. فإن هذا كل ما أحтаجه في الواقع، لمدة خمسة عشر يوماً على الأقل. فأنا أتمنى لو استطعت أن أقدم لأجائنا هدية، ولكنها في الواقع لا تستحقها، أوه، يا عزيزي الأمير، ليبارك الله فيك.

وفي تلك اللحظة، ظهر لبيديف الذي كان قد وصل تَوًّا من بطرسبرج.

ولما رأى الخمسة والعشرين روبلاً في يد كيلر، قطب جبينه، ولكن هذا الأخير - وقد ظفر بالمبلغ - بادر بالانصراف. وأخذ ليبيديف في شتمه.

وبعد أن أنصت الأمير قليلاً، قال:

- إنك غير مُنصف. لقد وجدته مخلصاً في توبته!

- وما جدوى توبة من هذا النوع؟ إنها تماماً كتوبتي ليلة أمس عندما قلت «إنني دنيء، إنني دنيء» إنها كلمات، ولا شيء أكثر.

- إذن فقد كان الأمر مجرد كلمات من جانبك! لقد ظننت، على العكس...

- حسناً، إنني لا أجد بأساً في أن أقول لك الحقيقة - لك أنت فقط! لأنك بطريقة ما تنفذ بنظراتك إلى أعماق النفس البشرية، إن الكلمات والأفعال، والحقائق والأباطيل، كلها مختلطة ببعضها بعض في نفسي، ومع ذلك فأنا مخلص تماماً، إنني اشعر بأعمق الندم، ولك أن تصدقني أو تكذبني، حسبما ترى، ولكن الكلمات والأباطيل تصدر عني بسبب اللفتة اللعينة للتفوق على الغير.. إنها دائماً في نفسي، الرغبة في خداع الناس، وفي استغلال كل دموع توبتي لخدمة أغراضي! أؤكد لك أن هذه هي الحقيقة أيها الأمير! وما كنت لأقول هذا لأحد غيرك بأي ثمن. إن غيرك ما كان ليتردد في السخرية مني والتهكم عليّ، ولكنك أنت، تنظر إلى الغير بعين الإنسانية.

فصاح الأمير ميشكين قائلاً:

- عجباً! لقد قال كيلر هذا الشيء نفسه كلمة كلمة تقريباً منذ لحظات قليلة. ويبدو أن كلاً منكما يميل إلى الفخر بهذا. إنك تدهشني، ولكنني

أعتقد أنه أكثر إخلاصًا منك؛ لأنك تتخذ من هذا تجارة دائمة لك. أوه، لا تضع على وجهي ذلك التعبير المثير للعطف! ولا تضع يدك أيضًا على قلبك! أليديك ما تريد أن تقول لي، فإنك لم تأت بلا غرض...

فابتسم لبيديف وتلوى في موقفه، بينما استطرد الأمير قائلاً:

- لقد كنت في انتظارك طيلة اليوم؛ لأنني أريد أن أوجه إليك سؤالاً. وأنا أرجوك- ولو لمرة واحدة في حياتك- أن تذكر الحقيقة حالاً. هل كانت لك يد في موضوع المركبة أمس؟

وعاد لبيديف يبتسم مرة أخرى، ويفرك يديه، ويعطس، ولكنه لم يلفظ بكلمة واحدة. وقال الأمير:

- أرى أن لك يدًا في هذا الموضوع!

- بطريق غير مباشر. غير مباشر تمامًا! إنني أقول الحقيقة، أقولها حقًا. إنني فقط ذكرت لشخص ما أن لدي أشخاصًا في المنزل، وأنه قد يكون بينهم هذا أو ذاك من الناس.

فقال الأمير بضجر:

- لقد عرفت أنك أرسلت ابنك إلى ذلك البيت- قال لي هذا بنفسه الآن. ولكن ما هي المؤامرة!!

فصاح لبيديف ملوحًا بيديه:

- ليست مؤامرتي. إنها مدبرة على أيدي أشخاص آخرين، وإذا شئت الحقيقة فهي أقرب إلى الدعابة منها إلى المؤامرة.

- ولكن ما الغرض من هذا كله؟ أخبرني بحق السماء! ألا تستطيع

أن تدرك أن الأمر يكاد يمسنى شخصيًا! لماذا يريدون الإساءة إلى سمعة
إيفيني بافلوفيتش!

ومرة أخرى راح لبيديف يتلاعب بملامح وجهه ويتلوى بجسمه ثم
يقول:

- يا فخامة الأمير! إنك لا تدعني أذكر لك الحقيقة كلها. لقد حاولت
أن أشرح الأمر، وبدأت أكثر من مرة، ولكنك لم تكن تسمح لي بالاستمرار..
ولم يجب الأمير بشيء، وإنما جلس مستغرقًا في أفكاره، وكان كما
يبدو، يحاول أن يستقر على شيء. وأخيرًا قال في لهجة محزنة:
- حسنًا جدًّا، أخبرني بالحقيقة.

وبدأ لبيديف حديثه فورًا فقال:

- إن أجلايا إيفانوفنا...

فصاح الأمير قائلاً وقد اضطرم وجهه بالاستنكار، وربما بالخبجل
أيضًا:

- اسكت! حالًا! إن هذا مستحيل وشاذ؟ إن هذا كله من تفكيرك
أو تفكير الحمقى من أمثالك. لا تدعني أسمع منك كلمة أبدًا عن هذا
الموضوع مرة أخرى.

وبعد ذلك، في المساء، جاء كوليا مع جعبة من أخبار بطرسبرج
وبافلوفسك ولم يتحدث كثيرًا عن أخبار بطرسبرج التي كانت تتكون،
بوجه خاص - من معلومات عن صديقه إيبوليت. ومن ثم تجاوزها بسرعة
إلى ما يجري في بافلوفسك. ذلك لأنه ذهب رأسًا من المحطة إلى بيت آل
إيبانشين. وفي هذا الشأن قال:

- إن الدنيا هناك مقلوبة رأسًا على عقب. فأولًا ما حدث من نزاع أمس. وأعتقد أن في الأمر شيئًا جديدًا أيضًا، ولكنني لم أحب أن أسأل، ولم يأت ذكرك بكلمة واحدة أيها الأمير طيلة الوقت.

ولكن أهم ما في الأمر هو أن أجلايا كانت تشتجر مع أهلها بسبب جانيا. ولم يعرف كوليا شيئًا من التفاصيل غير أنها كانت مشاجرة رهيبة! وكذلك زار إيفيني بافلوفيتش آل إيبانشين حيث استقبله الجميع بترحاب وبشاشة. وقد حدث أمر آخر عجيب: فقد بلغ الغضب بمسز إيبانشين أن استدعت فاريا إليها- وكانت فاريا تتحدث مع البنات، ثم طردتها من البيت «بصفة نهائية». واستطرد كوليا في حديثه عن هذا الأمر قائلاً:

- لقد سمعت هذا من فاريا نفسها. ورغم أن مسز إيبانشين كانت مهذبة تمامًا معها إلا أنها كانت أيضًا حازمة. ولما ودعت فاريا البنات، لم تذكر لهن شيئًا عن الموضوع، وهكذا لم يعرفن أنهن يحينها تحية الوداع نهائيًا. وإنني لأسف من أجل فاريا، ومن أجل جانيا أيضًا، فهو ليس شريكًا تمامًا رغم أخطائه الكثيرة، وأنا لن أغفر لنفسني أبدًا لأنني لم أكن أحبه من قبل!

واختتم كوليا حديثه قائلاً:

- ولست أدري هل ينبغي أن أتردد الآن على آل إيبانشين! إنني لا أحب أن أكون مرتبطًا بغيري، ولا أن أتدخل في خلافات الغير. ولكن يجب أن أقلب هذا الأمر على جميع جوانبه.

فقال الأمير:

- إنني لا أرى داعيًا لكي تحطم قلبك من أجل جانيا؛ لأنه إذا كان ما

تقول حقًا، فلا شك أن جانبا يعتبر مصدر خطر في المحيط العائلي لآل إيبانشين. فإذا كان الأمر كذلك، فإن آمالًا معينة لا بد أن أحدًا شجع على ازدهارها.

فصاح كوليا قائلاً:

- ماذا؟ أية آمال تعني؟ إنك بالتأكيد لا تعني أجلايا، لا، لا..

ثم استطرد يقول بعد برهة صمت:

- إنك رجل رهيب الشكوك أيها الأمير. لقد لاحظت أخيراً أنك قد أصبحت كثير الشكوك في كل شيء. إنك لم تعد، كما يبدو، تثق في الناس كما كنت تفعل، كما أنك تنسب دائماً الدوافع إلى هذا أو ذاك من الأمور. هل أنا أستخدم كلمة «شكوك» في مجالها المناسب؟

- أعتقد هذا، ولكنني لست واثقاً.

- حسنًا، لسوف أغيرها خطأ أو صوابًا. سأقول إنك لست متشككًا، وإنما غيور. ها.. إنك ستجن بالغيرة من جانبا بسبب فتاة معينة مترفعة النفس! هلم.

ووثب كوليا واقفًا وهو يقول هذه الكلمات، وانفجر ضاحكًا وكان يضحك ضحكًا ربما لم يضحك في حياته مثله، وازداد ضحكًا حين رأى وجه الأمير يضطرم احمرارًا إلى جبينه، وكان مبتهجًا لأن الأمير يشعر بالغيرة على أجلايا. ولكنه على أية حال توقف فورًا حين رأى الأمير قد جرح حقًا في شعوره. واستمرت المحادثة بينهما - بحماسة - نحو ساعة أو أكثر.

وكان على الأمير أن يمضي إلى المدينة في اليوم التالي لعمل من

الأعمال المهمة، فلما عاد بعد الظهر، حدث أن التقى بالجنرال إيبانشين في المحطة. وأمسك هذا الأخير بيده، وتلفت حوله بعصبية كأنما يخشى أن يضبطه أحد وهو يسيء التصرف، ثم جذبته إلى مقصورة بالدرجة الأولى، وكان يبدو متحرقاً للحديث عن شيء له أهميته، إذ قال:

- أرجو، أولاً أيها الأمير، ألا تكون غاضباً مني. كنت أود لو استطعت زيارتك أمس، ولكنني لم أكن أعرف كيف كانت المسز إيبانشين ستنظر إلى هذه الزيارة. إن بيتي يا صديقي العزيز، قطعة من الجحيم الآن، وإن نوعاً من أبي الهول قد اتخذ مقامه فيه. إننا نعيش في جو من الأحاجي والألغاز. ولم أعد أستطيع أن أعرف لأي شيء رأساً من ذنب. أما أنت، فإني أشعر باليقين بأنك أقلنا جميعاً استحقاقاً للوم، وذلك رغم أنك، بلا شك، السبب في جانب كبير مما حدث. أترى! إنه لأمر جميل جداً أن يكون الإنسان محسناً كبيراً. ولكن لا يجوز التماذي في هذا الشأن. وأنا طبعاً معجب بطيبة قلبك وأقدر زوجتي، ولكن..

وراح الجنرال كعادته يتنقل بالحديث من موضوع إلى آخر بلا ارتباط لمدة طويلة، وكان الواضح أنه يشعر بقلق شديد لسبب ما لا يستطيع أن يعرف كنهه.

واستطرد يقول أخيراً في شيء من الغموض:

- من الواضح في نظري أنه ليس لك يد في الأمر إطلاقاً. ولكن ربما كان من الأفضل أن تمتنع عن زيارتنا حيناً من الوقت. وأنا أقول هذا لك بكل شعور من المودة والإخلاص، أتفهم! أعني حتى يتغير اتجاه الريح مرة أخرى.

ثم استطرد قائلاً في شيء من الانفعال:

- أما بشأن إيفيني بافلوفيتش. فإن الأمر كله مجرد فرية، وفرية قدرة. إنها ببساطة مؤامرة، تدبير معين لإفساد مشروعاتنا وإثارة الخلاف في محيطنا. أترى أيها الأمير؟ لسوف أقول لك بصفة خاصة، إنه لا إيفيني، ولا نحن، قد تحدثنا عن موضوع ما بكلمة بعد. فليس هناك تفاهم معين بيننا، وليس ثمة ارتباطات خاصة تجمع بيننا، ولكن الكلمة قد تقال قريباً: ألا ترى؟ قريباً جداً. وإن ما حدث مقصود به إفساد الأمر كله. لماذا؟ إنني بالتأكيد لا أستطيع أن أعرف. إنها امرأة عجيبة، أترى! غريبة الأطوار. أؤكد لك أن من فرط خوفي من هذه المرأة أنني لا أستطيع النوم. أية مركبة رائعة كانت تستقلها، ومن أين جاءت بها! آه! أعترف أنني كنت دنيئاً حين شككت في إيفيني في أول الأمر. ولكن يخيل لي تأكيداً أن الأمر ليس كذلك، فإذا لم يكن، فلماذا تتدخل هنا! هذا هو اللغز؟ ماذا تريد؟ أهى ترى أن تحتفظ بإيفيني لنفسها؟ ولكن، يا صديقي العزيز، أقسم لك أنه حتى لا يعرفها، أما تلك الكمبيالات فعجباً! إن أمرها كله باطل، ثم جرأتها في الحديث معه بلا كلفة! من الواضح تماماً أنه ينبغي علينا أن ننظر إلى محاولتها الوقحة بازدراء، وأن نضاعف من احترامنا لإيفيني، هذا ما قلته لزوجتي..

وسأخبرك الآن بيقيني الخاص. إنني واثق أنها فعلت هذا لتنتقم مني، بسبب ما حدث في الماضي. وأنا أؤكد لك أنني لم أكن طوال الوقت ملوماً، بل إن وجهي ليضطرم لمجرد التفكير في هذا الأمر. وها هي الآن قد ارتدت علينا هكذا مرة أخرى بينما كنت أظن أنها اختفت من حياتنا نهائياً. أين روججين في كل هذا الوقت؟ لقد ظننت أنها قد أصبحت مسز روججين منذ وقت طويل.

لقد كان الجنرال المعجوز في حالة اضطراب ذهني شديد. وقد ظل طوال الرحلة التي استغرقت نحو ساعة، على هذه الحالة في القطار؛ يضع الأسئلة، ويجيب عنها بنفسه، ويهز كتفيه، ويضغط على يد الأمير، مؤكداً له أنه، مهما تكن الأمور، لا يشك في أمره أبداً، وكان هذا التأكيد الأخير مرضياً على كل حال. وأنهى الجنرال حديثه بقوله إن عم إيفيني رئيس إحدى المصالح الحكومية، وثري، ثري جداً، و«وشره». ...

– حسناً! لتحفظه السماء، طبعاً! ولكن إيفيني ينال نصيبه من المال، أترى! ولكنني، رغم هذا كله، غير مطمئن، ولست أدري لماذا! فإن في الجو شيئاً. أجل، أشعر أن في الجو شيئاً خبيثاً، مثل الخفاش، ولهذا فأنا لست مطمئناً بأية حال.

ولكن الصلح الرسمي لم يتم بين الأمير وبين آل إيبانشين إلا في اليوم الثالث كما سبق القول.



الفصل الثاني عشر

كانت الساعة السابعة مساءً، وكان الأمير يستعد للخروج إلى نزهة في الحديقة العامة عندما ظهرت المسز إيبانشين في الشرفة على حين غرة.

وبادرت به بالحديث قائلة:

- لا تجرؤ أولاً على الظن بأني سوف أعتذر لك، كلام فارغ! فإن اللوم كله يقع على عاتقك.

ولم يحر الأمير جواباً، فعادت تقول:

- أأنت المعلوم أم لا؟

- لا، لا بالتأكيد. لا لست ملوماً أكثر منك، رغم أنني ظننت في أول الأمر أنني قد أكون.

- أوه، حسناً، لنجلس إذن، فإني لا أنوي الوقوف طيلة اليوم. ولكن تذكر، إذا قلت كلمة واحدة عن «الأولاد الأشقياء» فسوف أنصرف وأقطع علاقتي بك نهائياً. والآن، اسمع، هل أرسلت، أم لم ترسل، خطاباً إلى أجلايا منذ شهرين؟ أي في نحو عيد الفصح.

- نعم.

- لماذا؟ وماذا هو هدفك؟ أرني الخطاب.

وتطايير الشرر من عيني المسز إيبانشين، وكانت على وشك الارتعاد من نفاد الصبر.

فقال الأمير بوداعة وهو أشد ما يكون دهشة للاتجاه الذي اتخذته المحادثة :

- ليس الخطاب معي، وإذا كان مع أحد، أو إذا كان لا يزال له وجود، فإنه لا بد أن يكون مع أجلايا إيفانوفنا.

- لا مراوغة في الحديث أرجوك. عن أي شيء كتبت.

- إنني لست أراوغ، ولست بأية حال خائفاً من أن أذكر لك الحقيقة، بل إنني لا أرى أي سبب يمنعني من عدم الكتابة.

- هدوءاً! يمكنك أن تتحدث فيما بعد! عن أي شيء كان الخطاب؟ لماذا يضطرم وجهك هكذا؟

وصمت الأمير، وأخيراً قال:

- إنني لا أفهم أفكارك يا مسز إيبانشين. ولكنني أفهم أن كتابتي للخطاب قد أثارت، لسبب ما، نفورك. ويجب أن تعترفي بأن لدي الحق الكامل في رفض الإجابة عن أسئلتك. ولكن لكي أبين لك أنني لست خجلان من الخطاب ولا آسفاً لكتابته؛ لأنني لا أميل أبداً إلى أن يحمر وجهي بسببه «وهنا تضاعف احمرار وجهه» سوف أردد عليك محتويات الخطاب لأنني أكاد أحفظه عن ظهر قلب.

وأخذ الأمير، بعد هذا، يردد الخطاب كلمة كلمة تقريباً، كما كتبه.

فقالت المسز إيبانشين بلهجة قاطعة بعد أن أفضت بانتباه شديد:

- يا إلهي! يا إلهي! يا لها من ثرثرة ولغو! وما الغرض من كل هذا اللغو
الفارغ من فضلك؟ إذا كان له أي معنى!

- الواقع أنني لا أعرف نفسي على الإطلاق، ولكنني أعرف أنني مخلص
في شعوري، وفي هذا الوقت يكون لديّ لحظات أكون فيها مليئاً بالحياة
وبالأمل.

- أي نوع من الأمل؟

- من الصعب أن أشرح، ولكنها بالتأكيد ليست الآمال التي تراودك.
حسنًا! إنها في إيجاز آمال للمستقبل، وشعور بالبهجة بأنني هناك على أية
حال، لن أكون غريباً أو أجنبياً؟ لقد غمرتني نشوة بأنني في بلادي مرة أخرى،
وفي ذات صباح مشمس، تناولت القلم، وكتبت لها هذا الخطاب. ولكن
لماذا لها بالذات، إنني لا أعرف. إن الإنسان أحياناً يتوق لأن يكون له صديق
بالقرب منه.

ثم أضاف قائلاً بعد لحظة صمت:

- ويبدو أنني كنت أشعر بالحاجة إلى صديق عندئذ.

- هل بينكما علاقة حب؟

- لا.. لقد كتبت إليها كأخت، ووقعت على خطابي كأخ.

- آه، طبعًا، لغرض، أنني أفهم تمامًا.

- إن الإجابة عن هذه الأسئلة تؤلمني جدًّا يا مسز إيبانشين.

- يمكنني أن أقول إن الأمر كذلك؛ ولكن ليس هذا شأني. والآن، أكد

لي بصدق، وأمام الله، هل تكذب عليّ أم لا؟

- لا، إنني لا أكذب.
- هل كنت تقول الحقيقة عندما ذكرت أنك لست على حب معها.
- أعتقد أنها الحقيقة الكاملة.
- «أعتقد!» حقاً؟ هل ذلك الغلام الشقي هو الذي سلمه إليها؟
- لقد طلبت من نيكولاي أرداليونوفيتش.
- فقاطعته المسز إيبانشين بحماس قائلة:
- الغلام الشقي، الغلام الشقي! إنني لا أريد أن أعرف هل هو الغلام الشقي، نيكولاي أرداليونوفيتش..
- نيكولاي أرداليونوفيتش؟
- قلت لك الغلام الشقي!
- لا، لم يكن الغلام الشقي، وإنما كان نيكولاي أرداليونوفيتش، قالها الأمير بحزم دون أن يرفع صوته.
- حسناً، حسناً يا عزيزي، لسوف أضع هذا في قائمة حسابك.
- ثم صمتت برهة لتلتقط أنفاسها، ولتتمالك نفسها قبل أن تستطرد قائلة:
- حسناً! وما معنى «الفارس المسكين» هه!
- إنني لا أعرف إطلاقاً، لم أكن موجوداً عندما دبّروا هذه الدعابة، إنها دعابة على ما أظن، هذا هو كل شيء.
- حسناً! هذا كل شيء يطمئن النفس على كل حال، فأنت لا تظن أن من الممكن أن تهتم هي بأمرك. أليس كذلك؟ عجباً! لقد أسمتك «الأبله».

فغمغم الأمير في عتاب وبصوت يكاد يكون همساً:

- أعتقد أنه كان من الممكن أن تعفيني من هذا.

- لا تغضب، إنها عنيدة، مخبولة، مدللة، إنها إذا أحببت شخصاً راحت تحمل عليه وتسخر منه وتلعب به. وقد كنت أنا مثلها. ولكن لا حاجة بك، مع هذا كله، إلى أن تزهو بنفسك يا ولدي. فإنها لا تناسبك. إنني لا أصدق هذا، وهذا لن يكون. إنني أقول لك هذا فوراً؛ لكي تكون على بينة من أمرك وتحتاط لنفسك، وأنا الآن أريد أن أسمعك تقسم لي أنك غير متزوج بتلك المرأة.

فهتف الأمير قائلاً وهو يكاد يقفز واقفاً من فرط الدهشة:

- مسز إيبانشين؟ ما هذا الذي تفكرين فيه؟!

- عجباً! لقد أوشكت جداً أن تكون زوجاً لها!

فهمس الأمير قائلاً وهو يطرق برأسه:

- نعم، أوشكت جداً أن أكون.

- حسناً إذن. هل جئت إلى هنا من أجلها! هل أنت على حب معها، مع

تلك المخلوقة.

فأجاب الأمير قائلاً:

- إنني لم آت للزواج إطلاقاً.

- هل لديك شيء تعتبره مقدساً؟

- نعم.

- إذن أقسم به أنك لم تأت إلى هنا لكي تتزوجها.

- لسوف أقسم بأي شيء يرضيك.

- إنني أصدقك، وإنني الآن أشعر بالارتياح. ويمكنك أن تقبلني. ولكن يجب أن تعلم، يا صديقي العزيز، أن أجلايا لا تحبك، وأنها لن تكون زوجة لك أبداً ما دمت أنا على قيد الحياة. ومن ثم كن على حذر في الوقت المناسب. أسمعني؟

- نعم أسمعك.

واضطرم وجه الأمير في قوة بحيث لم يستطع أن ينظر إلى وجهها، بينما استطردت هي قائلة:

- لقد انتظرتك طويلاً بفارغ الصبر «لا لأنك جدير بهذا» وفي كل ليلة كنت أبلل وسادتي بالدموع، لا من أجلك يا صديقي، لا من أجلك، ولهذا فلا تزه بنفسك. فإن لديّ حزني الخاص، وهو كما هو دائماً، كما هو دائماً. ولكنني سأذكر لك لماذا كنت في انتظارك بفارغ الصبر؛ لأنني أعتقد أن الأقدار نفسها قد أرسلتك لتكون صديقاً وأخاً لي. فليس لي في هذه الدنيا صديق غير الأميرة بيلوكوفسكي، وهي كالشاة، تزداد حماقة بسبب الشيخوخة. والآن، قل لي، نعم، أم لا. أتعرف لماذا هتفت من مركبتها في ليلة أول أمس.

- أقسم لك بشرفي أن ليس لي شأن بهذا الموضوع، ولا أعرف عنه شيئاً!

- حسناً جداً. أصدقك، لأن لديّ آرائي الخاصة عن هذا الموضوع. لقد كنت أظن حتى صباح أمس أن إيفيني بافلوفيتش هو المعلوم حقاً، ولكن لا يسعني إلا الاتفاق مع الآخرين. ولكن لماذا أريدُ له أن يكون موضع

السخرية، فهذا ما لم أفهمه. إنه على أية حال لن يتزوج بأجلايا، وهذا ما يمكنني أن أقوله لك. إنه قد يكون شابًا ممتازًا، ولكن هذا ما سيكون. وأنا لم أكن أبدًا واثقة من قبوله زوجًا لابنتي من قبل، أما الآن فقد استقر رأيي على عدم قبوله. لقد قلت للجنرال في هذا الصباح بالذات «ضعني أولاً في كفني، ثم في قبوري، ثم زوج بناتي بمن تشاء» أرأيت يا ولدي كيف أثق فيك!

- نعم. إنني أرى وأفهم.

وحملت المسز إيبانشين في عيني الأمير بإمعان، إذ كانت تتوق لأن ترى أثر أخبار إيفيني بافلوفيتش على ملامح وجهه. وأخيرًا سألته:

- أتعرف شيئًا عن جافريلا أرداليونوفيتش.

- أوه، نعم. أعرف الشيء الكثير.

- أتعرف أن له اتصالًا بأجلايا؟

فقال الأمير وهو يرتعد قليلًا من فرط الانفعال:

- لا. لا أعرف. أنقولين أن لجافريلا أرداليونوفيتش اتصالات خاصة بأجلايا؟ مستحيل!

- منذ وقت قريب فقط! كانت أخته تعمل كالفأر لتمهيد الطريق أمامه طوال فصل الشتاء.

وبعد برهة صمت، قال الأمير فجأة:

- إنني لا أصدق هذا. لو كان الأمر كذلك، لعرفت به منذ فترة طويلة.

- آه، نعم طبعًا، كان عليه أن يأتي ويفشي سره باكيًا على صدرك. آه، أيها الساذج، أيها الساذج، إن في مقدور أي شخص أن يخدعك، وأن، وأن..

ألست خجلان من ثقتك التي وضعتها فيه. ألا ترى أنه يحتال عليك بقدر ما يحلو له!

- أنا أعرف أنه يخدعني بين الحين والآخر، وهو يعرف أنني أعرف هذا. ولكن..

ولم يتم الأمير حديثه، فقالت هي:

- وهذا ما يجعلك تثق فيه؟ هه! كان ينبغي أن أظن هذا؟ يا إلهي! أيمكن أن يكون في هذه الدنيا رجل مثلك... ثم ألدك علم يا سيدي أن جانبا هذا، أو أخته فاريا، قد أغراها بمراسلة ناستاسيا فيليبونا.

هتف الأمير قائلاً:

- أغرى من؟

- أجلايا.

فوثب الأمير عن مقعده في انفعال:

- إنني لا أصدق! هذا مستحيل! ماذا يمكن أن يكون الهدف من ذلك؟

- ولا أنا أصدق هذا! رغم كل الأدلة. إن الفتاة عنيدة وخيالية ومجنونة!

إنها شريرة، شريرة! وسوف أكرر القول ألف سنة إنها شريرة. إنهن جميعاً هكذا الآن، كل بناتي، حتى تلك «الدجاجة الحمقاء» ألكسندرا. ومع ذلك فأنا لا أصدق هذا. ولأنني اخترت ألا أصدق، ربما، ولكنني لا أفعل. ولماذا لم تأت..

واستدارت إلى الأمير فجأة وسألته:

- لماذا لم تأت لتكون قريباً منا في هذه الأيام الثلاثة الأخيرة؟ هه!

وبدأ الأمير في إبداء الأسباب، ولكنها قاطعته مرة أخرى قائلة:

- إن كل شخص يطويك تحت جناحه يخدعك. لقد ذهبت إلى المدينة أمس وفي مقدوري أن أقسم أنك ركعت أمام ذلك الخيال وابتهلت إليه لكي يقبل منك عشرة آلاف روبل.

- إنني لم أفكر أبدًا في أن أفعل شيئًا من هذا القبيل. إنني لم أره، وهو ليس في رأيي، محتالًا. لقد استلمت منه رسالة.

- أطلعني عليها.

فتناول الأمير ورقة من مفكرته وقدمها إلى المسز إيبانشين، وكانت كما يلي:

«سيدي:

إنني واثق، أنني في نظر العالم إنسان بلا كرامة أو تقدير لنفسه. إنني أنفه كثيرًا من هذا. ولكن ما قد يبدو في أعين الناس، لا يبدو في عينيك. فأنا واثق بأنك أفضل من غيرك. ولا يتفق دوكتورنكو في رأيي هذا، ولكنني مطمئن إلى خلافي معه في هذا الشأن. إنني لن أقبل منك كوبكا واحدًا؛ ولكنك ساعدت أُمِّي، وأنا أشعر بالعرفان بجميلك على هذا، مهما قد يبدو عرفاني هذا ضعيفًا. ولكنني، على أية حال، لم أغير رأيي عنك، وأرى من الصواب أن أخبرك بهذه الحقيقة. إلا أنني أظن أيضًا أنه لا داعي لأن تكون ثمة علاقة بيني وبينك بعد ذلك.

ملاحظة: إن مائتي الروبل التي أدين لك بها، سوف ترد إليك بالتأكيد في الوقت المناسب.

وصاحت المسز إيبانشين وهي تعيد إليه الخطاب فجأة:

- يا له من خطاب بالغ الحماسة؟ إنه غير جدير بمشقة كتابته. لماذا أنت
تبتسم؟

- أعترف أنك مسرورة بقراءتك له!

- ماذا؟ مسرورة بقراءتي لهذه الحماقات! عجباً؟ ألا ترى أن كلماته
مفعمة بالكبرياء والغرور!

- لقد اعترف على نفسه بأنه مخطئ، ألا ترين أنه كلما كان غروره
شديداً، كان من الصعب عليه أن يعترف على نفسه بهذا! أوه يا لك من طفلة
صغيرة يا مسز إيبانشين.

- هل تغريني لكي أفرك أذنك، أم ماذا؟

- لا أبداً، إنني فقط أثبت أنك مسرورة بقراءة هذا الخطاب. فلماذا
تخفين مشاعرك الحقيقية؟ إنك دائماً تحبين أن تفعلي هذا.
فصاحت المسز إيبانشين وهي تشتعل غضباً:

- حذار أن تأتي قريباً من بيتي يوماً ما. لا تدعني أراك أو أرى ظلاً منك
بالقرب من البيت أسمعني!

- آه، نعم، وفي خلال ثلاثة أيام سوف تأتين وتدعينني بنفسك. أأست
خجلى الآن؟ هذه أحسن مشاعرك، إنك تعذبين نفسك فقط.

- إنني أفضل الموت على دعوتك! لسوف أنسى اسمك، بل إنني نسيته
فعلاً.

وسارت بسرعة نحو الباب وصاح الأمير وراءها:

- ولكنني ممنوع من دخول بيتك فعلاً، فعلاً، دون المزيد من تهديداتك.

فصاحت المسز إيبانشين مرة أخرى:

- ماذا؟ من الذي أمر بمنعك؟

- أجلايا إيفانوفنا، لقد قالت لي..

- متى، تكلم! أسرع!

- لقد أرسلت صباح أمس تقول إنني لا يجب أن أتجراً وأقترب من بيتكم مرة أخرى.

وتسمرت المسز إيبانشين في مكانها كتمثال حجري وقالت:

- ماذا؟ أرسلت إليك، ومع من؟ مع ذلك الغلام؟ أكانت رسالة، أسرع! فقال الأمير:

- أرسلت خطاباً!

- أين هو؟ أعطني إياه، حالاً.

وفكر الأمير برهة، ثم تناول من جيب صدره قصاصة ورق مكتوباً عليها بخط سريع ما يلي:

«الأمير ليو نيكولايفيتش: إذا رأيت من المناسب، بعد كل ما حدث، أن تشرفنا بالزيارة، فيمكنني أنؤكد لك بأنك لن تجد بيننا أحداً سيتهج بأية حال، برؤيتك».

أجلايا إيبانشين

وفكرت المسز إيبانشين برهة، وفي اللحظة اندفعت نحو الأمير، وأمسكت بيده، وجذبه ورائها نحو الباب، وهي تهتف لاهثة الأنفاس بالانفعال ونفاد الصبر:

- أسرع، هلم. هلم معي، في هذه اللحظة!

- ولكنك أعلنت أنني..

- لا تكن ساذجًا. إنك تتصرف كما لو أنك لست رجلًا على الإطلاق.

هلم.. لسوف أرى الآن بعيني، سوف أرى كل شيء.

- حسنًا، دعيني آت بقبعتي على الأقل.

- ها هي ذي قبعتك المسكينة... إنه لا يستطيع حتى أن يختار قبعة

محترمة المنظر. هلم. لقد فعلت أجلايا هذا لأنني كنت في جانبك وقلت

إن من الواجب أن تأتي، هذه الشيطانة الصغيرة. وإلا لما أرسلت إليك هذه

الرسالة السخيفة. إنها رسالة غير لائقة أبدًا، هكذا أسميها، لا يليق أبدًا أن

تكتبها فتاة ذكية حسنة التربية. ها! أستطيع القول إنها أساءت لأنك لم تأت.

ولكن كان ينبغي أن تعلم أن الإنسان لا يستطيع أن يرسل خطابًا كهذا لرجل

أبله مثلك؛ لأن من المؤكد أنك ستصدق ما ورد بها.

وكانت المسز إيبانشين تجر الأمير معها طيلة الوقت دون أن تدع يده

لحظة واحدة، وقد استطردت تقول:

- ما الذي ترهف من أجله السمع؟

ثم أضافت قائلة حين رأت أنها أسرفت في التحايل عليه:

- إنها تريد مهرجًا مثلك. إنها ترى منذ وقت طويل مهرجًا تلعب به.

هذا هو سر لهفتها على مجيئك إلى البيت. وإني لسعيدة جدًا إذ جعلت منك

إنسانًا مأفون التفكير! فأنت تستحق هذا، وفي مقدورها أن تفعل هذا!! إنها

تستطيع حقًا، تمامًا كما يستطيع غيرها من الناس.

